

دكتور سعيد مراد

المدخل فى
تاريخ الأديان

المدخل فى تاريخ الأديان

تاليف

الدكتور سعيد مراد

أستاذ الفلسفة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

٢٠٠٠ م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

مــدير النشــر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشـر : عين للدراســات والبحــوث الإنسانيـــة والاجتماعيـــة

- ٥ شـــارع ترعـة المريوطيـة - الهـــرم - ج.م.ع - تليـفـون ٣٨٧١٦٩٣

ص . ب ٦٥ خـــالد بن الـوليـــد بـالهــرم - رمـــز بريدى ١٢٥٦٧

Publisher: ÉIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693
P . B 65 Khalid Ben - Alwalid - Alharam P . C 12567

إهـــداء

إلى أحفادى
قرة عينى
وقرة عين أولادى
جعلهم الله من أهل الإيمان والإحسان

سعيد مراد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن دراسة تاريخ الأديان من الدراسات الهامة الشاقة والشائقة ذلك أنها تطلعنا على تطور عقيدة الجنس البشرى من ناحية ونشأة الحضارة الإنسانية وتطورها من جهة أخرى . فالدين يمثل عنصراً هاماً من عناصر الحضارة . ويَصدُق هذا خاصة على الأديان ذات الطابع الإنسانى.

وعلى الرغم من الصعوبات الكثيرة التى منها صعوبة الحصول على المصادر وكثرة الآراء وتعددها وتنوع الاتجاهات وتباينها فإنها دراسة شيقة فيها من الطرافة مايشحذ الهمم ويقوى العزائم وفيها من المعارف مايقوى إيمان أصحاب الفطر السليمة والنفوس الصافية ، وفيها كم هائل من تجارب الشعوب وخبراتها بالإضافة إلى العديد من القيم والمثل العليا التى توجه السلوك الإنسانى .

وفى هذه الدراسة حاول الباحث تحرى الموضوعية فلم يترك لعواطفه الذاتية ومعتقداته الشخصية فرصة للظهور والطغيان . كما إنه اجتهد فى أن يكون واعياً بطبيعة دراسة تاريخ الأديان فلم يخلط بين تاريخ الأديان ومقارنة الأديان .

ولأن هذه الدراسة لاتعدو أن تكون مدخلاً إلى دراسة الأديان فلم يغرق الباحث نفسه فى خوض غمار التفصيلات الدقيقة والتوسعات المطولة والتزم الباحث بالرجوع إلى المصادر والمراجع التى سطرها أصحاب كل دين وكتاب كل ملة على قدر المستطاع .

والدراسة تنقسم إلى أبواب وفصول

الباب الأول : اشتمل على مقدمات :

الفصل الأول : مفهوم الدين وقد عرض الباحث فى هذا الفصل مفهوم الدين من حيث اللغة وقد نقل حرفياً من المعاجم اللغوية حتى ولو تشابهت التعريفات والمفهوم الاصطلاحي نقلاً عن كتب المصطلح والمعاجم الفلسفية .

الفصل الثانى : نشأة الدين وتطوره وقد اشتمل هذا الفصل على رأى علماء الأنثروبولجيا والاجتماع وعلم النفس .

الباب الثانى : الديانات القديمة

الفصل الأول : الديانة المصرية القديمة .

الفصل الثانى أديان الهند .

الفصل الثالث : أديان فارس .

الفصل الرابع : أديان الصين .

وقد حاول الباحث فى كل فصل من هذه الفصول أن يعرض لكل ديانة من الديانات التى ظهرت فى هذه المناطق مبينًا سيرة مؤسس كل ديانة والكتب المقدسة فى كل ديانة والعقيدة الدينية فى كل ديانة بالإضافة إلى الجوانب الأخلاقية .

الباب الثالث : الأديان السماوية

الفصل الأول : الديانة اليهودية

الفصل الثانى : الديانة المسيحية .

وفى هذا الباب رجع الباحث إلى مصادر كل ديانة واستعان بمراجع لكتاب وعلماء من المسيحيين ولم يلجأ لمراجع كتاب مسلمين إلا فى القليل النادر وفى ذلك محاولة لتحرى الحيدة والموضوعية .

وتعمد الباحث ترك الحديث عن الإسلام لأنه أدرك أن طبيعة هذه الدراسة لاتمكنه من عرض الإسلام بالصورة التى يجب أن يكون عليها ولأنه كتب عن الإسلام أكثر من دراسة .

والباحث يؤكد أنه - والحمد لله - مسلم يعتز بإسلامه ، مؤمن بكل ما جاء به الإسلام عقيدة وشريعة . وهو لايوافق على كثير من العقائد التى وردت فى هذه الدراسة . إلا أنه طيلة هذه الدراسة لم يعلق أو يعقب أو ينتقد أى دين من الأديان على ما فى ذلك من عناء نفسى واحتمال أن يواجه من أهل دينه بالانتقادات الكثيرة . لكن فى سبيل الموضوعية والحيدة يهون كل شىء .

والله - سبحانه وتعالى - وراء القصد . وللقارىء الكريم حرية الفكر وحرية النظر فلكل قارىء شخصيته المتمايزة وعقيدته التى يؤمن بها وسوف تتعدد الرؤى وتكثر الاجتهادات والتأويلات وسينظر كل قارىء إلى الموضوع نظرة خاصة ... وبذلك تقدم مساهمة من أجل إثراء الفكر وتنشيط العقل .

والله أسأل أن يكون هذا البحث موضع تقدير من القراء الكرام .

سعيد مراد

الباب الأول

مقدمـات

الفصـــل الأول : مفـهوم الدين لغة واصطلاحًا .

الفـصل الثـانى : نشــأة الديــن وتطـــوره .

الفصل الأول
مفهوم الدين لغة واصطلاحًا

إن أول خطوة يخطوها الباحث وهو يتناول بالدراسة والبحث موضوعًا من الموضوعات أو قضية من القضايا والمشكلات هي الوقوف عند تعريف المصطلحات الخاصة بموضوع بحثه فتعريف المصطلح يعد خطوة منهجية هامة ودقيقة لاغنى للباحث عنها . ذلك أن هذا التوجه من الأصول التى كانت موضع اهتمام المفكرين العرب من أمثال : جابر بن حيان (ت ٣١٨هـ) وأبو يوسف الكندى (ت ٢٥٢ هـ) والخوارزمى ، وابن سينا (ت ٣٨٧ هـ) وأبو حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) وغيرهم كثير ، مما لايتسع المجال لحصرهم ، فإذا ما أضفنا إلى ذلك المعاجم اللغوية التى وضعت لضبط الألفاظ وتحديد المعانى ... لتأكد لنا أهمية الوقوف عند المفاهيم والحدود التى يعتمد عليها البحث المنهجى الأصيل .

أولاً ، مفهوم الدين لغة :

لقد تناولت المعاجم اللغوية لفظ (الدين) من حيث الضبط اللغوى والدلالة اللفظية .. ومن بين هذه المعاجم :

لسان العرب :

لقد قدم ابن منظور فى معجمه عدة تعريفات لغوية للدين على النحو التالى :

يقول ابن منظور : (دين) الديان من أسماء الله عز وجل معناه الحكم القاضى ، وسئل بعض السلف عن على بن أبى طالب عليه السلام فقال كان ديان هذه الأمة بعد نبيها ، أى قاضيها وحاكمها ، والديان والقهار ، والديان الله عز وجل ، والديان والقهار ، وقيل الحاكم والقاضى . وهو فعال ، من دان الناس أى قهرهم على الطاعة ، يقال دنتهم فدانوا ، أى قهرتهم فأطاعوا ، ومنه شعر الأعشى الحرمازى يخاطب سيدنا رسول الله (ﷺ) .

" يا سيد الناس وديان العرب " وفى حديث أبى طالب قال عليه السلام : أريد من قريش كلمة تدين لهم بها العرب أى تطيعهم وتخضع لهم .

والدين واحد الديون ، معروف ، وكل شىء غير حاضر دين ، والجمع أدْيُن ، مثل أعين وديون ... ودنت الرجل : أقرضته فهو مدين ومديون ... دنت الرجل أدنته ، أعطيته الدين إلى أجل قريب ..

ويقال : رأيت فلان دينه إذا رأى به سبب الموت ، ويقال : رماه الله بدينه أى بالموت لأنه دين على كل أحد ، والدين : الجزاء والمكافأة ، ودنته بفعله دينًا جزيته ، وقيل : الدين المصدر والدين الإسم ، وداينه مداينة وديانًا ، كذلك أيضًا ، ويوم الدين يوم الجزاء ، وفى المثل كما تدين تدان أى كما تجازى أى تجازى بفعلك وبحسب ماعملت ، وقيل كما تفعل يفعل بك .

ودانه دينًا أى جازاه ، وقوله تعالى ﴿ إنا لمدينون ﴾ أى مجزيون محاسبون ، ومنه الديان فى صفة الله عز وجل ، والدين : الجزاء ، وفى حديث ابن عمر ولا تسبوا السلطان فإن كان لابد فقولوا : اللهم دنهم كما يدينونا أى أجزهم بما يعاملونا به .

والدين : الحساب ومنه قوله تعالى ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وقيل معناه : مالك يوم الجزاء ، وقوله تعالى ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أى ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوى .

والدين : الطاعة . وقد دنته ودنت له أى أطعته والجمع : الأديان : يقال : دان بكذا ديانة، وتدين به فهو دين ومتدين ، ودينت الرجل تديينًا إذا وكلته إلى دينه ، والدين الإسلام وقد دنت به ، وفى حديث على عليه السلام . محبة العلماء دين يدان به .

والدين : العادة والشأن ، وتقول العرب : مازال ذلك دينى وديدنى أى عادتى .

وفى الحديث : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله . قال أبو عبيد : قوله دان نفسه أى أذلها واستعبدها ، وقيل حاسبها [١].

القاموس المحيط :

يقول الفيروزابادى : (الدين) ما له أجل كالدينة بالكسر ، وما لا أجل له فقرض ، والموت ، وكل ما ليس حاضراً .

أديُن ودُيُونٌ ودِنْتَهُ بالكسر ، وأدَنْتُهُ : أعطيته إلى آجل وأقرضته ، ودان هو أخذه ، ورجل دائن ومدين ومديون ومدان . وتشدد دانه عليه دين أو كثير ، وأدان ، وادّان ، واستدان ، وتَدَيَّنَ : أخذ دينا ، ورجل مديان : قرض كثيراً ويستقرض كثيراً .

والدين بالكسر : الجزاء ، وقد دنته بالكسر دَيْنًا وقد دنت به بالكسر : العادة والعبادة والمواظب من الأمطار أو اللين منها ، والطاعة كالدِّيْنَة بالهاء فيهما ، والذل والداء والحساب

---

١ – ابن منظور : لسان العرب مادن (دين) ، جـ١٧ ، ص ٢٤ – ٣٠ بتصرف ، الدار المصرية للتأليف والترجمة سلسلة تراثنا ، د.ت .

والقهر والغلبة والاستعلاء والسلطان والملك والحكم والسيرة والتدبير والتوحيد ، واسم لجميع ما يتعبد الله عز وجل به ، والملة والورع والمعصية والإكراه . ومن الأمطار ما يعاهد موضعًا فصار له ذلك عادة ، والحلا والقضاء ، دنّته أدينه خدمته وأحسنت إليه وملكته ، ومنه المدينة للمصر ...

والديان : القهار والقاضى والحاكم والسائس والحاسب والمجازى الذى لايضع عملاً بل يجزى بالخير والشر ، والمدين : العبد .

وفى الحديث كان النبي (ﷺ) على دين قومه : أى على ما بقى فيهم من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى حجهم ومناكحتهم وبيعوهم وأساليبهم ، وأما التوحيد فإنهم كانوا قد بدلوه ، والنبى (ﷺ) لم يكن إلا عليه .

ودان يدين : عز وذل ، وأطاع وعصى ، واعتاد خيراً أو شراً وأصابه الداء ، وفلانًا حمله على ما يكره وأدله ، ودينه تدينًا : وكلّه إلى دينه ... [١].

من كل ما سبق نستطيع أن نستخلص المعانى اللغوية للفظ الدين بمشتقاته المختلفة وهى :

الديان : اسم من أسماء الله معناه الحاكم القاضى .

الديان : القهار .

الدين : الطاعة والخضوع .

الدين : مفرد ديون ، والدين يعنى القرض .

الدين : الموت .

الدين : الجزاء والحساب .

الدين : العادة والشأن .

والناظر المدقق يجد أن هذه المعانى تمثل فى مجموعها وحدة موضوعية متداخلة كلها تؤكد على معنى الخضوع والتسليم والطاعة ، وذلك لايتحقق إلا من خلال إحساس باطنى بأنه توجد فى هذا الكون قوة واحدة حاكمة مدبرة قاضية محاسبة إليها المرجع فى كل أمر .

---

١ - الفيروزابادى : القاموس المحيط ، جـ٤ ، مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهرة ، د.ت ص.

المفردات فى غريب القرآن :

حرص الراغب الأصفهانى فى كتابه هذا أن يستقص معنى الدين من خلال شرح معانى مفردات القرآن الكريم . وقد وردت هذه المعانى جامعة للمفهوم اللغوى والمفهوم الاصطلاحى فى ذات الوقت إلا أن الدلالة اللغوية أكثر وضوحًا وأدق فهمًا حيث يقول مانصه : دين : يقال دنت الرجل : أخذت منه دينًا ، وأدنته ، جعلته دائنًا - وذلك بأن تعطيه دينًا ، قال أبو عبيدة: دنته : أقرضته ، ورجل مدين ومديون . ودنته : استقرضت منه ، وأدنت مثل دنت ، وأدنت أى أقرضت .

والتداين والمداينة : دفع الدين . قال تعالى ﴿ إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى ﴾ ، ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ .

والدين : يقال للطاعة والجزاء ، واستعير للشريعة والدين كالملة - لكنه يقال اعتبارًا بالطاعة والانقياد للشريعة . قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ . ﴿ ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ أى طاعة ﴿ وأخلصوا دينهم ﴾ ﴿ يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ﴾ - وذلك حث على اتباع دين النبى (ﷺ) الذى هو أوسط الأديان .

كما قال : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ وقوله : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ قيل : يعنى الطاعة - فإن ذلك لايكون فى الحقيقة إلا بالإخلاص . والإخلاص لا يتأتى فيه الإكراه .

وقيل : إن ذلك مختص بأهل الكتاب الباذلين للجزية .

وقوله تعالى : ﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ يعنى الإسلام ، لقوله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ﴾ وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ﴾ وقوله : ﴿ ولايدينون دين الحق ﴾ وقوله : ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾.

﴿ فلو لا إن كنتم غير مدينين ﴾ أى غير مجزيين .

والدين والمدينة : العبد والأمة . قال أبو زيد : أهو من قولهم دين فلان يدان : إذا حمل على مكروه وقيل : هو من دنته إذا جازيته على طاعته .

وجعل بعضهم المدينة من هذا الباب [١]

---

١ - الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن ، إعداد د.محمد خلف الله ، الأنجلو المصرية ١٩٧٠، ص ٢٥٣ .

والواضح أن الغالب على الراغب فى مفرداته ربط معنى الدين بالإسلام وهذا أمر طبيعى لأنه يتناول مفردات غريب القرآن .

كتاب الكليات :

لقد سلك أبو البقاء فى كتابه مسلكًا آخر حيث عرض للمفهوم من حيث اللغة ثم من حيث الاصطلاح وربط بين الدين والملة والمذهب والشريعة . ونص قوله فى مفهوم الدين (" الدين بالكسر ، فى اللغة العادة مطلقًا ، وهو أوسع مجالاً ، يطلق على الحق والباطل ... ويشمل أصول الشرائع وفروعها ، لأنه عبارة عن وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات ، (قلبيًا كان أو قالبيًا) . كالاعتقاد والعلم والصلاة .

وقد يتجوز فيه فيطلق على الأصول خاصة فيكون بمعنى الملة ، وعليه قوله تعالى : ﴿دينًا قيمًا ملة إبراهيم﴾ الأنعام : ١٦١ .

وقد يتجوز فيه أيضًا فيطلق على الفروع خاصة ، وعليه (ذلك دين القَيِّمَة) . البينة ٥، أى الملة القيمة يعنى فروع هذه الأصول .

والدين منسوب إلى الله تعالى ، والملة إلى الرسول ، والمذهب إلى المجتهد .

والملة : اسم ما شرعه الله لعباده على لسان نبيه ليتوصلوا به إلى أجل ثوابه . والدين مثلها ، لكن الملة تقال باعتبار الدعاء إليه ، والدين باعتبار الطاعة والانقياد له .

والملة : الطريقة أيضًا ، ثم نقلت إلى أصول الشرائع ، من حيث أن الأنبياء يعملونها ويسلكونها ، ويسلكها من أمروا بإرشادهم بالنظر إلى الأصل ، وبهذا الاعتبار لاتضاف إلا إلى النبى الذى تستند إليه ولاتكاد توجد مضافة إلى الله تعالى ، ولا إلى آحاد أمة النبى ، ولا تستعمل : إلاّ فى جملته الشرائع دون آحادها فلا يقال : ملة الله ، ولا ملتى ، ولا ملة زيد، كما يقال دين الله ، ودينى ، ودين زيد ، ولايقال الصلاة ملة الله .

والشريعة : تضاف إلى الله والنبى والأمة ، وهى من حيث إنها يُطاع بها تسمى دينًا ، ومن حيث إنها يجتمع عليها تسمى ملة . وكثيراً ما تستعمل هذه الألفاظ بعضها مكان بعض، ولهذا قيل إنها متحدة بالذات ومتغايرة بالاعتبار ، إذ إن الطريقة المخصوصة الثابتة عن النبى تسمى بالإيمان من حيث إنه واجب الإذعان ، وبالإسلام من حيث بإنه واجب التسليم، وبالدين من حيث إنه يجزى به ، وبالملة من حيث إنه مما يملى ويكتب ويجتمع عليه ،

وبالشريعة من حيث إنه يرد على زلال كما يرد له المتعطشون ، وبالناموس من حيث إنه أتى به الملك الذى هو الناموس وهو جبريل عليه السلام .

والدين : الجزاء ومن الأول فى دناهم كما دانوا . والثانى فى : كما تدين تدان .

ودان له : أطاع ﴿ ومن أحسن دينا ﴾ النساء : ١٢٥ .

ودانه : أجزاه أو ملكه أو أقرضه .

ودانه دينا : أذله واستبعده . وفى الحديث : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

ويكون بمعنى القضاء نحو : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ﴾ النور : ٢ أى فى قضائه وحكمه وشريعته .

وبمعنى الحال : سئل بعض الأعراب فقال : لوكنت على دين غيره لأجبتك ، أى على حال غيره [1].

بهذا العرض لما ورد فى كل من لسان العرب والقاموس المحيط ومفردات غريب القرآن والكليات . نكون قد وقفنا على المفهوم اللغوى للدين ، بقى أن نتعرف على المفهوم الاصطلاحى .

المفهوم الاصطلاحى :

هل يمكن فصل الدلالة الاصطلاحية عن الدلالة اللغوية ؟ إن العلاقة بين المفهوم الاصطلاحى والمفهوم اللغوى علاقة وطيدة ، فالمفهوم الاصطلاحى يعتمد على بعض المفاهيم اللغوية للألفاظ والحدود ولايمكن فصل الدلالة الاصطلاحية عن الدلالة اللغوية بحال من الأحوال فالاصطلاح معنى للفظ يحتمله لغة .

ولقد عرف العلماء العرب علم المصطلح أو علم الدلالة فى أواخر القرن الثانى الهجرى حين وجه أبو عبيدة عنايته إلى شرح ألفاظ القرآن وتفسيرها فى كتابة " مجاز القرآن " وقد فتح ذلك بابًا كان مغلقًا فتبعه كثيرين منهم ممن عرض لمفهوم الدين اصطلاحًا .

---

١ - أبو البقاء : الكليات ، جـ٢ ، تحقيق : د. عدنان درويش ومحمد المصرى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، دمشق سنة ١٩٨٢ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٩ .

جابر بن حيان فى كتابه " الحدود " :

يقول جابر : إن حد علم الدين أنه صور يتحلى بها العقل استعملها فيما يرجى الانتفاع به بعد الموت .

وحد العلم الشرعى إنه العلم المقصود به أفضل السياسات النافعة ، دينا ودنيا ، لما كان من منافع الدنيا نافعًا بعد الموت [١] .

والملاحظ هنا أن جابر لايعرف الدين وإنما يعرف علم الدين إلا أننا نستطيع أن نتعرف على المقصود من الدين وهو الطاعة والتسليم والعمل بالشريعة وأيضًا معنى الجزاء والحساب .

التعريفات للجرجانى :

يقول الجرجانى : الدين وضع إلهى يدعو أصحاب العقول إلى قبول ماهو عند الرسول(ﷺ) .

الدين والملة : متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار ، فإن الشريعة من حيث أنها تطاع تسمى دينا ، ومن حيث أنها تجمع تسمى ملة ، ومن حيث أنها يرجع إليها تسمى مذهبًا ، وقيل الفرق بين الدين والملة والمذهب أن الدين منسوب إلى الله تعالى ، والملة منسوبة إلى الرسول ، والمذهب منسوب إلى المجتهد [٢].

كتاب كشاف اصطلاحات الفنون :

يرى التهانوى إن الدين وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل ، وهذا يشتمل العقائد والأعمال ويطلق على كل ملة كل نبى ، وقد خص الدين بالإسلام ، كما قال الله تعالى ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ، ويضاف إلى الله تعالى لصدوره عنه ، وإلى النبى (ﷺ) لظهوره منه ، وإلى الأمة لتدينهم وانقيادهم ، وربما سمى الشرع أيضًا بالدين والملة فإن الأحكام التى شرعها الله تعالى لعباده من حيث أنها تطاع : دين ، ومن حيث أنها مشروعة : شرع ، فالتفاوت بينها بحسب الاعتبار ، لا بالذات ، إلا أن

---

١ - جابر بن حيان : كتاب الحدود ، تحقيق د. عبد الأمير الأعسم ، ضمن كتاب ، المصطلح الفلسفى عند العرب ، هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٨٩ ص ١٧٠ ، ١٧١ .

٢ - الجرجانى : التعريفات ، دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٩٨٣ ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

الشريعة والملة تضافان إلى النبى عليه السلام ، وإلى الأمة فقط استعمالاً ، والدين يضاف إلى الله تعالى أيضًا وقد يعبر عنه بعبارة أخرى فيقال : هو وضع يسوق ذوى العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات وهو ما يصلحهم فى معاشهم ومعادهم ، فإن الوضع الإلهى هو الأحكام التى جاء بها نبى من الأنبياء ... وقد يختص الشرع بالأحكام العملية الفرعية ، أما الشريعة فإنها الأئتمار بالتزام العبودية ، وقيل هى الطريق فى الدين ، وحينئذ الشرع والشريعة مترادفان (١).

كتاب فصوص الحكم :

يقدم ابن عربى ثلاثة مفاهيم لغوية للدين هى :

أ- الدين : بمعنى الجزاء : يقول ابن عربى : (الدين جزاء أى معارضة بما يسر وبما لايسر : فيما يسر " رضى الله عنهم ورضوا عنه " هذا جزاء بما يسر ، " ومن يظلم منكم نذقه عذابًا كبيراً " هذا جزاء بما لايسر (ونتجاوز عن سيئاتهم) هذا جزاء أفصح أن الدين هو الجزاء (٢).

ب - الدين بمعنى الانقياد : يقول محى الدين بن عربى : وجاء الدين بالألف واللام للتعريف والعهد ، فهو دين معلوم معروف وهو قوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ وهو الانقياد . فالدين عبارة عن انقيادك ... فمن اتصف بالانقياد لما شرعه الله له فذاك الذى قام بالدين وأقامه ، أى أنشأه كما يقيم كما يقيم الصلاة فالعبد هو المنشىء للدين والحق هو الواضع للأحكام ، فالانقياد هو عين فعلك ، فالدين من فعلك(٣).

الدين بمعنى العادة :

يقو ابن عربى ... شرح الدين بالعادة ، لأنه عاد عليه ما يقتضيه ويطلبه حاله : فالدين العادة . ومعقول العادة أن يعود الأمر بعينه إلى حاله ، ومن ثم فإن العادة تكرار (٤).

هذا عن المعانى الثلاثة (للدين) من حيث اللغة عند ابن عربى إلا أنه لم يتوقف عند ذلك. بل قسم الدين من الوجهة الشرعية دينين .

---

١ - التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون . جـ ٣ . القاهرة ، ص ١١٠ .

٢ - محيى الدين بن عربى : فصوص الحم ، دار الفكر العربى ، جـ١ ، ص ٩٦ .

٣ - المرجع السابق ، ص ٩٤ .

٤ - نفس المرجع : ص ٩٧ .

دين عند الله ودين عند الخلق .

أ - الدين عند الله : هو الشرع الإلهى الذى أنزله على أنبيائه .

ب - الدين الذى عند الخلق : هى النواميس التى لم يرسل بها الله رسولاً بل سنها الخلق ، فلما وافقت الحكم الإلهى اعتبرها الله اعتبار ما شرعه كالرهبانية .

يبين ذلك قوله :

الدين دينان : دين عند الله وعند من عرفه الحق تعالى ومن عرف من عرفه الحق فالدين الذى عند الله هو الذى اصطفاه الله وأعطاه الرتبة العليا على دين الخلق وهو قوله تعالى ﴿إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [١].

أما القسم الثانى : الدين الذى عند الخلق الذى اعتبره الله ، يقول ابن عربى : فالدين كله لله وكله منك لامنه إلا بحكم الأصالة قال الله تعالى ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ وهى النواميس الحكيمة التى لم يجىء الرسول المعلوم بها فى العامة من عند الله بالطريقة الخاصة المعلومة فى العرف ، فلما وافقت الحكمة والمصلحة الظاهرة فيها الحكم الإلهى فى المقصود بالوضع المشروع الإلهى ، اعتبرها الله اعتبار ما شرعه من عنده تعالى [٢].

هذا إجمال ما ذكره ابن عربى فى كتابه « فصوص الحكم» . فماذا قال فى الفتوحات المكية .

كتاب الفتوحات المكية :

يقدم ابن عربى فى فتوحاته تفسيراً لقوله تعالى : ﴿ ملك يوم الدين ﴾ فيقول : إن الملك (هو) من صح له الملك بطريق الملك .. والملك ، على الحقيقة هو الحق تعالى المالك للكل ومصرفه .

ويوم الدين) يوم الجزاء [٣].

---

١ - المرجع السابق ص ٩٤ .

٢ - المرجع نفسه : ص ٩٥ .

٣ - ابن عربى : الفتوحات المكية ، تحقيق وتقديم د. عثمان يحيى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، جـ١ ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، جـ٢ ص ٨٤ ، جـ٦ ، ص ١٨٧ .

وقد شرح قوله عز وجل ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ فقال : هو الدين المستخلص من أيدى ربوبية الأكوان [١].

تلك هى بعض التعريفات الاصطلاحية التى ورد ذكرها فى كتب المصطلح ، فإذا ما انتقلنا للبحث عن مفهوم الدين فى المعاجم الفلسفية وجدناها تتفق فى بعض المعانى والمفاهيم التى وردت فى معاجم اللغة أو كتب المصطلح وفى ذات الوقت تنفرد برؤية فلسفية خاصة ومن هذه المعاجم :

المعجم الفلسفى لمجمع اللغة العربية :

دين : Religion (F) Religion (E)

أ - مجموعة معتقدات وعبادات مقدسة تؤمن بها جماعة معينة ، يسد حاجة الفرد والمجتمع على السواء ، أساسه الوجدان وللعقل مجال فيه .

ب - الدين والملة متحدان بالذات ، ومختلفان بالاعتبار ، فالشريعة من حيث تطاع تسمى دينًا ، ومن حيث تجمع الناس تسمى ملة .

قال الفارابى : الدين والملة يكادان يكونان اسمين مترادفين . (كتاب الملة ، بيروت ١٩٦٨)[٢].

المعجم الفلسفى لجميل صليبا :

الدين : Religion

الدين فى اللغة : العادة ، والحال ، والسيرة ، والسياسة ، والرأى ، والحكم ، والطاعة ، والجزاء ، ومنه مالك يوم الدين ، وكما تدين تدان .

ويطلق الدين عند فلاسفتنا القدماء على وضع إلهى يسوق ذوى العقول إلى الخير ، والفرق بين الدين والملة والمذهب ، أن الشريعة من حيث أنها مطاعة تسمى دينًا ، ومن حيث أنها جامعة تسمى ملة ، ومن حيث أنها يرجع إليها تسمى مذهبًا ، وقيل : الفرق بين الدين ، والملة، والمذهب ، أن الدين منسوب أى الله تعالى ، والملة منسوبة إلى الرسول ، والمذهب

---

١ - المرجع السابق جـ ١٤ ، ص ٣٢٧ .

٢ - مجمع اللغة العربية ، المعجم الفلسفى ، ص ٨٦ .

منسوب إلى المجتهد ، وكثيراً ما تستعمل هذه الألفاظ بعضها مكان بعض ، ولهذا قيل إنها متحدة بالذات ، ومتغايرة بالاعتبار . ويطلق لفظ الدين أيضًا على الشريعة وهى السنة أى ماشرعه الله لعباده من السنن والأحكام .

وللفظ الدين فى الفسلفة الحديثة عدة معان :

الدين جملة من الإدراكات والاعتقادات والأفعال الحاصلة للنفس من جراء حبها لله ، وعبادتها إياه وطاعتها لأوامره .

والدين أيضًا هو الإيمان بالقيم المطلقة والعمل بها ، كالإيمان بالعلم ، أو الإيمان بالتقدم ، أو الإيمان بالجمال ، أو الإيمان بالإنسانية ، ففضل المؤمن بهذه القيم كفضل المتعبد الذى يحب خالقه ويعمل بما شرعه ، لا فضل لأحدهما على الآخر إلا بما يتصف به من تجرد ، وحب وإخلاص ، وإنكار للذات .

والدين الطبيعى : Religion naturelle

اصلاح أطلق فى القرن الثامن عشر على الاعتقاد بوجود الله وخيريته ، وبروحانية النفس وخلودها ، وبإلزامية فعل الخير من جهة ماهو ناشىء عن وحى الضمير ونور العقل . والفرق بين هذا الدين الطبيعى والدين الوضعى (Religion Positive) أن الأول قائم على وحى الضمير والعقل على حين أن الثانى قائم على وحى إلهى يقبله الإنسان من الأنبياء والرسل .

وإذا أطلق لفظ الدين على الملة دل على جماعة معينة من الناس هدفها تمجيد الله وعبادته، كالدين المسيحى ، فهو ملة ذات نظام خاص ، لها قوانينها وتقاليدها وتعاليمها .

والدين أيضًا مؤسسة اجتماعية تضم أفراداً يتحلون بالصفات الآتية :

أ - قبولهم بعض الأحكام المشتركة وقيامهم ببعض الشعائر.

ب - إيمانهم بقيم مطلقة وحرصهم على تأكيد هذا الإيمان وحفظه .

جـ اعتقادهم أن الإنسان متصل بقوة روحية أعلى منه مفارقة لهذا العالم أو سارية فيه ، كثيرة أو موحدة .

ومن معانى الدين عند الفيلسوف الاجتماعى (دوركايم) أنه مؤسسة اجتماعية قوامها التفريق بين المقدس وغير المقدس ، ولها جانبان : أحدهما روحى مؤلف من العقائد والمشاعر الوجدانية والآخر مادى مؤلف من الطقوس والعادات[١].

المعجم الفلسفى ليوسف كرم ومراد وهبه :

يقدم هذا المعجم عدة تعريفات تتناول الدين ، وتاريخ الأديان ، وفلسفة الدين على النحو التالى :

الدين : Religion

يعبر عن المطلق فى إطلاقه وعن المحدود فى محدوديته ، وعن العلاقة بينهما ، ولهذا يتصف أى دين . بما يأتى :

أ - ممارسة شعائر وطقوس معينة .

ب - الاعتقاد فى قيمة مطلقة لاتعدلها أية قيمة أخرى .

جـ - ارتباط الفرد بقوة روحية عليا . وقد تكون هذه القوة متكثرة أو أحادية .

ويمكن دراسة الدين بالعقل من زوايا متعددة على النحو الآتى :

تاريخ الأديان : Histoire des Religions

التمييز بين عقيدة التوحيد وعقيدة تعدد الآلهة ، بين الأديان البدائية والأديان العصرية .

فلسفة الدين : Philosophie de la Religion

التفكير الإنسانى ، ماهية الدين ، وحقيقته وطبيعة البشر ، ومشكلة الكفاية ، ومصير النفس الإنسانية .

سيكلوجية الدين : Psychologie de la Religion

دراسة الشعور الدينى الفردى والجماعى مضمونه وظاهره .

سوسيولوجيا الدين : Sociologie de la Religion دراسة الطابع الاجتماعى للدين والطقوس المرئية والشعائر العامة .

---

١ - جميل صليبا : المعجم الفلسفى جـ ١ ، دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٧١ ، ص ٥٧٢ ، ٥٧٣ .

دين طبيعى : Religion naturelle & Natural Religion

ظهر هذا الاصطلاح فى القرن الثامن عشر ، ويدور على الإيمان بوجود الله وخلود الروح وعلى انتفاء الوحى [١].

المعجم الفلسفى لعبد المنعم الحفنى :

دين : (Religio) و(Religion)

فى اللغة : العادة ، ويطلق بمعنى أوسع على الحق والباطل أيضًا ، ويشمل أصول الشرائع وفروعها ، لأنه عبارة عن وضع إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات، وقد يتجوز فيه فيطلق على الأصول خاصة فيكون بمعنى الملة ، وقد يتجوز فيه أيضًا فيطلق على الفروع خاصة ، يعنى فروع هذه الأصول .

والفرق بين الدين والملة والمذهب ، أن الدين منسوب إلى الله ، والملة إلى الرسول ، والمذهب إلى المجتهد ، والشريعة تضاف إلى الله والنبى والأمة ، وهى من حيث أنها يطاع بها تسمى دينًا ، ومن حيث أنها يجتمع عليها تسمى ملة ، وكثيراً ما تستعمل هذه الألفاظ بعضها مكان بعض ، ولهذا قيل أنها متحدة بالذات ومتغايرة بالاعتبار .

دين طبيعى : Natural Religion

لا يؤمن بالبعث ولا بالحساب ، ولكن دعاته مع ذلك لايجحدون الإله كلية ، وإن كانوا يحلون محل الإله فوق الطبيعى إلهًا طبيعيًا هو الإنسانية ، حيث يدين الإنسان الفرد بحياته ووجوده للإنسانية سواء من ناحية استمراره البيولوجى أوثقافته . وكذلك فإن البشرية تحتاج لهذا الإنسان الفرد ، بعكس الإله فى الديانات الكتابية حيث هو الغنى عن عباده ، ويصف كونت تعبئة الإنسان لقدراته بهدف تحقيق غايات مثالية علمية أو اجتماعية أو فنية بأنها تجربة لها طبيعتها الدينية التى لاتختلف فى نوعها عن التجارب الدينية الأخرى وإن تباينت عنها فى الكيف [٢] .

---

١ – يوسف كرم ، مراد وهبه : المعجم الفلسفى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، سنة ١٩٧٩ ، ص ٢٩٩.

٢ – د. عبد المنعم الحفنى : المعجم الفلسفى ، الدار الشرقية ، سنة ١٩٩٠ ، ص ١٢٣ ، ١٢٤

المعجم الفلسفي المختصر :

هذا المعجم يتناول مفهوم الدين من منظور اجتماعي ومن منطلق رؤية ماركسية وضعية حيث يقول :

" الدين شكل من أشكال الوعي الاجتماعي : انعكاس أسطوري غيبي للقوى الطبيعية والاجتماعية المسيطرة على الإنسان تكتسب فيه القوى الدنيوية صيغة قوى غيبية خارقة .

والدين : منظومة من التصورات والأمزجة والأفعال ، متسقة إلى هذا الحد أو ذاك ، وتشكل التصورات والأفكار الدينية العنصر الميثولوجي فى الدين : جملة الأساطير الخاصة بالآلهة والجن . وعلاقتها بالعالم والإنسان ، وتنتسب الأمزجة الدينية إلى ميدان الحس الديني، الذى يتسم بالازدواجية : فهو من جهة ، يعبر عن ضعف الإنسان وعجزه وجزعه ، وهو من جهة أخرى ، شعور بالأمل ، لاباالاتكال ، يتحول أحيانًا إلى لون من النشوة والعصبية الدينيين ، وتنتسب الأفعال الدينية إلى ميدان العبادة الدينية ، الذى يضم مختلف الطقوس والشعائر الدينية مثل تقديم القرابين ، والصلوات ، وغيرها ، ويشكل الإيمان بعالم الغيب محور أي دين ولبه ، ويظهر الدين حصيلة عجز الإنسان فى مواجهة القوى الطبيعية والاجتماعية الغاشمة ، التى تضطهده، وللدين جذوره المعرفية والاجتماعية . أما جذوره المعرفية فتكمن فى إمكانية انفصال الخيال البشرى عن الواقع ، إمكانية تشوه العلاقات الواقعية فى مجرى معرفتها ، وجذور الدين الاجتماعية هى الظروف الموضعية للحياة الاجتماعية ، التى تؤدى إلى استيعاب الواقع استيعابًا خرافيًا "[١].

هذا ماجاء فى العديد من المعاجم الفلسفية التى استندت فى كثير من تعريفاتها إلى المفهوم اللغوى بالإضافة إلى بعض التعريفات الفلسفية التى قال بها بعض فلاسفة الغرب المحدثين .

ثالثًا : رأى فلاسفة الغرب حول الدين مفهومه ووظيفته :

يقدم الغربيون تعبيرات شتى عند تناولهم موضوع الدين . وقد دارت مناقشات عديدة حول مفهوم الدين وطبيعته ، وتقديم التجربة الدينية وظهرت تعبيرات الديانة الطبيعية والديانة الوضعية وعلاقة الدين بالمجتمع إلى غير ذلك من التعبيرات . ومن أهم التعريفات التى وردت فى مؤلفات هؤلاء الغربيون :

---

١ - المعجم الفلسفي المختصر : دار التقدم . موسكو ، سنة ١٩٨٦ ، ص ٢٢٧ .

يقول شيشرون فى كتابه عن القوانين : " الدين هو الرباط الذى يصل الإنسان بالله " [١] .

ويرى هوبز : أن الدين ظاهرة اجتماعية لذلك فهو مذهب فى القانون لامذهب عن الحقيقة . يقول فى ذلك أن الدين ليس فلسفة بل هو قانون والإنسان فى نظر هوبز هو وحده الحيوان المتدين ، فلادين لدى الكائنات الأخرى . وإذا كانت (ثمرات الدين) لاتوجد إلا عند الإنسان، فإن بذور الدين لاتوجد أيضًا إلا عند الإنسان دون الحيوان .

ويذهب هوبز إلى أن هناك نوعين من الدين : الأول الوثنى أو البدائى أو الخرافة بصفة عامة.

الثانى ، الدين الحق أو المنزل أو الموحى به ، لكن الأساس واحد لكليهما فى الطبيعة البشرية ويقصد بذلك البذور الطبيعية . يقول هوبز الخوف من القوى غير الرئية التى اختلقها الذهن البشرى أو تخيلها من الحكايات المشروعة علنًا هو الدين فإن كانت غير مشروعة فهو الخرافة ، وعندما تكون القوة المتخيلة هى حقًا كما تخيلناها فإن ذلك يكون الدين الحق [٢].

أما أوجست كونت فقد قدم تفسيراً للدين . وجعل الدين الوضعى أو عبادة الإنسانية أساس التفسير الدينى للتجربة الإنسانية ، فالدين فى نظر كونت ، يعتبر أساسًا جوهريًا فى قيام المجتمع الإنسانى وعلى هذا فكلمة دين عند كونت تفقد معناها السامى المعروف فى جميع الديانات ولاتدل فى فلسفته إلا على اتحاد الأفراد فى الحب والانسجام التام بين العقل والقلب . والدين الوضعى فى نظره هو دين الإنسانية . لأنها الحقيقة المجردة السامية التى يجب أن نتجه إليها بكل قلوبنا وعقولنا ، ونتوفر عليها بالتقديس والعبادة فكأن فكرة الإنسانية عند كونت تحل محل فكرة الله فى الأديان الراقية المعروفة والعقيدة الأساسية فى هذا الدين الجديد هى أن يفهم الإنسان مركزه فى العالم وفى الإنسانية ، ولابد إذن أن تطغى العاطفة على العقل فتتلاشى الفردية ويحل مبدأ "عش للغير" محل الأنانية والذاتية الشخصية ويأمل كونت أنه فى ظل مذهبه الدينى الجديد تحقق الإنسانية وحدتها وكمالها وسموها [٣].

---

١ - د. محمد عبد الله دراز : الدين - بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، مطبعة السعادة ، القاهرة سنة ١٩٦٩ ص٢٦ .

٢ - د. إمام عبد الفتاح : توماس هوبز ، دار الثقافة ، سنة ١٩٨٥ ص ٤٠١ - ٤٠٨ .

٣ - د. مصطفى الخشاب ، أوجست كونت ، مطبعة لجنة البيان العربى، الطبعة الأولى . ص١٤٠-١٤٥.

ويقدم كانط تفسيراً أخلاقيًا للدين ويضع الدين الأخلاقى على رأس تفسيره للظاهرة الدينية . يتضح ذلك من خلال هدفه الذى حدده فى كتابه الدين فى حدود العقل وحده ، فهو يرى أن الهدف هو فحص الوحى من حيث أنه نسق تاريخى على ضوء مفاهيم أخلاقية وهو فى هذا يعد امتداداً طبيعيًا لعصر التنوير الذى يمتاز بالفردية والإعلاء من شأن العقل . وأصبح الاتجاه السائد هو : أنه ليس هناك فرق بين الأخلاق والدين وأن حقيقة الدين لايمكن تحديدها وفقًا لمعايير نظرية خالصة ، بل يجب النظر إلى أثره الأخلاقى .

ولذلك ذهب اسبينوزا إلى أن الإيمان مرهون بالعمل لا بالنظر ، أنه يتطلب عقائد صحيحة[١] . وفى سياق المضمون ذاته تأتى رؤية كانط التى تأثرت كثيراً بآراء هؤلاء الذين اهتموا بالعمل والأخلاق أكثر من اهتمامهم بالصياغات النظرية للدين . وقد أكد كانط على أن الدين الأخلاقى هو الأساس فى توثيق العلاقة بين الإنسان والله ، أو بين الإنسان والمثل الأخلاقى الأعلى ، يقول كانط : " إن الغرض النهائى من قراءة الكتب المقدسة أو فحص مضمونها هو جعل الناس أخياراً " . ومرة أخرى يقول : " إن الرقى الأخلاقى هو ما يؤلف الغاية الحقيقية لكل دين وذلك فى حدود العقل إنه يتضمن المبدأ الأعلى لكل تفسير للكتب الدينية ، فهذا الدين هو روح الله الذى يقودنا إلى كل حقيقة ، وهو فى تعليمنا يزودنا أيضًا بمبادىء الفعل ويخضع ما يتضمنه الكتاب المقدس من إيمان كنسى لقواعد ودوافع إيمان أخلاقى خالص يؤلف وحدة الدين الحقيقى فى كل إيمان كنسى ، وكل بحث وتفسير للكتاب المقدس ينبغى أن يرتكز منذ البداية على بحث عن هذه الروح بداخله" [٢]. لكل ما تقدم نستطيع القول بأن كانط جعل الدين مذهبًا فى الواجبات نحو الله ، وأن الأخلاق بوصفها فلسفة عملية محضة للتشريع الباطن لاتتناول إلا العلاقات الأخلاقية بين الإنسان والإنسان .

ويقدم هيجل مفهومًا جديداً للدين فيقول : " إنه الوعى الذاتى بالروح المطلق على نحو ما يتصوره أو يتمثله الروح المتناهى " ، ومعنى هذا أن الشعور الدينى تعبير عن المعرفة التى تتوافر لدى الروح عن ذاته ، إنه يرى أن الوعى الدينى يمثل معرفة مطلقة بالروح [٣].

---

١ - د. محمود سيد أحمد : مفهوم الغائية عند كانط . دار الثقافة ، سنة ١٩٨٨ ، ص ١٦٥ - ١٦٨ .

٢ - Kant : Religion Within The Limits Of Reason Alone. pp. 100-105 .

٣ - د. زكريا إبراهيم : هيجل أو المثالية المطلقة ، مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٧٩ . ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٦٩٤ .

ويفسر هيجل نشأة الدين وتطوره على أساس أن الدين مرحلة ضرورية فى التطور الجدلى للروح ، فإنه ينتج من ذلك أن وجود الدين ليس محض صدفة ، وليس وسيلة بشرية خالصة وإنما هو عمل ضرورى من أعمال العقل فى العالم وهو تجل ضرورى حقيقى وصحيح للمطلق وهذا ما يؤكده فى تعريفه للدين بوجه عام ويذهب إلى أن الدين عبارة عن تجل للمطلق فى إطار الفكر التصورى ، وقد مر الدين بثلاث مراحل كبرى هى :

١ - الديانة الطبيعية : ويضع تحت هذا العنوان جميع تلك الديانات التى لم تستطع فيها الروح السيطرة بعد على الطبيعة .

٢ - ديانة الفردية الروحية : فى هذه الديانة أو فى تلك المرحلة نرى أن الله لم يعد جوهر بل ذاتًا أو روحًا وسوف نصل فى هذه المرحلة إلى الإله الشخصى " ... فسوف تكون ماهية الإله ذاتها هى الشخصية فالله الآن هو الروح على وجه التحديد" .

٣ - الديانة المطلقة أو المسيحية : ومضمون هذه الديانة حسب تعبير هيجل هو الحق المطلق[1].

هذه جملة من آراء فلاسفة الغرب . ومن التعريفات التى قال بها الغربيون أيضًا تلك التعريفات التى أوردها الدكتور محمد عبد الله دراز وهى :

١ - يقول شلاير ماخر فى (مقالات عن الديانة) قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة .

٢ - يقول الأب شاتل فى كتاب (قانون الإنسانية) الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق ، واجبات الإنسان نحو الله ، واجباته نحو الجماعة ، واجباته نحو نفسه .

٣ - يقول روبرت سبنسر ، فى خاتمة كتابه (المبادىء الأولية) الإيمان بقوة لايمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية ، هو العنصر الرئيسى فى الدين .

٤ - يقول تايلور فى كتابه (الديانات البدائية) الدين هو الإيمان بكائنات روحية .

٥ - يقول ماكس ملر ، فى كتابه (نشأة الدين ونموه) الدين هو محاولة تصور ما لايمكن تصوره والتعبير عما لايمكن التعبير عنه ، هو التطلع إلى اللانهائى ، هو حب الله .

---

١ - د. ولتر ستيس ، فلسفة هيجل ، ترجمة د. إمام عبد الفتاح ، دار الثقافة سنة ١٩٨٠ ، ص ٦٥٩ - ٦٩٤ .

٦ - يقول إميل برنوف فى (علم الديانات) الدين هو العبادة ، والعبادة عمل مزدوج فهى عمل عقلى به يعترف الإنسان بقوة سامية ، وعمل قلبى أو انعطاف محبة يتوجه به إلى رحمة تلك القوة .

٧ - يقول ريفيل فى (مقدمة تاريخ الأديان) الدين هو توجيه الإنسان سلوكه وفقًا لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم ويطيب له أن يشعر باتصاله بها .

٨ - قول جويو ، فى كتاب (لادينية المستقبل) الديانة هى تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الإنسانية والشعور الدينى هو الشعور بتبعيتنا لمشيئات أخرى يركزها الإنسان البدائى فى الكون .

٩ - يقول ميشيل مايير فى كتاب (تعاليم خلقية ودينية) الدين هو جملة العقائد والوصايا التى يجب أن توجهنا فى سلوكنا مع الله ومع الناس وفى حق أنفسنا .

١٠ - يقول سلفان بيرسيه فى كتاب (العلم والديانات) الدين هو الجانب المثالى فى الحياة الإنسانية .

١١ - يقول سالومون ريناك فى (التاريخ العام للديانات) الدين هو مجموعة التورعات التى تقف حاجزاً أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا .

١٢ - يقول إميل دوركايم فى (الصور الأولية للحياة الدينية) الدين مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة (أى المعزولة المحرومة) اعتقادات وأعمال تضم اتباعها فى وحدة معنوية تسمى الملة (١).

إن هذه التعريفات تضيق وتتسع إلا أنها تدور فى معظمها على محور واحد هو الاعتقاد فى معبود واحد يستحق الطاعة ويستوجب الخضوع له والامتثال لأوامره .

رابعًا موقف علماء التحليل النفسى من الدين :

إذا ما انتقلنا إلى موقف علماء التحليل النفسى من الدين نجد أن «أريك فروم» يقدم لنا مناقشة مستفيضة لمشكلة (الدين والتحليل النفسى) ويبدأ مناقشته لهذه المشكلة بعرض جهود كل من "فرويد" و "يونج" فى مجال التحليل النفسى ومشكلة الدين على النحو التالى :

---

١ - د. محمد عبد الله دراز ، الدين ، دراسات ممهدة ، ص ٢٩ - ٣٢ .

أ - فرويد : يقول فرويد فى كتابه (مستقبل وهم) إن الدين ينبع من عجز الإنسان فى مواجهة قوى الطبيعة فى الخارج ، والقوى الغريزية داخل نفسه . وينشأ الدين فى مرحلة مبكرة من التطور الإنسانى عندما لم يكن الإنسان يستطيع أن يستخدم عقله بعد فى التصدى لهذه القوى الخارجية والداخلية . وبناء عليه يكون الدين فى رأى فرويد تكرار لتجربة الطفل ، ويتعامل الإنسان مع القوى المهددة له بنفس الطريقة التى تعلم بها وهو طفل أن يتعامل مع شعوره بعدم الأمان . وعلى هذا يعتبر الدين وهمًا بل يذهب فرويد إلى أبعد من ذلك فيقول إن الدين خطر لأنه يميل إلى تقديس مؤسسات إنسانية سيئة تحالف معها على مر التاريخ ، وفضلاً عن ذلك ، فإن ما يقوم به الدين من تعليم الناس الاعتقاد فى وهم ، وتحريم التفكير النقدى يجعله مسئولاً عما أصاب العقل من إملاق[1] وينتهى فرويد بنقده للدين إلى نقطة أخرى تتعلق بالأخلاق فهو يرى أن الدين يضع (الأخلاقية) على أسس مهزوزة أشد الاهتزاز فإذا كانت صحة المعايير الأخلاقية تستند إلى كونها أوامر الله ، فإن مستقبل الأخلاق ينهض أو يتداعى مع الاعتقاد فى الله ، ولما كان فرويد يفترض أن الاعتقاد الدينى فى سبيله إلى الانحلال فإنه مرغم على افتراض أن الارتباط المستمر بين الدين والأخلاق سوف يؤدى إلى تحطيم قيمنا الأخلاقية [2]. وهذا كلام خطير نرى من جانبنا أنه عار عن الصحة إذ أن الدين فى جوهره قائم على ضبط السلوك الإنسانى وحمايته من الانحراف والزلل وهو فى جوهره -خصوصًا الأديان السماوية- قائم على أسس أخلاقية ومثل عليا رفيعة .

ب - بوينج : يعرض بوينج آراءه فى المشكلة من خلال كتابه (علم النفس والدين) وقد طرح الأسئلة وحاول الإجابة عليها : ما الدين ؟ ما طبيعة التجربة الدينية ؟ فيقول : " إن الدين هو الملاحظة الدقيقة المتحوطة لما أسماه رودلف أتو (Rudolf Otto) ببراعة الخارق للطبيعة (numinosum) أى وجود دينامى أو أثر لايسببه فعل جزائى من أفعال الإرادة بل على العكس هذا الوجود يمسك ويتحكم فى الأنانية التى هى دائمًا ضحيته أكثر من أن تكون خالقته " .

كما يرى " أن جوهر التجربة الدينية هو الخضوع لقوى أعلى من أنفسنا " ولتحليل التجربة الدينية يحاول بوينج الربط بين اللاشعور وهذه التجربة الدينية ، فهو يرى أن اللاشعور لايمكن

---

١ - نحن لا نوافق فى هذا الرأى الذى يمكن أن يكون تعبيراً عن موقف عصر فرويد من الكنيسة ، ولايمكن تعميمه على الدين فى كل زمان ومكان .

٢ - اريك فروم : الدين والتحليل النفسى، ترجمة فؤاد كامل ، مكتبة غريب سنة ١٩٧٧ ، ص ١٥-١٨.

أن يكون مجرد شطر من العقل الفردى بل إنه قوة تخرج عن سيطرتنا ، وتؤثر عى عقولنا. ويترتب على تعريف بوينج للدين واللاشعور أن يصل بالضرورة إلى هذه النتيجة . وهى أنه بالنظر إلى طبيعة العقل اللاواعى يكون تأثير اللاشعور علينا " ظاهرة دينية أساسية " ويلزم عن ذلك أن العقيدة الدينية والحلم كلاهما ظاهرة دينية لأن كلاً منهما تعبير عن استيلاء قوة خارجية علينا .

على أساس من هذا الفهم فإن الخبرة الدينية عند بوينج تتسم بضرب خاص من الخبرة العاطفية هى الخضوع لقوة أعلى سواء أطلقنا على هذه القوة اسم الإله أو اللاشعور[١] .

هكذا عرضنا لمفهوم الدين من حيث اللغة والاصطلاح عند العلماء والباحثين من العرب والغربيين والملاحظ على هذه التعريفات أنها تتناول اتجاهات عدة أبرزها :

١ - الاتجاه اللاهوتى أو الروحى الذى يفسر الدين على أنه خضوع وطاعة وعبادة لإله خالق الكل وضابط الكل .

٢ - الاتجاه الاجتماعى السيوسيولوجى ، وهذا الاتجاه يذهب إلى تعريف الدين بأنه مؤسسة أو وضع اجتماعى يتميز بوجود طائفة من الأفراد المتحدين . بإقامة بعض الشعائر المنظمة وبقبول بعض الصيغ بالإيمان بقيمة مطلقة لايعدلها شيء فيكون هدف الطائفة الحفاظ عليها ، بإقامة صلة بين الفرد وبين قدرة روحية تعلو على الإنسان ، وهذه القدرة قد تعتبر منتشرة مبثوثة أو تعتبر متعددة أو تعتبر أخيراً أنها واحدة هى الله [٢].

٣ - الاتجاه النفسى ، هذا الاتجاه يجعل من الدين ما تقتضيه وجهة نظر العاطفة وأصحاب هذا الاتجاه يحاولون تجديد الشعور الدينى أو العاطفة الدينية فهناك خوف دينى ، وحب دينى، وفزع دينى ، وفرح دينى ... إلخ .

وإذا كنا قد عرضنا لهذه الاتجاهات بهذا الشكل فلايعنى أننا نوافق على هذه التفسيرات أو نعتبرها صحيحة ودقيقة وإنما هى محاولات لتفسير الخبرة الدينية وهذه التأثيرات وليدة ظروف تاريخية فى بيئات اجتماعية مختلفة .

ولعل الأمر يزداد وضوحًا فى رصدنا لنشأة الدين وتطوره عبر مراحل الحياة الإنسانية .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢١ - ٢٣ .

٢ - جب : بنية الفكر الدينى ، ترجمة د. عادل العوا ، مطبعة جامعة دمشق ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

الفصل الثانى
نشأة الأديان وتطورها

تمثل العقيدة الدينية جانبًا هامًا من جوانب الحياة الإنسانية فلا نكاد نجد وجوداً إنسانيًا أو تجمعًا بشريًا إلا ونجد للعقيدة الدينية مكانة عظيمة فى تسيير حياته . ولقد اجتهد علماء تاريخ الأديان فى تفسير الظاهرة الدينية ونشأة الأديان وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ... منهم من أرجع نشأتها إلى الشعور الغريزى بالفزع والخوف ، ومنهم من أرجعها إلى اهتمام الإنسان بالبحث عن مبدأ وجوده ومصيره وتعليل ظواهر الكون وأحداثه ، ومنهم من ربط بين الدين والأسطورة ، إلى آخر هذه المذاهب . والدراسة التى نقدمها فى هذا الفصل سوف تعرض لكل هذه الاتجاهات من خلال ماقدمه المفكرون والباحثون فى تاريخ الأديان .

أولاً ، الحاجة إلى الدين :

الدين فطرة فى النفس البشرية ، والفطرة هى الطبيعة التى خلقها الله فى جميع البشر ، "إن الحقيقة التى أجمع عليها مؤرخو الأديان هى أنه ليست هناك جماعة إنسانية ... ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر فى مبدأ الإنسان ومصيره ، وفى تعليل ظواهر الكون وأحداثه، ودون أن تتخذ لها فى هذه المسائل رأيًا معينًا ، حقًا أو باطلاً ، يقينًا أو ظنًا ، تصور به القوة التى تخضع لها هذه الظواهر فى شأنها ، والمآل الذى تصير إليه الكائنات بعد تحولها " [1]. فتصور الإنسان أن هناك قوى كان يعتقد فى وجودها ، وكون فى مخيلته صوراً لها ، وأخذ يعطى كلا منها شكلاً معينًا واسمًا خاصًا . وهذا أمر طبيعى أو كما سبق القول فطرى ارتكز داخل الوجدان الإنسانى ، ولعل ما ذهب إليه هيجل فى أن الإنسان (حيوان متدين) يؤكد على هذه الحقيقة ، يقول هيجل : " إن الإنسان وحده هو الذى يمكن أن يكون له دين ، وأن الحيوانات تفتقر إلى الدين بمقدار ما تفتقر إلى القانون والأخلاق "[2] . ذلك لأن التدين عنصر أساس فى تكوين الإنسان .

---

١ – د. دراز : مرجع سابق ، ص ٣٤ .

٢ – هيجل : (موسوعة العلوم الفلسفية) ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ، دار التنوير ، بيروت عام ١٩٨٣ ، ص ٤٧ – ٤٨ .

وقد انطلق الإنسان مهتديًا بما فى أعماق فطرته يبحث عن سر الحقيقة الكبرى ، والقوة العظمى التى تتحكم فى الكون بأسره وأحس بوجودها وسيطرتها عليه وتحكمها فيه ، وراح يتصورها محددة فى الشمس تارة ، وفى النار تارة ، وفى الأنهار والبحار تارة ، وفى الأصنام والدواب تارة أخرى . إن روحه لتنزع إلى الاعتقاد والإيمان . ولكن بأى شىء ؟ وكانت البداية المظاهر الطبيعية العظمى التى تحيط به وتؤثر فى الحياة من حوله .

ثانيًا : الدافع إلى التدين :

لقد قدم العلماء العديد من التفسيرات لدوافع التدين ومن هذه التفسيرات :

١ - يقول أدولف إرمان : " كان الشعور الغريزى بالخوف والفزع عند الحيوان من كل ماهو مجهول سببًا دفع الإنسان إلى احترام كل القوى التى تؤثر فى حياته دون أن يتعرف كنهها ومن هذا الشعور بعينه نشأت الديانة التى لم تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان من أن هناك قوى تحيط بالإنسان وتؤثر فيه . ومع أن الإنسان لم ير هذه القوى إلا أنه كان يعتقد فى وجودها ، وكون فى مخيلته صوراً لها ، وأخذ يعطى كلاً منها شكلاً معينًا واسمًا خاصًا ، بل أخذ يتمثلها على طريقته الخاصة ، فجعل من بعضها أصدقاء أوفياء ، ومن البعض الآخر أعداء ألداء ، فهو لايعرف أشكالها وأماكنها ، وأخذ يتصور الأشياء التى تدخل السرور إلى نفسها كما عرف ما يثيرها ، وبالفعل بذل جهوداً لكى يرتب أعماله على هذه النتائج .

وليس من شك فى أن ما اعتبرناه هنا أساسًا لنشأة الديانة لم يتكون إلا بين البشر الذين عاشوا فى المجتمعات البدائية ، وعندما وصل بنو الإنسان إلى حضارة أكثر تقدمًا أخذت أهدافهم الدينية تسموا شيئًا فشيئًا وتركزت حول التعرف على ما يحويه ذلك العالم الجديد عن حياتهم اليومية . فالإنسان لم يرد قط أن يلجأ إلى سند يحميه ، بل أراد أن يوجد لنفسه معبوداً إذا ما فكر فيه سما بنفسه فوق كل ما ينتاب الإنسان من اضطرابات مختلفة فى حياته اليومية ، ولقد دفعت الطبيعة البشرية الإنسان دائمًا أن يخلق لنفسه معبودات أعطى لها أشكالاً مختلفة ، وقد اندفع فى هذا المضمار اندفاعًا لا إراديًا .

ولقد كانت الصدفة وحدها هى التى شكلت هذه الآلهة ، فنرى الإنسان يتمثل معبوداً معينًا لى أنه إله واحد ، وأحيانًا يتمثل معبوداً آخر علي أنه عدة آلهة ، كما أعطى البعض من معبوداته شكلاً مجسمًا ، ورأى فى البعض الآخر أنها أشياء روحانية غير مجسدة ، وفى غالب الأمر يكون شكل المعبود نتاجًا لعصور سابقة ولايتفق مع المستوى العالى الذى وصلت

إليه عقائد الشعب فى عصر متأخر ، ولكن هناك من الأمثلة فى دياناتنا الحالية مالا تختلف عما ذكرت ، فنحن الآن نبجل بعض الأشياء التى تملأ صدورنا بالخوف والرعب ولكن نشأتها الأولى أكسبتها قدسية وأصبحت تعتبر من بين الرموز فى عقيدتنا . والواقع أن كل الديانات حوت أشكالاً مختلفة تنم عن رموز تتركز حولها عقائد المؤمنين بها "[١]. إن هذا التفسير الذى يقدمه (أرمان) يرتكز على أصلين :

الأول : أن الدين نشأ بتأثير نزعة الخوف والرهبة التى تملأ الكيان الإنساني ، الخوف والفزع من كائنات لها قوة التأثير فى حياته أو الخوف والفزع من المجهول الذى ينتظر مصيره .

الثانى : أن الدين نشأ فى مرحلة متقدمة حضارياً بتأثير العامل الأخلاقى حيث الرغبة فى السمو والارتقاء ؛ فبحث عن معبود إذا مافكر فيه سما بنفسه .

وبناء عليه تطور مفهوم الدين وشكل الإله المعبود بل والطقوس التى تمارس لإرضاء هذا المعبود .

٢ - يقول (ويلز) فى تفسيره لنشأة الدين : " إن الإنسان الأول كان قبل أن يستطيع الكلام يرى الأشياء واضحة بينة ، ويقلد مايرى بغاية المهارة ، ويأتى بالحركات والإيماءات ، ويضحك ويرقص ويعيش من غير إعمال أى فكر عن : أيان جاء ؟ ولماذا يعيش ؟ كان يخشى الظلام لاجرم ، ويخاف الصواعق والحيوانات الكبيرة ، والأشياء الشاذة الهيئة ، ويخشى أى شىء تأتيه به الرؤيا فى المنام ، ولاريب فى أنه كان يأتى أموراً يستجلب بها رضاء الأشياء التى كان يخشاها أو يغير بها طالعه ويدخل بها السرور على القوى الوهمية التى خالها فى الصخر والوحش والنهر ...

ولا مراء فى أن حياته كانت تضم قدراً معيناً مما يسميه الناس باسم (الفتيشية) فإنه كثيراً ما أتى أشياء يرمى بها إلى الوصول إلى نتائج يرغبها ، وهى لعمرى أشياء نراها نحن اليوم غير معقولة ، لأن ذلك هو أقصى ما تستطيع (الفيتشية) بلوغه ، فما (الفيتشية) إلا العلم الخاطىء المبنى على الحدس " والتخمين أو الاستنباط الخاطىء ، وهى تختلف فى

---

١ - أدولف أرمان : ديانة مصر القديمة ، ترجمة : د. عبد المنعم أبو بكر ، د. محمد أنور شكرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ ، ص ٤ ، ٥ .

طبيعتها تمام الاختلاف عن الدين ، ولاريب أن أحلامه كانت تستثيره ، وأنها كانت فى بعض الأحيان تختلط بما يؤثر فى ذهنه أثناء اليقظة من مؤثرات وتبلبل فؤاده .. " [١].

يبدأ (ويلز) تفسيره بوصف الحال التى كان عليها الإنسان الأول قبل أن يستطيع الكلام. وهو يرى أن فكرة الدين أو العقيدة لم تكن ظاهرة أو واضحة وإنما كانت هناك ممارسات تستهدف استرضاء ماكان يخافه أو يخشاه . ونحن نرى من جانبنا إن البداية الحقيقية لنشأة الدين ، أو العقيدة الدينية ، تمثلت بالفعل فى رصد مظاهر الطبيعة خصوصًا الأشياء الغريبة الغامضة التى كانت تجلب الخوف للإنسان .

ويواصل ويلز تفسيره لنشأة الدين فيحدد أول المقدسات التى حظيت باهتمام المجتمعات البشرية فيتحدث عن ظاهرة الرجل المسن فى الدين فيقول : " كانت الخشية من الرجل المسن هى بداية الحكمة الاجتماعية " .

فقد نشأ صغار المجتمع البدائى فى ظل ذلك الخوف ، وكانت الأشياء المتصلة به محظورة فيما يرجح ، فكان كل فرد ممنوعًا من أن يلمس رمحه أو يجلس مكانه على نفس الطريقة التى يحرم بها اليوم على صغار الأطفال أن يلمسوا غليون آبائهم أو يجلسوا فى مقاعدهم . كان فيما يرجح سيداً على كل النساء ، وكان لزامًا على شباب المجتمع الصغير أن يتذكروا هذا وتلقنهم أمهاتهم أن يتذكروه ويغرسن فى نفوسهن خشية " الرجل المسن " واحترامه وتقديره .

وكأنى بفكرة المحظورات ، أو فكرة أن بعض الأشياء محرمة أو (تابوهات Tabus) كما يسمونها فلايجوز لمسها فقد تم لها الرسوخ والاستقرار على هذه الطريقة فى ذلك الذهن شبه الإنسانى فى مرحلة متقدمة جداً " [٢].

مازال عامل الخوف هو الباعث على تقديس الأشياء.والأشخاص وبالتالى يصبح أحد أهم المصادر فى نشأة الأديان .

---

١ - ويلز : معالم تاريخ الإنسانية ، جـ١ ، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ص ١١١ ، ١١٢ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

ويواصل (ويلز) تحليله لعامل الخوف وكيف نشأ داخل النفس البشرية إلا أنه فى تحليله هذا يربط بين « الخوف والأمل فى الدين »فيقول عن نشأة فكرة الخوف فى أذهان الناس :

" ... هناك فكرة أخرى خطيرة الشأن ، أكبر الظن أنها نشأت فى أذهان الناس من قديم الزمان بسبب إلمام الأمراض المعدية بهم إلمامًا لم يكونوا يعرفون له سببًا ، تلك هى فكرة النجاسة وفكرة الإصابة باللعنات ، وربما نتج عن ذلك فكرة تجنب أماكن خاصة وأشخاص بعينهم وأشخاص فى أدوار خاصة من أدوار الصحة . وهنا يجد الإنسان مجموعة أخرى من المحرمات . ويحتمل كذلك أن يكون الإنسان قد ابتدأ فجر حياته العقلية ولديه شعور بالشؤم المحيط بالأماكن والأشياء ، وإن الحيوانات لتحس ذلك الإحساس نفسه حين ترهب المصايد ، فالببر مثلاً يهجر طريقه المألوف فى الغابة إذا رأى بعض خيوط القطن . وإن من السهل أن يخيف الكبار والمربيات صغار الأطفال من بنى الإنسان من هذا الشىء أو ذاك شأنها فى ذلك شأن غالبية صغار الحيوان . وتلك مجموعة أخرى من أفكار النفور والاشمئزاز نشأت فى نفوس الناس وتكاد نشأتها أن تكون أمراً محتومًا " [١].

على هذا النحو ظهرت بعض معالم الاعتقاد التى نشأت نتيجة تراكمات داخل النفس البشرية أدت إلى تثبيت أفكار ستصبح فيما بعد من أصول الديانات مثل فكرة النجاسة وفى مقابلها فكر التطهر . فكرة اللعنات التى تشبه إلى حد كبير فكرة العقاب ، ثم أفكار التشاؤم من الأماكن والأشياء والأشخاص وبالتالى أفكار النفور والاشمئزاز . هذا كله لازم الإنسان فى أقدم العصور قبل أن يعرف الكلام . فماذا بعد أن عرف الكلام ؟ .

يقول (ويلز) " وما إن أخذ الكلام يتطور ، حتى شرع ، لاجرم ، بعمل عمله فى هاته الاحساسات الجوهرية ، وحتى أخذ ينظمها ويختزنها فى العقل . وكان الناس إذ يتخاطبون يقوون مخاوف بعضهم بعضًا وينشئون تقاليد مشتركة من المحظورات تشمل الأشياء المحرمة والأشياء النجسة وتظهر إلى جانب فكرة النجاسة فكرة التطهر وإزالة اللعنات . وتتم عملية التطهر بإرشاد الحكماء من المسنين أو العجائز المحنكات ، وفى مثل هذا التطهر تكونت بذور الكهانة والسحر فى أقدم عهودها ، ولرفع اللعنات ولإزالة الشرور ، وتثبيت الإنسان وتنظيم شأنه ، كان لابد له من أن يفعل أشياء ذات قوة وبأس ، وهل فى الوجود شىء أقوى من القتل ومن إراقة الدماء ؟ من هنا جاء الارتباط الوثيق بين نظام الكهانة وتقديم القرابين »[٢] .

---

١ - المرجع السابق ، ص ١١٨ .

٢ - المرجع السابق ، نفس الصفحة .

وهذه مرحلة متقدمة تصور العلاقة بين الدين وبين السحر والكهانة وتؤكد على فكرة التطهر واسترضاء القوة التي تتحكم في مصائر الناس .

ولعل لنشأة فكرة المحظورات والمحرمات اتصال بمسألة النواهي والزواجر وهذه المسألة تعد صلب العقيدة الدينية .

نحن أمام العديد من الأفكار ذات الصلة بنشأة الأديان وتبلور صور العقيدة الدينية فكرة محظورات أو المحرمات فكرة النجاسة والتطهير وفكرة النواهي والزواجر ثم نشأة الكهانة والسحر وظهور القرابين . وقد شكلت هذه الأفكار أصول الديانات في نشأتها الأولى . ومع تطور الحضارة وتبلور نشاط الإنسان والتحولات التي صاحبت حياته كان طبيعيًا أن يضيف إلى هذه الأصول وتلك المصادر أصولاً أخرى .

يقول (ويلز) : « من تلك الأفكار ومن مزيج من أفكار مماثلة لها ، تمت صياغة أول العناصر الشبيهة بالدينية في الحياة الإنسانية . وكان كل تطور في الكلام يجعل في الإمكان أن تتقوى وتتطور تقاليد المحظورات والحدود والقيود والطقوس ، وليس في العالم اليوم جنس متوحش أو همجي لا يثقل كاهله عبء فادح من هذه التقاليد .

وطبيعي أن يصحب ظهور الرعي البدائي انتشار عظيم لهذا النوع من الأعمال والممارسات. فإن أموراً لم يعرها الناس التفاتًا حتى ذلك الحين أصبحت ذات أهمية في الشئون الإنسانية . ذلك أن إنسان العصر الحجري الحديث كان بدويًا مترحلاً بشكل يختلف في الروح والجوهر عن مجرد الانتقال في ضوء النهار الذي يقوم به الصائدون طلبًا للطعام .

فلأنه كان راعيًا للحيوان أجبر ذهنه قسراً على إدراك الاتجاهات وانبساط الأرض ، فكان يرقب قطيعه ليلاً ونهاراً ، وكانت الشمس نهاراً تتلوها النجوم ليلاً عونًا على إرشاده في تنقلاته ، فأخذ يكتشف بعد عصور كثيرة أن النجوم أثبت دليلاً من الشمس ، ولذا نراه يأخذ في ملاحظة نجوم ومجموعات نجمية خاصة ، وكان تمييز أي شيء بمفرده يعني عند الرجال البدائيين أنه جسم ذو روح وشخصية ، فتجده يأخذ في الظن بأن أبرز النجوم أشخاص لألاءة وقورة جديرة بالثقة تنظر إليها في بهمة الليل نظراً لعيونه الشاخصة وتعود إليه ليلة بعد

أخرى وتقدم إليه المعونة كما يقدمها إليه رب القبيلة نفسه . وكانت فلاحته البدائية تقوى إحساسه بالفصول . ذلك أن نجومًا خاصة تتسلط على سمائه حين أون البذار » [١].

وهنا نشأت عبادة النجوم فاتخذ الإنسان من هذه النجوم آلهة ذات سلطان يسعى إلى التقرب منها كسبًا لمرضاتها .

يضاف إلى عبادة النجوم معبودات أخرى فى مرحلة متطورة من مراحل تطور الإنسانية ، وتلعب الأسطورة دوراً هامًا وخطيراً فى تصور الإنسان للآلهة . يقول (ويلز) : « تزايدت مقدرة الناس على الرواية عن الأشياء بتزايد محصولهم اللغوى ، فإن الأوهام البسيطة الفردية، والحيل الفتيشية التى لايربطها نظام ، والمحظورات الأولى القديمة الخاصة بإنسان العصر الحجرى القديم أخذت تنتقل بين الناس وتوضع فى نظام أكثر اتساقًا وتشاكلاً . وأخذ الرجال يروون الأقاصيص عن أنفسهم وعن قبيلتهم وعن محظوراتها ولماذا وجب وجودها ؟ وعن العالم عن سبب وجود العالم ، وبذا ظهر فى الوجود عقل قبلى متوارث هو التقاليد »[٢].

إن هذا التحول فى طرق التعبير بين الإنسان الحجرى القديم والإنسان الحجرى الحديث وتطور اللغة والميل إلى التعبير عن روح الجماعة بديلاً عن النزعة الفردية كان مقدمة لتطور آخر حين بدأت تظهر الأسطورة لتلعب دوراً هامًا وخطيراً فى تجسيد المفاهيم الدينية . إن « جميع الشعوب ، فى مرحلة من تطورها ، حاكت لنفسها أساطير ، أى روايات مدهشة أضافت إليها ، إلى حد بعضًا من إيمانها ، لتصدقها أكثر ، والأساطير غالبًا - لأنها تدخل فيها قوى وكائنات أقوى وأرفع من البشر - تدخل فى نطاق الدين ، فتبدو عندها ، نظاما شبه متماسك لتفسير الكون على لسان كل من الأبطال الذين تروى رواياتهم ، يكون خالقًا لها وسببًا فى نتائج يهتز لها الكون كله » [٣].

هكذا تبدو فى أساطير البشرية أشياء معينة وعبادات خاصة ، من صنع خيال الإنسان آلهة عبدها أو على الأقل اتخذها رموزاً لمعبوداته . يقول (ويلز) « من ذلك أن إنسان العصر الحجرى الحديث يتأثر تأثيراً قويًا بالشعابين - فلم تعد الشمس لديه هى كل شىء -

---

١ - نفس المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

٢ - نفس المرجع السابق ،ص ١٢٢ .

٣ - بيار غريمال : الميتولوجيا اليونانية ، ترجمة هنرى زغيب ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ١٩٨٢م ، ص ٥

وحيثما انتشرت ثقافة العصر الحجرى الحديث انتشرت معها نزعة الربط بين الشمس والثعبان فى الزخرفة ، والعبادات ، ويلغ الأمر مداه بهذه العبادة البدائية للثعبان[1] .

نحن أمام عدد من العبادات ظهرت لدى الإنسان البدائى فى عصور متقدمة من تاريخ البشرية منها :

١ - عبادة وتقديس الرجل المسن ، وقد نشأت بعض المحرمات والمحظورات مع هذه العبادة.

٢ - عبادة الخوف من المجهول وظهور القربان كوسيلة لاسترضاء المعبودات .

٣ - عبادة النجوم والفصول والظواهر الكونية المؤثرة فى حياة الإنسان .

٤ - عبادة الكائنات الحية مثل الثعابين وغيرها .

وينتهى ويلز من عرضه للعوامل التى أثرت بشكل مباشر فى نشأة الأديان بتحديد أصول المعتقدات الدينية فيقول :

« ... من تقاليد الرجل الشيخ ، ومن العواطف التى تحيط بالنساء من أجل الرجال وتحيط بالرجال من أجل النساء ، ومن الرغبة فى الهرب من العدوى والنجس ، ومن الرغبة فى القوة والنجاح بطريق السحر ، ومن تقاليد التضحية فى أوان البذار ، ومن عدد آخر من العقائد والتجارب العقلية والأفكار الخاطئة ، المماثلة لهذه التجارب والأفكار ، أخذ شيء معقد ينمو ويترعرع فى حياة الناس ، وشرع فى الوقت نفسه يضمهم بعضهم إلى بعض من الناحيتين العقلية والعاطفية فى حياة وعمل مشتركين . هذا الشيء نستطيع أن نسميه الدين (Religon).

ولفظ الدين بالغة الإنجليزية مأخوذ من الكلمة اللاتينية (Relijare) . معناها " الربط " لم يكن ذلك الشيء بالبسيط ولا المنطقى ، بل كان طائفة معقدة من الأفكار التى ينظر بها الناس إلى الكائنات والأرواح الآمرة والآلهة ، ومن جميع ضروب (ما يجب وما لا يجب) وقد نمت الديانة كما تنمو كل مصلحة إنسانية » [2].

هذه هى أصول الديانات كما حددها ويلز ، ولكنه لم يكتفْ بذلك بل أكد على ضرورة بحث التاريخ الإنسانى لنشأة الأفكار . وقد أكد على أهمية ذلك حين عرض جهود العلماء فى هذا المجال حيث يقول :

---

١ - ويلز : مرجع سابق . ص ١٢٣ .

٢ - نفس المرجع ونفس الصفحة .

« واجب التاريخ الإنسانى بل إن أوجب واجباته أن يصف كيف انبثق فجر الأفكار الدينية فى ذهن الإنسان وكيف تطورت تلك الأفكار وما هو تأثيرها فى نواحى نشاطه . فكل هاتيك العوامل التى لاحظنا ، لابد أنها قامت بنصيبها فى إنتاج ذلك التطور ، وقد ظل الكتاب المختلفون يؤكدون هذا العامل أو ذاك ويبررون أهميته ، وكان السيد (ج ، ج فريزر) رائد من يقولون : بأن الأصل فى العشاء الربانى هو القرابين السحرية .

أما (جرانت آلن Grant Alien) فقد نهج فى كتابه (تطور فكرة الإله) منهج هربرت سبنسر وقال إن منشأ هذه الفكرة هو عبادة الرجل الشيخ بعد موته .

ووجه السير (أ . ب . تايلور) فى كتاب (الثقافة البدائية) عناية خاصة إلى نزوع الرجل البدائى إلى أن عزا لكل شىء روحًا : للحى والجماد على السواء .

واسترعى السير أ . إ . كرولى الأنظار فى كتابه (شجرة الحياة) إلى أسباب أخرى من الحوافز والعواطف ، وإلى المسألة الجنسية بوجه خاص بوصفها مصدراً للانفعال العميق » (١).

وبعد أن استعرض (ويلز) تطور الأفكار الدينية والعوامل المؤثرة فيها ينتهى إلى القول :

" لقد شرعت بشرية العصر الحجرى الحديث وهى فى حال من التبلبل والارتباك ، وتحت ضغوط الحاجة الملحة واحتمال وجود التعاون والحياة الموحدة - تمد بصرها تلتمس الإرشاد والعرفان ، وكان الناس أخذوا يدركون أنهم من الناحية الشخصية فى حاجة إلى الوقاية والتوجيه والتطهر من النجاسة وإلى قوة تفوق مالديهم من قوة ، واستجابة لتلك الطلبة ، أخذ كل جسور من الرجال وكل عاقل وكل داهية حصيف وكل ماكر مخاتل - أخذ هؤلاء يتحولون فى شىء من الاضطراب القلق إلى سحرة وكهنة ورؤساء وملوك ، وليس لنا أن نزعم أنهم كانوا من المخادعين المغتصبين للسلطان ولا أن نعد الجنس البشرى ضحية خداعهم ، ذلك أن الناس جميعًا مختلطو الدوافع ، وأن مئة من الدوافع لتحفز الرجال إلى ابتغاء الرفعة على الآخرين ، وليست كل هذه الدوافع وضيعة ولا شريرة ، فكان السحرة يؤمنون عادة بسحرهم ، كما كان الكهنة يؤمنون بطقوسهم ، والرؤساء بحقهم . ومنذ ذلك الحين وتاريخ البشرية يكاد يكون كله محاولات عمياء لتكوين فكرة عن غاية مشتركة يستطيع كل الناس إذا اعتصموا بها أن يعيشوا عيشًا سعيداً ، وأن يخلقوا وينموا وعيًا مشتركًا وذخيرة من العرفان مشتركة قد تخدم تلك الغاية وتلقى عليها الضوء .

---

١ - المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

إن ظهور الملوك والكهنة والسحرة على هذا الضرب الهائل من الصور والأشكال حدث فى كافة أنحاء العالم فى كنف ظروف العصر الحجرى القديم المتأخر والعصر الحجرى الحديث ، ففى كان مكان كانت البشرية تبحث عن مستقر العرفان والسيادة وقوة السحر ، وكان أفراد من الناس يرغبون فى كل مكان - إما عن نزعة شريفة أو غير شريفة - أن يحكموا وأن يوجهوا أو يكونوا هم السحرة الذين يوفقون بين أحوال المجتمع المختلطة المضطربة "[١] .

هكذا فسر (ويلز) نشأة الأفكار الدينية والعوامل التى أثرت فيها وكيف أن الإنسان لعب دوراً هامًا فى اكتشاف ، أو خلق أو صنع ، معبوداته ، وجهود أصحاب الطموحات فى السيطرة والتسلط فى صنع أشكال من الهيمنة على المجتمعات البشرية .

٣ - يقدم ول ديورانت تفسيراً لنشأة الدين فى كتابة الدين فى كتابه قصة الحضارة ويبدأ هذا التفسير بالحديث عن :

أولاً : الملاحدة البدائيون :

وأول هؤلاء : قبائل الأقزام فى أفريقيا فيقول : " إذا عرفنا الدين بأنه عبادة القوى الكائنة فوق الطبيعة ، فلابد لنا منذ البداية أن نلاحظ أن بعض الشعوب - فيما يبدو - ليس لهم ديانة على الإطلاق ، فبعض قبائل الأقزام فى أفريقيا لم يكن لهم عقيدة أو شعائر دينية يقيمونها بحيث يراها المشاهدون ولم يكن لهم طوطم ولا أصنام ولا آلهة " [٢].

أما أقزام الكاميرون فإنهم " لم يعرفوا إلا بآلهة الشر وحدها ، ولم يحاولوا قط إرضاء هؤلاء الآلهة على أساس أن المحاولة فى هذه السبيل عبث " [٣].

وفى سيلان اعترفت قبيلة " فيذا " باحتمال وجود الروح ، لكنهم لم يجاوزوا ذلك الحد بحيث يؤدون الصلاة أو يقدمون القرابين ، وسأل أحدهم سائل عن الله فأجاب فى حيرة فيلسوف حديث : " أيكون على صخرة أم على تل من تلال النمل الأبيض أم على شجرة ؟ إنى لم أر قط إلهًا " [٤].

---

١ - المرجع السابق ص ١٢٥ .

٢ - ديورانت : قصة الحضارة ١ ، ترجمة د. زكى نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٧٣ ، ص ٩٨ .

٣ - المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٤ - المرجع السابق ، نفس الصفحة .

أما الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية فإنهم " تصوروا إلهًا لكنهم لم يعبدوه وظنوا - كما ظن أبيقور - أنه أبعد من أن يعنى بأمورنا "[١] .

وهناك نماذج أخرى لهؤلاء الذين أنكروا وجود الآلهة أو اهتموا بشأن الآلهة أو استرضائها.

إلا أن " ديورانت " ينتهى من عرض هذه النماذج بالتأكيد على أن " هذه حالات نادرة الوقوع ، ولايزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعم البشر جميعًا اعتقاداً سليمًا " [٢].

ثانيًا : مصادر الدين :

يحدد ديورانت مصادر الدين فى خمسة مصادر هى :

١ - **الخوف** : " أول أمهات الآلهة ، وخصوصًا الخوف من الموت ، فقد كانت الحياة البدائية محاطة بمئات الأخطار ، وقلما جاءتها المنية عن طريق الشيخوخة الطبيعية ، فقبل أن تدب الشيخوخة فى الأجسام بزمن طويل ، كانت كثرة الناس تقضى بعامل من عوامل الاعتداء العنيف أو بمرض غريب يفتك بها فتكًا ، ومن هنا لم يصدق الإنسان البدائى أن الموت ظاهرة طبيعية "[٣] .

٢ - **الدهشة** : تلك التى تنشأ بسبب الحوادث التى تأتى مصادفة أو الأحداث التى ليس فى مقدور الإنسان فهمها وتفسيرها " وكان أهم ما تعلقت به دهشتهم وما استوقف أنظارهم بسره العجيب هما الجنس والأحلام ، ثم الأثر الغريب الذى تحدثه أجرام السماء فى الأرض والإنسان " [٤].

٣ - **الأحلام** : لقد كانت الأحلام التى يراها الإنسان البدائى فى نومه والأعاجيب تفزعه فزعًا شديداً خصوصًا تلك الرؤى لأولئك الأشخاص الذين يعلم عنهم علم اليقين أنهم فارقوا الحياة .

٤ - **النفس** : لقد اقتنع الإنسان البدائى بأن كل كائن حى له نفس الحياة دفينة فى جوفه ، يمكن انفصالها عن الجسد إبان المرض والنوم والموت .

---

١ - المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٢ - المرجع السابق ، ص ٩٩ .

٣ - المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٤ - المرجع السابق ، ص ١٠١ .

٥ - الروحانية : لقد أدرك الإنسان أن الروح ليست قاصرة على الإنسان وحده ، " بل إن لكل شيء روحًا ، والعالم الخارجي ليس مواتًا ولا خلواً من الإحساس ، لكنه كائن حي دافق الحياة ، ولو لم يكن الأمر كذلك - هكذا ظن الفلاسفة القدامى - لكان العالم مليئًا بالأحداث التي يستحيل تعليلها ، مثل حركة الشمس ، أو البرق الذي يصعق الأحياء ، أو تهامس الشجر ، وهكذا تصور الناس الأشياء والحوادث مشخصة قبل أن يتصوروها جوامد أو مجردة ، وبعبارة أخرى سبقت الديانة الفلسفة ، وهذه الروحانية في النظر إلى الأشياء هي ما في الدين من شعر ، وما في الشعر من دين ... ففي رأي الإنسان البدائي وفي رأي الشعراء في كل العصور ، أن الجبال والأنهار والصخور والأشجار والنجوم والشمس والقمر والسماء - كلها أشياء مقدسة لأنها العلامات الخارجية المرئية للنفس الباطنية الخفية ... إن في هذه النظرة الروحانية لحكمة وجمالاً ، فمن الخير الذي يشرح الصدور أن تعامل الأشياء معاملتك للأحياء[1].

تلك هي مصادر الدين من وجهة نظر ديورانت وهي تتفق مع العديد من التفسيرات الأخرى.

ثالثًا : المعبودات الدينية :

لقد قدم ديورانت صوراً للمعبودات الدينية تتمثل في الظاهرات الطبيعية ، والظاهرات النفسية والاجتماعية على النحو التالي :

يقول ديورانت : « لما كان لكل شيء روح ، أو إله خفي ، إذن فالمعبودات الدينية لاتقع تحت الحصر ، وهي تقع في ستة أقسام :

ما هو سماوي ، وما هو أرضي ، وما هو جنسي ، وما هو حيواني وما هو بشري ، وما هو إلهي "[2].

ويدخل تحت هذه الأقسام الستة الكثير من المعبودات منها :

١ - القمر : ربما كان القمر بين المعبودات الأولى ، فقد صورت الأساطير الأولى القمر رجلاً شجاعًا أغوى النساء وسبب لهن الحيض مرة كلما ظهر ، ولقد كان القمر إلهًا محبيًا للنساء ،

---

١ - المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

عبدته لأنه حاميهن بين الآلهة ، وكذلك اتخذه بعض الناس مقياسًا للزمن ، فهو فى ظنهم يهيمن على الجو وينزل من السماء المطر والثلج ، حتى الضفادع تضرع للقمر بالدعاء لينزل لها المطر.

٢ - **الشمس** : حلت الشمس محل القمر سيدة على دولة السماء ، ربما حدث ذلك حين حلت الزراعة محل الصيد ، فكانت حركة الشمس محددة لفصول البذر وفصول الحصاد ، وأدرك الإنسان أن حرارة الشمس هى العلة الرئيسية فيما تدره عليه الأرض من خبرات ، عندئذ انقلبت الأرض فى أعين البدائيين إلهة تخصبها الأشعة الحارة ، وعبد الناس الشمس العظيمة لأنها بمثابة الوالد الذى نفخ الحياة فى كل شىء حى . ومن هذه البداية الساذجة هبطت عبادة الشمس إلى العقائد الوثنية عند الأقدمين ، ولم يكن كثير من الآلهة فيما بعد سوى تشخيص للشمس وتجسيداً لها .

٣ - **النجوم** : لقد صار لكل نجم من النجوم شأنًا مثل شأن الشمس والقمر ، يحتوى إلهًا وهو بذاته إله ، يتحرك بأمر روح كامن فى جوفه ، وأصبحت لأفلاك السماء قادة تسلك بها فى مسالكها ، والسماء نفسها كانت إلهًا عظيمًا ، تقدم لها العبادات فى تبتل لأنها هى التى تنزل الغيث أو تحبسه ، وكثير من القبائل البدائية يستعمل كلمة " الله " لتعنى "السماء" كذلك كانت السماء عند العديد من القبائل فى مناطق مختلفة من العالم تعنى الإله العظيم . ومعظم الأساطير الأولى تدور حول محور واحد ، هو الخصب الذى نتج عن تزاوج الأرض والسماء .

٤ - **الأرض** : لقد كانت الأرض هى الأخرى إلهًا ، وكل مظهر رئيسى من مظاهرها كان يقوم على أمره إله ، فللشجر أرواح كما لبنى الإنسان سواء بسواء ، وقطع الشجرة معناه قتل صريح ، وأقدم عقيدة دينية فى آسيا هى تقديس الأشجار وينابيع الماء والأنهار والجبال ، فكثير من الجبال كان أماكن مقدسة ، اتخذتها الآلهة مقراً ترسل منه ما شاءت من صواعق ، وأما الزلازل فليست سوى آلهة ضجروا أو ضاقوا صدراً فهزوا أكتافهم . والأرض عند الناس فى شتى المعمورة تقريبًا هى الأم الكبرى .

٥ - **الجنس** : كان العقل البدائى يرى يداً إلهية فى حمل الجنين أو ولادته ، أنه لايعرف شيئًا عن البويضة والجرثومة المنوية ، ولكنه يرى الأعضاء الظاهرة أمام عينه ، التى تشترك معًا فى هذه العملية فيثولها ، فهى كذلك تكمن فى جوفها الأرواح ولابد من عبادتها .

أليست هذه القوى الخلاقة العجيبة فى سرها ، أعجب الكائنات جميعًا ؟ عليها تظهر معجزة الخصوبة والنمو أوضح مما تظهر فى تربة الأرض نفسها ، وإذن فلابد أن تكون أقرب ما تجسد فيه الآلهة قوتها ، وتوشك الشعوب البدائية جميعًا أن تعبد الجنس على صورة من الصور أو شعيرة من الشعائر ، ولم يكن أدناها ، بل أعلاها مدنية ، هو الذى عبر عن هذه العبادة تعبيراً كاملاً وسنرى هذه العبادة فى مصر والهند وبابل واليونان والرومان ، كان الناس يجلون الوظيفية الجنسية والجانب الجنسى من آلهتهم البدائية إجلالاً عظيمًا .

٦ - **الحيوان** : نكاد لانجد حيوانًا فى الطبيعة كلها - من الجعران المصرى إلى الفيل عند الهندوس - لم يكن فى بلد ما موضع عبادة باعتباره إلهًا ، والأساس فى عبادة الحيوان الخوف الذى دفع الإنسان لاسترضائه .

٧ - **الطوطمية** : أخذ علماء الأجناس كلمة " الطوطم " وجعلوها اسمًا على مذهب الطوطمية " الذى يدل دلالة غامضة على أية عبادة لشىء معين - وعادة يكون الشىء المعبود حيوانًا أو نباتًا - تتخذه جماعة ما موضع عبادتها ... ولقد أعان الطوطم باعتباره شعاراً دينيًا على توحيد القبيلة التى ظن أعضاؤها أنهم مرتبطون معًا برباطه أو هبطوا جميعًا من سلالته ، وأصبح الطوطم - باعتباره شعاراً أو رمزاً - علامة مفيدة تدل على ما بين البدائيين من قربى ، وتميزهم بعضهم من بعض ، ثم أخذ على مر الزمن يتطور فى صور علمانية فكان منه التمائم والشارات ... وفى معظم الحالات كان الطوطم محرمًا لايجوز لمسه ، ويجوز أكله فى بعض الظروف ، على أن يكون ذلك من قبيل الشعائر الدينية ، فهو بذلك يرمز إلى أكل الإنسان لله أكلاً تعبديًا .

٨ - **الآلهة البشرية** : استمدت الآلهة البشرية الأولى طبعها من الآلهة الحيوانية التى جاءت تلك الآلهة البشرية لها بديلاً ، والانتقال من أولئك إلى هؤلاء واضح فى القصص المشهورة التى تروى لنا تحول الصورة الإلهية ... والآلهة أو الغيلان فى مصر وبابل ، بوجوهها الإنسانية وأجسادها الحيوانية تبين مرحلة الانتقال نفسها ، وتعترف بالحقيقة عينها ، وهى أن كثيراً من الآلهة البشرية كانت يومًا آلهة حيوانية .

ومع ذلك فمعظم الآلهة البشرية قد كانوا - فيما يظهر - عند البداية رجالاً من الموتى ضخموا بفعل الخيال ، فظهور الموتى فى الأحلام كان وحده كافيًا للتمكين من عبادتهم ، لأن العبادة إن لم تكن وليدة الخوف فهى على الأقل زميلته ، وخصوصًا من كانوا أقوياء إبان

حياتهم فأبقوا الخوف فى نفوس الناس ، هؤلاء يُرجح جداً أن يعبدوا بعد موتهم ، ولذلك نجد الكلمة التى معناها " إله " عند كثير من الشعوب البدائية ، معناها فى الحقيقة رجل ميت ، وحتى اليوم ، نرى كلمة (Spirit) فى الإنجليزية وكلمة (Oeidt) فى الألمانية معناها إما روح وإما شبح ، وكان اليونان يتبركون بموتاهم على نحو ما يتبرك المسيحيون بالقديسين ، ولقد بلغت العقيدة فى استمرار حياة الموتى – هى عقيدة تولدت فى بدايتها من الأحلام – مبلغًا عظيمًا حتى جعل البدائيون أحيانًا يرسلون الرسائل لموتاهم بمعنى الكلمة الحرفى الدقيق .

٩ – **عبادة الأسلاف** : بات الناس يخافون موتاهم جميعًا ويعملون على استرضائهم خشية أن ينزلوا لعناتهم على الأحياء فيجلبوا لهم الشقاء ، وكأنما كانت هذه العبادة للأسلاف مهيئة على نحو يجعلها ملائمة لتدعيم المجتمع من حيث سلطانه ودوامه ، وللتمكين من روح المحافظة على القديم والاحتفاظ بالنظام ، حتى لقد شاعت شيوعًا سريعًا فى كل أرجاء المعمورة فازدهرت فى مصر واليونان وروما ، ولاتزال قائمة ومستولية على النفوس بقوة فى اليابان والصين الآن ، وإن كثيراً من الشعوب ليعبدون أسلافهم دون أن يكون لديهم آلهة "[1].

تلك هى أهم المعبودات التى عرفتها البشرية منذ نشأتها الأولى والتى ماتزال بعض آثارها تمثل صوراً حية فى عقائد الناس حتى اليوم . وقد تتبع (ديورانت) تطور هذه المعبودات فى صورها المختلفة .

ثالثًا : طرائق الدين :

يواصل ديورانت تفسيره لنشأة الظاهرة الدينية فيرصد ضمن ما يرصد طرائق الدين على النحو التالى :

١ – **السحر** : تصور الإنسان البدائى عالمًا من الأرواح يجهل طبيعتها وغايتها لذلك عمل على استرضائها واكتسابها فى صفه لمعونته ، فأضاف إلى الروحانية التى هى جوهر الديانة البدائية ، سحراً هو بمثابة الروح من شعائر العبادة البدائية ، وكان مايطلق عليه (السحر التمثيلى) هو أول الطرائق التى كسب بها الإنسان معرفة الأرواح أولاً والآلهة ثانيًا ، وهو أن يقوم الإنسان بأداء أشباه الأفعال التى يريد من الآلهة أن يؤدوها له ، كأنه بذلك يغريهم بتقليده .

---

١ – المرجع السابق ، ص ١٠٢ – ١٠٩ .

وقد ارتبط السحر ارتباطًا وثيقًا بالخرافة والأسطورة ، فأسطورة الإله المبعوث تجسد هذه العلاقة ، حيث أن كثيراً من البلدان اعتقدت بضرورة التضحية والفداء ، فيضحى برجل فى وقت البذر حتى تخصب الأرض بدمائه ، ثم تطور الأمر واكتفوا بذبح الحيوان قربانًا ، حتى إذا ماحل موسم الحصاد فسروه بأنه بعث الرجل الذى مات ضحية ، فكانوا يخلعون عليه قبل موته وبعده جلال الآلهة ، ومن هذا الأصل نشأت الأسطورة التى تروى فى ألف صورة مختلفة كيف يموت الله فى سبيل شعبه ، ثم يعود إلى الحياة بعدئذ ظافراً .

٢ - **طقوس الزراعة** : تمثل الزراعة مرحلة من مراحل تطور الحضارة الإنسانية وبالتالى ظهرت معتقدات وطقوس دينية تتناسب مع عقلية الإنسان فى هذه المرحلة من مراحل التطور وكان هم الإنسان وشغله الشاغل إخصاب التربة . فبدأ يستخدم طرائق الإيحاء بالتمثيل بصفة خاصة لإخصاب التربة ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها :

* كان أرباب العلم فى زولو يشوون الأعضاء التناسلية للرجل إذا مات فى عنفوانه ثم يطحنونها رماداً يذر فوق الحقول .

* وهناك بعض الشعوب تختار للربيع ملكًا وملكة من رجالها ونسائها ، وتزوجهما فى حفل علنى ، لعل التربة تصغى إلى الحفل ومغزاه فتسرع إلى إزهار النبات ، بل إنهم فى بعض البلدان يضيفون إلى مثل ذلك الحفل أن يقوم العروسان فعلاً بعملية التزواج علنًا ، حتى لايتركوا للطبيعة عذراً بأنها لم تفهم الواجب الذى طلب إليها أداؤه .

* فى جاوه يتصل الفلاحون وزوجاتهم اتصالاً جنسيًا فى حقول الأرز ليضمنوا خصوبة إنتاجها .

* تقام أعياد يختلط فيها الجنسان اختلاطًا بغير ضابط ، وهى في معظم الحالات إنما تقام فى فصل البذر ، بمثابة أمر بوقف القوانين الخلقية حينًا ، والغاية من هذه الأعياد إخصاب زوجات من بهم عقم من الرجال من جهة ، وإيحاء للأرض فى فصل الربيع بأن تخرج عن تحفظها الذى لازمته أيام الشتاء ، لتتقبل ما بذروه فيها من بذور ، وتهيىء نفسها لإخراج نبات طيب من القوت من جهة أخرى. وتقام هذه الأعياد عند عدد كبير من الشعوب الفطرية .

* لقد اختلطت الأسطورة التى تروى عن الشمس بشعائر الزراعة اختلاطًا فيه تناسق وانسجام ، بحيث أصبحت الأسطورة التى تروى عن موت الإله وعودة ولادته لا يقتصر

مدلولها على موت الشتاء وعودة الحياة إلى الأرض فى الربيع . بل جاوزت ذلك إلى الإنقلابين الآخرين : الصيفى والخريفى ، وما يعقب ذلك من قصر النهار وطوله ، ذلك لأن حلول الليل لم يكن إلاّ جزءاً من هذه المأساة ، فإله الشمس يموت كل يوم ويولد كل يم مرة ، فكل غروب له بمثابة الاستشهاد على الصليب ، وكل شروق هو بعث له ونشور .

بذلك نستطيع القول بأن الطقوس التى صاحبت عمليات الزراعة وإخصاب الأرض كانت من أهم طرائق الدين .

٣ - **الكهنة** : لما تعددت طقوس الدين وتعقدت ، لم يعد الرجل العادي يقدر على استيعابها جميعًا والإلمام بها جميعًا ، ومن هنا نشأت طبقة خاصة أنفقت معظم وقتها فى مهام الدين ومحافله ، وأصبح الكاهن باعتباره ساحراً ، بما له من قدرة على الذهول الروحى وتلقى الوحى وتوجيه الدعاء المستجاب ، أقرب صلة بإرادة الأرواح أو الآلهة ، بحيث يستطيع تحويل تلك الإرادة إلى مافيه نفع الإنسان ، ولما كان هذا الضرب من العلم والمهارة هو فى رأى البدائيين أهم ضروب العلم والمهارة جميعًا ، ثم لما تصوروا أن القوى الخارقة للطبيعة لها أثرها فى حياة الإنسان عند كل منعطف فى الطريق ، فقد أصبحت قوة رجال الدين مساوية لقوة الدولة ، وجعل الكاهن منذ أقدم العصور إلى أحدثها ينافس الجندى المقاتل فى سيادة الناس والإمساك بزمامهم حتى راح الفريقان يتناوبان ذلك ، وحسبنا فى التمثيل لذلك أن نسوق مصر ، ودولة اليهود وأوربا فى العصور الوسطى أمثلة .

إن الكاهن لم يخلق الدين خلقًا ، لكن استخدمه لأغراضه فقط ، فلم تنشأ العقيدة الدينية عن تلفيفات أو ألاعيب كهنوتية ، إنما نشأت عن فطرة الإنسان بما فيها من تساؤل لاينقطع وخوف وقلق وأمل وشعور بالعزلة ، نعم إن الكاهن قد أضر الناس بإبقائه على الخرافة وباحتكاره لضروب معينة من المعرفة[1] .

على هذا النحو فى تتبع نشأة العقيدة الدينية وتطورها ، قدم ديورانت تفسيرات تتفق فى سياقها العام مع ماقدمه غيره من المفكرين ، إلا أنه تميز فى تفسيره بالتدليل على صحة مايقول عن طريق تقديم الأمثلة والنماذج بالإضافة إلى الإشارة لبعض الممارسات المعاصرة التى ترسبت من أفكار وعقائد وشعائر بدائية .

---

١ - المرجع السابق ، ص ١١٠ - ١١٧ .

٤ – تفسير : هـ . أوفرستريت :

لقد جاء تفسير أوفرستريت للحياة المتدنية على أساس تطور الحياة الإنسانية نحو النضج، الذى يؤدى إلى تكامل الروابط الاجتماعية حيث يقول : " إذا كان لنا أن نشرع من جديد فى وصف أسلوب الحياة المتدنية ، لوجب علينا أن نبدأ بفكرة نمو الإنسان من الطفولة إلى الرجولة، ومن الفجاجة إلى النضج ، ومن تركيز الاهتمام حول الذات إلى صبه على المجتمع والعالم بأكمله ، والواجب علينا كذلك أن نرى الفرد يسير قدمًا نحو تحقيق كل متكامل من الروابط بينه وبين الحياة " (١) .

إن أهم ما يشغل بال (أوفرستريت) هو تحقيق التكامل ونمو الانتماء نحو المجتمع ، وهو يرى أن الدين هو الرابطة التى تحقق هذا الهدف . وتأسيسًا على ذلك يفرق بين اتجاهين :

أحدهما يجعل الدين بمعنى التحريم .

والآخر يجعل الدين بمعنى الربط والتجميع . وهو ينحاز للاتجاه الثانى . يوضح ذلك فى قوله : " لانزال حتى اليوم نعانى فى ميدان الدين صراعًا بين اتجاهين . ومازال الجدل مستمراً حول ما إذا كانت كلمة " الدين " مشتقة من كلمة أخرى معناها التحريم ، أو من كلمة لاتختلف عنها إلا فى حرف واحد وتعنى الربط والتجميع .

فإذا أخذنا بالاشتقاق الأول كان الدين مجرد الامتناع عن إتيان أفعال تحتم علينا سلطة عليا ألا نأتيها ، ويؤكد الدين بهذا المعنى علاقة المحكومين بالحكام ، والعبيد بالسادة ، والأطفال بالآباء ، وهو كذلك يؤدى وظيفته عن طريق أوامر تصدر وتنفذ ، وهو يرضى عن المذلة والخضوع ، ويثبت المحسن على إحسانه بأشياء ليس من بينها المزيد من التحرر . والدافع الأساسى فيه هو خوف المحرمات ومانع المحرمات .

ونلاحظ أن ديانة التحريم إنما تخاطب عقول الأطفال ، فهى لاتشجع الفرد على أن يستكشف العالم الذى يعيش فيه ، ولا على أن يتبين بنفسه الأساليب الحكيمة فى الحياة

---

١ – اوفرستريت : العقل الناضج ، ترجمة د. عبد العزيز القوصى ، السيد محمد عثمان ، القاهرة سنة ١٩٥٧ ، ص ٣٥٨ .

فيتبعها ، وإنما هى تفرض على هذا العقل من الأفعال ما يجب عليه أن يقوم به وإلا لقى على إهماله أشد العقاب [1] .

ويختلف عن ذلك كل الاختلاف فكرة الدين بمعنى الربط والتجمع . ولعل الدين بهذا المعنى هو ماكان يقصده " وليم جميس " عندما قال : " إن الدين الخالص الذى لاتشوبه شائبة هو أن نزور اليتامى والأرامل ونشاطرهم أحزانهم دون أن نعلن على الملأ ما أتيناه من خير " ويعنى مثل هذا التصرف أول ما يعنى أننا يجب أن نتخلص من تركيز اهتمامنا على ذواتنا ، وأن ندل بما نأتيه من أفعال على أننا نشعر باهتمام إيجابى حقيقى نحو حاجات الآخرين .

ويدعو الدين بمعنى الربط والتجميع - يدعو الإنسان - إلى أن يكّون روابط ناضجة بالحياة، فينمى بذلك إمكانياته ويسير على هدى الدين . هذه الروابط هى تلك التى يبذل فيها جهد دائم مستمر للإسهام عن طيب خاطر فى جميع الحركات التى تستهدف الارتقاء بالحياة والنهوض بها. أى أنها - كما سبق أن وصفناها - الحياة الناضجة التى تكرس نفسها بحماسة وعمق بالغين للسعى وراء الكمال "[2] .

إن هذا التفسير يمكن أن نرده إلى المدرسة الاجتماعية ومدرسة التحليل النفسى . إذ أن الدين الناضج هو ذلك الدين الذى ينبع من ذات الفرد متجهًا نحو الجماعة متجاوزاً الذاتية والأنانية إلى حب الآخرين والعمل من أجلهم .

٥ - تفسير الظاهرة الدينية من وجهة نظر فلسفة التطور :

إن أصحاب فلسفة التطور على اختلاف اتجاهاتهم كانت لهم رؤية تفسيرية لنشأة الدين وتطوره ترتبط أكثر ماترتبط بالانثروبولوجيا ودراسة تاريخ البشرية .

داروين :

لقد بدأ داروين تفسيره للدين بالربط بين الإنسان والحيوان من حيث المشاركة فى الاعتقاد بالقوى الروحية " إن الاعتقاد بأن الأشياء فى الطبيعة إنما تحركها قوى حية غير منظورة هو

---

١ - إن مثل هذا القول يحمل فى باطنه دعوة للإباحة إذ يرفض قواعد الضبط بحجة الدعوة للحرية والتحرر .

٢ - المرجع السابق ، ص ٣٥٩ - ٣٦١ .

اعتقاد يؤكد داروين بأنه منتشر بشكل عام بين الأجناس البشرية التى لم تبلغ مرتبة عالية من الحضارة ، كما أنه يذهب إلى أن الامتداد الطبيعى لهذا الاعتقاد قد أدى إلى " خلق " إله أو آلهة تعكس سجاياها أفكار هذه المجتمعات وقيمها ومواقفها، إن العناصر المعقدة للورع الدينى كالمحبة والخضوع لقدرة علوية ، والشعور بالإتكال ، والخوف ، والاحترام ، والامتنان ، والأمل ، إنما تجد مصدرها فى تجارب الإنسان ضمن بيئته المادية والاجتماعية ، وهنا يشير داروين أيضًا إلى العلاقة بين الإنسان والحيوانات الدنيا إذ يجد عناصر الولاء نفسها ماثلة فى العلاقة ، مثلاً ، بين كلب وسيده " (١).

وبهذه الطريقة التى تعتمد على اعتبار الإنسان مرحلة من مراحل التطور الحيوانى البيولوجى تأتى نظرية داروين فى كتابه أصل الأنواع فترد كل تفكير إنسانى إلى أصول حيوانية ، وبالطبع واجهت هذه النظرية انتقادات كثيرة وعديدة بل إن هناك من الأدلة والبراهين مايثبت بطلانها .

هربرت سبنسر :

كان سبنسر فى مقدمة الدعاة إلى نظرية التطور الكونى " Theory of Cosmic Evolu- tion " .

وفى إطار هذه النظرية يأتى تفسيره لنشأة المعتقدات الدينية . وقد تحدث عن ذلك فى نظريته فى التسمية " Animism " أى الاعتقاد بوجود عوامل روحية . فى رأى سبنسر " أن المشاعر البدائية تشترك مع العقل البدائى لإنتاج الأفكار البدائية الأساسية ، وتطغى على نظام الأفكار البدائية المعتقدات الدينية المتأتية من عبادة السلف ، إن الإنسان البدائى مرهف الإحساس بالتغيرات الى تحيط به ، فالأشياء توجد ثم تفنى ، والشمس تشرق وتغيب ، ثم تشرق ثانية ، والغيوم تتشكل وتتبعثر لتتشكل من جديد ، والقمر يزداد استدارة ، ثم يتناقص ، ثم يعود بدراً ، والمذنبات والنيازك وأقواس القزح والبرق تظهر وتختفى . كل هذه التغيرات تدفع الإنسان البدائى للظن بأن ثمة ثنائية أساسية فى الطبيعة ؛ وجود مرئى وآخر غير مرئى للأشياء ، وبعد قليل أو كثير يخطر ببال الإنسان أنه هو أيضًا له نفسان : واحدة مرئية وأخرى غير مرئية .

---

١ - أ. كاردينر ، أ. بريبل : هؤلاء درسوا الإنسان ، ترجمة د. أمين الشريف ، دار اليقظة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٦٤ ، ص ٣٠ .

ومن ذلك تطورت فكرة الروح . إذ تنبعث في العقل البدائي ، فكرة مترتبة على وجود عالم أرواح الأسلاف ، فالأرواح هي الدوافع غير المرئية للتغير في البيئة ، وعندما يزداد تجمع أرواح الموتى تشكل هذه مجتمعًا من دوافع لاترى ولكنها فعالة وتمتد إلى كل مكان ، وعندما يزداد الإنسان فضولاً حول الحادثات الطبيعية ويغدو أكثر سفسطة من ذي قبل ، فإنه يبدأ بالبحث عن الأسباب فيقع اختياره المنطقي على أرواح الأسلاف الناشطة الموجودة في كل مكان، وهنا تتم الحلقة في حكاية سبنسر : من القبول الساذج بالتغير نشأ الاعتقاد بالأرواح، وأخيراً ويتطور المجتمع ، افترض بأن هذه الأرواح هي أسباب التغير .

للإنسان البدائي ، إذن ، مصلحة خاصة في تأليه الموتى . إن سلوكه يتأثر بالمعتقدات السارية حول الآلهة ، فيصبح الدين وسيلة للنفوذ الاجتماعي ، ويعتمد الدين مع الحكم القبلي كأساس للتماسك الاجتماعي ومن ورائهما الخوف ، بمعناه الأوسع . ويلخص سبنسر ذلك في "مبادىء السوسيولوجيا " فيقول : " فبينما يصبح الخوف من الأحياء أساسًا للتحكم السياسي، يغدو الخوف من الأموات أساسًا للتحكم الديني " .

ويتوجب أخذ الأشباح بعين الاعتبار ، فهي تمسك بقدرة الخير أو الشر للإنسان ، بإمكانها أن تجلب الصحة أو المرض ، الثروة أو الفاقة ، المطر أو الجفاف ، اللذة أو الألم ، وبما أن لها صفات الإنسان فإن لها متطلباته وغروره ، لذلك يمكن التأثير عليها عن طريق الاستعطاف ، والصلاة والتملق وتقديم الطعام وتوفير رفاق من بني البشر . هذه هي بداية العبادة ؛ فقد أفرزت أطباء ورهبانًا ، وهم الأخصائيون في فن الطقوس ، حتى لقد يفترضون في أنفسهم خواص خارقة للطبيعة ، كما تشهد بذلك مزاولتهم للشعوذة واجتراحهم للمعجزات " (١).

خلاصة القول : إن سبنسر يأتي في مقدمة الدعاة إلى نظرية التطور الكوني .وقد جاء تفسيره للظاهرة الدينية متأثراً بفرضية التطور . ونستطيع أن نحصر أفكاره في هذا المجال على النحو التالي :

١ - نظريته في التسمية . الاعتقاد بأن كل الأشياء في هذا الكون لها روح .

٢ - تطغى على نظام الأفكار البدائية المعتقدات الدينية المتأتية من عبادة السلف .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٦٢ - ٦٤ .

٣ - اعتقاد الإنسان البدائى بأن ثمة ثنائية أساسية فى الطبيعة وأنه له أيضًا نفسان واحدة مرئية وأخرى غير مرئية .

٤ - الأرواح هى الدوافع غير المرئية للتغير فى البيئة .

٥ - الخوف هو العامل الأساسى فى التحكم الدينى .

٦ - الأشباح تمثل الرؤية الأساسية لفكرة الآلهة وهى التى أدت إلى ظهور الطقوس والمراسم التعبدية لاسترضاء هذه الآلهة .

تايلور :

كان اهتمام " تايلور " منصبًا على الحضارة وقد عالج موضوع الحضارة فى كتابه " الحضارة البدائية " ، ومن المسائل الى اهتم بها إقامة الدليل على التشابه الأساسى فى العقول البشرية أو " الوحدة النفسانية لبنى الإنسان " .

وقد عرض فى دراسته لمسائل هامة تدخل فى صلب التطور الحضارى مثل : الخرافات ، والفلكلور والأديان والعادات . لقد آمن " أن المصادر الداخلية للسلوك البشرى " أى المعتقدات والمواقف التى تشكل أول المؤسسات الاجتماعية ، إنما تشتمل على أكبر الأدلة وثوقًا فيما يتعلق بتاريخ الإنسان وتطوره "[١] . وفى ذات الوقت يرى " تايلور " أن تاريخ السحر فى كل مكان يدل على ظاهرة أساسية واحدة : محاولة طرح العمليات الوجدانية للتفكير الفردى على واقع مادى ملموس . وإذا كان السحر يفسر لنا شكلاً من أشكال التطور الحضارى ويفسر العديد من أشكال التدين ، فإن الأسطورة هى التى خلقت وصورت الكثير من المعبودات أو الآلهة . اعتقد " تايلور " أن الأسطورة تجد مصدرها فى العقل البشرى عندما يكون فى حالته الطفولية ، فالأساطير كانت تمثل لتايلور محاولات يعوزها النضج ، لكنها نتيجة جهود معقولة فى أساسها ، تبذلها شعوب فى حالة تفكير طفولى لتعليل بيئتها وتجاربها ، إن " الخرافة " على حد قوله ، " إنما تروى القصة الأزلية لحياة العالم اليومية " .
وقد عرض لعدد من الأساطير وانتهى من عرضه إلى تحديد مفهوم للدين فى حده الأدنى يقوم على الاعتقاد بوجود كائنات روحية . والواقع أن روحانية " تايلور " عبارة عن نظرية جامعة لأصول الأنظمة الدينية فى كل مكان وتطورها ، وهي نظرية تطورية ، فالتسمية - أى

---

١ - المرجع السابق ، ص ٨٥ .

التسامى الروحى - تعتمد على فكرة بسيطة واحدة ، حينما يحل الناس ليلاً ، وتتراءى لهم الأشياء نهاراً ، ويموتون . فسينشأ هنالك اعتقاد بوجود كائنات روحية[١] ، وقد ترتب على هذه الرؤية عدة تفسيرات لنشأة الدين منها :

أ - الأرواح ولأشباح :

كان " تايلور " يعتقد أن فكرة الروح استنتاج غير ناضج ، لكنه معقول ، استطاع الإنسان البدائى أن يتوصل إليه ، فالإنسان المتوحش ، كأى إنسان آخر ، يتعرض يوميًا إلي طبيعة الوجود الثنائية ، هنالك ظاهرة تختفى عند الوفاة ، التنفس ، النبض ، الوعى ، والقدرة على الحركة الإرادية . على حين أن الجسم يبقى . ولكن هذا المزيج المعقد من الظاهرات المدعوة "حياة " قد اختفى ، أو " انتقل " كما نقول اليوم أن الحياة ، أو الروح قد فارقت الجسد .

والعقلية البدائية تقيم علاقة طبيعية بين هاتين الصفتين المنفصلتين للجسم - الشبح ، والروح - أو تجمعهما معًا فى رؤيا - روح أو شبح - فالشبح الروح يفسر الموت الأحلام والرؤى والنوم والإغماء والمرض والغيبوبة وما كان على غرارها ، وهذا هو المفتاح لتفسير الحالة السيكوبيولوجية للإنسان البدائى .

ب - فكرة القرابين :

يذهب " تايلور " إلي أن الشبح - الروح - للحيوان ترافق الشبح - الروح للإنسان ، وتقوم بخدمته فى العالم الآخر كما كانت تفعل فى هذا العالم ، فكانت الكلاب مثلاً ، تدفن مع الزطفال فى بعض الحضارات البدائية ، وذلك لكى تقودهم إلى أرض الأرواح . كذلك كانت الجياد تقاد إلى ضريح المحارب حيث تقتل ويدفع بها إلى القبر مع صاحبها . هكذا نشأت فكرة القربان .

جـ - فكرة وضع الأشياء مع الميت :

إن الشبح " الروح " شمل الأشياء غير الحية أيضًا ، فالأشياء تظهر فى الأحلام ، ولذلك يتوجب أن تكون لها نسخ من الأشباح إنها لاتموت كالحيوانات ، والدليل على قيام هذه الفكرة هو العادة الشائعة بإرسال الأشياء ، كالأسلحة والمعدات ، والأوانى الفخارية وغيرها إلى القبر مع الميت لكى يستخدمها فى حياته الأخرى .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٩٣ .

نحن أمام ثلاثة معتقدات عامة بشأن وجود الشبح الروح بعد الموت :

١ - الاعتقاد بأن الأشباح ترفرف حول الأرض وتبدى اهتمامًا بالأحياء ، وأنها أحيانًا تقوم بزيارة منازلها السابقة .

٢ - الاعتقاد بالتقمص - حلول الأرواح في أناس آخرين ، أو حتى فى حيوانات ونباتات وأشياء .

٣ - الاعتقاد بوجود مكان محدد فى عالم آخر تقيم فيه ، كالجزر الغربية أو العالم السفلى ، أو الجبال ، أو السماء ، وهذا الاعتقاد الأخير يقع فى واحد من تصنيفين يسميهما "تايلور " نظرية الاستمرار " و " نظرية الحساب " ففى الأولى ، تستمر الحياة بشكل مشابه للحياة الأرضية . أما فى الثانية فإن الأشباح - الأرواح تكافأ أو تعاقب بحسب أعمالها على الأرض ، وبالطبع ، فإن النظرية الثانية يكون لها أثر خاص على السلوك الاجتماعى لدى الشعوب التى تأخذ بهذا الاعتقاد .

د - المؤلهات :

المؤلهات هى أرواح لأفراد كانوا إبان حياتهم من ذوى النفوذ بالنسبة للمتعبد . وكثيراً مايكون هذا الفرد أحد الوالدين وعليه تصبح " عبادة السلف " ضربًا من عبادة المؤلهات ، إلا أنها قد تكون أيضًا روح زعيم القبيلة أو روح بطل من أبطالها أو أى شخص آخر ذى سلطان، وقد يكون هذا السلطان للخير أو للشر فيصبح تبعًا لذلك إلهًا أو شيطانًا .

يقول " تايلور " بالنسبة لعبادة المؤلهات " - " ليس بالعسير فهم مبادئها لأنها تتبع ، بكل وضوح ، نفس العلاقات الاجتماعية فى عالم الأحياء ، فالسلف الراحل . إذ يغدو الآن إلهًا . يستمر فى حماية عائلته وفى رعايتها وخدماتها كما فى السابق كذلك ، فإن الزعيم المتوفى يظل يرعى قبيلته ، ويظل يحتفظ بسطوته عن طريق مساعدة الأصدقاء وإلحاق الضرر بالأعداء ، كما لاينى يكافىء الأخيار وينزل العقاب الشديد بالأشرار " .

هـ - فكرة الحلول والتقمص :

من مظاهر الديانة البدائية الفكرة العامة بحلول الأرواح ؛ فكما أن النفس يمكن لها أن تكون داخل الجسم أو خارجه كذلك فإن للأرواح مطلق الحرية أن تحل فى الأشياء - من حية وغير حية - وأن تحل عنها . وينتج عن هذه الفكرة غايتان :

الأولى : الأستحواذ الشيطاني : يقول " تايلور " : " كما أن نفس الإنسان ، التى تسكن جسمه فى الحالات الطبيعية ، تضفى على ذلك الجسم الحياة وتتمكن من خلاله أن تفكر وتتكلم وتعمل ، فإن تكيفًا لهذا نفسه يفسر الحالات غير الطبيعية للجسم والعقل على أساس أن الظواهر الجديدة ناتجة عن تدخل كائن نفسى ثان ، أرواح غريبة . فمن الطبيعى إذن ، لمن يصاب بهذا الخلل ، إذ يتقلب ويرتجف على فراش الحمى ، وإذ يتألم ويتلوى كأن كائنًا حيًا يمزقه أو يلويه من الداخل ، فيذوى كأن هذا الكائن ينهش أحشاءه يومًا بعد يوم ، من الطبيعى له أن يجد عقله سببًا ذاتيًا وروحيًا لآلامه ، وقد يتراءى له فى أحلام بشعة نفس الشبح أو الشيطان أو الكابوس الذى يقض مضجعه . وفى الحالات ، على الأخص ، التى تعمد فيها هذه القوة الغامضة غير المنظورة إلى طرحه أرضًا فاقد القدرة ، ثم تركله وتلويه وهو يتشنج ، وتجعله بعدها يقفز على الحاضرين بقوة العملاق ووحشية الحيوان الضارى ، وتدفع به وقد تقلص وجهه وجنت حركاته ، إلى التكلم ، بصوت ليس صوته أو هو صوت لايبدو أنه صوت بشرى ، وإلى النطق بالأمر أو المشورة أو التنبوء ، كل ذلك بهذيان مفكك أو بتفكير وبلاغة أبعد من تناوله إذ يكون صاحيًا – إن شخصًا كهذا يبدو للذين يشاهدونه ، كما يبدو حتى لنفسه ، وكأنه قد غدا مجرد آلة فى يد روح استحوذت عليه أو حلت فيه ، أو عفريت يؤمن المريض فيه بشكل يجعله كثيرًا ما يتخيل اسمًا شخصيًا له يعبر العفريت عنه عندما يتكلم بصوته الخاص عن طريق أعضاء المريض الصوتية ، وأخيرًا ترحل الروح الداخلية كما أتت . تاركة وراءها جسم المريض المنهك .

إن استخدام التعاويذ ، قد ظهر كوسيلة وقائية لمعالجة حلول العفاريت ، فيعمد المعيذ إلى إزالة العفريت بالوعود والرشوة والوعيد أو بإقناعه أو دفعه إلى مسكن آخر .

الثانية الفتيشية :" Fetishism " وهى الشىء الذى تسكنه الروح ، أو الذى له مقدرة سحرية بالنظر للمواد التى يتركب منها :

تقوم عقيدة الفتيشية على أساس أن الإنسان المتوحش يستطيع أن " يضع " عفريتًا فى جسم غريب ، فإنه يستطيع كذلك أن يتحكم فى روح مفيدة لمنفعته ، وهو قد يحمل هذه الروح فى أداة يدفع بها عن نفسه الأعداء والمرض أو يقيمها كآلهة فى شكل مادى للاسترضاء والعبادة .

وتتحول الفيتشية إلى عبادة الأصنام عندما يعمد العابد لتغيير الفيتشية بشكل مادى يجعله يدل على وظيفته الخاصة كمأوى لروح من الأرواح . وتكفى عدة خدوش على لطخة من

دهان لإقامة صنم ، كما يمكن القيام بعمل أكثر عناية لتشكيل صورة محددة كما فى تمثال أو رسم . إن الأمر المهم هنا هو أن الصنم يتخذ له " شخصية " أو " نفس " الأمر الذى لايوجد فى الفيتشية الصرف ، وإذن فالصنم فى نظر " تايلور " ، يجمع ميزات الصورة مهما كانت بدائية، وميزات الفيتشية ، أن العلاقة بين الأنفس وغيرها من الأرواح تجد دعامة إضافية لها فى النظرة التالية لعبادة الأصنام : النفس والروح كلاهما قد حل فى الصنم تمامًا كما حلا فى الجسم الإنسانى ، فى بعض الأحيان على الأقل .

و - الآلهة :

إن التدرج الطبيعى يقودنا إلى تصور أنواع مختلفة من الآلهة : آلهة الغابة ، والسماء ، والأرض ، والماء ، والشمس ، والقمر ، ويتبع ذلك ظهور أنواع غير مرئية من الآلهة ، آلهة الزراعة ، والحرب ، والسلام ، والخير والشر .

وأخيراً نصل إلى الفكرة القائلة بالإله الأكبر ، إذ يرفع أحد الآلهة إلى أعلى درجات القدسية إلى ما فوق الأرواح ، والمؤلهات وأرواح الطبيعة ، وأنواع الآلهة ، فإذا التوحيد ، ذلك الإيمان العظيم لدى الشعوب المتمدينة ، قد تطور من الماضى البدائى ، وبإمكان نظرية تطورية أن تعلل التوحيد كما تعلل تاريخ الدين بكليته ، فلا حاجة إذن للوحى الإلهى[١] .

هذا مجمل آراء تايلور فى تفسير نشأة الدين وتطور العقيدة الدينية ، وهو لايختلف فى جوهره عن فلسفة التطور بل يعد تايلور واحداً من أهم بناة هذه النظرية .

جيمس فريزر :

نستطيع أن نرصد تفسير فريزر للدين وتطور العقيدة من خلال آرائه وأفكاره الواردة فى مؤلفاته ومنها :

١ - بحثه " حول بعض عادات الدفن المنبثقة عن النظرية البدائية فى الروح "

" On Certain Burial Customs As Illuarative Of the Primitive Theory Of The Soul "

٢ - مقال حول " المحرمات والطوطمية " في (دائرة المعارف البريطانية) .

---

١ - المؤلف لايرى هذا الرأى ولايوافق عليه ، فالوحى الإلهى أمر اعتقادى ضرورى لايمكن تفسير التوحيد إلا من خلاله .

٣ - كتاب الغصن الذهبى ثلاثة أجزاء .

٤ - مهمة بسيشة (Psyche's Task) .

وبسيشة (Psyche) ترمز إلى الروح فى الأساطير اليونانية .

٥ - الطوطمية وزواج الغريب (Totemism and Exogamy) .

٦ - الاعتقاد والخلود وعبادة الأموات : (The Belief In Immrotality and The Worship of The Dead)

٧ - الفولكلور فى العهد القديم : (Folk-Lore in The Old Testament) .

٨ - عبادة الطبيعة : (The Worship Of Nature) .

٩ - أرواح الذرة والقفار (Spirits of The Cornand of Wild) .

ومجمل رؤية فريزر عن الدين وما يرتبط به كما وردت فى هذه المؤلفات تشمل على القضايا الآتية :

القضية الأولى : المحرمات :

لقد نظر " فريزر " إلى المحرمات على أساس أنها أهم أصول القانون والأخلاق . يقول فى مقاله " المحرمات : « إننا لانكاد نخطىء إذا نحن اعتقدنا أن المشاعر الأخلاقية ، حق لدى المجتمعات الراقية ، ومن حيث أنها مجرد مشاعر لاتستند إلى استقراء من الخبرة . تستقى كثيراً من عزمها من مصدر بدائى للمحرمات ، إذن فعلى غصن من شجرة المحرمات طعمت الثمار الذهبية للقانون والأخلاق » .

القضية الثانية : الطوطمية :

وجه " فريزر " اهتمامه فى أربعة مجلدات ضخمة إلى عادات الطوطمية وزواج الغريب و"الطوطمية " عبارة عن نظام من صلات وثيقة وتشابه خصال بين الإنسان وشىء معين من الأشياء الطبيعية أو الاصطناعية ، وعادة مايكون ذلك نباتًا أو حيوانًا .

ويعرف " فريزر " الطوطمية " على أنها : " علاقة وثيقة يفترض وجودها بين مجموعة متقاربة من البشر ، وبين نوع من الأشياء الطبيعية أو الاصطناعية ، وتعرف هذه الأشياء على أنها الطواطم لتلك المجموعة البشرية " . كذلك أكد " فريزر " بأن العلاقة بين الفرد وطوطمه

هى أبداً علاقة صداقة وقربى بلغت فيها المساواة أو التشابه (أو الاثنين معًا) حد التمام . وعلى ذلك فإن " الطوطمية " بشكلها الخاص جب ألا تفسر على أنها دين ، لأن الدين يفترض وجود علاقة بين الفرد وسلطة أو سلطات عليا . وكان " فريزر " فى السابق قد دمج الطوطمية " مع الدين وهذا خطأ يحذر منه ، ومع أن " الطوطمية " تطورت فى بعض الأحيان إلى دين بسبب عبادة آلهة شبيهة بالإنسان لها صفات الحيوانات والنبات ، فإن " فريزر " يحذر من الافتراض بأن ذلك يشكل ، بالضرورة ، الشائع من الحالات .

ما أصل الطوطمية ؟ يقدم " فريزر " ثلاث نظريات متباينة حول أصل الطوطمية هى :

النظرية الأولى :

إن الطواطم قد نشأت حين أودع أحد الأفراد روحه فى شىء ما . كنبات أو حيوان مثلاً ، للحفاظ عليها ، وإذ يفقد هذا الفرد أثر النبات أو الحيوان المعين الذى أودعه روحه ، نجده يلجأ إلى نوع النبات بأجمعه ليدمج نفسه فيه ، إلا أن الدلائل التى تجمعت " لفريزر " فيما بعد أقنعته ببطلان هذه النظرية .

النظرية الثانية :

افترضت هذه النظرية أن الطوطمية قد صممت عن وعى لتكون أداة تطبيق سحرية للحياة الاقتصادية . وعليه فإن القبيلة تقسم إلى شيع طوطمية حيث تكون كل شيعة مسئولة ، بطريق السحر ، عن تأمين كمية كافية من حيوانها أو نباتها لاستهلاك المجموع . وقد رفض "فريزر" هذه النظرية بعد مدة نظراً لأنها تفترض وجود دوافع عقلانية أبعد من إحاطة الإنسان البدائى وفهمه .

النظرية الثالثة :

أطلق " فريزر " على هذه النظرية اسم " نظرية الحمل الطوطمية (Conceptions of Totemism) .

فإنها تعتبر أن انتماء طفل ما إلى طوطم معين إنما تحدده تخيلات الأم فى اللحظة الأولى التى تشعر بها يتحرك الجنين فى أحشائها ، لقد اعتمدت هذه النظرية على افتراض أن الأم تعتقد ، نظراً لجهلها أسباب الحمل والولادة ، بأن الطفل قد دخل جسدها فى اللحظة التى شعرت فيها بوجوده لأول مرة ، وإذ تفتش الأم عن سبب خارجى لدخول الطفل . فإنه من

المحتمل أن تتعلق بشيء كانت قد رأته أو شعرت به قبل " الحمل " مباشرة . ويمكن لهذا بالطبع أن يكون حيوانًا أو نباتًا أو حجراً أو أى شيء آخر ، وعندئذ يعتبر ذلك الشيء على أنه كان مسكن روح الطفل . إن هذه النظرية تشكل بالنسبة " لفريزر " حلاً لمشكلة الطوطمية ذلك لأن الفرد ، كما يشرح فريزر " (كان يعتقد بأنه هو الشيء بنفسه ، سواء أكان حيوانًا أم نباتًا أم غير ذلك ، الذى ولج رحم أمه فى لحظة الحمل وخرج منه ساعة الولادة) وعليه ، فإننا نجد المصدر الأخير للطوطمية فى جهل الإنسان البدائى بالأبوة .

القضية الثالثة : الخرافة :

يقول " فريزر " : " إنه وإن كانت الخرافة شراً فى أغلب الأحيان ، إلا أنه قد كان لها أثر إيجابى للإنسانية نظراً لما أدت إليه من احترام السلطة والعزوف عن عدة أشكال من العنف " وعلى هذا فقد لعبت الخرافة دوراً هامًا فى إبراز سلطة الدين ، إن الخرافة تشرح لنا تسلل حكم الكهنة فى أية ديانة مقدسة ، حيث تصور قدرة الكاهن على صنع المستحيلات وامتلاكه للقوى الخارقة التى يمتلكها القادة المقدسون ، أو الملوك ، الذين حباهم الشعب بسلطات علوية، لقد لعبت الخرافة دورها كهيكل مناسب لإعادة تشكيل تطور التفكير البشرى والعادات البشرية .

القضية الرابعة : السحر والدين والعلم :

يعتقد الإنسان ، بادىء ذى بدء ، أن بإمكانه التحكم فى الحادثات الخارجية عن طريق السحر ، لكنه سرعان ما يشعر بعجزه إذا كان ذكيًا فيلقى بنفسه أمام القوى العشوائية لإرادة قدسية . هذا هو الدين الذى ، على حد تأكيد " فريزر " ، " لايؤثر إلا فى من بلغوا مراتب الذكاء العليا " ويصل الإنسان أخيراً إلى العلم ، الذى يمثل فى بعض نواحيه ، تحقيقًا للأحلام التى رافقت المرحلة البدائية من السحر .

إن السحر قد نشأ فى المجتمع البدائى تلبية لاحتياجات الإنسان فى تفسير ظاهرة عجز عن الوصول إلى أسبابها الحقيقية أو هو محاولة للسيطرة على القوى التى تهدد حياته ، لذلك يرى " فريزر " أن السحر هو ضرب من العلم الفاسد والفن الفاسد يحاول الإنسان البدائى بهما أن يتحكم فى الطبيعة .

إن الإنسان البدائى يعتقد أن قواعد فن السحر لديه هى نفسها قوانين الطبيعة وأن تأديته لعمل معين سيؤدى إلى حصول الحادث الطبيعى المرتبط بذلك العمل .

إذ إن جميع الاحتفالات والطقوس والتعاويذ السحرية مبنية على مبادىء السحر التعاطفى "Sympathetic Magic" .

إن السحر فى أصفى أشكاله ، والساحر كذلك ، هو صاحب السلطان على الطبيعة " إنه لايتوسل إلى قدرة أكبر منه : فلا يستجدى العطف من مخلوق متقلب ضل السبيل ، ولا يذل نفسه أمام أية آلهة مرهبة " إنه وحده يحمل فى يده القدرة على التحكم فى العالم ، إلا أنه يتوجب عليه أن يتقيد بالقواعد بشكل صارم فالخطأ غير مسموح به . إن عليه أن يتبع أوامر الطبيعة بكل دقة .

ولاستخدام السحر فى الحضارات البدائية نتائج اجتماعية مهمة بالطبع ، فميزان القوى الاجتماعية سوف ينتقل من عديد الناس إلى الفرد عندما يتخذ بعض الأفراد النابغين دور ساحر القبيلة ويصبح ، فيما بعد ، ملكًا عليها . وهنا بحسب اعتقاد " فريزر " ، نجد نشأة الاستعلاء الاجتماعي والمطالب الفردية ، وهى خطوات ضرورية فى تطور الإنسان .... إن النتيجة العامة هى أن السلطة العليا فى هذه المرحلة من التطور الاجتماعى كانت تميل إلى الوقوع فى أيدى رجال بلغوا حداً كبيراً من الذكاء وقلة الضمير .

هذا عن السحر ؛ أما الدين فيختلف فى جوهره ومضمونه عن السحر . إذ يرى " فريزر " أن الدين مبنى على فكرة تختلف اختلافًا كليًا عن فكرة السحر ، بل هى فى الواقع على نقيض منها . يقول " فريزر " : إننى أفهم الدين على أنه إرضاء أو استرضاء لقوى أعلى مقامًا من الإنسان يعتقد أنها توجه مجرى الطبيعة والحياة البشرية ، وتتحكم فيهما " إن فكرة التجانس فى الطبيعة قد ألغيت فى الدين فبإمكان المرء أن يسترضى هذه القوى المتحكمة أو أن يتوصل إليها أو يقنعها ، أو يرشوها ، أو يرهبها لكى تغير مجرى الحادثات الطبيعية والبشرية . إن الدين فى رأى " فريزر " لايمكن له أن يظهر إلا بعد أن يكون الإنسان قد بلغ طوراً أعلى من الذكاء يستطيع معه أن يشعر بعجزه ، لذلك وجب أن يكون الدين قد جاء فى أعقاب السحر فى تطور الإنسان [١].

لقد اعتمد فريزر فى تفسيره لنشأة الدين على متابعة تطور الفكر الإنسانى والذى مر بمراحل مختلفة هى مرحلة الخرافة والسحر ، ومرحلة الفهم الدينى الصحيح ، ثم مرحلة العلم .

---

١ - المرجع السابق : ص ١٠٧ - ١٤٩ .

فالأفكار والعقائد والطقوس هى انعكاس لطبيعة الإنسان وقدرته على الفهم والتعليل . فعند عجزه عن إدراك العلل الحقيقية يقوم بتفسير ظواهر الطبيعة تفسيرات تعتمد أكبر ما تعتمد على الخرافة .

أميل دوركايم :

عالج " دور كايم " موضوع الدين فى آخر مؤلفاته لكبرى " الأشكال الأولية للحياة الدينية Elementary Forms of The Religious Life لقد تبين " لدور كايم " فى مرحلة مبكرة من حياته العملية بأن مجال الدين يشكل مصدراً مهمًا لمادة السوسيولوجيا ، وعندما صرف جهده إلى دراسة الدين قرر ألا يقوم بتحقيق جامع فى هذا المجال ، بل اختار حالة خاصة لدراستها بكشل مركز عميق ، ألا وهى الطوطمية الأسترالية . وقد باشر هذه الدراسة بالافتراضات المألوفة بوجوب النظر إلى الدين ، كأى مؤسسة اجتماعية أخرى ، على أنه استجابة لمتطلبات اجتماعية محددة وأنه كظاهرة اجتماعية ، وليد تفكير جماعى ، ويحدد " دور كايم " الدين على أنه " نظام موحد من المعتقدات والممارسات حول أمور مقدسة ، أى أمور فصلت عما سواها واعتبرت ممنوعة - معتقدات وممارسات تضم كل الذين يأخذون بها إلى مجموعة أخلاقية واحدة تدعى الكنيسة " ثم إنه يصر منذ البداية على أن الدين لابد وأن تكون له أصول ترتكز إلى واقع ملموس ، إذ أن ظاهرة مستمرة وعامة كالدين لا يمكن أن ترتكز على الوهم .

يميز " دور كايم " بين أمرين أساسيين لدراسته كلها :

الأمر الأول : التمييز بين المعتقدات والطقوس كمراتب من الظاهرات الدينية فهو يفصل بين عناصر التفكير وعناصر الحركة فى الدين .

الأمر الثانى : التمييز بين ما هو مقدس وما هو دنيوى : وهنا يميز بين المواقف الدينية وغيرها من المواقف البشرية الأخرى .

أصول الأفكار المقدسة :

يرى " دور كايم " أن الشىء المقدس هو رمز ، إنه " يمثل " واقعًا ما ، وهو لايهدف إلى كشف أصول الأفكار والأشياء المقدسة ، بل يهدف إلى الوقائع التى ترمز تلك الأشياء إليها ، و " دور كايم " صاحب النزعة الوضعية يؤكد على أن " وقائع " كهذه يجب أن تمكن مشاهدتها

- هذه " الوقائع " هى المجتمع ، إذ أن المجتمع وحده هو الذى تمكن مشاهدته ممارسًا السلطة الأخلاقية . فالدين إذن هو رمز المجتمع وقد رفع إلى مقام لاينال من السلطة الأخلاقية ، إن المجتمع كتعبير للمشاعر الجماعية للشعب ، هو فوق كل شىء ، واقع أخلاقى ، والدين هو التمثيل المحسوس لهذا الواقع ، إن المجتمع بالنسبة " لدور كايم " هو ظاهرة دينية أكثر من أن نقول بأن الدين هو ظاهرة اجتماعية . والواقع أن " دور كايم " يقول : بأن أكثرالمؤسسات الاجتماعية الكبرى إنما ولدت فى الدين " وإنه إذا كان الدين قد أنجب كل ماهو ضرورى للمجتمع ، فما ذلك إلا لأن فكرة المجتمع هى روح الدين " .

لايمكن لمجتمع ما أن يبقى إلا إذا بقيت شروط التماسك والتعاون لديه دون أن تمس . وهذا أمر يحتاج إلى دعم وتأكيد مستمرين - إلى " إعادة تكوين أخلاقى " . ويمكن تحققه عن طريق ممارسات ومثل عليا دينية يمكن معها التعبير والشعور بالأحاسيس . والمواقف والمشاعر الضرورية ، ولو كان ذلك على مستوى رمزى .

مهمة الدين ، إذن ، هى أن يرعرع وأن يُديم ، فى الغالب على مستوى لاشعورى ، ذلك الطراز من السلوك البشرى اللازم للبقاء الاجتماعى : قيود على إرضاء النزوات الشخصية ، تضحية فى سبيل قضية اجتماعية ، ميل للتعاون ، والاعتراف بوجود قدرة تفوق قدرة الفرد ، وبهذه النظرة إلى الدين يصبح فى حيز الإمكان ، على سبيل المثال ، أن تتفهم المعنى الذى يكمن فى بعض الطقوس الدينية التى تبدو غير معقولة البتة لو أخذنا بأى نظرية أخرى . إن الفصل ما بين المقدس والدنيوى من الأشياء ، يجعل " العبادة السلبية " مانعة لحرية الحركة بالنسبة لبعض الأشياء والحوادث ومؤدية إلى الامتناع والتقشف وتقبل الألم ، وعلى الصعيد الإيجابى ، فإن بعض الممارسات ، كالطقوس القربانية ، تؤدى إلى شعور بالمشاركة وبالاعتماد على قوى فوق قوى الفرد[1].

من الطبيعى أن يأتى تفسير الدين عند دوركايم ذا طابع اجتماعى فهو من أعظم مفكرى الاتجاه الوضعى ورائد من رواد علم الاجتماع فالدين هو المكون للنسيج الاجتماعى وهو الضمان لاستمرار الحياة الاجتماعية وبقائها بل هو أصل كل المثل الاجتماعية العليا .

---

١ - المرجع السابق ، ص ١٧٧ - ١٧٩ .

ما سبق كان عرضًا موجزاً لرأى أصحاب فلسفة التطور وأصحاب الاتجاه الوضعى . وقد ارتكزت تفسيراتهم لنشأة الدين وتطوره حول التفكير السائد عند البدائيين وقد شملت رؤيتهم هذه على علاقة الأسطورة والخرافة والسحر بالدين وكذلك علاقة الدين بأنماط التفكير السائد فى مجتمع ما ، بالإضافة إلى ظهور السلطة بمفهومها السياسى والاجتماعى والدينى وعلاقة ذلك بالمعتقد .

نظرة القرآن حول تاريخ الأديان :

القرآن الكريم عالج كثيراً من المعتقدات التى سادت عبر تاريخ البشرية مستخدمًا أسلوب الحوار تارة وأسلوب القص والحكاية تارة أخرى وجاءت معالجته مرتكزة على إظهار أوجه الفساد والبطلان فى كثير من المعتقدات التى سادت قبل الإسلام موضحًا مواطن الفساد وأوجه الانحراف عن الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها .

وقد قدم القرآن " أول تصنيف لأديان العالم استناداً إلى الوحى ، واستخدم مصطلح أهل الكتاب ليفرق بين ثلاثة أصناف من الأديان : أديان لها كتب مقدسة ، وأديان لها شبه كتاب، وأديان لاتملك كتبًا مقدسة "(١) .

ومن الجدير بالذكر أن الإسلام يقرر فى وضوح أن نزعة التدين أصيلة فى الفطرة ، "والفطرة هى الطبيعة ، والفطرة من صنع الله كما قال عز وجل ﴿ فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ﴾ «الروم: ٣٠» ، ويشرح " أوجست سبانيه " مصدر التدين موضحًا ضرورة التدين فيقول : " لماذا أنا متدين ؟ إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا وأرانى مسوقًا للإجابة عليه بهذا الجواب وهو : أنا متدين لأنى لا أستطيع غير ذلك ، فالتدين لازمة معنوية من لوازم ذاتى ، يقولون إن ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج ، فأقول لهم قد اعترضت على نفسى كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ، ولكنى وجدته يزيد المسألة تعقيداً ولايحلها، وأن ضرورة التدين أشاهدها أكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية ، فهى ليست أقل تشبثًا منى بأهداب الدين ... إلى أن قال : وإذن فالدين باق وغير قابل للزوال ... وهو فضلاً عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعًا وعمقًا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة " .

---

١ – د. محمد خليفة حسن : تاريخ الأديان دراسة وصفية مقارنة ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ٦٢ .

ويقول " أرنست رينان " في كتابه " تاريخ الأديان " من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه ، وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والجسدية ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين أو يتلاشى ... بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يهدف إلى حصر الفكر الإنسانى فى المضائق الدنيئة للحياة الأرضية "[1] بهذا الاستشهاد يدلل محمد فريد وجدى على أن الدين ضرورة وهذه الضرورة جبلة خلق الإنسان مطبوعًا ومفطوراً عليها . والإنحراف عن هذه الفطرة خروج على الطبيعة الإنسانية كما خلقها الله وأرادها نقية صافية طاهرة " ولأن الفطرة بطبيعتها تندفع إلى الإيمان .. نرى أن التزييف لهذه الفطرة ... يحتاج إلى بذل جهد ... وهو جهد شيطانى يحول تلك الفطرة عن طريق الرحمن إلى طريق الشيطان ، وإليه يشير الرسول الكريم { ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه} " رواه البخارى ".

إن ذلك يعنى أن الإنحراف عن الفطرة من تأثير البيئة الاجتماعية والفعل شاذ بعيد عن الوعى بحقيقة الوجود الإنسانى .

ولقد تحدث القرآن عن عقائد انحرفت عن الفطرة منها :

١ - **عبادة الأشخاص** : فهذا فرعون بما أوتى من ملك وقوة وسطوة يدعى الألوهية وينساق بعض الناس لتصديقه مخافة منه يقول تعالى ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحًا لعلىِ أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾ « القصص : ٣٨ » ، ويقول فى موضع آخر مخاطبًا موسى : ﴿ إذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ « النازعات : ١٧ - ٢٤ » .

ويقدم القرآن صورة أخرى من صور تأليه الإنسان فى سورة البقرة وذلك فى قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين ﴾ .

---

١ - محمد فريد وجدى : الإسلام دين الهداية والإصلاح ، مكتبة الكليات الأزهرية ، سنة ١٩٦٩ . ص١٠ .

٢ - **السحر والسحرة** : لقد انبهر الإنسان بسلطان السحرة وتوهم أن للسحرة قوة التغلب على القوى العظمى التى لايستطيع مواجهتها . وقد عبر القرآن عن ذلك . قال تعالى : ﴿قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ « الأعراف : ١١٦ » إلا أن القرآن يؤكد على أن السحر من الكيد ومن الضلال وأنه وهم لا حقيقة . قال تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ «البقرة : ١٠٢» . ويؤكد القرآن على أن ما يقع من السحرة يريدون به الكيد والتعمية على الغير ولا نتيجة مؤثرة لهذا السحر . يقول تعالى : ﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما فى يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ «طه : ٦٧ - ٦٩» .

ويقول فى موضع آخر ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنَّ هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولايفلح الساحرون ﴾ « يونس : ٧٦ - ٧٧ » .

ويؤكد القرآن أن السحر خيال وليس حقيقة وهم يقع فى النفس دون أن يكون له وجود فى الواقع . قال تعالى : ﴿ قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يُخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ « طه : ٦٦ » .

٣ - **عبادة الكواكب** : يحكى القرآن ماكان من أمر بلقيس وقومها وكيف أنهم كانوا يعبدون الشمس من دون الله . قال تعالى : ﴿ إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون ﴾ « النمل : ٢٣ - ٢٤ » .

٤ - **عبادة الأصنام** : يقص القرآن ماكان من قوم موسى مع نبيهم عليه السلام . حيث يقول المولى عز وجل ﴿ وجوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾ « الأعراف : ١٣٨ » .

ويحكى القرآن فى موضع آخر ما قال إبراهيم لأبيه آزر معاتبًا وحذراً ، قال تعالى " { وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصنامًا آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين } « الأنعام : ٧٤» وفى موضع آخر يشرح لأبيه وقومه فساد عقيدتهم . يقول تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم.

إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ « الشعراء : ٦٩ - ٧٤ » .

وتبلغ السخرية من عبدة الأصنام مداها حين يخاطب إبراهيم قومه موضحًا ما هم فيه من ضلال . يقول تعالى ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا ءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم إن كانوا ينطقون ﴾ « الأنبياء : ٥١ - ٦٣ » .

٥ - **من اعتقد أن لله والدة وولداً وصاحبة** : يوضح القرآن ما اعتقد به بعض الناس من كونه تعالى له بنين وبنات . ويبطل ما اعتقده . يقول تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ﴾ « الأنعام : ١٠٠ - ١٠١ » وينفى القرآن أن يكون له تعالى صاحبة ولا ولد . ويقول تعالى ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ﴾ « الجن : ٣ » .

ويذكر القرآن فى مواضع كثيرة الادعاء بأن لله ولداً ويسفه هذا القول ويدلل على بطلانه . يقول تعالى : ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة إناثًا وهم شاهدون . ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾ « الصافات : ١٤٩ - ١٥٢ » .

ويقول فى موضع آخر : ﴿ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السماوات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ « يونس : ٦٨ » .

ويقول تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ « الكهف : ٤ - ٥ » ويقول : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ « الأنبياء : ٢٦ » ، ويقول تعالى : ﴿ الذى له

ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كلْ شىء فقدره تقديرا ﴾ «الفرقان : ٢ » .

٦ - **تقليد الآباء والأجداد** : ينعى القرآن على أصحاب التقليد خصوصًا فى مجال العقيدة لأن التقليد فى الغالب الأعم يميل بالشخص كل الميل عن الحق . يقول تعالى : ﴿ وإذ قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أوَلَوْ كان أباؤهم لا يعلمون شيئًا ولايهتدون ﴾ « المائدة : ١٠٤ » .

ويقول تعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ « الأعراف : ٢٨ » ، ويقول تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه أباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ « لقمان : ٢١ » ويقول أيضًا : ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ « الزخرف : ٢٢ » .

٧ - **الكهانة** : الكهانة تمثل وساطة بين الله وبين البشر اخترعها بعض أصحاب النفوذ والسلطان لاستذلال البشر واستغلالهم أسوأ استغلال . والقرآن يرفض أية وساطة بين الله والإنسان ويقرر ذلك فى أكثر من موضع يقول تعالى ﴿ ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون إن الله لايهدى من هو كاذب كفار ﴾ « الزمر : ٣ » ويقول تعالى : ﴿ قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعًا ولاضراً قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾ « الرعد : ١٦ » ويقول تعالى : ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلاً ﴾ « الكهف :١٠٢» .

ويقول أيضًا : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ﴾ « الشورى : ٦ » ويقول : ﴿ من ورائهم جهنم ولايغنى عنهم ما كسبوا شيئًا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ﴾ « الجاثية : ١٠ » ، ويقول جل شأنه : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ « التوبة : ٣١ » .

بهذا وبأمثاله كثير يؤكد القرآن على بطلان الوساطة بينه وبين عباده ويسفه هؤلاء الذين اتخذوا من البشر أربابًا آلهة من دون الله عز وجل .

والقول الفصل أن القرآن رفض كل هذه الأشكال من العقائد الباطلة ويؤكد على الفطرة السليمة التى تعتقد فى إله واحد لامعبود سواه .

قال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذى تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين . ولاتدع من دون الله ما لاينفعك ولايضرك فإنك فعلت فإن إذا من الظالمين ﴾ « يونس : ١٠٤ - ١٠٦ » ويقول جل شأنه : ﴿ قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ﴾ « الأنعام : ٥٦ » ويقول : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب ﴾ « الرعد : ٣٦ » ، ويقول : ﴿ مالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ﴾ « يس : ٢٢ » ، ويقول : ﴿ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصًا له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ « الزمر : ١١ - ١٢ » .

ويقول : ﴿ واتبعت ملة آباءى إبراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون . ياصاحبى السجن ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا أياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ « يوسف : ٣٨ - ٤٠ » .

بهذا وبأمثاله كثير تأتى آيات القرآن لتصحيح العقائد الفاسدة وتحدد منهج العبودية لله وحده وتكشف عن زيف الشرك بكل أشكاله وبطلان كل العقائد التى سادت قبل الإسلام وانحرفت عن الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

وبعد :

عرضنا فى هذا الفصل نشأة الدين وتطور العقيدة الدينية منذ بداية التفكير البدائى بأشكاله المختلفة ... وقد وقفنا عند أصحاب الفلسفات المختلفة التى حاولت تفسير نشأة الدين وتطور العقيدة الدينية ، وهى فلسفات اهتمت ببعض الجوانب وأغفلت جوانب أخرى فهناك أصحاب فلسفة التطور وأصحاب الاتجاه الوضعى وأصحاب التفسير النفسى . وكان حسن الختام باستعراض موقف القرآن الكريم من تاريخ الأديان وكيف استعرض كل أشكال العقائد ثم حسم الأمر بالدعوة إلى التوحيد الخالص .

الباب الثانى

الأديان الوضعية

الفصل الأول : الديانة المصرية .

الفصل الثانى : أديان الهند .

الفصل الثالث : أديان فارس .

الفصل الرابع : أديان الصين .

الفصل الأول
الديانة المصرية

إن أعظم ظاهرة أساسية فى تقدم حياة الإنسان هو نشوء العقيدة الدينية . ذلك أن الدين هو أساس المبادىء الخلقية ، تلك المبادىء التى تضبط سير الحياة نحو التقدم والرقى .

ومما لاشك فيه « أن ديانه أى شعب تتأثر بطبيعة البلاد التى يسكنها والحياة التى يحياها. فبيئة الإنسان الذى يسكن شواطىء البحار تختلف كل الاختلاف عن بيئة ذلك الذى يسكن الغابة أو السهل ، وليس من شك فى أن الشعب الذى يعيش مستقراً فى حقوله الخصبة يفكر فى آلهة تختلف فى كنهها عن تلك التى يتخيلها شعب فقير يتنقل بين مكان وآخر لايعرف الاستقرار ولايستسيغ إلا الكفاح . ومن هنا اتخذت الديانة المصرية لنفسها طابعًا خاصًا يتفق مع الحياة الهادئة والعمل المستمر الذى تحتمه البيئة التى يعيش فيها المصرى الذى تعود أن يزرع حبوبه ويربى قطعان ماشيته ، ويرى نيله يفيض كل عام على حقوله فيترك غرينه الذى يكسب الأرض خصوبة وحياة » [١]. إن وراء ذلك موقع مصر المتميز الذى منحها وضعًا خاصًا بين دول وشعوب المنطقة : يقول جمال حمدان : " مصر إذن تكاد تنفرد بأنها تجمع فى تناسب نادر بين قدر من عزلة فى غير توقع وبين قدر من احتكاك لايصل إلى حد التميع ، وبهذه المعادلة الدقيقة تحتفظ بكيان وشخصية متميزة قوية ، ومرة أخرى نرى أصل هذه الخاصية يكمن فى الجمع بين نقيضى الموقع والموضع ... ونحن نستطيع أن نرى أن التناسق الدقيق بين أثر الموقع والموضع فى مصر قد زاوج فيها بين العزلة والاحتكاك فى زواج سعيد ، أخذ من كل منهما محاسنه دون أضداده ، وجعل منها منطقة اتصال Zone of Junction ومنطقة انفصال Disjunction فى الوقت نفسه ، وبالتالى منطقة توصيل وتأصيل معًا ، فلم تكن مصر مجرد منبع لحضارة حفرية آسنة ، ولامصبًا فقط لكل وباء أو نزوة حضارية وافدة ، بل كانت دائمًا منبعًا ومصبًا معًا تأخذ وتعطى أبداً ، ومن هنا حيوتها التاريخية وبقاؤها ، إن هذا التناسق الدقيق هو مفتاح جوهرى لشخصية مصر التاريخية ، وبه نستطيع أن نحلل كيانها الحضارى ماكان منه وماسيكون " [٢].

---

١ – أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ترجمة د. عبد المنعم أبو بكر ، د. محمد أنور شكرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ ، ص ٥ .

٢ – د. جمال حمدان : شخصية مصر ، جـ٢ ، عالم الكتب ، سنة ١٩٨١ ، ص ٣٦٤ – ٣٦٧ .

إن التفاعل بين مصر وجيرانها أثرى الحضارة الإنسانية وأضاف ملامح حضارية لم تزل حتى اليوم مثار اهتمام الباحثين والدارسين واحتفظت مصر بشخصيتها الفريدة على الرغم من هذا التفاعل .

« لقد كانت لمصر حضارة ومدنية منذ فجر التاريخ ، وكان لغيرها من شعوب الشرق حضارات ومدنيات ، وكما أعطت مصر لغيرها أخذت منهم كثيراً ، ولكن بقى لمصر دائمًا طابعها الشخصى وبقيت لها مميزاتها لأنها نشأت وترعرعت فى ثرى هذا الوادى الكريم ، لقد أثبت المصريون فى كل زمان أنهم يدركون قدر أنفسهم ويدركون التبعات التى ألقاها على كاهلهم مركزهم الجغرافى فى هذا الجزء من العالم » [١].

على أرض مصر وبفضل كثير من العوامل الذاتية والموضعية ظهرت المدنية تحمل العديد من القيم النفسية والاجتماعية مالم يكن قد عرفه العالم بعد « فى ذلك العصر السحيق ... بدأ الانتقال من الوحشية إلى المدنية بكل مظاهره الخارجية فى الفن والعمارة من لاشىء. وليست أهمية ظهور المدنية فى وادى النيل منحصرة فى بهاء مبانيها فحسب بل لأنه كان أيضًا تطوراً اجتماعيًا مستمراً دون أى عائق أكثر من ألف سنة أشرق لأول مرة على كرتنا الأرضية . مقدمًا لنا أول برهان على أن الإنسان الذى هو أرقى المخلوقات الفقرية التى ظهرت على وجه البسيطة أمكنه أن يخرج من الوحشية إلى المثل الاجتماعى الأعلى ويظهر الحياة الإنسانية بمظهر لم ير الكون كله على ما تعلم أرقى منه » [٢].

وقبل أن نبدأ الحديث المفصل عن الديانة المصرية القديمة ينبغى لنا أن نعرض لبعض النقاط:

أولاً : أهم مصادر التاريخ المصرى القديم :

يقدم الدكتور أحمد فخرى مصادر ثلاثة اعتمد عليها فى دراسته لتاريخ مصر . وسنذكر هذه المصادر بإيجاز .

١ - الآثار المصرية وما تمدنا به من معلومات ، ويستوى فى ذلك ماهو مسطر على جدران المعابد والمقابر أو على التماثيل ولوحات القبور ، أو على قراطيس البردى أو التوابيت أو أى

---

١ - د. أحمد فخرى : مصر الفرعونية ، الأنجلو المصرية ، سنة ١٩٩١ ، ص ١١ .

٢ - بيرستيد : فجر الضمير ، ترجمة : د. سليم حسن . الألف كتاب ١٠٨ ، مكتبة مصر ، ص ٣١ .

نوع من أنواع الآثار الأخرى سواء أكانت صغيرة أو كبيرة ، مكتوبة أو غير مكتوبة ، أى كل ما خلفه المصريون من معلومات . ويشمل ذلك أيضًا ماكتبه المؤرخ المصرى مانيتون .

٢ - ماورد فى بعض المصادر الأجنبية المعاصرة لفترات من الحضارة المصرية مثل ما جاء فى بعض المصادر البابلية أو الحيثية (الخيتية) أو الأشورية وغيرها .

٣ - ماكتبه رحالة اليونان والرومان الذين زاروا مصر ، وكتبوا وصفًا لها وضمنوا كتاباتهم شيئًا من تاريخها[١] .

وترجع أهمية هذه المصادر لكونها مدونات وشهادات أصيلة تعين على التعرف على التاريخ الحضارى لمصر ومكانة الحضارة المصرية بين الحضارات المعاصرة لها .

ننتقل من ذكر المصادر التى تتحدث عن تاريخ مصر العام إلى الحديث عن :

ثانيًا : أهم الأسس لتفهم الديانة المصرية القديمة :

١ - الرمز ودوره فى تحديد ملامح هذه الديانة :

لقد حرص المصرى فى كثير من الأحوال أن يرمز لبعض آلهته بنوع من الحيوانات « وكثيراً ما اختار بعض الحيوانات المفزعة مثل التمساح والثعبان ، كما اختار أحيانًا بعض الحيوانات النافعة مثل التيس والثور والبقر من قطعانه ، وكثيراً ما اختار أنواعًا أخرى من الحيوانات التى شغلت تفكير الرجل الساذج بحركاتها وأعمالها كابن آوى الذى يتسلل ليلاً من الصحراء متجهًا نحو الأماكن التى اختارها المصرى لدفن موتاه » .

واعتقد عباد هذه الحيوانات أنها تحوى شيئًا إلهيًا فى نفسها ، بمعنى أنه إذا أراد أحد الآلهة أن يجسد نفسه للبشر فإنه يختار حيوانًا ترمز بعض صفاته إلى ما لهذا الإله من صفات. ولكن من المعروف أن الإله لايكون مجسداً فى كل بقرة أو فى كل تمساح ، وبرغم كل الاحترام الذى يحيط به المتعبد تلك الحيوانات ، فإنه لايمكن أن يأتى يوم يذبح فيه البقر ويقتل التمساح ولايرى فى هذا عملاً إجراميًا . وفى بعض الأحيان تحتفظ مدينة ما بنموذج واحد من هذه الحيوانات كمثل للإله ، معتقدة أن جزءًا من الشخصية الإلهية تسكن فيه بصفة مستمرة. كما أن الإله يختار عادة سكنًا آخر له ، فهو يسكن بيته فى معبده حيث يحفظ تمثاله المقدس

---

١ - د. أحمد فخرى : مرجع سابق ، ص ٦٠ .

الذى تنزل عليه روح الإله ، والذى فى شكل حيوان أو آدمى ، ويحدث أيضًا أن التقديس لايوجَّه نحو تمثال الإله ، بل نحو أى شىء آخر من الجماد تكون قدسيته قد اكتسبها لسبب من الأسباب »[١] .

ولقد تأثرت الرموز الحيوانية بمراحل الغزو المتعاقبة وأصبح للرمز دلالة سياسية تعبر عن سلطة المعبود لدرجة أن تحول الرمز إلى ما يشبه الطوطم يميز المقاطعات والأقاليم المختلفة . يقول نقولا جريمال : " تظهر الوثائق ارتباطًا بين الرموز الحيوانية وبين مراحل الغزو المتعاقبة مما يشير إلى اندماج الأسطورة فى التاريخ اندماجًا مباشراً ، وقد خلص العلماء إلى أن الشارات التى عاشت على امتداد الحضارة المصرية رمزاً للمقاطعات التى تنقسم إليها البلاد ، لها أصول طوطمية فى إطار ديانة تقدم تفسيراً للوجود ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات (Moret: 1923) والشارات هى رموز واضحة ومؤكدة : فيمثِّل « أبو حراب » الناهض فوق حامل منطقة بنى حسن ، و « الأرنب » منطقة الأشمونين المجاورة ، و « السمكة » منطقة منديس فى الدلتا إلخ .. ومن المغرى حقًا أن ننظر إلى الأمر على اعتبار أن الشارة رمز يعبر عن اتحاد يضم وحدة جغرافية أو وحدة قبلية التفت حول أحد الأرباب . ونذكر على سبيل المثال السهمين والترس شارة الإله « نيت » فى سايس والصولجان « واست » فى طيبة ، وورقات رأس « أوزريس » فى أبيدوس ، وقد تجسد الشارة بنية سياسية ، ونذكر على سبيل المثال « الجدار الأبيض » الذى يمثل أسوار منف و « أرض القوس » التى تشير إلى المقاطعة الحدودية فى النوبة السفلى التى ألحقت بمصر عن طريق الفتح »[٢]، على هذا النحو ارتبطت العقيدة الدينية فى مصر القديمة ارتباطًا وثيقًا بالتاريخ والتكوين السياسى على المستوى الإقليمى ثم على المستوى القومى . فالرمز والإشارة يمثلان القوى الإلهية وفى ذات الوقت السلطة السياسية المستمدة من سلطة الدين . « إن كل شارة من هذه الشارات تمثل مرحلة أولى فى تكوين مصر السياسى : وأيًا كانت الجماعة البشرية الأساسية فقد توحدت مع طوطمها الذى يمثل القوة الإلهية المهيمنة على الصعيد المحلى . وتفترض هذه المرحلة التكوينية وجود قصص خلق الكون التى تعكس على أكمل وجه مراتب القوى التى تم رصدها من خلال التجربة

---

١ - أودلف إرمان : مرجع سابق ، ص ٩ .

٢ - نقولا جريمال : تاريخ مصر القديمة ، ترجمة ، ماهر جويجاتى ، دار الفكر ، القاهرة سنة ١٩٩١ ، ص ٥٢.

العملية . وبعبارة أخرى فإنه قد تشكل اتحاد للآلهة المحلية حول الإله الخالق . ويتكرر الرمز مع كل « عائلة » إلهية فى عاصمة المقاطعة التى تعبد فيها . وهكذا تأسس مقام الاتحاد فى مكان مقدس يدل عليه الحرم الإلهى ، هذا إلى جانب حرم السلطة الذى ينهض على أساسه كالجدار الأبيض أو رفات أوزريس .

وقد أوضحت الجغرافيا الدينية هذه القواعد فحددت أماكن الأحرام بدقة متناهية فى إطار المجموع الذى صارت جزءاً منه واعترفت لها على الصعيد المحلى بمكانه ، هى ترجمة للنظام الكونى ، الذى اندمجت فيه ، فينسب لكل إله بصفته رأس عائلته الدور الذى يضطلع به الخالق الكونى ، على رأس جماعة الآلهة . ومن هنا نشأ تماثل فى النظام المادى للشعائر وتنظيم هذه الأماكن أيًا كان الإله »[١] .

لقد لعب الرمز دوراً حيويًا في تحديد هوية الإله المعبود ومكان تواجده ونفوذه وأصبح ركنًا أساسيًا فى فهم الديانة المصرية .

٢ - التحول من الرمز الحيوانى إلى الرمز الآدمى :

لقد تطور الرمز وأخذ صوراً أو أشكالاً مختلفة فبدلاً من الصور الحيوانية البحتة ظهرت الصور النصف آدمية وذلك بسبب ما خلعوه على الإله من أوصاف : « ألم يقولوا عن الإله إنه يحب ويكره ، ويحمى ويعاقب ، ويعطى ويأخذ ؟ فمن الواجب أن يظهر الإله لهؤلاء على هيئة آدمى ، لأن هذه الأوصاف لايمكن أن تنطبق على تمساح أو كبش أو صقر . ولكن فى الوقت نفسه كانت هناك آلاف الروابط التى تلزمهم بالإبقاء على التقليد القديم ذى المظهر الحيوانى ، فاختاروا الوسط بين الحالتين ، فأعطوا الإله جسمًا آدميًا حتى يستطيع التقبل والإعطاء والحماية واحتفظوا له برأس حيوان . حقيقة بقى حورس وخنوم على هيئة الصقر والكبش ولكنهما على ذلك استطاعا أن يقوما بكل الأعمال إشباعًا لرغبة المؤمنين بهما . إنه من العجيب حقًا بأية مهارة استطاع المصريون أن يوجدوا هذا المزج بين الإنسان والحيوان إلى حد لانرى نحن فيه أى تناقض »[٢].

---

١ - المرجع السابق ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

٢ - أودلف أرمان : مرجع سابق ، ص ٩ ، ١٠ .

٣ - الربط بين الآلهة المعبودة ومظاهر الطبيعة :

لقد كان الدين منذ نشأته الأولى محاولة من جانب الإنسان لتفسير وتعليل الظاهرات الطبيعية وفي ذات الوقت محاولة لاسترضاء قوى الطبيعة . من هنا ربط الإنسان المصرى بين الآلهة والطبيعة بل أوجدوا اتصالاً بين هذه الآلهة والحرف السائدة بينهم وخلعوا عليهم أوصافًا لم تكن لهم من قبل « وسبب ذلك أن بعض الآلهة سلطاتهم خارج حدودهم الأصلية ، ومن ثم أصبح لزامًا ألا يكتفى المتعبدون بما كان لهم من أوصاف كآلهة محلية فى المقاطعات فاتجهوا إلى أن يكسبوا معبوداتهم أوصافًا على نطاق أوسع بأن جعلوهم متصلين بالزراعة والحرف والحرب والتناسل ودفن الموتي ، بل أكثر من هذا طمع كل إله فى أن تصبح له صلة فعالة فى حكم الطبيعة فيما تصل بالسماء والأرض والماء والشمس والقمر . وتغالوا فى ذلك إلى درجة أن لم يصبح هناك إله ليست له صلة بالنسبة إلى عبادة على الأقل بمثل هذه القوى الطبيعية وفضل المصرى أن يجعل إلهة أنثى هى رمز السماء . وإلها ذكرا كرمز للشمس أو للقمر دون أن يلاحظ أن هناك ألهة أخرى اعتبرت كآلهة لهذه القوى الطبيعية كما لم يقلقه أن يسند لأحد هذه الآلهة التى سبق ذكرها مهام أخرى ، فمثلاً لم يكن المعبود "خنوم" هو صانع وخالق البشر فقط ، بل كان أيضًا إله "الماء البارد" بمعنى منابع النيل ، وكان لزاما على المصرى أن يوجد تناسقًا بين هذه المهام المختلفة »[١].

٤- كمال الطقوس الدينية وبساطتها :

لقد كان للحياة البسيطة والمستقرة التى كان يعيشها الإنسان المصرى أثر طيب ظهر بوضوح فى الطقوس والشعائر الدينية "كانت الطقوس الدينية تؤدى بشكل هادئ رزين ، وعومل الإله معاملة الرجل القوى الذى يسعى الكل إلى تأكيد مظاهر احترامه ، فيقدمون له المأكل والمشارب والزهور والملابس والحلى ، ويشيدون له مسكنًا يحرصون على نظافته يشيع فيه من عبق البخور ، وكان الإله يسر لكل هذا فيعوض الناس ببركاته عن كل هذه الأعمال ، وساد هذه الطقوس البساطة والكمال ، ولكنها تضاعفت بمرور الزمن حتى وصلت فى آخر الأمر إلى أبعد الحدود ، ونتج عن ذلك أن أضيفت إلى طقوس الديانة المصرية ومايحيط بها من حفلات وعادات مختلفة كثيراً من المستحدثات التى انتهت بأن قلبت الديانة المصرية رأسًا

---

١ - المرجع السابق ، ص ١٠ .

على عـــقب"(١) لقد حدث اندماج بين الطقوس المصرية وبين العديد من الطقوس الدينية للشعوب المجاورة خصوصًا بعد أن عظم دور الحروب والتجارة بين مصر وهذه الشعوب .

٥- البدع الدينية ودورها فى صبغ الحياة الدينية :

تعنى البدعة استحداث أمر فى الدين لم يكن معروفًا ولاينتمى إلى أصول الديانة . وقد نشأت البدع فى الحياة الدينية فى مصر حين أخذت هذه الديانة بالممارسات الدينية الوافدة من شعوب أخرى وأحدثت أشكالاً من الطقوس والعبادات ، ومن أبرز التيارات الدينية الوافدة الديانة البابلية على وجه الخصوص ، ثم كان للهكسوس تأثير كبير حيث أدخلوا على الديانة المصرية تأثيرات آسيوية ، ويأتى بعد ذلك التأثير الفارسى ثم المؤثرات اليونانية .

ثالثاً : ملامح الشخصية المصرية الدينية :

لقد تميزت الشخصية المصرية بسمات وملامح خاصة تكونت بفعل الكثير من المؤثرات البيئية والطبيعية منها على وجه الخصوص ، ويأتى الموقع الجغرافى المتميز وجريان نهر النيل على رأس هذه المؤثرات . يقول برستيد : « ولموقع مصر الجغرافى .. تأثير كبير فى رقيها السياسى ، لأنها عبارة عن إقليم مستطيل ضيق (ماعدا الوجه البحرى) يبلغ طوله سبعمائه وخمسين ميلاً تقريباً فهو فى أشد الاحتياج إلى الوسائل اللازمة لبسط نفوذ حكومته على سائر أقسامه المتطرفة ، وكل قسم من هذه الأقسام يتصل شمالاً وجنوبًا بالأقسام الأخرى المجاورة ، ولقد كان تباين الشعور وتنوع الأفكار فى تلك الأقسام عاملين شديدين لاتحاد أقسام القطر اللهم إلا نهر النيل الذى سهل المواصلات والتعاون بالرغم من بعد المسافة بين أقسامه » (٢).

ومن المؤثرات على الشخصية المصرية العزلة ، يقول جمال حمدان : « نحن حين نعترف كجغرافيين ببعض عزلة لمصر خفيفة لانقصد أكثر من ذلك ، لانقصد عزلة « رهبنة » ولكن عزلة حماية . فما كانت مصر قط ، دولة رهبنة Hermitstate ، وإنما كانت دولة طريق Rout State كما عبر جويليه مرة ثانية ، وبمزيد من الدقة ، كانت مصر فى آن واحد « إقليم مرور أو عـبـور Region de Passage " وإقليم عـزلة Region d'isolement " ... وفى مـراحل

---

١ - المرجع السابق ، ص ١١ .

٢ - برستيد : تاريخ مصر ، ترجمة د. حسن كمال ، مكتبة مدبولى سنة ١٩٩٠ ، ص ٢ .

الحضارة المبكرة وتخلُّف المواصلات ، كان طبيعيًا أن تنمى هذه العزلة الجغرافية الطبيعية الشعور بالذات فى المصريين القدماء ، ربما إلى درجة الاستغراق الذاتى Ethnocentrism وقد انعكس هذا فى اسم مصر ذاتها . فكانت كيمى Kemi تعنى معًا أرض مصر السوداء وعالم الأرض المسكون ، كما كان المصريون يقسمون العالم ببساطة إلى « الأرض السوداء كيمى » مصر فى القلب و « الأرض الحمراء » شرت وهى الصحراء والبرابرة ، ومن يعيشون على المطر حولها ، بل كان المصريون أحيانًا هم « الناس » والآخرون « الأجانب » ومثل هذه النظرة عرفتها فى الواقع شعوب كثيرة أخرى . أى أن تلك العزلة تحولت إلى عزلة مترفعة "Supertior Isolation" أحيانًا ، أو إذا استعرنا وصف بريطانيا فيما بعد . تحولت إلى عزلة رائعة " Splendid isolation "[١] .

إن ذلك كله حدد ملامح الشخصية المصرية خصوصًا فى مسألة الدين ومن أهم هذه الملامح.

١ - عمق الروح الدينية :

قال هيرودوت : « إن المصريين كانوا أشد الناس تدينًا » ويقول ديورانت « لقد كان الدين فى مصر من فوق كل شىء ومن أسفل منه ، فنحن نراه فيها فى كل مرحلة من مراحله وفى كل شكل من أشكاله ، من الطوطم إلى علم اللاهوت ، ونرى أثره فى الأدب وفى نظام الحكم وفى الفن وفى كل شىء ... وكانت هذه الروح الدينية غزيرة خصبة بلغ من خصبها أن المصريين لم يعبدوا مصدر الحياة فحسب بل عبدوا مع هذا المصدر كل صورة من صور الحياة »[٢]. إن هذه الروح شديدة التدين انعكست على حبهم للآلهة « فكانوا يعتقدون أن كل شىء فى العالم ملك للآلهة وأنهم منبع كل خير وأنهم على علم برغباتنا الدنيوية وأن فى استطاعتهم فى كل وقت أن يتدخلوا فى أحوال البشر »[٣] ، وهذا ماجعل الدين يؤثر تأثيرًا قويًا فى مجرى حياتهم .

---

١ - د. جمال حمدان : مرجع سابق ، هـ ٢٦٥ .

٢ - ديورانت : قصة الحضارة ، جـ٢ ، ترجمة محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ص١٥٥ ، ١٥٧ .

٣ - بيير مونتيه : الحياة اليومية فى مصر ، ترجمة عزيز مرقص منصور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٧ ، ص ٢٧١ .

٢ - قوة الإيمان بالحياة الأخرى :

لقد آمن المصرى القديم بالحياة بعد الموت واعتقد بالخلود لدرجة أن كل ما أنتجه من فكر وعلم وفن كان أثراً من آثار هذا الاعتقاد فلايوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التى احتلتها فى نفس الشعب المصرى القديم . وربما كانت قوة هذا الإيمان بالحياة بعد الموت هى التى دعمت الديانة المصرية وجعلتها تبقى قائمة فى إحدى صورها المتأخرة حتى القرن السادس الميلادى يقول برستد : « لقد كان لرسوخ العقيدة أو بالأحرى العقائد الخاصة بعد الوفاة تأثير كثير فى نفوس المصريين منذ أقدم عصورهم ، فتولدت عندهم عناية كبيرة واهتمام عظيم بأمور موتاهم ، ومن الواضح أنه رغماً عن كل العقائد الثابتة بأن الحياة الأخروية بعيدة عن الدنيا فإن قدماء المصريين لم يستطيعوا فى وقت من الأوقات أن يفصلوا بين جسم الإنسان ونعيمه الأخروى ، لأنه كان من الصعب عليهم أن يصدقوا بالحياة بعد الموت إذا تلفت جثثهم وبليت ، وقد بذل المصرى مجهوداً تدريجيًا فى ابتكار وسائل أمينة لصيانة قبره حتى استعمل فى تشييد لحده الأحجار وزاد فى حجمه فصيره شامخًا ، وهكذا أصبحت أهرام الجيزة أكبر مقابر العالم حجمًا وهذه الأهرام محاطة بمقابر أمراء المملكة القديمة ذات البناء الضخم الذى لو حازه ملك قبل تلك العصور ببضعة قرون لافتخر به أيما افتخار »[١] إذن فعقيدة الخلود بعد الموت كانت وراء هذه الآثار الضخمة التى مازالت تبهر العالم .

وتأثير هذه العقيدة تخطى المظهر المادى المتمثل فى بناء المقابر والمعابد إلى آثار معنوية «كان الاعتقاد بالمسئولية الخلقية فى الحياة الأخرى حاضراً فى أذهان المصريون . ذلك أن الإنسان سيحاسب على أعماله فى الحياة الأخرى . يقول برستد : « ولما اعتقد المصريين أنهم سيتمتعون بعد وفاتهم كالمعبود أزوريس أو أنهم سيصيرون أزوريس نفسه لم يعودوا ينظرون إلى الموت بخوف ووجل فقالوا عن موتاهم « إنهم لايتركون هذا الدنيا أمواتًا بل أحياء » . ومنه يتضح أن القوم وقتئذ أخذوا يعتقدون بوجود محاكمة فى الآخرة أمام أزوريس ، وأن هذه المحاكمة ستتناول كل ما أتاه المتوفى فى دنياه من صالح وطالح »[٢] إن محاكمة الميت أمام قضاة عدول من أهم ما شغل فكر المصرى القديم ، وقد ذكرت النصوص المدونة العديد من

---

١ - برستد : تاريخ مصر : مرجع سابق ، ص ٤٤ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

التعاليم التى تنبه وتحذر . ومن ذلك ما أشار به الملك الشيخ الذى ترك تعاليم لابنه "مريكارع" إذ حذره فيها من " القضاة الذين يفصلون فى قضايا المظلومين إنك لتعلم أنهم غير رحماء فى ذلك اليوم الذى فيه يقضي للمسكين " وفوق هذا أوصاه بألا يظن أنه لايزال هناك أمد طويل إلى أن تحين المحاكمة وأنه حتى ذلك الوقت سينسى كل شىء " لاتثق بطول السنين" فإنهم ينظرون إلى أمد الحياة كأنها ساعة وأن الإنسان ليبقى بعد الموت وستكوّم أعماله إلى جانبه " وستدوم إلى الأبد حياة الإنسان فى مملكة الموت ، وأنه لأحمق من لا يأبه بذلك " أما من يأتى إلى قضاة الموتى مبرأ من كل ذنب فسيكون مثل إله ويسير حراً طليقًا كسادة الأبدية" (١).

على هذا النحو كان المصرى القديم يعتقد بالخلود بعد الموت وبأن الحياة الأخرى هى الحياة الأبدية وأنه محاسب على أعماله مجزى بحسب سلوكه ، وأن عليه أن يتطهر من كل الذنوب والخطايا .

٢ – سعة الأفق الدينى :

لم تكن مصر منعزلة عما يدور فى العالم من حولها فقد تواصلت مع أمم وشعوب وحضارات تأثيراً وتأثراً ، وعرفت مصر كثيراً من التصورات الدينية لدى هذه الشعوب عبر مراحل تاريخها وذلك ما يمكن تعقبه تاريخيًا « يمكن أن نتعقب الديانة المصرية إلى أصولها فيما قبل التاريخ حتى فترة مبكرة إلى عام ٤٠٠٠ ق.م عندما كان الاعتناء بدفن (الثور) و (ابن آوى) وغيرهما من الحيوانات أموراً تدل على عبادة الحيوان .

وفى منتصف القرن السادس ق.م تم إغلاق آخر معبد للإله (إيزيس) فى جزيرة فيله ، ولذلك فإن الحقبة الزمنية التى استغرقتها الديانة المصرية حقبة طويلة . لقد كان (مينا) هو الذى أسس أول دولة متحدة مستقرة تحت حكمه عام ٣٠٠٠ ق.م ، وظهر إبان الدولة القديمة حوالى (٢٦٨٦ – ٢١٨١ ق.م) نظام ملكى مركزى قوى عاصمته (ممفيس) ثم أعقبها فترة من التمزق ، وعندما عادت مصر المتحدة مرة أخرى فى الدولة الوسطى حوالى (٢٠٥٠ – ١٧٨٦ ق.م) أصبحت عاصمتها طيبة فى مصر العليا ، وظلت طيبة هى العاصمة حتى عهد التوسع الذى شهدته الدولة الحديثة ، ثم حدث غزو وتسلل من سوريا وفلسطين على يد الشعب المعروف (بالهكسوس) الذى أدخل على الديانة المصرية تأثيرات آسيوية .

---

١ – أودلف إرمان : مرجع سابق ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

أما فى الفترة المتأخرة فقد كانت هناك تغيرات عديدة فى الأسر الحاكمة فقد شهد القرن السادس ق.م إحياء وبعثًا لعظمة قديمة لكل من الدين والفن ، وعلى الرغم من هذه النهضة فقد كانت مصر ضعيفة عسكريًا فسقطت عام ٥٢٥ ق.م أمام الهجوم الضارى الفارسى ، ومع أن النير الفارسى قد تم التخلص منه لفترة من الزمان ، فإن غزو الاسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م كان معناه نهاية الاستقلال المصرى .

ومن الطبيعى أن يكون الأثر اليونانى شاملاً ، إلا أن العبادات الوطنية قد سمح لها بالازدهار [١] .

إن هذه الأحداث والوقائع التاريخية شكلت العقيدة الدينية لدى المصريين وأضفت عليها صوراً وأشكالاً وأضافت آلهة جديدة طبعت بالطابع المصرى . ويقدم لنا هيجل صورة من صور التأثير والتأثر بين الديانة المصرية والديانة الفارسية فيقول : « العناصر التى كانت موجودة فرادى فى المملكة الفارسية نجدها قد توحدت فى مصر . لقد وجدنا بين الفرس عبادة النور بوصفه ماهية الطبيعة الكلية . وهذا المبدأ إذن يطور نفسه فى أطوار تتخذ موقف الحياد (أو اللامبالاة) بعضها نحو بعض فأحدها مغموس فى الحسى بين البابليين والسوريين ، والآخر هو الوجه الروحى الذى هو مزدوج أولاً كوعى أولى للروح العينى فى عبادة « أدونيس Adonis » ثم بعد ذلك كفكر خالص ومجرد بين اليهود ، فالأول تنقصه وحدة العينى ، أما الثانى فينقصه العينى نفسه . ومن هنا كانت المهمة التالية هى توحيد هذه العناصر المتناقضة . وتظهر هذه المهمة فى مصر [٢]. وهكذا يبرز دور مصر فى توحيد الصور الدينية . وبهذا عرفت مصر كل أشكال العبادة الوثنية ، التثليث ثم التوحيد وهذا يؤكد مرونة المصرى وسعة أفقه وقدرته على صبغ الأشياء بشخصيته المتدينة .

الآلهة العظمى لمصر :

إن التحليل الدقيق لتاريخ الفراعنة وديانتهم يكشف أن معبوداتهم قد تعددت ، « حتى كان فى زمن ما مجموع الآلهة المعبودة أكثر من ألفين من الآلهة ، بما فيها الآلهة الأجنبية التى

---

١ - جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة د. عبد الفتاح إمام .. عالم المعرفة عدد ١٧٣ مايو ١٩٩٣ ، الكويت ، ص ٤٣ .

٢ - هيجل : محاضرات فى فلسفة التاريخ جـ٢ العالم الشرقى ، ترجمة د. إمام عبد الفتاح ، دار الثقافة، القاهرة ، سنة ١٩٨٦ ، ص ١٨٦ .

تجلب من سوريا وماحولها ، وكانوا متمسكين بدينهم تمسكًا زائداً كمل قال « هيرودوت » فمع تعدد الآلهة كان دينهم قويًا ، وقد كانوا يعتقدون أن هذه الآلهة تملك العالم ، وأنها ينبوع الرخاء ومصدر الخير الذى يعم البلاد . وقد تمثلت هذه المعبودات فى القوى الكبرى كالشمس والقمر والأرض والرياح والنجوم والكواكب ، كما تمثلت فى أنواع الحيوانات كالعجل والأسد والتمساح والقط وثعبان الكوبرا وفرس النهر .

يقول سليم حسن : « والواقع أن كل الآلهة نشأت من طينة واحدة لايختلف بعضها عن بعض إلا بمعابدها والرمز الذى كلن يخصص لكل إله [١].

ولم يتوقف المصريون عند عبادة مظاهر الطبيعة أو الحيوان فقط بل عبدوا أيضًا الطيور واختاروا منها « ذوات القوة والبطش كالحدأة والصقر ، وعبدوا من الحشرات الجعل ، ولم ينسوا النبات فى معبوداتهم ، فقد اختاروا بعض النباتات الموجودة فى البيئة مثل زهرة اللوتس وشجرة الجميز . وقد أثرت هذه المعبودات فى حياة الأفراد حتى صار لكل أسرة ، ولكل قبيلة ولكل إقليم معبود خاص [٢] .

ويقدم « برستد » وصفًا لما اعتقده المصريون حول الآلهة فيقول : « والمصرى القديم ... رأى قوة آلهته مجسمة فيما حوله من المخلوقات كالأشجار والأعين والصخور والتلال والطيور والوحوش فاعتقد هذه الكائنات رموز للقوة العجيبة والسلطة الخالقة البعيدة عن إدراكه والحال أنها مخلوقة مثله ، ثم نظر إلى أرواح بعض هذه المخلوقات نظرة صديق فظنها مدافعة تدرأ عنه الأذى والضرر ، واعتقد أن أرواح البعض الآخر أعداء له تعمل لخداعه والكيد له وتتنسم الفرص للإضرار به وتوجيه الأمراض إليه ؛ ولذلك سهل عليه تأويل سبب كل ضرر يصيبه أو مرض يعتريه ، واعتقد أيضًا أن كل مكان فى القطر المصرى تسكنه أرواح معينة معروفة من السهل إرضاؤها والانتفاع بمساعدتها بطرق سهلة [٣] .

إن ذلك يعنى تعدد الآلهة وتنوعها خلال فترات التاريخ المختلفة مثال ذلك :

---

١ - سليم حسن : مصر القديمة ، جـ١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ٢١٦ .

٢ - د. عبد الصبور شاهين : قصة الدين والنبوة فى مصر قبل الإسلام ، الزهراء للإعلام سنة ١٩٩١ ، ص٢٣ .

٣ - برستد : تاريخ مصر ، ص ٣٦ .

قبيل الأسرات : حوالى ٣٤٠٠ ق.م ، كانت الحضارة المصرية قد وصلت إلى درجة متقدمة إلى حد ما . يشرح الدكتور أحمد فخرى طبيعة هذه الحقبة التاريخية فيقول : " والمفهوم أن الدلتا فى ذلك الوقت البعيد كانت أكثر تقدمًا من الصعيد ، وأن مصر كانت قد وصلت إلى تكوين مجموعتين من الأقاليم إحداهما فى الشمال وأصبح لها ملك ، وأخرى فى الجنوب وكانت أيضًا تحت حكم ملك آخر ... وكان مركز عبادة الإله حورس (الصقر) فى أول الأمر فى غرب الدلتا ، وكان هناك إله آخر فى شرق الدلتا وهو الإله (عنجتى) ولكن لم يلبث «حورس» حتى تغلب عليه وأصبح إلهًا للدلتا كلها عند توحيدها ، أما فى الصعيد فكان الإله (ست) هو الإله الذى يغلب نفوذه على ماعداه من الآلهة ، وكان مركز عبادته فى مدينة « نوبت » فى محافظة قنا عند بلدة طوخ الحالية شمالى نقاده .

وفى وقت من الأوقات تغلبت الدلتا على الصعيد وكونت مملكة واحدة وأصبح للإله «حورس» مركز أهم من مركز « ست » وأصبحت مدينة « هيراقونبوليس » ومكانها الآن الكوم الأحمر « وكانت تسمى نخن » شمالى أدفو مركزاً رئيسيًا لعبادته فى العصر الذى نسميه عصر ماقبل الأسرات أو قبيل عصر الأسرات[1] .

إن هذا المثال يبين كيف أن الآلهة تنوعت بتنوع الأقاليم وبتنوع العصور فى ذات الوقت ونجد أنه من المفيد أن نعرض لبعض الآلهة ذات النفوذ الدينى فى مصر . ومنها :

آلهة منف وهليوبوليس :

تشغل مدينتا منف وهليوبوليس موقعًا متميزاً على وادى النيل وبحكم هذا الموقع لعبت كل منهما دوراً كبيراً فى تطور الديانة المصرية القديمة .

فمدينة منف نسب إنشاؤها إلى الملك (مينا) . يتحدث الدكتور أحمد فخرى عن الأسرتين الأولى والثانية ٣٢٠٠ ق.م - ٢٧٨٠ ق.م ، فيقول « إن ملوك هاتين الأسرتين كانوا يقيمون من آن لآخر فى الشمال ، فى مدينة كانت تسمى (القلعة البيضاء) نسبوا إنشاءها فيما بعد إلى الملك (مينا) وهى التى سماها المصريون فيما بعد مدينة « منف » .

وسواء أكانت تلك المدينة الشمالية قد أنشئت حقًا فى عهد « مينا » أو أنها أنشئت فى عهد أحد خلفائه ، وسواء أصح ما زعمه المتأخرون من أن « مينا » حول مجرى النيل لينشىء هذه العاصمة الجديدة أو أن الأمر لم يعد حفر ترعة أو عمل مشروع صغير من مشروعات الرى، فإن اختيار الموقع كان ذا أهمية كبرى لحكم الشمال والجنوب إذ أن المكان

---

١ - د . أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، ص ٥٠ .

الطبيعى لعاصمة مصر يجب أن يكون على مقربة من المكان الذى تلتقى فيه الدلتا بالصعيد ، وهو موقع أكثر عواصم مصر الهامة فى جميع العصور منذ عهد (مينا) حتى الآن[١] . إن ما يقوله أحمد فخرى يؤكد على أهمية المدينة من حيث الموقع الذى يعد من أهم عوامل خلود هذه المدينة وسيطرتها على مجريات الحياة السياسية والدينية حينًا طويلاً من الدهر .

وما يقال عن « منف » يقال عن هليوبوليس .

أ - أهم آلهة منف : أهم آلهة منف هو الإله « بتاح » حاز هذا الإله شهرة كبيرة وقدسية معظم المصريين ، وكانوا يطلقون عليه أحيانًا « ناتتن » (وكان يمثل على شكل إنسان برأس عارية لاتحمل أية شارة خاصة ، واضعًا يديه فوق صدره وممسكًا بصولجان) واعتقد المصريون أنه خالق الفنانين وصانع الفخاريين ، وعلى ذلك فهو المثل الأعلى للفنانين وحامى حماهم (سيدهم) وسماه الإغريق باسم (هيفايستوس) وعلى ذلك كان فى اعتقادهم أنه هو الذى خلق الدنيا ، ثم تطور هذا الاعتقاد فيما بعد ورأوا فيه ذلك المحيط « نون » الذى منه خرجت جميع المخلوقات ، فهو « أب لجميع الآلهة » ، الإله العظيم صاحب البداية الأولى «أول من كان وأول إله فى الخليقة » وبذلك كان هذا الإله بمثابة الإله الذى عاش عصوراً لا حد لها ، أو كما يقول المصرى القديم : احتفل بعدد لايحصى من الأعياد الفضية ، ومن أجل ذلك أصبح مثلاً يتشبه به كل ملوك مصر الذين حكموها مدداً طويلة [٢].

ومن الآلهة التى عبدت فى منف إله يسمى « سوكاريس » وصوروه على شكل آدمى برأس صقر ، واعتبر إلهًا للموتى ، وكانت منطقته المقدسة تسمى « رستاو » أى باب الممرات ومن هذه التسمية نتبين بوضوح أنهم يقصدون العالم السفلى .

وقد مر هذا الإله بتطورات عدة منها :

اندمج مع « أزوريس » وسمى « أزوريس سوكاريوس » وأحيانًا « بتاح سوكاريوس أزوريس » .

ومن الآلهة التى عبدها الناس فى منف ربة اسمها « سخمت » والتى تمثلت على شكل «لبؤة » واحتفظت بشخصيتها المخيفة وكانت تعتبر إلهة المعارك الحربية[٣] .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٧٨ .

٢ - أودلف إرمان : مرجع سابق ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

٣ - المرجع السابق ، ص ٤١ .

وهناك آلهة أقل شهرة وجدت فى منف الإله (أبيس) العجل المقدس الذى احتفظ به المصريون فى معبد بتاح دون أن يكون هناك علاقة ما « على الأقل فى العصور القديمة » بين الإلهين ، ومن الملاحظ أن الجمع بين إله وبين حيوان مقدس فى معبد واحد لم يكن نتيجة لعقيدة ، بل كثيراً ماكان لمجرد صدفة ، ثم بعد ذلك جمع بين الاثنين . بشكل دينى بعد مرور حقب طويلة من الزمن وبعد أن يتعود الناس على ذلك ، « أو بحكم العادة » ومن أجل ذلك لم يتمتع « أبيس » فى العصور القديمة بعبادة ذات طقوس معينة يقوم بها كهنة خصوصيون، أما فى العصور الحديثة فقد تغير الحال وأصبح لهذا الحيوان المقدس عدد لايحصى من الأتباع[١].

ب - **أهم آلهة هليوبوليس** : أطلق عليها المدينة المقدسة « أون » أو مدينة الشمس . جاء فى كتاب « وصف مصر » وصف دقيق لهذه المدينة يقول : « .. وفى منتصف هذا الجزء من الوادى نجد كومة واسعة ضخمة من الأنقاض تنبىء عن موقع مدينة قديمة ، ويطلق العربان على هذا المكان اسم - أبو كشيد - تل المسخوطة - وعند قمة مرتفع يتكون من الأنقاض توجد كتلة ضخمة من الجرانيت نقشت فوقها بحروف بارزة ثلاثة آلهة مصريين هى فيما اعتقد (أوزوريس وإيزيس وحورس) وتبدو فى هذه الرسوم عظمة إنسانية ، ويجلس كل إله إلى جوار الآخر ، أما ظهر الكتلة وكذلك الأجزاء الأخرى المسطحة فتغطيها النقوش الهيروغليفية[٢].

ومن أقدم وأهم الآلهة التى عبدها الناس فى هذه المدينة المقدسة الإله « رع » الذى كان بمثابة إله عبده كل المصريين وأقاموا له معبداً ذا طابع خاص ، إذ لم يكن فى هذا المعبد صورة لهذا الإله بل حوى قطعة من الحجر مقدسة تسمى « بن بن » توضع فى فناء مشكوف ، واعتقدوا أن الشمس يجب أن ترسل أشعتها الأولى على هذا الحجر [٣].

وقد نال هذا الإله شهرة واسعة فى مصر خلال فترات تاريخها القديم وحظى فى ذات الوقت باهتمام الباحثين والدارسين . يقول ديورانت : " وكان للقمر إلهًا وعله كان أقدم ما عبد من الآلهة فى مصر ، ولكن الشمس فى الدين الرسمى كانت أعظم الآلهة ، وكانت تعبد فى بعض

---

١ - المرجع السابق ، ص ٣١ .

٢ - دنى بوا - إيميه : وصف مصر ، جـ٣ ترجمة زهير الشايب ، مكتبة مدبولى ، مصر ، ص ١٣٤ .

٣ - أدولف إرمان : مرجع سابق ، ص ٣٤ .

الأحيان على أنها الإله الأعلى « رع » أو « رى » الأب اللامع الذى لقّح الأم الأرض بأشعته الحارة والضوء النافذ ، وكانت تصور أحيانًا على أنها عجل مقدس يولد فى فجر كل يوم ، ويمخر عباب السماء فى قارب سماوى ثم ينحدر إلى الغرب فى كل مساء كما ينحدر الشيخ المسن مترنحًا إلى قبره ، أو أن الشمس كانت هى الإله « حورس » مصوراً فى صورة «باشق» رشيق يطير فى عظمة وجلال فى السموات يومًا بعد يوم كأنه يشرف من عليائه على مملكته . ولقد أصبح فيما بعد رمزاً متواتراً من الرموز الدينية والملكية وكان « رع » أو « الشمس » هو الخالق على الدوام [١]، ولقد توحد « رع » مع آلهة أخرى واستخدم المصريون لفظ « رع» كاسم عام يعنى « الشمس » ثم توحد « رع » مع « أتوم » فى صيغة واحدة هى « رع - أتوم » ومع إله السماء « حورس » الإله الصقر الذى يعنى اسمه « الكائن البعيد » على أنه « رع - حوراختى » وصوروا هذا الإله فى جسم إنسان ورأس صقر ، ولقد كان الرمز الرئيسى « لرع » : هو المسلة ، وارتبط مثل حوريس ارتباطًا وثيقًا بالملك الحى ، وقد أصبح فرعون يسمى ابتداء من الأسرة الخامسة ، فضلاً عن مثال واحد من الأسرة الرابعة ، باسم « ابن الإله رع » ؛ كما ارتبطت فكرة العدالة ونظام العالم باسم « رع » ونظر المصريون إلى الإلهة «ماعت » (Maat) « ربة العدالة والحقيقة والتوافق » على أنها ابنته [٢] .

وقد رأس رع مجلس الآلهة فقد « ذهب كهنة مدينة الشمس إلى أن هناك عدداً كبيراً من الآلهة ولهم مجلس رياسة عليا يتألف من ثمانية آلهة كبار ، ورئيسهم الأعظم هو « رع » أو إله الشمس ، وهؤلاء الآلهة التسعة هم الذين يحكمون جميع العوالم السماوية والأرضية .

بذا نكون قد انتهينا من عرض الديانة المصرية القديمة باختصار - نرجو ألا يكون مخلا[٣].

والديانة المصرية فى النهاية تمثل مظهراً من مظاهر المدنية التى حملت مصر شعلتها إلى العالم ، وهى تحمل فى مضمونها كل الأشكال الدينية التى عرفتها شعوب البحر الأحمر .

---

١ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

٢ - جفرى بارندر : مرجع سابق ، ص ٤٩ ؛ انظر كذلك مرجريت مرى : مصر ومجدها الغابر ، ترجمة محرم كمال ، الألف كتاب الثانية ١٩٩٨ ، ص ١٦٠

٣ - لمزيد من التفاصيل عن الديانة المصرية راجع د. على فهمى خشيم : أديان مصر العربية ، جـ١ ، جـ٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة الألف كتاب الثانية سنة ١٩٩٨ .

الفصل الثانى
أديان الهند

المدنية الهندية من أقدم المدنيات ظهوراً فى التاريخ وقد كانت مع نظيراتها من المدنيات التى ظهرت فى بلاد الشرق تمثل المعين الحضارى الذى استقت منه كثير منه الحضارات اللاحقة العديد من الأفكار خصوصاً فى مجال الحكمة والدين دون فصل دقيق بينهما .

والهند عبارة عن شبه جزيرة فسيحة الأرجاء يبلغ اتساعها مايقرب من مليونى ميل مربع ، ويسكنها عدد كبير من السكان قد يصل إلى خمس سكان الأرض ، " وفيها اتصال عجيب فى مراحل تطورها وفى مدنيتها من (موهنجو - دارو) سنة ٢٩٠٠ ق.م أو قبل ذلك حتى اليوم ، ولها من العقائد الدينية ما يمثل كل مراحل العقيدة من الوثنية البربرية إلى أدق عقيدة فى وحدة الوجود وأكثرها روحانية ، ولها من الفلاسفة من عزفوا مئات الأنغام على وتر التوحيد بادئين من أسفار " اليوباناشاد " فى القرن الثامن قبل الميلاد ، إلى شاكنارا فى القرن الثامن بعد الميلاد "[١].

والحديث عن الهند بهذا الشكل يعنى الحديث عن الهند قبل سنة ١٩٤٧ أى الهند الكبرى قبل التقسيم ، يضاف إليها كل البلاد التى خضعت للنفوذ الهندى وهى البلاد الواقعة فى الجنوب الشرقى من آسيا .

ولقد كان تاريخ هذه المنطقة مجهولاً لفترات طويلة وذلك لعدم توفر المصادر أو الوثائق التاريخية التى يمكن الرجوع إليها والاسترشاد بها فى معرفة هذا التاريخ على عكس ماكان من شأن تاريخ مصر القديمة .

يقول جوستاف لوبون : " ... ليس للهند القديمة تاريخ وليس فى كتبها وثائق عن ماضيها ولاتقوم مبانيها مقام الكتب مادامت لاتزيد فى القدم عن ثلاثة قرون قبل الميلاد ، ولولا مافى الكتب الدينية من أكداس الأساطير التى تستشف منها الحوادث التاريخية لظل ماضى الهند مجهولاً ، وأقدم المصادر التى يرجع إليها فى تبين أثر الماضى المفقود أشعار « الفيدا »

---

١ - ديورانت : قصة الحضارة ، جـ٣ ، ص ٩ .

الدينية التى كتبت فى أدوار مختلفة والتى تصل فى القدم إلى ماقبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد. على أن كثيراً من الآثار التى كشف عنها المنقبون يمكن أن تعطينا صورة عن تاريخ الهند وحضارتها القديمة ، فقد رأيت آثاراً " لأشوكا " عن منبع جمنا وهو الذى حكم الهند الشمالية قبل الميلاد بنحو قرنين ونصف ، كما رأيت أثناء زيارتى لـ " بتنا " عاصمة ولاية "بيهار " آثاراً ترجع إلى عهده أيضًا حيث كانت " باتلى بورترا " عاصمة " أشوكا " وهى فى مكان " بتنا " تقريبًا ، كما شاهدت آثار جامعته " نالندا " القديمة التى يقولون أنها كانت لاتتسع لأكثر من عشرة آلاف طالب والتى تعلم فيها بوذا "[1] إن هذا القول من "لوبون" يؤكد على أن الكتابات الدينية تعد من أهم المصادر التى استقى منها المؤرخون الكثير من معلوماتهم عن تاريخ الهند ، فتاريخ الهند إذن تاريخ فكر ودين ولايمكن الفصل بين النتاج الفكرى والنتاج الدينى فى حضارة الهند .

وللتعرف على أديان الهند ، يجب أن نتناول بالبحث المسائل التالية :

أولاً : سمات الفكر الهندى :

١ - ثراء الفكر الهندى وشموله :

إن عناصر الفكر الهندى متنوعة ومتداخلة بين الدين والعلم والفن وهى في ذات الوقت نتاج تفاعلات حضارية شارك فى تفعيلها أمم وشعوب شتى . منها على سبيل المثال : الآريون المنحدرون من أواسط آسيا قبل الميلاد بما يزيد عن ألفى سنة . « وقد كان لهذه القبائل أثر كبير فى تاريخ الهند إذ يعزى إليها تكوين اللغة السنسكريتية »[2] ومع وصول الشعوب الآرية إلى الهند بدأ العصر الفيدى وهو أول مراحل التفكير الهندى المنظم . يقول جون كولر : « بدأ العصر الفيدى عندما انتقلت الشعوب الآرية من آسيا الوسطى إلى وادى السند في نحو عام ١٥٠٠ق.م . واختلط التراث الثقافى الذى حملوه معهم بتقاليد الشعوب التى التقوا بها وعاداتهم ، وبدأ مايمكن تسميته بالثقافة الهندية بالمعنى الصحيح فى التشكل ، وتمت تغذية نموها من خلال مناخ وأوضاع الثقافتين السابقتين » [3].

---

١ - لوبون : حضارة الهند : ترجمة عادل زعيتر ، ص ٢٠٥ .

٢ - د. عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام فى الهند ، القاهرة سنة ١٩٥٩ ، ص ٧١ .

٣ - جون كولر : الفكر الشرقى القديم ، ترجمة : كامل يوسف ، الكويت سنة ١٩٩٥ ، ص٣٧ .

ومن الثقافات المؤثرة فى تشكيل الفكر الهندى الثقافة الفارسية والثقافة الإغريقية . يقول الأستاذ بوذابريركاش : " الهند كان لها اتصال بالغرب قبل غزوة الاسكندر " ويبرهن على هذا بأدلة من التاريخ إلى أن يقول : " وينتهى بنا كل ذلك إلى أن الهند قد عرفت الإغريق عن طريق فارس كما عرف الإغريق الهند عن طريقها أيضًا " يقول الدكتور عبد المنعم النمر : "ولقد عمل هذا الاحتكاك بين الإغريق والهنود على التفات الهند نحو اليونان ، كما نقل الإغريق إلى بلادهم أقاصيص الهند وأساطيرها التى سمعها فى البلاط الفارسى فقد شرع الهنود يهتمون بالإغريق ، ويحدثنا أرسطو عن فلاسفة من الهند قدموا إلى أثينا لمحاورة سقراط ومناقشته فى المشاكل الفلسفية التى يعالجها المفكر اليونانى "[(١)].

إن هذا التلاقح الحضارى هو الذى صبغ الفكر الهندى بالثراء والشمول .

٢ - الطابع العملى أو ارتباط الفكر بالحياة :

تميز الفكر الشرقى القديم بالحكمة العملية أى بالعلاقة العضوية بين الفكرى والعملى ، بين النظرية والواقع ، بين العقل والتطبيق ، يقول الدكتور على زيعور : " العقيدة والحياة مأخوذتان على أنهما واحد ، ولغاية واحدة ، الهندى صادق مع نفسه ، لايفهم كيف يكون الفكر الغربي واعيًا لفلسفة أو لفكرة ولايحياها ، لايعقل بنظر الأول أن لاتقوم صلة بين السلوك الواقعى للإنسان وبين ما يؤمن به ، أو ما يفكر فيه .

إذن الفلسفة الهندية هى للحياة ، تؤخذ كطريقة عيش ، وظيفتها جعل الكائن أسمى والحياة أغنى ، ليست نظريات مجردة ، منقطعة أو دغماطية ، الحكيم الهندى يحيا فلسفته ، ويحققها فى شخصيته ويتطابق معها " [(٢)].

ويقدم جون كولر شرحًا وافيًا لهذه الخاصية فيقول : " وأكثر السمات إثارة فى الفكر الفلسفى الهندى ، بعد ثرائه وشموله ، تتمثل فى طابعه العملى ، فقد نشأت تأملات حكماء الهند ، منذ البداية ، من محاولاتهم تحسين الحياة ، فقد واجه الفلاسفة الهنود العذاب الجسدى، والذهنى ، والروحى ، وسعوا لفهم مبرراته وأسبابه ، وحاولوا تحسين فهمهم لطبيعة الإنسان والكون ، كما أرادوا استئصال أسباب المعاناة وتحقيق أفضل حياة ممكنة ، وتشكل

---

١ - د. عبد المنعم النمر : مرجع سابق ، ص ١٩ .

٢ - د. على زيعور : الفلسفات الهندية ، دار الأندلس ، بيروت سنة ١٩٨٢ ، ص ٦٨ .

الحلول التى وصلوا إليها ومبررات النتائج الكامنة وراء هذه الحلول ، فلسفات هؤلاء الحكماء الأوائل .

وقد استجابت فلسفات الهند لدوافع عملية وتأملية ، فقد كان هناك على الصعيد العملى التعرف على الأشكال المألوفة من المعاناة ... المرض والجوع والوحدة – والعلم بأن الموت سيحل فى نهاية المطاف بمن حلت المعاناة بساحته ، وكان هناك على الصعيد النظرى حب الاستطلاع الإنسانى الفطرى لفهم التجربة وتنظيمها ، ودفعت اعتبارات عملية إلى البحث عن سبل التغلب على أشكال المعاناة المختلفة ، وأدت اعتبارات تأملية إلى بناء وصف تفسيرى لطبيعة الواقع والوجود الإنسانى ، ولكن هذه الاعتبارات لم تؤخذ بصورة منفصلة ، فقد استخدم الفهم والمعرفة المستمدان من الفضول التأملى فى محاولة للغلب على العذاب والمعاناة ..

ويتجلى الطابع العملى للفلسفة الهندية بأشكال عدة ، فالكلمة ذاتها التى تترجم عادة بـ «الفلسفة » تشير إلى ذلك . وكلمة " دارشنا " " Darshana " تعنى حرفيًا " رؤية " "Vision" إنها ما تتم رؤيته ، وهى تعنى فى معناها الفنى الدقيق ما تتم رؤيته عندما يجرى بحث الواقع المطلق ، وقد بحث حكماء الهند ، فى غمار سعيهم وراء حل لعذابات الحياة ، ظروف المعاناة وفحصوا طبيعة الحياة الإنسانية والعالم للوصول إلى أسباب المعاناة وسبل القضاء عليها وما وصلوا إليه يشكل " دارشناهم " أو رؤيتهم أو فلسفتهم "[١] .

٣ – التكامل بين الفلسفة والدين :

ليس من المستطاع الفصل بين الفلسفة والدين. ذلك أن العقائد والشعائر والطقوس والأخلاق تمتزج بالأعراف والأساطير واتجاهات السلوك والتفكير « والتوحيد بين الطريق إلى الحياة الخيرة ، ورؤية هذه الحياة الخيرة هو ذاته عنصر التكامل بين الدين والفلسفة فى الهند ، عندما ينظر إلى الفلسفة باعتبارها لاتهتم إلا " بنظرية " الحياة الخيرة فحسب ، فإن الاهتمام بالوسائل العملية لتحقيق الحياة الخيرة لايعد اهتمامًا فلسفيًا وقد يُنظر إلى وسائل الحياة عندئذ على أنها تنتمى إلى المجالات الدينية أو الاقتصادية ، ولكن ليس إلى المجال الفلسفى وعندما ينظر إلى الحياة الخيرة باعتبارها " فى مستوى أسمى " من هذه الحياة العادية ، فإن وسائل تحقيقها ينظر إليها عادة باعتبارها سبلاً دينية »[٢] إن ذلك يعنى أن الفلسفة والدين صنوان لايفترقان ، إنهما واحد : فالفلسفة دين يعاش والدين فلسفة تنظم الحياة .

---

١ – جون كولر : مرجع سابق ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

٢ – المرجع السابق ، ص ٣١ .

٤ - أهمية منظور التأمل الذاتى أو الاستبطان :

إن الفكر الهندى ينصب على الباطنى . ففى سبيل التغلب على المعاناة ينغمس الفرد فى عملية " فحص الذات " التى يمكن خلالها فهم الأوضاع الداخلية للحياة ، وهذا يقتضى وعيا ذاتيًا عميقًا متواصلاً ، لقد بحثت الفلسفة الهندية فى " القوى والوظائف النفسية والعقلية ، وقدمت مجلوبات فى المنطق ، وعلم النفس ، والأخلاق ، والمعرفة ، لكنها فى ذلك كله ، لم تهدف للتحويل وإنما للإعلام ، أى لتزويد الإنسان بأخبار ومعلومات ، إنها ترمى إلى تغيير جذرى فى طبيعة الإنسان ، وتكييف فهم هذا لوجوده الشخصى وللعالم الخارجى ، بعبارات أخرى ، التحويل الذى تدعو إليه الفلسفة الهندية هو إجراءات على أو فى القلب ، لا فى العقل . وبذلك فقط ، بنظرها ، يستطيع المرء تجاوز نفسه ، وبلوغ التحقق . الكفاح روحى ، إنه ضد النفس لاضد العالم ، كأن النفس هى الخصم ، لأنها مقاومة للاخضاع والانقياد . من هنا يتأتى أنصع لون فى الصورة الفلسفية الهندية .. وهو التشاؤم ، ومن هنا القتامة والقساوة الفظة على الحياة ، والبدن ، ومن هنا الفهم الأسود للسعادة ، النفس هى مكان عمل وتأمل الفيلسوف ، لاغيرها .

والآن تتضح الميزة الباطنية للفلسفة الهندية . إنها ذاتية صرفة ، تشدد على " قيم القلب " والوجدانيات "[١] .

إن هذا التأمل الذاتى أو الاستبطان أدى إلى ذيوع روح التصوف فى الهند .

٥ - الفكر الهندى فكر أسطورى حالم :

لعبت الأسطورة دوراً أساسيًا فى الفكر الهندى بل والديانات الهندية جميعًا .

فالأسطورة تلازم هذا الفكر بحيث لانستطيع الوقوف على تفسير أية ظاهرة كونية إلا باستخدام القصص الخرافية . وذلك أمر طبيعى إذا ما عرفنا أن الشخصية الهندية شخصية حالمة . ويفسر هيجل الروح الحالمة التى تعد من أبرز سمات الشخصية الهندية . فيقول : "لابد لنا أن نحدد بدقة أكثر خصائص الروح الحالمة بوصفها المبدأ العام للطبيعة الهندية ، إن الفرد فى حالة الحلم يكف عن أن يكون واعيًا بنفسه بما هو كذلك بحيث يقدر على التفرقة بين ذاته وبين الموجودات الموضوعية ، لكنى عندما استيقظ يصبح وجود الذاتى وتصبح بقية

---

١ - د. على زيعور : مرجع سابق ، ص ٧٠ .

المخلوقات تموضعًا خارجيًا وصلبًا مقابلاً لى مثلما أنا مقابل لها ، وبقية الوجود ينتشر ، بوصفه شيئًا خارجيًا ، فى ترابط عقلى ، ونسق من العلاقات يكون فيه وجودى الفردى ذاته عضواً ، وهو وجود فردى يتحد مع ذلك الكل الشامل ، وتلك هى دائرة الفهم ، وعلى العكس من ذلك ، فإن هذا الانفصال لاوجود له فى حالة الحلم ، إذ تكف الروح عن أن تكون وجوداً لذاتها يعارض الوجود الخارجى الآخر ، وهكذا يكف بصفة عامة انفصال الخارجى والفردى أمام عموميته وماهيته ، ومن ثم فإن الهندى الحالم هو كل ما نطلق عليه لفظ المتناهى والفردى ، وهو فى الوقت نفسه ، بوصفه لامحدوداً عامًا على نحو لا متناه ، فيه شىء إلهى « من الناحية الداخلية » . فالنظرة الهندية إلى الأشياء هى تمامًا نظرة وحدة وجود عامة Pantheism ، ولكنها وحدة وجود لقوة الخيال لا الفكر »[١] . وهذا ما يفسر سيطرة الأسطورة على الفكر الهندى .

ثانيًا : خصائص الفكر الدينى الهندى :

للهند طبيعة خاصة تميزها عن كثير من بلدان العالم فهى أشبه بقارة مترامية الأطراف متعددة الشعوب واللغات ذات ثقافة خصبة متنوعة . يقول ديورانت : « لاينبغى أن ننظر إليها نظرتنا إلى أمة واحدة مثل مصر أو بابل أو انجلترا ، بل لابد من اعتبارها قارة بأسرها فيها من كثرة السكان واختلاف اللغات ما فى القارة الأوروبية ، وتكاد تشبه القارة الأوروبية كذلك فى اختلاف أجوائها وآدابها وفلسفاتها وفنونها »[٢] . وهذا الاختلاف فى أحوالها المناخية وأحوال سكانها الذين يشكلون خليطًا من أقوام وأجناس شتى بسبب تعرضها للغزاة الذين وفدوا عليها من الغرب « وقد تكون هذه الاختلافات السابقة هينة بجانب اختلاف السكان فى اللغة والدين ، فإن تباين لغات السكان ولهجاتهم يلمسه كل زائر للهند كما يلمسه سكان الهند أنفسهم »[٣] إن هذا التنوع أدى إلى ظهور عدد من أديان العالم الكبرى فى الهند . وأصبح الفكر الدينى الهندى يتميز بخصائص ينفرد بها عن غيره وهى :

١ – تعدد الأديان :

إن تعدد أديان الهند راجع إلى الظروف والأحوال التى عاشتها خلال فترات التاريخ المختلفة بحيث يمكن القول بأن الهند كان لها أديان خاصة بها قبل الغزو الآرى للبلاد . ومن ذلك الغزو

---

١ – هيجل : مرجع سابق ، ص ٩٩ .

٢ – ديورانت : مرجع سابق ، ص ١٣ .

٣ – د. عبد المنعم : مرجع سابق ، ص ١٢ .

أندمجت أديان الهند القديمة بالديانة الآرية . فالآريون عندما دخلوا الهند « جلبوا معهم آلهتهم وديانتهم ، وحاربوا السكان الأصليين ، وحاولوا التخلص من جنيع آثارهم الدينية والعقائدية بشتى الوسائل إلا أنهم تشربوا من حضارة وادي نهر الهند واقتبسوا معظم مزاياها الدينية ، كما أدخلوا كثيراً من آلهتهم فى صميم عقائدهم الدينية ، وكان ذلك أمراً طبيعيًا... ومن هنا تركت ديانة وادى نهر الهند وحضارته آثاراً بعيدة المدى فى الديانة الآرية وحضارتها ، فقد اقتبس الآريون معظم عقائد أهل نهر الهند وصبغوها بالصبغة الآرية بحيث لاتنمحى آثارها ولاتقتلع جذورها مع أنها امتزجت امتزاجًا قويًا »[١] وعن تعدد الديانات وكثرة الآلهة يقول ديورانت : « الظاهر أن أقدم ديانة نعرفها عن الهند . تلك الديانة التى وجدها الغزاة الآريون بين " الناجا " والتى لاتزال قائمة ضمن الأجناس البشرية البدائية التى نراها هنا وهناك فى ثنايا شبه الجزيرة العظيمة ، وهى عبادة روحانية طوطمية لأرواح كثيرة تسكن الصخور والحيوان والأشجار ومجارى الماء والجبال والنجوم ، وكانت الثعابين والأفاعى مقدسات - إذ كانت آلهة تعبد ومثلاً عليا تنشد فى قواها الجنسية العارمة ، وكذلك شجرة " بوذى " المقدسة فى عهد "بوذا " كانت تمثل تقديسهم لجلال الأشجار الصامت ، وهو تقديس صوفى لكنه سليم، وهناك من آلهة الهنود الأولين ماهبط مع الزمان إلى هنود العصور التاريخية ، مثل "تاجا " الإله الأفعون ، و " هاتومان " الإله القرد و "ناندس " الثور المقدس ، و " الياكاشا " أو الآلهة من الأشجار »[٢].

إن هذا التنوع وتلك الكثرة انعكس على الأفكار فظهرت فلسفات وحدة الوجود والقول بالتناسخ وكذلك انعكس على الأخلاق .

٢ - الرؤية الدينية الواحدة للكون :

لقد أطلق بعض مؤرخى الأديان على أديان الهند مسمى « أديان القانون الكونى الأزلى » لأنها تصدر عن قوانين للوجود ثابتة ، كما كونت رؤية دينية لاتعتمد على فكرة الألوهية وخاصة فى شكلها الذاتى الشخصى ، كما أنها طورت لنفسها فهمًا للخلاص الدينى مستقلا استقلالاً تامًا عن الخلاص الذى طورته الديانات الكتابية وبخاصة اليهودية والمسيحية [٣].

---

١ - د. محمد اسماعيل الندوى : الهند القديمة وحضارتها ودياناتها ، دار الشعب ، سنة ١٩٧٠ ، ص٤٨.

٢ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٣٠ .

٣ - د. محمد خليفة حسن : تاريخ الأديان ، القاهرة سنة ١٩٦٦ ، ص ٥٣ .

٣ - طغيان النزعة الروحية :

إن أديان الهند ومعتقداها موغلة فى النزعة الروحية ، ونستطيع القول بأن المشكلة الأساسية فى الهند مشكلة روحية « وقد اختلفت المدارس والمعتقدات طبقًا للحلول التى اقترحت لتلك المشكلة والأساس هو الدافع الروحي ، والاتجاهات الماورائية ، والإيمان بالمؤلهات الوفيرة جداً ، والتمركز حول المحور الدينى الغيبى ... لا بناء للإنسان إلا على أسس ولغايات روحية تشكل جوهره ، وحقيقته وقدره »[١].

٤ - يجمع أديان الهند أن فكرها ليس تاريخيًا فالتفكير الهندى تفكير دائرى وليس طوليًا :

« فهم الفكر الهندى عمومًا التاريخ على أنه يدور فى حلقات ثلاث متكررة ، وأن حياة الكون كحياة الفرد تخضع لسلسلة حياتات لا فكاك منها ولا محيد عنها : خلق ، ثم نمو ثم موت »[٢] ، وذلك هو التثليث الهندى . إن هذا يجعل « الشعور بالزمن لا حدود له ، ويطغى الإحساس بالأزلية أو اللانهائية على الإحساس التاريخى المحدود »[٣].

٥ - الانعزال عن المجتمع أو العزلة المدبرة :

يميل الإنسان الهندى إلى العزلة ، ويدير ظهره للعالم وللحياة وللمجتمع ، والعمل ، والواقع « القديس الهندى أى الغاية المثلى للإنسان ، الإنسان الكامل - هو الذى يتأمل ولا يعمل ، يتنسك فى غابة ، ينقطع عن أهله ومجتمعه ليعيش حياة الروح والانعزال . المجتمع المثالى هو بالتالى مجتمع أشباح ، قائم فى غابة ، وعلى التسول واللاحركة وعدم النشاط ، لايتحقق كمال الحكيم (رشى Rshi) ولا يبلغ المثل الأعلى بين الناس بل بمنأى عنهم ، لا كمال فى المجتمع بل خارجه ، ولا فى الحياة بل فى تركها »[٤].

٦ - التصوف والزهد الطريق الأول الأساسى إلى الخلاص :

إن المعاناة هى لب وجوهر العقائد الهندية والزهد والتقشف وتعذيب البدن من وسائل تصفية النفس وخلاصها . يشرح أبو الريحان البيرونى كيفية الخلاص من الدنيا وصفة الطريق المؤدى

---

١ - د. على زيعور : مرجع سابق ، ص ٧٣ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٨٥ .

٣ - د. محمد خليفة : مرجع سابق ، ص ٥٣ .

٤ - د. على زيعور : مرجع سابق ، ص ٧٤ .

إليه عند الهنود فيقول : « والسيرة الفاضلة هي التى يفرضها الدين ، وأصوله بعد كثرة الفروع عندهم راجعة إلى جوامع عدة هى أن لايقتل ولايكذب ولايسرق ولايزنى ولايدخر ، ثم يلزم القدس ، الطهارة ، ويديم الصوم والتقشف ويعتصم بعبادة الله تسبيحًا وتمجيداً ويديم أخطار " أوم " التى هى كلمة التكوين والخلق على قلبه دون التكلم به ، وذلك أن ترك الإماتة فى الحيوان هو نوع جنسه الكف عن الإيذاء والإضرار ، ويدخل فيه اغتصاب ما للغير والكذب بعد ما فيه من القبح والنذالة ، وفى ترك الإدخار نفض التعب والأمان من طالب الفضلة وحصول الراحة من ذل الرق بعز الحرية ، وفي لزوم الطهارة وقوف على قذر البدن وداعية إلى بغضه وحب النفس الطاهرة ، وفى تعذيب النفس بالتقشف تلطيفه وتسكين شرته وتذكية حواسه » [١].

ويقول أيضًا : « أطلب النجاة من الدنيا بترك التعلق بجهالاتها وإخلاص النية فى الأعمال وقرابين النار لله من غير طمع فى جزاء ومكافأة واعتزال الناس الذى حقيقته أن لاتفضل واحداً لصداقة على آخر لعداوة ، وتخالف الغفلة فى النوم وقت انتباههم والانتباه وقت رقادهم فإنه عزلة عنهم علي شهادة معهم ، ثم حفظ النفس عن النفس فإنها العدو إذا اشتهت ونعم الولى إذا عــفت »[٢] أما عن ضروريات الحياة التى لاغنى عنها فيقول : « لابد للإنسان الغذاء والسكن واللباس فلا بأس به فيها ، ولكن الراحة ليست إلا فى ترك ماعداها من الفضول ومتاعب الأعمال ... من أمات شهوته لم يتجاوز الحاجات الاضطرارية ، ومن لزم الكفاف لم يختز ولم يستر ذل وقيل فيه أيضًا : إن كان الإنسان غير مستغن عما تضطر الطبيعة إليه من مطعوم يسكن ثائرة المسغبة ونوم يزيل عادية الحركات المتعبة ومجلس يهدأ فيه فمن شريطته النظافة والوثارة والتوسط فى الارتفاع عن وجه الأرض والكفاية من انبساط البدن عليه "[٣].

٧ - اعتقاد التناسخ :

يقول البيرونى : " التناسخ علم النحلة الهندية فمن لم ينتحله لم يك منها ولم يعد من جملتها فإنهم قالوا : إن النفس إذا لم تكن عاقلة لم تحط بالمطلوب إحاطة كلية دفعة بلازمان

---

١ - البيرونى : تحقيق ما للهند من مقولة ، عالم الكتب ، بيروت ، سنة ١٩٨٣ ، ص ٥٤ .

٢ - نفس المرجع السابق ، ص ٥٥ .

٣ - المرجع السابق ، ص ٥٦ .

واحتاجت إلى تتبع الجزئيات واستقراء الممكنات وهى وإن كانت متناهية فلعددها المتناهى كثرة، والإتيان على الكثرة مضطر إلى مدة ذات فسحة لهذا لايحصل العلم للنفس إلا بمشاهدة الأشخاص والأنواع وما يتناوبها من الأفعال والأحوال حتى يحصل لها فى كل واحد تجربة وتستفيد بها جديد معرفة ، ولكن الأفعال مختلفة بسبب القوى وليس العالم بمعطل عن التدبير وإنما هو مزموم وإلى غرض فيه مندوب ، فالأرواح الباقية تتردد لذلك فى الأبدان البالية بحسب افتنان الأفعال إلى الخير والشر ليكون التردد فى الثواب منها على الخير فتحرص على الاستكثار منه وفى العقاب على الشر والمكروه فتبالغ فى التباعد عنه ، ويصير التردد من الأرذل إلى الأفضل دون عكسه لأنه يحتمل كليهما ، ويقتضى اختلاف المراتب فيهما لاختلاف الأفاعيل بتباين الأمزجة ومقادير الازدواجات فى الكمية والكيفية . فهذا هو التناسخ " [١].

إن التناسخ فى الديانة الهندية يعالج قضايا خلود الروح والثواب والعقاب وحصول العلوم والمعارف وأحيانًا كوسيلة للخلاص .

ثالثًا : أقدم الديانات الهندية :

أ - الهندوسية : أقدم الديانات الهندية . وقبل أن نشرع فى شرح أصول هذه الديانة ، يجدر بنا الوقوف عند تعريف الهندوسية .

١ - هل يمكن تحديد مفهوم واضح ودقيق للهندوسية ؟

يجيب على ذلك السؤال الدكتور محمد خليفة فيقول : " من الصعب تعريف الهندوسية بنفس الدقة التى يمكن بها تحديد أو تعريف الديانات الأخرى ... وذلك لأن مصطلح «الهندوسية» لم يستخدمه الهنود أنفسهم الذين لم يضعوا اسمًا محدداً لدينهم ، ويعود ذلك إلى اتساع مفهوم الهندوسية ليشمل العديد من عقائد الهند ، وعاداتها بسبب تعدد عصور الديانة الهندوسية[٢] . أضف إلى ذلك ما يقرره جفرى بارندر فى ذات السياق حيث يقول : "الهندوسية موضوع واسع ومفهوم محير ، ولكى نصف دينا بلغ تاريخه ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة (وربما أكثر من ذلك) وتعتنقه اليوم مئات الملايين ، وهو فضلاً عن ذلك دين بلا

---

١ - المرجع السابق ، ص ٣٩ .

٢ - د. محمد خليفة حسن ، مرجع سابق ، ص ٥٨ .

عقيدة محددة ، أو جماعة من الأتباع تختص به ، أو هيئة مركزية ذات ترتيب هرمى - لكى تصف دينًا على هذا النحو ، فإننا نقوم بمحاولة لاتختلف عن محاولة الأعمى أن يصف فيلاً - بل إن محاولة تعريفه ذاتها مشكلة عسيرة [١]. ومع كل هذه الصعوبات التى تواجه وضع مفهوم محدد للهندوسية فإننا نستطيع أن نقدم عدد من التعريفات وهى :

التعريف السلبى : على الرغم من أن هذا النوع من التعريفات يعد أضعف الأنواع . إلا أنه يساهم فى التعرف على الأحوال الشخصية ، بأنه الشخص الهندى (ولابد أن نضيف كذلك الباكستانى والنيبالى والسنغالى .... إلخ) الذى ليس مسلمًا ولا مسيحيًا ولازرادشتيًا ولا يهوديًا ، وينبغى علينا من أجل أهداف الدراسة أن نستبعد كذلك البوذى والجينى والسيخى ، لكن ذلك لايخبرنا إلا بما لاتكونه الهندوسية "[٢] .

تعريفات إيجابية : " إن الديانة الهندوسية عبارة عن تقاليد وأوضاع تولدت من تنظيم الآريين لحياتهم بعدما وفدوا على الهند واستعمروها وتغلبوا على سكانها ، الأصليين وطردوهم من ميادين الحياة "[٣] .

وكذلك يمكن القول " إن الهندوسية هى أتباع أو عبادة الإله " فشنو Vishnu " أو "شيفاShiva " أو الآلهة " شاكتى Shakti " أو تجسيدهم ، أو مظاهرهم أو أزواجهم أو ذريتهم . وهكذا يندرج ضمن الهندوسيين عدد كبير من أتباع عبادة " راما وكر شنا Rama Krishna " (وهما تجسيدات لفشنو) وأتباع عبادة " درجا durga " وسكاندا Skanda " و " جانيشا Ganesha " وهم على الترتيب زوجة (شيفا وابناه) لكن ينبغى أن نستبعد "براهما Brahma " و " سيريا Surya " أى الشمس ، اللذين كان لهما من قبل عبادة خاصة ومعابد خاصة . وعلى كل حال فالهندوسية تشتمل على كثرة من العبادات والفرق التى تقترب قليلاً أو كثيراً من الإندماج فى تراث بالغ القدم ، وعلى حين أن المفاهيم والممارسات العملية التى يرعاها هذا التراث القديم تؤثر في هذه العبادات والفرق ، وتضفى عليها طابعًا

---

١ - جفرى بارندر ، مرجع سابق ، ص ٣٥ .

٢ - المرجع السابق : نفس الصفحة .

٣ - د. عبد المنعم النمر : مرجع سابق ، ص ٢٦ .

هندوسيًا مميزاً ، فإن هذا التراث القديم ذاته هو الحصيلة النهائية لمؤثرات ثرية أتت من القارة ، بحيث استوعبت في داخلة جميع الآلهة المحلية ، وآلهة القبائل وكثرة من الطقوس والفلسفات"[١].

وبعد فإنه من الملاحظ أن هذا التعريف يجمع كل التعريفات التي ذكرها مؤرخو الأديان في كتبهم ... فقد اتفقوا على أن الهندوسية مجموعة من الممارسات تفتقد إلى الوحدة فيما بينها " فهي أسلوب شامل للحياة . يشمل العادات والعقائد والأعمال ومؤسسات الناس في كل أنحاء شبه القارة متطورة في كل فترة من فترات استقرار الناس هناك ، وكانت الهندوسية من حيث هي دين قد أقامت جنبًا إلى جنب في تعايش سلمي كل مرحلة من مراحل العقيدة ، فهي تبدأ من أقدم صور في عقيدة التجسد إلى عقيدة الوحدانية بفلسفتها البراقة الرفيعة ، وصاحب هذا أيضًا نطاق مشابه من عبادة أو عمل يمتد من أبسط أنواع الجهود لاسترضاء قوى الخصب أو الخضرة أو المرض إلى أقصى درجات التأمل المركز الذي يقدر له أن يسفر عن علم ذي واقع مجرد غير شخصي ، والكل كتلة مجتمعة ، مجموع من مصادفة فوضوية أو هي على أحسن الفروض اتحاد رخو ، ذلك أن الهندوسية من وجهة النظر اللاهوتية ليست دينا واحداً ، ولكنها أديان كثيرة بتسامح بعضها مع بعض داخل إطار الطبقات الاجتماعية المتغيرة[٢]. هذا مجمل القول في تعريف الهندوسية .

أما عن أصل الهندوسية من حيث أصل التسمية وتطورها فيمكن القول بأن " كلمة الهندوسية ليست كلمة هندية أصيلة ، ولكنها تمثل النطق الإيراني للمصطلح الهندي ، فمنذ الغزو الإيراني للسند تم نطق الكلمة " سندو Sindu " (وهو الإسم السنسكريتي لنهر الهند Indus) على أنها " هندو Hindu " وانتشر هذا النطق الخاطيء وانشقت منه المشتقات الأخرى مثل الهندوس Hindus " والهندوسية Hinduism " ونهر الهند Indus " والهند In-dia والهنود Indians "[٣] ويتحدث الدكتور رءوف شلبي عن الديانة الهندوكية Agama

---

١ - جفري بارندر : مرجع سابق ، ص ١٣٦ .

٢ - نورمان براون : أساطير الهند ، منشور داخل أساطير العالم القديم ، نشر وتقديم : د، صمويل نوح كريمر ، ترجمة : د، أحمد عبد الحميد يوسف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٤ ، ص ٢٤٨ .

٣ - د. محمد خليفة ، مرجع سابق ص ٥٨ .

فيقول : (كانت الهندوكية تسمى قديمًا "درما Dharma " وهو الاسم الأصلى Hindu وتسمى كذلك " سانتانا Sentana " ثم أطلق عليها حديثًا اسم : الهندوسية لتشمل الدين والحضارة والعادات والتقاليد التى نشأت على نهر هندوس " [١] .

إن هذا التحليل لمفهوم الهندوسية وأصل التسمية وتطورها يؤكد لنا أن الهندوسية ليست مجرد عقائد دينية وإنما هى فى ذات الوقت فلسفة وسجل للعادات والتقاليد التى عرفتها شعوب شبه القارة الهندية وهى خليط من ثقافات هندية قديمة ومعتقدات وثقافات آرية بل وفارسية أيضًا فهى مزيج من ثقافات عدة . وبعد نعرض للهندوسية من حيث :

١ - الكتب المعتمدة عند الهندوسية :

الويات « الفيدا WEDA »

يطلق على الأسفار المقدسة للديانة الهندوسية اسم " الويدا WEDA " أو الفيدا Vedas ومعناها المعرفة أو العلم . يقول ديورانت : " إن كلمة " فيدا " معناها معرفة ، وإذن فسفر الفيدا معناه الحرفى كتاب المعرفة و " الفيدات " يطلقها الهندوس على كل تراثهم المقدس الذى ورثوه عن أولى مراحل تاريخهم "[٢] وعن معنى " الويدا " أو " الفيدا " يقول الدكتور رؤوف شلبي : " معنى الويدا يختلف باختلاف المقصود منها :

فهى قبل أن تكتب وتخطها الأصابع والأقلام معناها التأمل .

وبعد أن صارت مكتوبة معناها مجموعة الكلمات التى تنظم حياة أتباعها للوصول إلى المعرفة المنشودة[٣] ، ومن أدق معانيها أيضًا عدة معان ، أدقها : " العلم عن طريق الدين بكل ماهو مجهول " وينجم عن هذا التعريف أن تكون " الفيدا " منبع جميع المعارف الهندية من دينيات وأخلاقيات ونظريات علمية أو اجتماعية ، وهى تحوى أورادًا تعبدية وأناشيد دينية ، وتعاويذ سحرية[٤] وبعد . ماذا عن أصل الفيدا ؟ ونشأتها وتطورها ؟ وطبيعتها ؟

---

١ - د. رؤوف شلبى : آلهة فى الأسواق ، القاهرة ، سنة ١٩٨٤ ، ص ٧٩ .

٢ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٣٨ .

٣ - رؤوف شلبى : مرجع سابق ، ص ٨٢ .

٤ - د. محمد غلاب : مرجع سابق ، ص ٩٣ .

" فى وقت ما بين عامى ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق.م غزت قبائل الآريين الهند واستقرت فى البنجاب وأنشأت مجموعة من التراتيل التى تألفت منها " ريج فيدا " وهى وثيقة ذات أهمية تاريخية لاتقدر ، فهى ليست أقدم عمل أدبى فى لغة من اللغات الهند-أوربية فحسب ، وإنما هى أقدم الكتابات الدينية الحية فى العالم "(١) ونتيجة لغموض النشأة وعدم معرفة زمن كتابة " الفيدا " وظهورها اختلف مؤرخو الأديان حول حجم " الفيدا " وأهم كتبها وطريقة تأليفها . يؤكد د. وينتر نيتز Dr M. Winterntz " أن الويدا (الفيدا) لاتتألف من كتاب واحد بل من مجموعة كتب كل كتاب فيها يطلق عليه اسم الويدا " . ويؤكد هذا الرأى التقاليد الموروثة فى هذا المجتمع وكذلك استخدم اصطلاح " سمهيتا Samhita " كعنوان على مجموعة الكتب الويدية فى مجلد واحد يؤكد بدوره أن " الويدا " ليست كتابًا واحداً بل هى مجموعة كتب كثيرة . وقد ذكر المؤلف نجومان : أن " الويدا " كتب كثيرة تصل إلى أربعة عشر كتابًا عدها كالآتى :

من ١ - ٥ الويدا ومن ٥ ١٠ ويدانج

والكتاب الحادى عشر ميماما . الفلسفة الدينية لمحتويات الويدا .

والكتاب الثانى عشر . نيايا . الأسس العقلية للتفكير الدينى .

والكتاب الثالث عشر . فورانا . الكتب القديمة

والكتاب الرابع عشر . داراما سسترا . كتاب القوانين .

ويسمى ويداسمرتى Wedasenerti وهو قانون مانو .

وأهم هذه الكتب فى التوجيه الدينى الهندوسى هو الكتاب الأول " الويدا "(١) .

وقد انتقلت هذه النصوص الدينية عن طريقين : المشافهة والكتابة . وتلك التى انتقلت عن طريق المشافهة تسمى " سروتى Sruti " وهى النصوص التى انتقلت من جيل إلى جيل عن طريق السماع والحفظ .

---

١ - جفرى بارندر : مرجع سابق ، ص ١٣٨ .

٢ - د. رؤوف شلبى : مرجع سابق ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

والأخرى المسجلة تسمى " سمريتى Smriti " .

ويقول الزعيم الهندى الراحل جواهر لال نهرو فى إحدى رسائله عن الهند القديمة : " لعل هذه الكتب لم تدون فى أول الأمر ، وإنما حفظت عن ظهر قلب ، وبقيت فى صدور الحفاظ من حكماء تلك العصور يتناقلوها مشافهة جيلاً بعد جيل . وبعد انتشار نظام الكتابة كتبت الفيدا الأربعة باللغة السنسكريتية الكلاسيكية ، وسمى المجموع " سمهتا " أى الديوان المجموع وهذه المجموعات الأربع هى :

١ - " ريج فيدا " أو " ريتش فيدا " Rig-Veda, ou. Ritch veda (ومعناها النارية أى المنسوبة للنار) وهى قسمان : يتمثل أحدهما فى أدعية وصلوات وأوراد منظومة تتلى فى بعض المناسبات " منترا " ويشتمل الآخر على تعاليم تتعلق بالعبادات والواجبات الدينية " براهمانا " .

٢ - " ياجورفيدا " أو ياجوش فيدا " Yadjour- Veda, ou, Yadjoush- Veda (ومعناها الفيدا الهوائية أى المنسوبة للهواء) .

٣ - سامان فيدا أو " سامافيدا Saman- Veda, au, Sama-Veda (معناها الفيدا الشمسية أى المنسوبة للشمس) وهى قسمان كذلك يتمثل أحدهما فى مزامير دينية يتغنى بها فى بعض المناسبات " منترا " ويشتمل الآخر على تعاليم متعلقة بالعبادات والواجبات الدينية " براهمانا " .

٤ - " أتارفانا فيدا " (لعلها نسبة لحكيم من حكماء الهند يدعى أنارفانا) وهى كذلك تنقسم قسمين : يتمثل أحدهما فى أوراد وأدعية للاستغفار والرقى ضد السحر وضد الأرواح المدمرة الخبيثة " منترا " ويشتمل الآخر على طائفة من شرائع الديانة البرهمية " براهمانا " وبخاصة ما يتعلق منها بالتفرقة العنصرية بين الطبقات ، وهو النظام الذى تقوم عليه أهم العلاقات الاجتماعية بن طبقات الناس والذى يحدد مركز كل طبقة ووظائفها عند البرهميين ... وبهذه الطائفة من الشرائع الاجتماعية يمتاز هذا السفر عن الأسفار الثلاثة السابقة .

هذا وقد ظهر للمحققين من المشتغلين بالدراسات الهندية ، وعلى رأسهم العلامة " وليم جونس Wiliam Jones " أن الكتب الثلاثة الأولى هى أقدم هذه الكتب جميعًا فى تاريخ

تأليفها ، وأن أقدمها هو " الريج فيدا " الذى يصعد تاريخ تأليفه فى نظر بعضهم، إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وأن السفر الرابع هو أحدثها جميعًا[١].

نستنتج مما سبق أن أهم كتاب فى « الفيدا » هو كتاب « ريج فيدا » فماذا عن هذا الكتاب ؟ وما جاء فيه ؟ .

الريج فيدا يتضمن ١٠٢٨ نشيداً دينيًا ، " وهو مقسم إلى عشرة كتب أو فصول ، ستة منها : يتحدث كل واحد منها عن أسرة من أسرات المنجمين (Rishis) وينسب إليها أموراً مزعومة ، ويتميز الكتاب العاشر بأن النظرة فيه أوسع شمولاً من غيره ، ويقول الباحثون أن هذه التراتيل مصاغة بلغة سنسكريتية قديمة ، هى بالنسبة للسنسكريتية المعروفة كنسبة لغة هوميروس إلى اللغة اليونانية المألوفة فى الآداب اليونانية القديمة ، ويرون أيضًا أن هذه التراتيل اتخذت شكلها النهائى فيما بين سنة ١٠٠٠ ق.م ، وسنة ٨٠٠ ق.م ومن ثم فهى لاتتضمن العقائد الهندية العريقة فى القدم ... ويذهب الباحثون أيضًا إلى أن بعض هذه التراتيل كان ثمرة تأليف أشخاص ، وأنها ليست ثمرة وحى إلهى بالمعنى الذى تستعمل به الكلمة . وهذا على الرغم من اعتقاد الهنود من حوالى ٧٠٠م أنها جاءت عن طريق الوحى ، يريدون بهذا التعبير أنها القيت فى روع المنجمين ، وبدت على ألسنتهم فى أحاديث شفوية ، والدراسة لهذه التراتيل وغيرها أدت إلى القول أنه بعد الفيدات الأربع الأولى قامت الشروح والحواشى البرهمية لهذه الفيدات ، ثم أصبحت جزءًا مكملاً لها واتخذت مالها من قداسة . وهى غالبًا ما تكون توضيحات لشعائر دينية تضمنتها هذه الفيدات ، ثم تحولت هذه البرهميات بمرور الزمن إلى يوبانيشادات Upanishads أو رسائل فلسفية " [٢].

ويقدم جفرى بارندر شرحًا مفصلاً لمحتويات الريج فيدا Rig-Veada فيقول : " وتحتوى المجموعة على ١٠٢٨ ترنيمة لآلهة الفيدا أما المجموعات الأخرى (السامهيتا Samhitas فقد كتبت لخدمة احتياجات الإنشاد Sama-Veda أو كدليل موجز لعمليات الأضاحى أو تقديم القرابين وهى (ياجورافيدا Yajora-Veda التى تؤدى فيها التراتيم دوراً حاسمًا ،

---

١ - د. على عبد الواحد وافى : الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ، دار نهضة مصر ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

٢ - د. محمد الحينى : فى العقائد والأديان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١ ، ص ٩١ - ١٠٠.

وعلى حين أن هذه المجموعات الثانوية تكرر كثيراً من مواد " الريج فيدا " وتعيد تنظيمها لأغراضها الخاصة ، فإن مجموعة رابعة هي المسماة بـ (أثارفا فيدا Atharve- Veda) وهي تتميز عن المجموعات الأخرى من حيث أنها تشتمل على العديد من الرقى والتعاويذ لأغراض طيبة ، وعلى طلاسم سحرية تساعد على الانتصار في المعركة وماشابه ذلك ، وتكتمل مجموعات " الفيدا " بسلسلة من الكتب تسمى " البرهمانا B. Rahmanas (٨٠٠-٦٠٠ق.م) وهي مخصصة لشرح الترانيم وتطبيقها في الطقوس الدينية والميثولوجيا وتأملات في التشابه الصوفي بين العالم الكبير " Macrocosm والقربان نفسه ، وتكتمل كتابات " الفيدا " بسلسلة ثالثة من الكتب هو " أرانيكا Aranyakas (٦٠٠ق.م) و " اليوبانيشاد " (٦٠٠-٣٠٠ق.م) اللذان يصوران هذه التأملات ويسيران بها إلى حافة الفلسفة الواحدية . وأخيراً هناك سلسلة من الكتب الفرعية التي فقد معظمها الآن - وهي تقدم الوجه العملي لدراسة " الفيدا " وهي جميعها مستمدة من القرابين ومتطلباتها ، مثل علم النحو ، وعلم الصوتيات ، وعلم العروض ، وعلم الفلك والطقوس الدينية ، والأخيرة تشتمل على القرابين العامة الكبرى والطقوس المنزلية في آن معًا ، ومن هذه الطقوس ظهرت فيما بعد كتابات قانونية " [١].

هذا عن محتويات كتب " الفيدا " فماذا عن العقيدة ؟

معتقدات الهندوسية :

العقيدة تمثل جوهر الديانة وتتقدم على كل ما عداها من أفكار وتشريعات وطقوس . وسنعرض للعقيدة الهندوسية متناولين : عقيدتهم في الألوهية . النظام الاجتماعي . البعد الأخلاقي :

أ - عقيدتهم في الألوهية :

إن أهم ما يلاحظ في هذا الجانب تعدد الآلهة وذلك لأنها عقيدة تؤله قوى الطبيعة ، لاسيما تلك القوى الشديدة الصلة بالحياة أي التي تجعل ممكنًا العيش وإخصاب النبات والحفاظ على الحيوان . هناك ثلاثة من تلك المؤلهات حافظت على خصائصها العادية وهي :

---

١ - جفري بارندر : مرجع سابق ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

أ - براهمنسباتى : تقام له الصلوات ، يقيم فى السماوات ، خلق جميع المؤلهات ، وهو أقوى على الأعداء ، وتخاف الشياطين بطشه .

ب - أغنى : Agni إله النار : إنه ذلك اللهيب الذى يلتهم الحطب فى المذبح كى يتصاعد بألسنته إلى السماء ويقيم فيها يهب الحياة (بالطبع لأنه يهب الدفء فى الصقيع) للحيوان والنبات والإنسان يمنح الخصوبة ، وليس هو أنثى ، إنه الإله الشامل ، العالمى وهو أفضل الآلهة .

جـ - سوما : هو صنو الضحية ، يلازمها ، وهو ماء نبتة مقدس ، تطحن ثم تجمع فى الخوابى ، كالنبيذ . السوما هى سبب خلود الآلهة ، وهى التى تهب الشمس شعلتها ، يتناول الكهنة ذلك الماء المقدس ، " السوما " [(١)].

ويقدم الدكتور رؤوف شلبى عرضًا وافيًا عن عقيدة الألوهية معتمداً على المصادر الأصيلة للهندوسية ومن هنا تأتى أهمية هذا العرض الذى يتضمن من المعانى مايبرز حقيقة العقيدة الهندوسية . يقول عن الألوهية تاتوا TATWA .

" هذه الفلسفة تتوجه نحو " سانج هيانج SANG HYANG يعنى إلههم . إله له صفة السلطان والقدرة وهو الخالق والمبدع والحافظ والمنعم وهو الله الواحد المتعدد الصفات وهو :

براهما : BRAHMA ، فشنو WISNU ، سيفا : CIWA .

براهما : هو الذى يطلق عليه لفظ " سانج هيانج Sang Hyang " ووظيفته أنه الخالق واسمه بالسنسكريتية " UTPTI .

فشنو : هو الحافظ الرحيم والعطوف واسمه بلغة أهله " Sthiti " .

سيفا : هو الملك للعالم ، واسمه بلغة قومه " Sangkan Par An " وهذه الثلاثة تشكل ثالوثًا " Trisakti " بعضه الخالق وبعضه الحافظ ، وبعضه الهالك ولكل واحد وظيفة يؤديها بقوته .

أما الأصنام التى كانت تعبد فهى الضوء الذى يتخيل فيه الهندوس ملامح الألوهية التى تعينه على الصلاة والتعبد ، ولهذا فإن كل شخص له الحق فى اختيار الصنم الذى يساعده على استحضار نور الهداية من إلهه "[(٢)] .

---

١ - د. على زيعور : مرجع سابق ، ص ١٤٨ .

٢ - د. رؤوف شلبى : مرجع سابق ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

من كل ما سبق نستنتج أن " براهما " الإله الخالق هو مركز العقيدة إذ أنه سيد الآلهة والمتقدم عليها جميعًا . فماذا عن " براهما " ؟ .

براهما : روح العالم الإله الأكبر أو الأعظم اجتمعت فيه وحدة الآلهة . واسم " براهما " مشتق من جذر تدور دلالته حول النمو أو النشاط أو الطاقة والقوة الإلهية ، ثم أصبحت تدور مؤخراً على الروح وعلى أساس الكون أو العالم ، وللكلمة كمصطلح دينى عدة معانى فى الهندوسية : فهى تشير أولاً : إلى الإله الشخصى براهما فى التعاليم الهندية المتأخرة وتشير ثانيًا إلى البرهمانيين وهم طبقة الكهنة الذين يكونون الطبقة الأولى من نظام الطبقات الدينى الهندى ، وتشير ثالثًا إلى مفهوم البراهما ويقصد به روح العالم أو الكون وهو قوة أولية وغير شخصية محايدة فى جنسها وهى متحركة ومُعينة للجميع . وهو الجميع كما تعرفه النصوص الدينية وهو الحقيقة والضمير واللانهائية أى الأزلية ، وهو المبدأ الأول ففى البدء كان البراهما ، وهو غير قابل للوصف ، وغير مادى ويوصف بصفات النفى وليس بالإثبات ، وهو الآلهة جميعًا بل هو يحتوى الإنسان أيضًا فالكل براهما ، وبراهما هو الكل ، هو روح العالم أو الروح العالمية " [١].

تحكى بعض الأساطير " إن براهما هو الموجود الأول ، وهو الذى خلق هذه الكائنات ، وهو إله الآلهة وخالق الإنسان وكل شىء فى هذه الدنيا . إذ كان هذا العالم فى البداية عبارة عن ظلام حالك مجهول لاشكل له ولا حياة ، ولاوجود فيه ، ثم أنشأ الوجود الحي الخالد بطاقاته الهائلة هذا الكون بمواد إنارته وأزالت ظلامه ولم يكن فى مقدور أحد معرفة كيفية هذا الوجود الحى ، وإدراكه ورؤيته إلا بالوجدان " [٢] .

هذا الإله الخالق كبير الآلهة عند الهندوس يصيح فى أعماق نفسه قائلاً : " أنا أقوى من السماء ، وأعظم من الأرض ، وأرفع من كل هذه الأجرام والكواكب حولى ، أنا أعلى من جميع هذه الأشياء ، أنا الكل فى الكل ، أفعل ما أريد ، وأخلق كل ما يخطر لى ، أنا جوهر هذا العالم الواحد الشامل لست بالذكر ولا بالأنثى ، إنما أنا روح غير مشخص فى صفاته ، أحتوى كل شىء، وأكمن فى كل شىء لاتدركنى الحواس، لأنى أنا حقيقة الحقيقة . أنا .. براهما"[٣].

---

١ - د. محمد خليفة : مرجع سابق ، ص ٦٥ .
٢ - محمد اسماعيل الندوى : مرجع سابق ، ص ٩٠ .
٣ - سليمان مظهر : قصة الديانات ، دار الوطن العربى ، ص ٥٠ .

ويذكر البيرونى وهو يتحدث عن اعتقاد الهنود فى الله سبحانه وتعالى صفات المعبود الواحد " براهما " وهذا ما نستخلصه من عرضه فمن أقواله : " واعتقد الهند فى الله سبحانه أنه الواحد الأزلى ، من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله القادر الحكيم الحى المحيى المدبر المبقى الفرد فى ملكوته عن الأضداد والأنداد لايشبه شيئًا ولايشبهه شيء " ثم يستشهد على هذا القول ببعض ما ورد فى كتاب " باتنجل " ونصه : " قال السائل ... من هذا المعبود الذى ينال التوفيق بعبادته ؟ قال المجيب : هو المستغنى بأوليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تؤمل وترجى أو شدة تخاف وتتقى ، والبرىء عن الأفكار لتعاليه عن الأضداد المكروهة والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمداً إذ العلم الطارىء يكون لما لم يكن بمعلوم وليس الجهل بمتجه عليه فى وقت ما أو حال ، ثم يقول السائل بعد ذلك : فهل له من الصفات غير ماذكرت ؟ ويقول المجيب : له العلو التام فى القدر لا المكان فإنه يجل عن التمكن ، وهو الخير المحض التام الذى يشتاقه كل موجود ، وهو العلم الخالص من دنس السهو والجهل "[1].

لاتعتقد أن البيرونى يتحدث عن توحيد يماثل التوحيد فى الإسلام ولايقدم وصفًا للذات الإلهية . بل هو يقدم وصفًا للإله الأكبر عند الهنود " براهما " ودليلنا على ذلك أنه يتناول جملة من عقائد الهنود تتعارض مع التوحيد الخالص ، فيتحدث عن :

١ - حال الأرواح وترددها بالتناسخ فى العالم .

٢ - فى كيفية الخلاص من الدنيا وصفة الطريق المؤدى إليه .

٣ - فى مبدأ عبادة الأصنام وكيفية المنصوبات ... إلخ .

وخلاصة القول أن عقيدتهم فى الألوهية تتمثل فى تعدد الآلهة أنهم خصوا " براهما " بعقيدة خاصة فجعلوه فى أعلى منزلة .

كيف وجدت هذه الآلهة ؟ :

يجيب الدكتور رؤوف شلبى على هذا السؤال معتمداً على المصادر الهندوسية فيقول : "معنى آواترا Awatara كيف وجد الإله Songhyand Widhi فى صورة معينة أو مبادىء وتعاليم من أجل أن يعطى للدنيا تعاليم الخلاص من الضائقات والبلايا .

---

١ - البيرونى : مرجع سابق ، ص ٢٣ .

قـال المؤلف باج واداجـينا Bhag Wadagita " عندما كـان الحق فى حاجة إلى الظهـور ، عمت الفوضى والسيئات نزل الإله من أجل إقامة العدل والحق . وهناك عشرة آلهة منها :

كريشنا Krishna ، رام Rama ، بوذا Budha ، كاليكى Kaliki .

وهذه كلها موجودات لها وظائف من أجل خلق الناس جميعًا وإحلال صفة الربانيـة الطاهرة فى النفوس ، ومـحاربة الشراهة والنهم والنفس الخبيثـة والكبرياء والتـفاخر ، وذلك بواسطة تعاليمهم التى تحث على السلام والأمن والمثل الرفيعة للحياة .

* إن فـشنو Wisnu هو ولد الإله جاء ليحطم الفساد الذى يظهر فى المجتمعات ويحافظ على الخير .

* أما كرشنا Krishna فقد جاء من أجل إحلال السلام .

* أما بودا وهو آخر الآلهة Budha فقد جاء ليعلم الناس الخير والطمأنينة .

* أمـا الإله الخـالق وهو براهمـا فـهـو فى أعـالى المنزلة ، إنه خلق وترك الخلق لولده والمساعدين من الآلهة الصغيرة .

* ومـازال الهندوس ينتظرون إلهًا لم ينزل بعـد هو كـالاكى ذلك الإله الذى لم تعـرف له وظيفة بعد[1].

الطقوس الدينية :

الطقـوس فى أية ديانة تصـور الشكل العـام لسلوك الأفـراد المتـدينين . فـبـقـدر مـا تكون العقيدة قوية داخل النفس يكون اتجاه الفرد للعمـل من أجل مرضاة الآلهة .

وقد اتسمت الشعائر الدينية الهندية بالبساطة وتمثل التضحية أهم الأشياء فى العبادة ، بل هى الأساس وهى العبادة ذاتها .

كيف تمارس عبادة التضحية هذه ؟ كانوا يشعلون النار بوسائط بدائية ، ثم يمدونها بالسمن المصفى حتى لاتخمد فى مذبح ، أو فى معبد ، أو فى مذابح تقام على الجبال ، بعد ذلك كانت تقدم أطعمة للآلهة ، وشراب السوما المقدس ، إلا أن الأضاحى كانت ذات وظائف كبيرة ، قد تكون من أقراص الأرز والسمن تلقى فى النار التى تحملها صوب السماء ويفعل الشىء عينه

---

١ - د. رؤوف شلبى : مرجع سابق ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

وفى ذات الوقت كل رب عائلة . أما الضحية ذاتها فكان الحصان أحبها للآلهة ، وكانت طريقة تقديمه فى البدء رمزية وشعارية يربط الحصان فقط طيلة الاحتفال ، دون ذبحه ، ثم صار يذبح فيما بعد ، وبعد أن يذبح قبله أيضًا تيس ماعز ، وأخيراً ، تذبح أيضًا ثيران وجواميس، ونعاج ، وحملان ، وأرفع أنواع التضحية هى ما يسمى : " أشفامدها Acvamedha وهو النوع الذى إذا مارسه أمير ما مائة مرة نال الحق فى أن يصبح ملكًا على الآلهة ، عوضًا عن أندرا "[1] وتتعدد الطقوس والاحتفالات التى يؤديها الهندوس ومن أهمها :

طقوس المعبد Dewayadya:

داخل المعبد Duta مكان خاص يعد للصنم فى جو هادىء ومعطر ونظيف وذلك لأداء الصلاة ثلاث مرات فى اليوم ، وغرفة داخل المعبد تسمى Sanggar-Surya سنجار سوريا بها رمز الإله . يغطى الغرفة وتبخر ، ويدخل الشخص برفقة الكاهن Pemuka Agama أو Su-linygih ، وتنتهى الزيارة بالصلاة ، ورش الماء على الزائر ، ويتم ذلك على النحو التالى :

- يتلو الكاهن تعاويذه التقليدية :
- يركع الشخص تحت قدمى الصنم متضرعًا .
- يتلو الكاهن الأدعية التقليدية .
- كل طبقة لها وضع خاص فى الأدعية التى يتلوها الكاهن .
- فى الختام يتلو دعاء مخصوصًا .
- يصلى الشخص ثم يرش بالماء ثم يخرج [2].

والصلاة فى المعبد تمثل إحدى العبادات التى تستهدف تحقيق غاية واحدة وهى الفناء فى الله والاندماج فى الكائن الأسمى .

الصــوم : من أهم وأكثر العبادات التى تحث عليها الديانة " البرهمانية " فهى تحث على الإكثار من الصوم لما يؤدى إليه من إهمال المطالب الحيوانية للجسم وإضعاف القوى الجسمية وإضعاف تحكمها فى العبد ، بل إنها تفرض الصوم فرضًا على جميع الطبقات أو على بعضها

---

١ - د. على زيعور : مرجع سابق ، ص ١١٢ .

٢ - د. رؤوف شلبى : مرجع سابق ، ص ١٣٨ .

فى مناسبات كثيرة . فمن ذلك أنها تفرض الصوم على طبقة رجال الدين ، الذين يطلق عليهم اسم " البرهمانيين .. فى أيام الاعتدالين والانقلابين ، وفى اليومين الأول والرابع عشر من كل شهر قمرى ، وروى فى أسفارهم المقدسة كذلك أنه فى أثناء كسوف الشمس يجب الكف عن الأكل والشرب والاتصال الجنسى ، هذا فيما يتعلق بالطبقات الدنيا ، وأما الطبقات العليا (طبقة البرهمنيين رجال الدين وطبقة الكشتريين رجال الحرب) فلا يقتصر واجبهم على ما تقدم، بل يحرم عليهم كذلك الانتفاع بشىء من الأطعمة التى تكون بمنازلهم وقت الكسوف ، ويجب عليهم التصدق بها على غير أفراد طبقتهم بعد تحطيم الآنية التى كانت بها ، وتوجب قوانين مانو على طبقة " السناتا Sinata " (وهم كبار رجال الدين من البرهمنيين) أن يكفوا عن الأكل والشرب والنوم والسفر من غروب الشمس إلى غروب الشفق الأحمر كل يوم ، هذا عن الصيام المفروض[١] . وهناك الصيام العام الذى تحدث عنه البيرونى " الصيام كلها عندهم تطوع ونوافل ليس منها شىء مفروض ... فأما الأمر المتوسط الذى به تحصل شريطة الصوم فهو أن يعين اليوم المصوم ويضمر اسم من يتقرب به إليه ويصام لأجله من الله أو أحد الملائكة أو غيرهم ، ثم يتقدم هذا الفاعل ويجعل طعامه فى اليوم الذى قبل يوم الصوم عند الظهيرة وينظف الأسنان بالتخليل والسواك وينوى صوم الغد ، ويمتنع من وقتئذ عن الطعام ، فإذا أصبح يوم الصوم استاك ثانية واغتسل وأقام فرائض يومه ، وأخذ بيده ماء ورمى به فى جهاته وأظهر اسم من يصوم له بلسانه ويبقى على حاله إلى غد يوم الصوم . فإذا طلعت الشمس فهو بالخيار فى الإفطار إن شاء فى ذلك الوقت وإن شاء أخره إلى الظهيرة فهذا النوع يسمى " إوب باس " .. ومنه نوع آخر يسمى " كرجر " وهو : أن يطعم فى يوم ما وقت الظهيرة وفى اليوم الثانى وقت العتمة . ولايأكل فى اليوم الثالث إلا ما يدفع إليه غير مطلوب ثم يصوم اليوم الرابع ، ومنه نوع يسمى " براك " وهو : أن يجعل طعامه وقت الظهيرة ثلاثة أيام متوالية ، ثم يحوله إلى وقت العتمة ثلاثة أيام متوالية ، ثم يصوم ثلاثة أيام متوالية لايفطر فيها البتة ، ومنه نوع يسمى " جند راين " وهو : أن يصوم يوم الاستقبال ويتناول فى اليوم الذى يتلوه من الطعام قدر مضغة ملء الفم ويضعفها فى اليوم التالى بعده ويجعلها فى اليوم الثالث ثلاثة أضعافها إلى أن يبلغ يوم الاجتماع على هذا التزايد ، فيصومه ثم يتراجع من المقدار الذى بلغه طعامه بنقصان مضغة مضغة إلى أن يفنى

---

١ - د. على عبد الواحد وافى ، مرجع سابق ، ص ١٦٣ .

عند بلوغ الاستقبال . ومنه نوع يسمى " ماسواس " وهو : أن يصوم بالوصال أيام شهر متوالية لايفطر فيها بتة .

ثم يفصلون ثواب هذا الصوم فى الشهور عند العود بعد الممات ، ويقولون إذا واصل صوم أيام " جيتر " نال الغنى وقرة العين بنجابة الأولاد ، وإذا واصل " بيشاك " ترأس على قبيلته وعظم فى جيشه ، وإذا واصل " چيرت " حظى بالنساء ، وإذا واصل " أشار " نال اليسار ، وإذا واصل " شرابن " نال العلم ، وإذا واصل " بهادريت " نال الصحة والشجاعة والغنى والمواشى ، وإذا واصل " أشوجج " لم يزل مظفراً على أعدائه ، وإذا واصل " كارتك " جل فى الأعين ونال إرادته ، وإذا واصل " منكهر " نال الولاية فى أطيب مملكة وأخصبها ، وإذا واصل "بوش " نال الحسب الرفيع ، وإذا واصل " ماك " أصاب أموالاً لاتحصى ، وإذا واصل "بالكن" عاد مجبار ومن واصل جميع الشهور فلم يفطر فى السنة إلا اثنتى عشرة مرة مكث فى الجنة عشرة آلاف سنة وعاد منها إلى أهل بيت ذى شرف ورفعة وحسب " [١].

هذا هو الصوم وجزاء الصائمين ، والملاحظ أنهم يكثرون من الصوم ويشددون عليه ويرغبون فيه .

عبادات أخرى :

تنوعت العبادات فى الديانة الهندوسية وأخذت الطقوس والشعائر الدينية أشكالاً عدة فمنها :

ما يتعلق بالجسم من أهمها الصلاة وقد تحدثنا عنها ، ثم خدمة الملائكة وعلماء البراهمة ، وتنظيف البدن واحترام الحياة الإنسانية ، واحترام الأعراض .

أما ما يتعلق بالصوت ، فمن أهمها : قراءة الأوراد والدعوات الدينية والتسبيح ، ولزوم الصدق ، وملاينة الناس فى الحديث ، وإرشادهم وأمرهم بالمعروف .

أما ما يتعلق بالقلب فمن أهمها ، تقوية النية ، وترك التعظم ، ولزوم التأنى ، وجمع الحواس مع انشراح الصدر [٢].

---

١ - البيرونى : مرجع سابق ، ص ٤٤٠ ، ٤٤١ .

٢ - د. على عبد الواحد وافى : مرجع سابق ، ص ١٦٥ .

تقديم القرابين : من الطقوس والعبادات أيضًا تقديم القرابين وتشتمل القرابين أنواعًا كثيرة منها : اللبن والحبوب والسمن واللحوم وعصير الفواكه والنباتات وعند تقديم القرابين يمارس الهنود طقوسًا خاصة منها :

- ترديد الأناشيد والأدعية المأثورة فى الفيدا .
- يؤدون رقصات وحركات تعبدية مصحوبة أحيانًا بالموسيقى .

طقوس حرق الموتى : Sawa Wedana

يمارس الهنود طقوسًا عجيبة فى الجنائز فيقوم أبناء الميت بنقل النار والحطب ، والماء وجثة الميت ، ثم تتم عملية حرق الميت حسب الخطوات التالية :

- يغسل الميت مرتين : مرة بالماء القراح ومرة أخرى بالماء المعطر .
- تغلق كل الفتوح فى جسم الميت غلقًا محكمًا .
- يحرق الجسم بالنار المقدسة عندهم التى يقررها الكاهن .
- يلقى خشب الصندل على النار تحت إشراف الكاهن .
- يبقى أفراد الأسرة بجانب منصة الحرق أربعًا وعشرين ساعة بعد حرق الجثمان .
- يجمع التراب المتخلف عن الحريق وتتلى عليه التعاويد والتراتيل الهندوسية .
- يلقى التراب المتخلف بعد اثنى عشر يومًا فى النقطة التى يعتقدون أن نهرى جومنا والجانج يلتقيان فيها بالنهر الأسطورى الذى يعتقدون أنه يجرى فى باطن الأرض ويسمونه "ساراسوتى " وتقع هذه النقطة فى بلدة الله أباد .

الحج وزيارة الأماكن المقدسة :

يعظم الهندوس عدداً من الأماكن يحجون إليها ويقصدونها للزيارة والتعبد . والأماكن التى يحترمها الهندوس قسمان :

أماكن يتوجهون إليها لتعظيم آلهتهم وتسمى Pura Nahyn A'Gana، وأماكن يتوجهون إليها لزيارة الأرواح الطاهرة ولها عدة أسماء هى : -Pura- NAwitan - Pura-adya - Pura Pedarman والقوانين والتعاليم التى حددت هذه الدور جعلت الغاية من زيارتها اتصال الإنسان بالله الذى هو فى زعمهم Sang Hyang Widdhi أو خدمة الضعفاء والمحاويج .

وهناك ثلاثة دور هامة :

- واحدة لتعظيم الإله براهما Brahma لأنه الخالق وتسمى دار براهما Pura Desa أو Pura Bolo Agung .

- وواحدة لتعظيم الإله وشنو Wisnu لأنه الإله المدبر الحافظ ودار وشنو تسمى Pura Au-seh أو Pura Sagara .

وواحدة لتعظيم الإله سيفا Ciwa أو سيوا إله الفناء والهلاك وتسمى دار سيفا Purada-lem .

وتعتبر جزيرة بالى BALI بأندونيسيا المركز الرئيسى لهذه المعابد[١] .

ويقول البيرونى عن الحج عند الهندوس : " ليس الحج عندهم من المفروضات وإنما هو تطوع وفضيلة ، وهو أن يقصد الحاج أحد البلاد الطاهرة أو أحد الأصنام المعظمة أو أحد الأنهار المطهرة ، فيغتسل بها ويخدم الصنم ويهدى إليه ويكثر التسبيح والدعاء ويصوم ويتصدق على البراهمة والسدنة وغيرهم ويحلق رأسه ولحيته وينصرف ، فأما الحياض الطاهرة المعظمة فإنها فى الجبال الباردة حول " ميرو " والذى فى " باج بران " وفى " مج بران " معًا وفى سفح ميرو " آرهَت " وهو حوض عظيم جداً يوصف بضياء القمر ، ويخرج منه نهر "زنْبُ" وهو نهر طاهر جداً يجرى على الذهب الإبريز ، وعند جبل "شُويت " حوض " أوترمانس " حوله اثنا عش حوضًا كل واحد كالبحيرة يخرج منها نهرا " شاندى " و " مدوى " إلى "كنبرش" ... الخ[٢]، وهكذا تتعدد الأماكن والأنهار والبحيرات التى يتبرك الهندوس بزيارتها.

الصدقة : يقول البيرونى : " الصدقة عندهم واجبة كل يوم بما أمكن ، ولايترك المال حتى يحول عليه حول أو يمر شهر فإن ذلك إحالة على مجهول لايعرف الإنسان هل يبلغه ، فأما ما يحصل له جهة الغلات أو المواشى فالواجب فيه أن يبتدىء للوالى بأداء الخراج الذى يلزم الأرض أو المرعى . وبالسدس أجرة له على الزود عن الرعية وحفظ أموالهم وحرعهم ، وذلك

---

١ - د. رؤوف شلبى ، مرجع سابق ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

٢ - البيرونى : مرجع سابق ، ص ٤٢٠ .

بعينه يلزم السوقة إلا أنهم يكذبون فيه ويخونون . ويلزم التجارات الضرائب لمثله ، وكل ما ذكرناه فمنحط عن البرهمن دون غيرهم ثم الحاصل بعد إخراج ذلك من القنية منهم يرى فيه التسع للصدقة لأنه يرى فى ثلثه الادخار كى يطمئن إليه القلب ، وفى ثلثه أن يصرف فى التجار ليثمر بالربح وفى ثلثه الباقى أن يتصدق بثلثه وينفق ثلثاه فى الدار ، ويكون الأمر فيما يخرج من الربح على هذا القانون ، ومنهم من يرى قسمته أرباعًا يكون منها ربع للنفقة وربع للتجمل وإقامة المروّة وربع للصدقة وربع للذخيرة إن كان وافيًا بالنفقة ثلاث سنين فإن جاوز الإدخار هذا المقدار أفرز منه ما لايقصر على النفقة فى ثلاث سنين وتصدق بما يفضل ، وأما الربا فى المال بالمال فهو محرم [١].

تلك هى أهم الطقوس المتعلقة بالعبادة عند الهندوس .

النظام الاجتماعى : (الطبقات الاجتماعية) :

إن أهم سمات النظام الاجتماعى كما جاء فى شرائع الدين الهندوسى نظام الطبقات " وذلك أن أسفار " الفيدا " وقوانين " مانوا " لاتعترف بمبدأ المساواة بين الناس فى القيمة الإنسانية المشتركة ، بل تقرر التفاضل بينهم بحسب عناصرهم ونشأتهم الأولى فتزعم أن الإله " براهما" قد خلق أربع طبقات من الناس ، وخلق كل طبقة من هذه الطبقات من طبيعة خاصة ومن موضع خاص من جسمه ، فخلق طبقة " البرهمنيين Brahmans من فمه ، وطبقة الكشتريين Kachteiyas من ذراعه ، وطبقة " الفيسائيين Vaisyas من فخذه ، وطبقة " أشوادرا " أو المنبوذين " Soudras من قدمه " [٢].

الطبقة الأولى هى طبقة البرهماس BRAHMA KASTA :

وهى أعلى طبقة فى المجتمع الهندوسى لأن معناها طبقة العلم واليقين والحق والتدين . "وكان البراهمة يستمدون نفوذهم من احتكارهم للعلم ، فهم القائمون على صيانة التقاليد وهم الذين يدخلون على تلك التقاليد ما شاءوا من تعديل . وهم الذين يتولون تربية النشء ، ويكتبون الأدب أو يقومون على نشر المكتوب منه ، وهم الخبراء بكتب " الفيدا " التى هبط بها الوحى ولا يأتيها الباطل ... وينص تشريع " مانو " على أن يكون من حق البرهمى

---

١ - المرجع السابق ، ص ٤٢٥ .

٢ - د. على عبد الواحد وافى ، مرجع سابق ، ص ١٦ .

سيادته على سائر الكائنات ، على أن الفرد منهم لم يكن ليتمتع بكل ما للبراهمة من نفوذ وامتيازات حتى ينفق فى مرحلة الاستعداد أعوامًا كثيرة ، وعندئذ " يولد ولادة جديدة " وتجرى له طقوس الخيط الثلاثى ، فإذا ما تم له ذلك ، أصبح منذ هذه اللحظة كائنًا مقدسًا ، وأصبح شخصه وملكه مما لايجوز عليه الاعتداء ، بل يذهب " مانو " فى ذلك بعيداً فيقرر أن كل ما هو كائن فى الوجود ملك البراهمة وكان لابد لصيانة الطبقة البرهمية من منح عامة وخاصة - وهى لاتوهب لهم على سبيل الإحسان ، بل من باب الواجب المقدس - وكان السخاء فى العطاء للبرهمى من أسمى الواجبات الدينية ، ويستطيع البرهمى الذى لايجد ترحيبًا رعًا فى أحد المنازل أن يذهب عن صاحب البيت كل ما كان استحقه من جزاء عن حسناته السابقة جميعًا ، ولو اقترف البرهمى كل جريمة ممكنة لما حق عليه القتل ، فللملك أن ينفيه ، لكن لابد له أن يأذن بالاحتفاظ بملكه ، ومن حاول أن يضرب " برهميًا " كان لزامًا عليه أن يصلى عذاب النار مائة عام ، وأما من ضرب " برهميًا " بالفعل فقد حقت عليه الجحيم ألف عام ، وإذا اعتدى رجل من " الشودرا " على عفاف زوجة رجل من " البراهمة " صودرت أملاكه وحكم عليه بالخصى ، وإذا قتل رجل من " الشودرا " زميلاً له من " الشودرا " كان له أن يكفر عن جريمته بعشر بقرات يهبها للبراهمة ، فإذا قتل أحد من " القزيا " كانت كفارته للبراهمة مائة بقرة ، وإذا قتل أحد من " الكشاترية " ارتفعت كفارته إلى ألف بقرة يعطيها للبراهمة . أما إذا قتل " برهميًا " فلابد من قتله ، ذلك لأن جريمة القتل عندهم لم تكن إلا بقتل برهمى[1] . هكذا حظيت طبقة البراهمة بالقداسة والتعظيم فكانت لها من السلطات فى الدنيا والآخرة ما نازعت به سلطة الآلهة .

الطبقة الثانية : طبقة الكشترايا Kshatriya **أو كساتريا** Ksatria :

وهى تشغل الوظائف الحربية وحماية الشعب وحماية البلاد والعمل على استتباب الأمن ، وهم حماة المجتمع ، والقائمين على إدارة شئونه ، وهم حراس باقى المجتمع ، والقائمون على أمنه ، وعلى تنفيذ القواعد المختلفة التى تقتضيها الوظائف الاجتماعية الضرورية ، وجاء فى " الجيتا " أن البطولة ، والقوة والاستقامة ، والحذق ، وعدم الهرب حتى فى المعركة ، والكرم والقيادة ، هى واجبات رجل " الكشتاريا " التى تولدت من طبيعته[2] .

---

١ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

٢ - جون كولر : مرجع سابق ، ص ٧٩ .

الطبقة الثالثة : طبقة الفيشايا Vaishya المنتجون :

هذه الطبقة مسئولة عن الإنتاج وتتألف هذه الطبقة من التجار والمنتجين فى المجتمع "يهتمون بالأموال والمواشى والأعمال المتعلقة بالبيوعات والعقود . تدل أسماؤهم على الغنى والجاه والمال " [١].

الطبقة الرابعة : طبقة الشودرا Shudra varna :

تتألف هذه الطبقة من العمال والخدم فى المجتمع ، وتمثل طبقة القاع التى لاتملك شيئًا البتة غير أنها تقدم نفسها قربانًا ، ويكفى أن تحصل على قوتها عن طريق المسألة Minta-Minta.

" وكل هذه الطوائف فى نظر التعاليم الهندوسية تعمل حسب نسبتها فى الشرف ، والكمال، والجاه ، وحسب قدرتها الجسدية من أجل خدمة الدولة والمجتمع .

وأساليب العمل هى :

أ - دارما : Dharma وهى تعنى الحقيقة التى هى أصل وروح كل الأعمال والمجاهدات ، إنها الواجب المقدس .

ب - آرتها : Artha : هى حاصل وثمرة الجهود المبذولة على أساس من الحق والطهارة ، إنها الرفاهية التى هى غاية العمل الشريف .

جـ - كاما : Kama : هى العشق النقى الخالص الذى يدفع إلى الأعمال الصالحة القائمة على الحق الواضح .

د - موسكا : Moska : هى الاستغفار والتوبة من الذنوب والمعاصى ومحاولة التخلص من الأدران والتطهر من الرذائل " [٢].

إن هذه الطبقات تمثل التنظيم الاجتماعى الذى يتصور الهندوس أنه يحقق الأهداف الإنسانية الأساسية ويحقق الوظائف المختلفة الضرورية اللازمة لحماية المجتمع .

أسفار الأوبانيشاد : Upanishad :

لقد أثارت كتب الفيدا شروحًا قام بها الكهنة البراهمة ... وقد صارت هذه الشروح بعد زمن جزءًا مكملاً لهذه الفيدات . ويصعب على الباحثين تحديد الزمان الذى كتبت فيه . هناك

---

١ - د. على زيعور : مرجع سابق ، ص ١٥٠ .

٢ - د. رؤوف شلبى : مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

شبه اتفاق على أن أقدم أقسامها يعود لما بين الـ ١٠٠٠ والـ ٥٠٠ ق.م « والكلمة مؤلفة من مقطعين : " يوبا " ومعناها " بالقرب " و " شاد " ومعناها " يجلس " ومن " الجلوس بالقرب " من المعلم ، انتقل معنى الكلمة حتى أصبح يطلق على المذهب الغامض الملغز الذى كان يسره المعلم إلى خيرة تلاميذه وأحبهم إليه "[١] .

ولقد صارت الأوبانيشاد من الكتب المقدسة شأنها فى ذلك شأن كتب " الفيدا " وهى لاتتناول قضايا دينية فحسب بل إنها تحاول تفسير الوجود والتعرف علي حقيقة البسيطة الجوهرية وراء كثرة الأشياء الظاهرة .

" ولدينا من هذا « السوبانيشادات » مئتان وخمسون " يوبانيشادة " أو أكثر : منها خمسون ذات أهمية خاصة ، وتتميز على غيرها بأنها قديمة ، كما أن منها ما يرجع إلى عصر متأخر قد يكون بعد ميلاد المسيح عليه السلام . من هذه الخمسين المشهود لها بالقدم والتى لاشك فى وجودها قبل المسيح عليه السلام ست بلغة منثورة وخمس منظومة بأوزان عريقة فى القدم وثلاث بلغة النثر الكلاسيكية المتأخرة ، وكل هذه اليوبانيشادات الأربع عشرة تتميز بالاضطراب والتكرار " [٢].

وعلى الرغم من الاضطراب السائد فى هذه الكتب والغموض الذى يكتنفها والسخافات التى تشكلها إلا أننا نستطيع التعرف على الموضوعات الرئيسية والجوهرية فى أسفارها "موضوع أسفار اليوبانيشاد " هو كل السر فى هذا العالم الذى عز على الإنسان فهمه : " فمن أين جئنا وأين نقيم ، وإلى أين نحن ذاهبون ؟ أيا من يعرف " براهمان " ينبئنا من ذا أمر بنا فإذا نحن هنا أحياء ... أهو الزمان أم الطبيعة أم الضرورة أم عناصر الجو ، ذلك الذى كان سببًا فى وجودنا ، أم السبب هو مايسمى " بوروشا " « الروح الأعلى » " [٣].

إن الإجابة على هذه الأسئلة تشكل جوهر الفلسفة الهندية .

وهذه الأسفار التى تفسر تلك الإجابات مؤلفة من مجموعة أحاديث متباعدة يقينية أحيانًا، قابلة للجدل لأقصى درجة ، قدمها من اعتبروا أنفسهم قد بلغوا درجة إنكار الذات

---

١ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٤٢ .

٢ - د. محمد جابر عبد العال الحينى : مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

٣ - ديورانت : مرجع سابق ص ٤٥ .

اللازمة للتطهير والتقديس ، والكثير من اهتمام " اليوبانشادات " هو فى تتبع مراحل الجدل ، وبالمثل فإنه من المثير أن نلاحظ التواضع الفكرى لكل من المعلم والتلميذ . إن ما يدعون أنهم بلغوه ليس تطهيراً أو انقاذاً ، بل معرفة الطريق إلى هذه الأمور ، لقد نادى بعض العلماء بأنه " ليس من أجل النظم التى تشيدها أو من أجل الحقائق التى يمكن القول بأنها اكتشفتها أنه لابد من تقدير هذه الكتب المقدسة تقديراً عاليًا ، بل تقديرها الأخرى ، من أجل البساطة والجدية التى تعالج بها المشاكل الكبرى " ... وينظر أتباع الحكماء ، سواء المعاصرون لهم أو من ينتمون إلى أزمنة متأخرة ، ينظرون إلى اليوبانيادات لا على أنها تمرينات فى التفكير بل على أنها مستودعات للفكر المقدس . وصدق التطابق بين " البرهمان " و " الآتمان " ينظر إليه على أنه حقيقة ، بل إلهام " (١).

وأهم كتب " اليوبانيشاد "

كثيرة هى هذه الكتب ولايتسع المجال لذكرها جميعًا وإنما تختار منها ماهو أقدم وما يشير إلى بعض الفلسفات الهندية التى كان لها المقام الأول في الفكر الهندى . وهى :

١ - يوبانيشاد بريهادارنياكا Briha da ranyaka :

تعد أكثر المقالات وضوحًا وهى تروى قصة مغادرة الحكيم " ياجنافالكيا Yajavalkya " الملقب باسم إله التضحية Lord of Sacrifice والذى اشتهر بأنه كتب بعض الكتب الهندوسية المقدسة التى تعد من أجدرها بالتبجيل والاحترام قبل مغادرة الحكيم لداره ليحيا حياة الناسك(٢) . ومن المسائل التى تؤكد عليها " أن عالم الفكر المحض الذى إليه ترجع المعرفة العليا (Vidya) عار عن كل الاختلاقات . جاء فى فقرة ٤-٤-٢٢ : عليه (من يعرف هذا) ألا يتغلب هذان عليه وهما : الخاطر إذن اقترفت ذنبًا ، وكذلك الخاطر ، إذاً فعلت حقًا ، فهو يقينًا يتغلب عليهما ولايؤثر فيه ما يفعله ومالم يفعله .

فقرة ٤-١٤-٨ : يقينًا لو ألقوا كثيراً (من الحطب) فى النار لأحرقته جميعًا ، وعلى ذلك فمن يعرف هذا - ولو أنى اقترف كثيراً جداً من السيئات فإنه يفنيها جميعًا ، ويصبح نظيفًا ونقيًا غير مسن وخالد .

---

١ - أ . و . ف . توملين : فلاسفة الشرق ، ترجمة : عبد الحميد سليم ، دار المعارف ، ص ١٨٥ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٨٦

فقرة ٤ - ٣ - ٢١ ، ٢٢ : مثل رجل حينما يكون بين أحضان زوجته معشوقة لايفقه شيئًا في الداخل أو في الخارج ، مثل هذا الشخص حينما يكون بين أحضان النفس الذكية (أعنى أتمان الواحد العظيم) لايعرف شيئًا في الداخل والخارج ، حقًا هذه صورته (الحقيقية) ... هناك يصبح الأب غير أب والأم غير أم ، والعوالم ، والآلهة غير آلهة ، والفيدات ليست فيدات ، واللص غير لص ، لايتبعه الخير ، ولايتبعه الشر ، لأنه آنئذ قد مضى وراء أحزان القلب [١].

وتشاندجيا :

هذه اليوبانيشادة " تصرح بوضوح للعارف المتنور أن الخير والشر فكرتان آتيتان من معرفة جزئية لايمكن أن يتحصلا في ضوء المعرفة لأن تباينهما لفظى ليس غير . تقول :

فقرة ٧ - ٢ - ١ : حقًا لو لم يكن كلام ما عرف صواب ولا خطأ ، ولاحق ولازائف ، ولاحسن ولاقبيح ، ولامحبوب ولا كريه ، فالكلام بحق يجعل كل هذا معروفًا .

فقرة ٥ - ٢٤ - ٣ : كمثل قش يلقى في النار فيحترق عن آخره كذلك تحترق جميع سيئاته الذى يقدم القربتان لأجاهترا Agni-hatra وهو عارف بذلك (أى على أنه تعبير روحى) .

فقرة ٨ - ٤ - ١ ، ٢ : فوق ذلك الجسر (يعنى في عالم براهما) لايعبر نهار ولاليل ، ولا كبر سن ولا موت ، ولا حزن ، ولا فعل خير ولا فعل شر ، فكل السيئات تعود من حيث أتت ، لأن عالم " براهما " خال من الشر " [٢].

اليوبانيشادة المعروفة بكنه Kena :

تتصدى في الخاندة الأولى لنظرية التقاء الروح ببراهما وتوقعها له ، مشيرة إياها على صورة أسئلة تجيب عنها قالت :

من بدفع العقل المدبر بخلق ؟

من حتم على النفس الأولى أن يخرج ؟

من دفع هذا الكلام فينطق الناس ؟

والعين والأذن أتساءل ، ما الذى حتم عليهما الرب ؟

---

١ - د. الحينى : مرجع سابق ، ص ١٠٩ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١١٠ .

الذى هو سمع للأذن وفكر للعقل .

وصوت للكلام وكذلك التنفس للنفس

والنظر للعين .... هذه عند الحكماء وهو منفلت

عند فراق هذا العالم يصبح خالداً (١).

اليوبانيشادة كتا : Katha :

تتناول نظرية الخلود بعد الموت (نظرية اليوجا) ، وذلك فى جزئها الخاص بالتعليمات من الموت والمسلك إلى الخلود عن طريق اليوجا (Yega) وهى تعليمات يصدرها إله باطن الأرض. قالت فى هذا اجزء (من ١٠ - ١٨) .

حينما تقف الخمس (حواس) المعارف مع (توقف العقل) والذهن لايتحرك ... ذلك على ما يكون " أسمى السُبُل " .

* * *

هذا ما يرون اليوجا .... حاجزة الحواس بقوة

عندئذ يصبح المرء غير حائز .... اليوجا بحق هى الأصل والمنتهى (٢).

اليوبانيشادة برسنا Prasna :

تناولت اليوبانيشادة " برسنا " مدى قوة عبادة كوكب الشمس فى العقيدة الهندوسية . إذ تحتوى على نشيد مشهور يقول :

كالنار (أجنى) يبعث الدفء ، هو الشمس

هو المطر السخى ، هو الريح ، هو الأرض ، المادة ، الله

هو الوجود وعدم الوجود وما هو خالد

* * *

كالعواصف فى إطار عجلة .... كل شىء مؤسس على الحياة

---

١ - المرجع السابق ، ص ١١٣ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١١٥ .

قصائد الرج وقواعد اليجس " Yajus " وتراتيل الســامن (Saman) والقربان والنبالة والكهانة .

* * *

أنت تتحرك فى الفرج إلهًا للخلق .... أنت بنفسك المولود ثانية
لك أيتها الحياة هنا تدين المخلوقات .... أنت التى تقطنين مع الكائنات الحية

* * *

أنت أول حامل (للقرابين إلى الآلهة .... أنت أول هدية إلى الآباء
أنت الممارسة الحقة للحكماء .... أبناء أثرفن (Atharvan) وأنجرس Angiras ... أنت
اندرا ، أيتــهــا الحـــيـــاة ، ببـــهـــائك
رودا أنت كحام .... أنت تتحرك فى الجو ... كشمس فأنت سيد الأضواء

* * *

حينما تمطر عليهم .... حينئذ مخلوقات ، أيتها الحياة
يكونون سعداء معتقدين ..... أن سيوجد الغذاء للرغبة الشاملة
أنت فراتيا (Vratya) أيتها الحياة ، الحكيم الأوحد
أكل ، والسيد الحق للجميع ... نحن مانحو طعامك
أنت أبو الريح[١]

اليوبانيشادة مندكا : Mundaka

إن هذه اليوبانيشادة ، تدعو إلى تحريم تقديم القربان ، وتحدثنا عن مصير المغضوب عليهم، إنهم يعودون إلى هذه الدنيا وإلى أحط منها ، وتصف لنا أيضًا الصالحين ، وتتضمن أيضًا نظرية انتقال الأرواح الشائعة فى الأدب الدينى الهندى . وتذهب هذه النظرية إلى أن روح الميت تعود إلى ذاته فى جسد آخر وحياة جديدة أرفع إن كانت فعال صاحبها الميت خيراً ، وأحط إن كانت فعاله شراً .

---

١ - المرجع السابق ، ص ١١٧ .

اليوبانيشادة ايسا : Isa :

تذهب بعض الدراسات إلى أن هذه اليوبانيشادات وهى تصور كثيراً من المعتقدات مثل : الحقيقة ، الوحدة المنطوية تحت تنوع العالم ... إلخ .

هكذا عرضنا لأهم اليوبانيشادات ... لكى تتعرف على طبيعتها وأهم العقائد التى أثيرت في نصوصها . وكيف أنها أضيفت إلى كتب (الفيدا) وصارت جزءاً منها ... ونالت نفس مكانتها من القداسة والتعظيم .

الديانة الجينية :

مؤسس هذه الديانة :

هناك إجماع بين كتاب الهنود على أن مؤسس هذه الديانة هو (فاردامانا) أو (ماهافيرا) (٥٩٩ - ٥٢٨ ق.م) " ولد من أسرة نبيلة بالقرب من " فيشالى " بالشمال الشرقى من الهند حوالى القرن السادس قبل الميلاد ، وأن أسرته كانت تنتسب إلى مذهب " نيرجرانتاس " وهو أحد مشاهير مذاهب الزهاد المعروفة فى ذلك العهد ، وكانت غاية هذا المذهب هى تحقيق الحرية والمسئولية الأخلاقيين ، وكان مؤسسًا على أربعة أسس جوهرية ، وهى الأمانة والصدق ، وتجنب القتل والتريض على الطهر ، فنشأ " فاردامانا " على اعتناق هذا المذهب ، وأذعن لأوامره[١].

في تلك البيئة نشأ " فاردامانا " فى بيته المجيد ، ووسط الرخاء وطيب العيش ، وكانت أسرته تستقبل من حين لآخر وفود الرهبان وجماعات النساك ، حيث يجدون فى دار الأمير إقامة طيبة وحسن ترحيب ، وكان " ردامانا " مها فيرا " منذ نعومة أظفاره يحب مجالستهم ويستمع إلى حكمهم وإرشاداتهم ، وتأثر " مهافيرا " بهم وبفلسفاتهم فعزف عن المتع والملاذ الدنيوية ، ومال إلى الرهبانية والتبتل والزهد ... "[٢] ويتحرك " ردامانا " مهافيرا " ضاربًا عرض الحائط كل مظاهر الترف رافضًا حياة العز والسخاء ... أعلن فى " اجتماع كبير تحت شجرة " أشوكا " اشترك فيه أفراد الأسرة وأهالى البلدة ... أعلن فيه رغبته فى التخلى عن الملك والألقاب ومتاع الدنيا ليخلو للزهد والتبتل ... فخلع ملابسه الفاخرة ، ونزع حليه ،

---

١ - د. غلاب : مرجع سابق ، ص ١١٥ .

٢ - د. أحمد شلبى : أديان الهند الكبرى ، مكتبة النهضة سنة ١٩٩٣ ، ص ١١٤ .

وحلق رأسه وبدأ حياة جديدة ، وكانت سنه آنذاك ثلاثين عاما ، صام " مهافيرا " يومين ونصف يوم ، ونتف شعر جسمه ، وبدأ يجوب البلاد حافيًا " [١]. لقد أقسم وهو فى ثياب الرهبان " من اليوم ... ولمدة اثنى عشر عامًا ... أقسم أن أصوم عن الكلام وآلا أنطق كلمة واحدة خلالها ما حييت " ... انطلق " مهافيرا " في صمته يخترق المدن والقرى ... وخلال الأعوام الإثنى عشر لم ينطق " مهافيا " كلمة واحدة ... ولكنه وإن ظل صائمًا عن الكلام طوال تلك السنوات ، إلا أنه ظل خلالها يفكر ويطيل التفكير فى عقيدة البراهمة ، ومع كل تعمق في التفكير كان " مهافيرا " يتبين أن الكثير من تعاليم العقيدة بعيد عن الصواب ... وأنها فى حاجة إلى التحسين والإصلاح "[٢].

وكانت تلك بداية الدعوة الجديدة التى تعلن الثورة على البراهمة وتنتقد مسالك الكهنة ... وتضع الأسس والأصول لدعوة جديدة .

نشأة الديانة الجديدة :

سبق أن تحدثنا عن نفوذ طبقة البراهمة وكيف أن هذه الطبقة كانت لها السيادة والقداسة واستأثرت بكل المزايا فى المجتمع الهندوسى . وهذا بالتحديد ما أدى إلى الثورة عليها " كان البراهمة يزعمون لأنفسهم باعتبارهم الأوصياء والكهون والأكفاء دون سواهم ... منزلة ذات امتياز خلقى واجتماعى على كل من الارستقراطية العسكرية والطبقات الوسطى الحديث نموها من التجار ... وكان طبيعيًا من غير شك أن نجد من طبقة النبلاء القوية والطبقات الوسطى الغنية هناك عناداً ضد مزاعم البرهميين بل حتى فى داخل دوائر البرهمية المتزمتة ؛ أى بين هؤلاء المعترفين بسلطة الفيديين . كان من بينهم من يقف موقف التشكك تجاه الشعائر البرهمية المتطرفة ، كانت " فيديها " المجاورة " لما جادها " والواقعة شماليها مسرحًا لطائفة من أهم المناقشات التى سجلت فى " الأوبانيشادات " وهذه المصنفات كوحدة قائمة تعترف بأصالة هذه الشعائر ، غير أنه لما كانت قد أعطت كثيراً من المناسك فقد استمرت تعلم علمًا أرفع يتعلق بالروح والحقيقة فى الكون ، وكان جاناكا " ملك فيديها نفسه باحثًا يرحب بالفلاسفة فى قصره كى يناقش الحق المطلق معهم ، ولما كان هناك باحثون يكرمون الفيديين

---

١ – المرجع السابق ، ص ١١٥ .

٢ – سليمان مظهر : قصة الديانات ، ص ١٣٥ – ١٣٨ .

فكذلك كان هناك آخرون لم يكونوا يكنون احترامًا لتلك المصنفات ، وكان هناك إلى جنب النظريات "الأبانيشادية " أبحاث وتعاليم غير متعصبة . وهكذا اقتسم " بوذا " الرفيق المعتدل مع "ماهافيرا " الصارم شيئًا ما ، وذلك على الرغم من تضادها في الشعائر مع " ياجنا فالكيا" السيء الخلق المصور في النصوص البرهمية كفيلسوف وكاهن معًا .

وكان إلى طبقة الأرستقراطية من أصحاب الأرض وإلى الأغنياء من المدنيين من التجار أن التجأت " الجاينية " والبوذية " فلقد أنكرت كل من العقيدتين صحة الشعائر " الفيدية " وكلاهما رفض مزاعم البرهمية بالقداسة القصوى والمنزلة الاجتماعية العليا لمجرد المولد ، حيث أعلنا على العكس أن المرء إنما يكون برهميًا بسلوكه ليس غير ، غير أن مثل تلك التعاليم قد جعلتهما مهرطقين (باسندا) في عيون " البرهميين " ولكنها كسبت لهما حماية أصحاب القوة السياسية والاقتصادية ، كذلك امتنعت كل من العقيدتين في إعلان مبادئها عن استعمال اللغة البرهمية " السنسكريتية " التي اتخذت مركزها يومئذ إلى الغرب من "بيهار" واستعملت بدلاً من ذلك لهجات محلية سائدة هي " بالي " للبوذية " واردهاماجادهي" للجيانية وكلتاهما أصبحتا وسيلة للتعبير عن نصوصها الدينية ، وظل كل منهما مع ذلك يدعو إلى مبادىء خلقية جديدة [1]. الثورة إذن كانت ذات طابع طبقي ضد عسف وطغيان طبقة البراهمة وفي ذات الوقت ثورة على التقاليد والطقوس الجامدة ..

أهم عقائد الجينية :

يقول مولانا محمد عبد السلام الرامبوري أحد الفلاسفة الهنود :

الجينية : حركة عقلية متحررة من سلطان " الويدات " مطبوعة بطابع الذهن الهندوسي العام ، أسس بنيانها على الخوف من تكرار المولد والهرب من الحياة اتقاء شائماتها ، منشؤها الزهد في خير الحياة فزعًا من أضرارها ، عمادها الرياضة الشاقة والمراقبة المتعبة[2]... وتتركز عقيدتها في المسائل الآتية :

الألوهية :

لايؤمن الجينيون بكائن أسمى في السماء ولاحتى بحقيقة خلود العالم ... إلا أنهم يؤمنون بكل الآلهة والحكماء ، وأنصاف الآلهة والشياطين والجن المعروفة في البرهمية " أما الآلهة

---

١ - د. صمويل كرير : مرجع سابق ص ٢٧٨ .

٢ - د. أحمد شلبي : مرجع سابق ، ص ١١٨ .

فمختلفون عن البشر ، ولكنها ليست قادرة على كل شيء ولا بالغة الفضيلة ، فللآلهة سقطاتهم الدنيوية ، وبرغم أنهم يتمتعون بقوى معينة ، تزيد عما يتمتع به البشر عادة ، إلا أنهم ليسوا أكثر قيمة بشكل قاطع عنهم ، فالإله مثلاً لايستطيع أن ينال الخلاص أو النجاة إذا لم يمر بمرحلة الولادة البشرية ... فالخلاص لايتمتع به إلا البشر . وإن كان بعض الآلهة يستحقون في بعض الأوقات التقديس ... كما يستحق قليل منهم أن يعبدوا - بغير شك - حسب العقيدة الهندوكية[١] .

ومن هنا اعتبرت عقيدة إلحادية ، ذلك أن " مهاديرا " لم يعترف بالآلهة " فالاعتراف بالآلهة قد يخلق من جديد طبقة براهمة أو كهنة يكونون صلة بين الناس والآلهة ، وقرر أنه لايوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون . ومن هنا سمى هذا الدين إلحاداً ، واتجهت الجينية إلى الاعتقاد بأن كل موجود ، إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً ، يتركب من جسم وروح[٢].

الكرما والتناسخ :

أكدت الجينية على ضرورة أن تتحرر الروح من قيود المادة . " يعتقد الجينيون أن الكون يتكون من كيانين : الكيان الأول يشتمل على الأرواح الحية والكيان الثاني يتكون من المادة غير الحية ، واعتبر الأول كياناً لانهائياً ويتصف بالنعمة والبركة والعلم الشامل ، ولكن هذه الصفات محجوبة لانغماسها في المادة وهي الكرما . والجينية تنسب الحياة إلى كيانات وموضوعات أو أشياء عديدة مثل الآلهة والكائنات البشرية والشياطين ، والحيوانات والحشرات . وكذلك تسكن الروح في النباتات والأرض والأنهار والحجارة والبحار والنار والغازات والرياح وهكذا فالكون بأكمله مليء بالحياة ، والأرواح محبوسة في كل شيء وهي في حالة معاناة صامتة غير قادرة على الهروب من سجنها المادي . وبحلولها هذا في الأشياء تفقد الروح صفاءها وطهارتها وتزداد آلامها كلما زاد ارتباطها بالمادة ، ومع دورات الميلاد والموت التي لانهاية لها تصبح عذابات النفس وآلامها بلا حدود [٣]. إن الروح على هذا النحو

---

١ - سليمان مظهر : مرجع سابق ، ص ١٤٩ .

٢ - د. أحمد شلبي : مرجع سابق ، ص ١١٨ .

٣ - محمد خليفة : مرجع سابق ، ص ١٠٠ .

تظل مقيدة بقيود المادة الكثيفة التى تجعل العالم مكانًا للشقاء والألم . لكن هل هناك من سبيل للتخلص من هذا الشقاء وتلك العبودية للمادة ؟ الوسيلة المثلى للتخلص من هذه العبودية هى الإغضاء عن جميع الميزات الموجودة فى الكائنات المادية ، لأن احتلال هذا الكائن الكثيف لأبداننا ، وإحاطته بنفوسنا لايوقف تيارهما إلا التخلى عن كل هوى فى هذه الحياة ، إذ بقدر ما نتعلق بما هو أجنبى عن طبيعة أرواحنا نزيد فى إحكام أغلالنا ، ونضاعف آلامنا وشقاءنا ، وعلى العكس كلما نستقل عن أهواء الحياة ونكتفى بأنفسنا نعلو إلى سماء الحرية.

لم يكن " الجينيون " يعتقدون أنهم بالتحرر من الأهواء يستطيعون الحيلولة بين الـ "كارمان" وبين الانزلاق إلى داخل أبدانهم فحسب ، وإنما كانوا يرون أنهم بالزهد يستطيعون إبادة ما انزلق من هذا الـ " كارمان " إلى حيث أرواحهم لأن التزهد فى نظرهم نور ونار . فهم بالأول يبددون ظلام الحياة وبالثانية يحرقون الـ " كارمان "[١] هذا عن الخلاص من "الكارما".

أما عن التناسخ ، فيرى الجينيون أن بإمكانهم وقف تيار التناسخ إذ أن " دورة التناسخ دورة أوتوماتيكية لاتحتاج إلى تدخل قوة عليا ، فالأفعال المتصفة بالأنانية والقسوة وعدم العناية تؤدى إلى فيض ثقيل من " الكارما " (الفعل) يؤدى إلى تعاسة كبيرة للإنسان الذي يتلقاها ولكى يتحقق خلاص الإنسان يجب أن تتحرر الروح من المادة فى كل أنواعها ، وتصعد إلى قمة الكون من خلال نورها الطبيعى فتستقر هناك وتسكن فى نعمة أبدية ، أما بالنسبة لأرواح الحكماء الكبار مثل " مهافيرا " فهى تحقق الخلاص الحقيقى وهى فى أبدانها ، وتتمتع بالنعمة والمعرفة الخاصة بالروح المتحررة . ومع ذلك تبقى متعلقة ببعض " الكرما " التى تجذبها إلى الأرض " المادة " والتى يمكن التخلص منها بالصوم والكفارة وعند ذلك يقع بها الموت وتصعد أرواحهم إلى مجال السلام فى أعلى السماوات[٢] ، إننا من أجل الخلاص علينا أن نسلك طرق الزهد والتقشف لنتخلص من كل سيطرة لـ " كارما " أى المادة .

---

١ - د. غلاب : مرجع سابق ، ص ١١٨-Acritical Suver of Indian philosophy Dr. Chamdrad har Sharma, London, 1960 .

٢ - د. محمد خليفة : مرجع سابق ، ص ١٠١ .

النيرفانا والتخلص من العناء :

لقد قدم " ماهافيرا " تفسيراً للخلاص من العناء عن طريق " النيرفانا " يقول فى تفاسيره "حياة الإنسان كلها عناء فالميلاد عناء ... والموت عناء ، والسعى إلى مايريد المرء عناء "

وسأل البعض " ماهافيرا " : - ومن أين يأتى عناء العالم ؟ "

وأجاب " ماهافيرا " : - " يأتى عناء العالم من الرغبة ... فالناس يعانون وهم تعساء لأنهم يريدون عدداً كبيراً جداً من الأشياء ... ومهما حصل المرء على الكثير من الطعام أو الثراء أو الشهوة فإنه يطلب المزيد دائمًا ...فالرغبة إذن سبب كل عناء " .

قال الناس " - " كيف نقضى على العناء ؟ "

أجاب " ماهافيرا " : " بالتخلى عن جميع الرغبات ... فعندما يتخلى الإنسان عن جميع الرغبات يستطيع أن يعد نفسه لأعظم سعادة روحية وهى " النيرفانا " وأراد الناس أن يعرفوا ماهو الطريق إلى " النيرفانا ؟ " .

وقال " ماهافيرا " : الطريق إلى النيرفانا هو طريق جواهر النفس الثلاث [١].

ماهى الجواهر الثلاث ؟ أو اليواقيت الثلاث ؟

اليــاقــوتة الأولى : الاعتقاد الصحيح " وهو رأس « النجاة » ويقصدون به الاعتقاد الصحيح بالقادة الجينيين الأربعة والعشرين ، فإن ذلك هو المنهج المعبد والصراط السوى ، ولايكون الاعتقاد الصحيح إلا إذا تخلصت النفس من أدران الذنوب اللاصقة بها ، والتى تحول دون وصول الروح إلى هذا الاعتقاد .

الياقوتة الثانية : العلم أو المعرفة الصحيحة " ويقصد به معرفة الكون من ناحيتيه المادية والروحية والتفريق بين هذه وتلك ، وتختلف درجة المعرفة باختلاف قوة البصيرة وصفاء الروح ، ويستطيع الشخص الذى يفصل أثر المادة عن قوته الروحية وإشراقها أن يرى الكون فى صورته الحقيقية ، وتتكشف لديه الحقائق ، وترتفع عنه الحجب الكثيفة فيميز الحق من الباطل والظن من اليقين ، ولاتشتبه عليه الأمور ، ولايكون العلم الصحيح إلا بالاعتقاد الصحيح .

---

١ - سليمان مظهر : مرجع سابق ، ص ١٤٠ .

الياقوتة الثالثة : الخلق الصحيح : ويقصد به التخلق بالأخلاق الجينية من التحلى بالحسنات والتخلى عن السيئات " [١].

والسلوك السليم يكون باتباع الوصايا الخمس للنفس

١ - لاتقتل أى كائن حى أو تؤذه بالكلام أو التفكير أو العمل .

٢ - لاتسرق ٣ - لاتكذب ٤ - لاتحيا حياة الفجور أو تخدر نفسك

٥ - لاترغب فى شىء على الإطلاق .

وقال " ماهافيرا " أنه لايؤمن بالطوائف ... ولا بالأصنام وعبادتها وأنه يؤمن بأن الصلاة لاقيمة لها ولاتفيد أحداً قط " .

ويقول : " لا بالصلاة ولا بالقرابين ولابعبادة الأصنام يمكن أن تجدوا الغفران والطريق إلى الحياة الصالحة ... ولكن بالعمل الطيب يمكن أن تبلغوا " النيرفانا " ... فى داخل نفوسكم الخلاص "[٢].

بهذا المنهج الصارم الذى التزمة " ماهافيرا " وألزم به أتباعه يضع طريقًا للخلاص .

طهارة الروح : إن المقصد الأسمى والغاية القصوى فى الجينية تطهير الروح وذلك يتم بالتمسك بالمبادىء والأسس السبعة وهى :

١ - أخذ العهود والمواثيق مع القادة والرهبان بأن يتمسك المريد بالخلق الحميد ويقلع عن الخلق السيىء .

٢ - التقوى وهى المحافظة على الورع وتجنب الأذى والضرر لأى كائن مهما كان حقيراً ، أو ضئيلاً .

٣ - التقليل من الحركات البدنية ومن الكلام والتفكير فى الأمور الدنيوية والجسمانية خوفًا من ضياع الأوقات النفسية والأنفاس الثمينة فى الأمور الثانوية وسفاسف الحياة وتوافهها .

---

١ - د. أحمد شلبى : مرجع سابق ، ص ١٢٦ .

٢ - سليمان مظهر : مرجع سابق ، ص ١٤١ .

٤ - التحلى بعشر خصال هى أمهات الفضائل وهى :

« العفو ، والصدق ، والاستقامة ، والتواضع ، والنظافة ، وضبط النفس ، والتقشف الظاهرى والباطنى ، والتزهد ، والإيثار ، والاعتزال عن النساء » .

٥ - التفكير فى الحقائق الأساسية عن الكون والنفس .

٦ - السيطرة على متاعب الحياة وهمومها وعدم الاهتمام بها .

٧ - القناعة الكاملة والطمأنينة والخلق الحسن والطهارة الظاهرية والباطنية .

إن العمل بهذه المبادىء يحقق طهارة الروح .

ومن بين عقائد الجينية أمور أخرى منها :

١ - تحريم اللحم : فقد منعت أكل اللحوم ... فلا يحق للأتباع أكل لحم مهما كان نوعه ، كما يمنع أيضًا من قتل الهوام والدبيات .

٢ - الانعتاق : يعنى وصول الإنسان إلى حالة من اللا إحساس التام بأى شىء من حوله ، فيصبح بلا حاجة إلى ثياب (لا يستحى ولا يتألم من حر أو برد) يعنى ذلك أن إفناء البدن (أو قتله ، والخلاص من الثياب) هو الغاية المثلى .

٣ - نعمة الانتحار : الجينية تجيز الانتحار ولا تقيم فى سبيله العقبات ، وخاصة إذا تم عن طريق الجوع ... فإن ذلك أبلغ انتصار تظفر به الروح على إرادة الحياة العمياء .

٤ - الجنة والنار : قال " ماهافيرا " " إن هناك فى الأعماق تحت سطح الأرض جحيمًا من سبع طبقات ، كل طابق منها دون الآخر وأشد هولاً وكلما كانت الروح أشد شراً وجدت نفسها ملقاة فى أسفل درك فى الجحيم . أما الروح الصالحة النقية ... فترتفع وترتفع إلى إحدى الجنات الست والعشرين التى ترتفع كل منها فوق الأخرى ... وعندما تصبح الروح غاية فى الصلاح وغاية فى النقاء ، تظل تزداد خفة حتى تصل إلى الجنة السادسة والعشرين ... ، وعندئذ تدخل " النيرفانا " [1].

خلاصة القول أن الديانة الجينية إحدى ديانات الهند التى لم تتخلى عن منهج الديانات الهندية الأخرى ولو أنها أضافت بعض الجديد فيها .

---

١ - المرجع السابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

البوذية : (Buddhism) :

البوذية إحدى ديانات الهند الكبرى وقد سبق أن قلنا أنها ظهرت مع الجينية كرد فعل ضد الهندوسية وكمحاولة لإصلاح الوضع الدينى فى الهند . ثورة على كثير من العقائد والتقاليد... ودعوة تتسم بالطابع العملى الأخلاقى .

مؤسس هذه الديانة :

تنسب هذه الديانة إلى جوتامابوذا (Goutama Buddha) وهو مؤسسها ولذلك سميت باسمه ، ولد بوذا فى عام ٥٦٠ ق.م ، وتوفى فى عام ٤٨٠ ق.م ، ومابين هذين التاريخين كانت سنوات حياته " كتن البوذاجوتاما وفقًا لما يقوله التراث - الهندى - ابنًا لأحد قادة قبيلة « سكيا Sukya » التى كانت موطنها مدينة على تلال الهملايا تسمى " كابيلا فاستو Ka-pilavasta وتقع فى الإقليم الذى يعرف اليوم باسم " نيبال " فها هنا فى التلال الواقعة أسفل جبال الهملايا نشأ الشاب « سدهات Siddhatta » (اسمه الأول » وقضى فترة رجولته المبكرة . وتزوج وأنجب ابنًا هو « راهولا Rehula » وبدأ « سدهاتا » ينشغل ويقلق - ولايزال ابنه طفلاً - بمشكلات أزلية مثل : لماذا يولد الإنسان ؟ هل يولد ليعانى المرض ، ثم تنهكه الشيخوخة وفى النهاية يموت ؟ .

وتروى النصوص كيف التقى ، على التوالى ، برجل يعذبه المرض ، ثم برجل فى آخر مراحل الوهن والشيخوخة ، ثم بجثة محمولة إلى مكان المحرقة ، ومن خلفها يسير الحزانى من الأقارب والأصدقاء . وبينما هو يتفكر فى هذه الوقائع ، وكيف أن هذا هو مصير كل إنسان ، إذ رأى شخصًا رابعًا هو رجل مقدس حليق الرأس ، جوال متدين ، وواحد من الذين نذروا أنفسهم للسعى إلى حياة الزهد ، لكى يعثروا على طريق للتحرر من عبث الحياة الظاهر ، وهؤلاء الرجال المتدينون الجوالون هم الذين يعرفون باسم « الشرمانيين Shramanas » ولم يكونوا ظاهرة غريبة على الهند القديمة ، وهكذا تحول " سداهاتا " إلى هذه الحياة ، حياة الزاهد المتجول أملاً أن يجد حلاً لمشكلات الوجود البشرى .

انضم " سدهاتا " إلى جماعة من النساك والزهاد ، وظل فترة من الوقت يعمل بجدية تامة جاهداً في السعى وراء الحقيقة الروحية بمنهج الزهد ، وأخيراً وجد أنه لم يتقدم كثيراً فى سعيه على الرغم من أن نظام الزهد الذى اتبعه بلغ من الصرامة حداً جعله (جلد على عظم) .

واقترب به كثيراً من الموت ، فقرر أن ما يبحث عنه لايمكن الوصول إليه عن هذا الطريق ، ولا عن أى طريق آخر من الطرق التى يمثلها القادة الدينيون المعاصرون له . وكان لابد من البحث عن طريق آخر [1].

عندما لم يجد « سدهاتا » لدى الكهان شيئًا يتعلمه منهم أصيب بخيبة أمل وخرج ضاربًا فى الأرض بحثًا عن جواب لكثير من الأسئلة التى شغلت تفكيره لعله يجد إجابة شافية . وأثناء ترحاله وسياحته مال إلى شجرة فى غابة " أوروييلا Uruyala " وما إن جلس تحت هذه الشجرة حتى هتف له هاتف . يقول عن ذلك " سمعت صوتًا من داخلى يقول بكل جلاء وقوة : نعم فى الكون حق أيها الناسك ، هنالك حق لاريب فيه ، جاهد نفسك اليوم حتى تناله ، فجلست تحت تلك الشجرة فى تلك الليلة من شهر الأزهار ، وقلت لعقلى وجسدى : اسمعا ، لاتبرحا هذا المكان حتى أجد ذلك الحق ، لينشف الجلد ، ولتتقطع العروق ، ولتنفصل العظام ، وليقف الدم عن الجريان ، لن أقوم من مكانى حتى أعرف الحق الذى أنشده " فنجينى " [2].

يقول مولانا محمد عبد السلام الرامبورى فى كتابه فلسفة الهند القديمة : " وكان مستغرقًا فى تأمله خائضًا فى تفكيره إذ أخذته نزعة سماوية ، فغاب عن نفسه وعن كل ما حوله وطفق يطرأ عليه حال بعد حال ، ويلحقه طور بعد طور ، ثم عاد شعوره يتجلى رويداً رويداً ، فأشرق الكون لديه ، وأصبح العقل يتجرد من شوائب المادية ، فانشرح صدره ورأى العالم فى تكوناته وتقلباته ومباديه ومناحيه ، وقد غلب اللاهوت وتنور اللاهوت ، فذاق سروراً ما خطر بباله من قبل ، ووجد قوة ما استشعر بها قط ، فأبصر ينابيع الحياة وأحاط بمنابع الآلام واستوعب منابت البؤس ، واكتشف مقاليد السرور ، ورأى سبيلاً يهدى إلى تلاشى الأحزان ،وزهوق الآلام ، فأدرك متمناه ، ونال مبتغاه ، وتخلص من تقلبات الحياة ، ونجا من حزازات الآلام ، وتيقظ شعوره ، وتنورت بصيرته ، واستوى على عرش البوذية وصار بوذا Buddha " أى العارف المستيقظ ، والعالم المتنور [3].

---

١ - جفرى بارندر : مرجع سابق ، ص ٢١٧ .

٢ - د. أحمد شلبى : مرجع سابق ، ص ١٤٦ .

٣ - المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

الكتب المقدسة فى البوذية :

هل ترك بوذا كتابًا أو كتبًا لتلاميذه ومريديه ؟

يتفق الكتاب على أن " بوذا " لم يترك كتابًا يحتوى على قواعد دينية أو يسجل فيه تعاليمه[١] ، كل ما تركه " بوذا " مجموعة من الأحاديث والخطب والأمثال جمعها أتباعه بعد أن دب بينهم الخلاف . وحفاظًا على هذه الأقوال عقد أتباعه مجلسًا كبيرًا بدعوة من الإمبراطور " أسوكا (Asoka) سنة (٢٤٢ ق.م) واستقر رأيهم على كتابة مجموعات ثلاث أطلقوا عليها السلال الثلاث أو " البيتكات Pitakas " وهى :

١ - سلة العقائد أو Abhi Dha mma pitakas .

٢ - سلة الشريعة أو Vinaya Pitakas .

٣ - سلة الحكايات أو Sutta Pitakas .

وأطلق عليها القانون البالى وهى أهم الكتب المقدسة البوذية[٢] ويقدم الدكتور الحينى تقسيم آخر للنصوص البوذية التى تحتويها السلات الثلاث " Tripitaka " وهى على التوالى:

١ - الفينيا أو سفر النظام " Vinaya " وهو يتضمن المحظورات وعليه شروح متصلة بالأصل .

٢ - سوتابيتكا Sutta Pitaka وهو الذى يتضمن الخطب ، وهى تنقسم إلى خمس مجموعات ، وثانى هذه المجموعات وهى : " مجهيما نيكايا Majhima Nikaya " أجملها جميعًا ، وتتضمن مائة واثنين وخمسين خطابًا ، وهى فى نظر " أليوت " وبعض الباحثين المادة الموثوق بها التى يعتمد عليها الباحث ، وثالث المجموعات " السميوتا Samyutta " وهى مواعظ قصيرة ، بعضها منظوم . أما المجموعة الرابعة فهى " Anguttara " وأحاديثها طويلة ومرتبة فى مجموعات مرقمة ، والخامسة . بعضها منظوم . تتضمن تراتيل كتبها رهبان أو راهبات ، وقصص الميلاد التى هى غالبًا ما تكون أساطير شعبية ، صاغها مبشرون لبيان تعاليم بوذا .

---

١ - د. غلاب : مرجع سابق ، ص ١٣١ .

٢ - أحمد شلبى : مرجع سابق ، ص ١٩٧ .

٣ - اليهيدهما Abhidhemma التى تتميز بالطول والتعقيد لأنها نظرات فلسفية ، ولايمكن أن توصف هذه المجموعة بأنها قديمة أى من البدايات ، وأغلب الظن أنها ثمرة المجتمع البوذى[١] .

ويقدم الدكتور رؤوف شلبى ترجمة للكتاب المعتمد الذى أصدره المجلس الأعلى البوذى فى أندونيسيا والذى قام بنشره القسم البوذى فى وزارة الشئون الدينية بأندونيسيا هناك والذى يسمى Dhamm Pada إذ هو المصدر المعول عليه علميًا ... ويبدأ ترجمته أولاً بكتاب دمّابادا. فيقول :

" كتاب دامابادا هو الجزء الهام من الكتاب المعتمد لدى البوذية وهو كتاب «Tripitaka» الذى معناه ثلاثة أوعية

- الوعاء الأول اسمه : Sutta Pitaka .

- الوعاء الثانى اسمه : Vlnaya Pitaka .

- الوعاء الثالث اسمه : Abhidhamma Pitaka [٢].

وكلمة بادا مكونة من كلمتين : Dhamma و Pada .

- داما Dhamma يعنى دين أو حكم أو نظام .

- بادا Pada يعنى طريق ، قوة أساس .

ومن مجموع هاتين الكلمتين يكون المعنى المراد من هذا التركيب هو الطريق إلى الدين أو النظام الأساسى للتعبد البوذى [٣].

وهذا الكتاب يحتوى ستًا وعشرين بابًا هى :

الباب الأول : نصائح الشعر التوأم Svair-Svair- Kembar .

الباب الثانى : الوعى أو العقل Kesada Ran .

---

١ - د. الحينى : مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

٢ - سبق أن أطلقنا عليهم السلال الثلاثة .

٣ - د. رؤوف شلبى : مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

الباب الثالث : التفكير Pikiran

الباب الرابع : الزهور Bunga - Bunga

الباب الخامس : الغبى Sikungu

الباب السادس : الشخص الحكيم Orang Bihaksana

الباب السابع : الحكمة Arahat

الباب الثامن : الألوف Ribuan

الباب التاسع : السيئات أو الأفعال الشريرة Perbuatan Jahat

الباب العاشر : القصاص أو العقاب Hukuman

الباب الحادى عشر : أرذل العمر أو الشيخوخة Umurtua

الباب الثانى عشر : الذاتية Diri Prk Badi

الباب الثالث عشر : الدنيا Dunia

الباب الرابع عشر : بودا Budha

الباب الخامس عشر : السعادة Kebahagiaan

الباب السادس عشر : اللذة Kesenangan

الباب السابع عشر : الغضب Marah

الباب الثامن عشر : الذنوب والعيوب

الباب التاسع عشر : الحق أو الصدق Yangbenar

الباب العشرون : الطريق الفذ الأمثل

الباب الحادى والعشرون : متنوعات Sebba-Serbt

الباب الثانى والعشرون : النار Neraka

الباب الثالث والعشرون : قصة الفيل Syair-Syair. Gajah

الباب الرابع والعشرون : النفس Hawanafsa

الباب الخامس والعشرون : الكاهن أو المعلم Bhikkhu

الباب الساس والعشرون : براهمانا Brahmana[١] .

بعد هذا نستطيع القول بأن هناك نصوص للبوذية متفرقة فى رسائل وكتابات منتشرة فى دول شبه القارة الهندية . وهى إما مكتوبة بلغات محلية أو باللغة السنسكريتية القديمة .

معتقدات البوذية :

طبيعة الله :

يرفض بوذا كل اعتقاد وكل عبادة بكائنات أعلى من هذه الطبيعة وإذا سئل عن طبيعة الله يعلن أنه لايعرف شيئًا عن هذا الموضوع . ومع ذلك فهو لايحرم عبادة الآلهة الشائعة بين الناس لكنه يسخر من فكرة إرسال الدعوات إلى " المجهول " وفى ذلك يقول : " إنه لمن الحمق أن تظن أن سواك يستطيع أن يكون سببًا فى سعادتك أو شقائك ، لأن السعادة والشقاء دائمًا نتيجة سلوكنا نحن وشهواتنا نحن[٢] .

يقول العلامة رادها كرشنن الذى كان نائب رئيس الجمهورية الهندية سنة ١٩٥٢ : " إن بوذا لايقرر العقائد ولا يؤسس مذاهب فلسفية ولايزعم أنه جاء إلى الأرض بحكمة خصوصية ملكها من الأزل ، بل يعلن بكل جلاء أنه كسب هذه الحكمة بجهود جبارة فيما سبق له من الحياة على الأرض دهوراً وأحقابًا بتعدد المواليد ، وهو يرشد لأتباعه إلى نظام يضمن الرقى الأخلاقى ، ولايدعوهم إلى دين كسائر الأديان إنه يرى أتباعه سبيلاً ولايقرر عقيدة ، لأنه يرى أن تقرير عقيدة يحد من البحث وراء الحق ، فكثيراً ما ترفض الحقائق لأنها تخالف عقيدة تمسك بها الدين ... فبوذا يؤسس دعوته على حصوله على المعرفة أو بعبارة أخرى على تجربته الروحية التى لايمكن بيانها بالألفاظ ، فدعوته حكاية عن تجربته وعن الطريق المؤدى إليها ، وهو يقول : إن الحق لايعرف بالنظريات ، بل بالسير فى طريقه " وعلى هذا لم يعن بوذا بالحديث عن الإله ، ولم يشغل نفسه بالكلام عنه إثباتًا أو إنكاراً ، وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية وما وراء الطبيعة أو عن القضايا الدقيقة فى الكون ، إذ كان يرى أن

---

١ - المرجع السابق ، ص ١٥٣ - ٢٢٢ .

٢ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٨٢ .

خلاص الإنسان متوقف عليه هو لا على الإله ، ويرى أن الإنسان صانع مصيره ومن كلماته فى ذلك « كونوا لأنفسكم جزائر قائمة بنفسها ، وكونوا لأنفسكم موائل وكهوفًا ، ولاتعتصموا بملاذ خارجى ولا تحتموا بغير أنفسكم »[1] . يمكننا القول بعد هذا أن البوذية لم تهتم بالبحث عن الإله ولا عن طبيعته ولا حتى وجوده أو ضرورته ، وكل ما تسعى إليه وتهتم به هو تربية النفس وتزكيتها بالفضائل .

النفس العظيمة :

إن هدف البوذى إدراك النفس العظيمة . وقد جاء فى الباب الرابع والعشرين من كتاب دامابادا . كثير من العبارات تستهدف الدعوة إلى تهذيب النفس منها :

لاتبدو شهوة إلا من شخص ضعيف على سبيل المثال القائل إن شجرة اللبلاب Malvwa تتحرك فى أى اتجاه ، مثل الفرد الذى يكثر من القفز للحصول على ثمار من أشجار الغابة .

- الشخص الذى تملكه نفسه الدنيئة الممتلئة بالسموم همومه وآلامه فى زيادة مطردة مثل نوع الحشيش " بيراما Birama " سريع النمو .

- الذين تحرروا من رغبات النفس واتبعوا أسلوبًا فى الحياة راقيًا ثم أحبوا العودة إلى حياة الغابة النفسية ، هؤلاء ينظر إليهم كما ينظر إلى من انطلق من قيد ثم أحب أن يرجع إليه من جديد .

- الذين يشعرون بالسعادة وهم فى الهدوء الفكرى ، هم الذين يتخففون من أدران الجسد ... وهم دائمًا اليقظون والعقلاء ... إنهم سوف يقضون على شهوات نفوسهم ، وهم سوف يقطعون جبال الموت والأخطار "[2] .

النرفانا :

النرفانا كما تصورها فلسفة بوذا ليست هى الفناء الأخير ، وإنما هى التحرر العظيم ، هى إلقاء البضاعة الزائدة من رغباتنا الشخصية حتى لايعوقنا شىء عن اتحاد أنفسنا مع الكون . أو قل هى التحرر العظيم من الموت الذى يطرأ على الأحياء إلى الحياة الأبدية ، لأنه مادام

---

١ - د. أحمد شلبى : مرجع سابق ، ص ١٧١ .

٢ - د. رؤوف شلبى : مرجع سابق ، ص ٢١٠ ، ٢١٢ .

سعينا وراء المطالب الأرضية ، فإننا نبقى أبد الدهر مرتبطين بالأرض ، وننتقل من حياة إلى حياة ، ومن زنزانة إلى زنزانة ، ولا أمل لنا فى خلاص حتى ينتهى جشعنا " وقد عبر بوذا بأسلوب جميل عن هذه الفكرة فقال : " عندما تخمد نار الشهوة فتلك هى النرفانا ، عندما يكبح جماح الكبرياء فتلك هى النرفانا ، ليس لى أن أعلم إلا شيئًا واحداً هو محو العذاب"[١].

تعاليم بوذا ووصاياه :

يقول ديورانت : كانت وسيلة بوذا فى نشر تعاليمه - شأنه فى ذلك شأن سائر المعلمين فى عصره - هى المحاورة والمحاضرة وضرب المثل . ولما لم يدر فى خلده قط - كما لم يدر فى خلد سقراط أو المسيح - أن يدون مذهبه ، فقد لخصه فى " عبارات مركزة أريد بها أن يسهل وعيها على الذاكرة " ومن عباراته التعليمية المقتضبة وأحبها إلى نفسه " الحقائق السامية الأربع " وهى :

١ - تلك - أيها الرهبان - هى الحقيقة السامية عن الألم : الولادة مؤلمة ، والمرض مؤلم ، والشيخوخة مؤلمة ، والحزن والبكاء ، والخيبة واليأس كلها مؤلم . أمًّا سبب الألم : سببه الشهوة ، الشهوة التى تؤدى إلى الولادة من جديد ، والشهوة التى تمازجها اللذة والانغماس فيها ، الشهوة التى تسعى وراء اللذائذ تتسقطها هنا وهناك ، شهوة العاطفة ، وشهوة الحياة وشهوة العدم .

٢ - وتلك - أيها الرهبان - هى الحقيقة السامية عن وقف الألم : أن تجتث هذه الشهوة من أصولها فلاتبقى لها بقية فى نفوسنا ، السبيل هى الانقطاع والعزلة والخلاص وفكاك أنفسنا مما يشغلها من شئون العيش .

٣ - وتلك - أيها الرهبان - هى الحقيقة السامية عن السبيل المؤدية إلى وقف الألم : إنها السبيل السامية ذات الشعب الثمان ، ألا وهى : سلامة الرأى ، وسلامة النية ، وسلامة القول، وسلامة الفعل ، وسلامة العيش ، وسلامة الجهد ، وسلامة مانعنى به ، وسلامة التركيز[٢].

---

١ - د. هنرى توماس: أعلام الفلاسفة ، ترجمة مترى أمين ، دار النهضة العربية سنة ١٩٦٤ ، ص٤٠ .

٢ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

بالإضافة إلى الحقائق السامية الأربع هناك الوصايا الخمس :

١ - لاتقتل كائنًا حيًا ٢ - لاتسرق أو تأخذ ما لم يعط لك .

٣ - لاتقلْ كذبًا قط ٤ - لاتقدم على دنس .

٥ - لاتسكر أو تخدر نفسك في أي وقت [١].

كما أن هناك الوصايا الثمان :

١ - تعلم كيف تفهم نفسك ٢ - كن صبوراً ٣ - تحدث في رفق

٤ - كن في فعلك نبيلاً ٥ - اعمل بأمانة ٦ - ابذل جهدك في كل حين

٧ - كن سريع الاستجابة لحاجات جارك ٨ - لتكن نظرتك إلى العالم رحيمة [٢].

أخيراً نقول أن البوذية منهج حياة قائم على دعوة الهروب من الحياة ... وهي دعوة للحب. يقول بوذا " على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة ، وأن يزيل الشر بالخير ، إن النصر يولد المقت لأن المهزوم في شقاء ، وإن الكراهية يستحيل عليها في هذه الدنيا أن تزول بكراهية مثلها ، وإنما تزول الكراهية بالحب .

وهي الطريق الوسط الذي يجب على المرء أن يسلكه ... كيف يستطيع المرء أن يجد الطرق الوسط ؟ .

يجيب بوذا : باتباع الطريق ذي الثماني شعب التي تعلم القواعد الثماني للحياة وهي :

١ - الإيمان بالحق ... وهو الإيمان بأن الحقيقة هي الهادي للإنسان .

٢ - القرار الحق ... بأن يكون المرء هادئًا دائمًا لايفعل أذى بأي مخلوق .

٣ - الكلام الحق ... بالبعد عن الكذب والنميمة وعدم استخدام اللفظ الخشن .

٤ - السلوك الحق: بعدم السرقة والقتل وفعل شيء يأسف له المرء فيما بعد أو يخجل منه.

٥ - العمل الحق : بالبعد عن العمل السيىء مثل التزييف وتناول السلع المسروقة وعدم اغتصاب المرء ما ليس له .

---

١ - سليمان مظهر : مرجع سابق ، ص ١١٧ .

٢ - د. هنري توماس : مرجع سابق ، ص ٤١ ، ٤٢ .

٦ - الجهد الحق : بالسعى دائمًا إلى كل ما هو خير والابتعاد عما هو شر .

٧ - التأمل الحق : بالهدوء وعدم الاستسلام للفرح أو الحزن .

٨ - التـركيـز الحق : وهذا لايكون إلا باتبـاع القواعـد السـابقة وبلوغ المرء مرحلة السـلام الكامل .

بالحديث عن البوذية نكون قد وصلنا إلى النهاية فى حديثنا عن أديان الهند القديمة [١].

---

١ - لمزيد من المعرفة أنظر :

- W. Norman Brown : " The Creation of the Rige Veda " Journal of American Oriental Society, vol, 62 , 1942 .

- Morarji Desai : A view of Gita. S. Shand & Company led EAmnagar. New Delhi, 1755 .

- Makhan Lalsen, Oriental, publishing Co. 11-D, Arpuli Lane. Calcutta. 12 .

- M. Monier - Williams. Hinduism. Susil Gupta (India) Ltd Calcutta Sriramakrishan Math . Mylapoke, Madras, 4(India) 1968 .

الفصل الثالث

أديان فارس (إيران القديمة)

الفرس أمة عظيمة ذات تاريخ يضرب فى القدم ثرى بأحداثه ووقائعه ، وإذا كنا لانستطيع أن نحدد بدايات هذا التاريخ لتداخله مع أمم وشعوب وبلدان أخرى ، إلا أننا رغم ذلك يمكن أن نحدد البدايات التى عندها عرف شعب وعرفت قومية باسم الفرس . " ففى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ظهر شعب جديد فى الشرق هو شعب الفرس لغتهم « الهندو - إيرانية »، ودينهم « الزرادشتية » وكانوا يختلفون عرقًا عن البابليين والفينقيين والعبرانيين وعن المصريين كذلك . وبظهور الفرس على مسرح التاريخ فى الشرق الأدنى انتهت السيطرة السامية على غرب آسيا واختفت حتى ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى "[1] . وقبل أن نخوض فى أحداث التاريخ يجدر بنا أن نحدد منطقة فارس أو إيران القديمة جغرافيا فنقول: " إيران أو فارس كما كانت تدعى فى يوم من الأيام ، تنغلق داخل مثلث من الجبال ، ويقع فى قلبها اثنان من الصحارى الملحية تبدوان قاحلتين " [2]، ويقدم الكاتب الإيرانى[3] وصفًا جغرافيًا أكثر دقة فيقول : " يتكون القسم الأكبر من المملكة التى نسميها إيران ، من أرض واسعة تعرف فى علم الجغرافيا باسم هضبة إيران .

تشتمل هذه المملكة المترامية الأطراف على سهول واسعة ونجاد عالية ، تحيط بها سلاسل من الجبال الشاهقة من كل جانب ، فتحدها من الناحية الشرقية ثلاثة من الجبال المتوازية تعرف بجبال سليمان (القوقاز) وتحيط بها من الشمال جبال البرز التى تطوقها كالسلسلة من الشرق إلى الغرب ، حيث تنفصل فى الغرب عن جبال أرمينيا ، مارة بجنوب بحر الخزر ، عن طريق جبل (بابا) لتواصل امتدادها إلى بلاد الهند ، حيث تتصل بجبال هيمالايا أعلى جبال العالم ، وتحدها من الغرب جبال كردستان أو زاجروس (كما يسميها الأوروبيون) ، التى تمتد من الشمال إلى الجنوب ، ثم تعرج جنوبًا وشرقًا لتصل إلى بحر عُمان .

---

١ - فيليب حتى : خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ، جـ١ ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت سنة ١٩٨٢ ، ص ٧١ .

٢ - جفرى بارندر : مرجع سابق ، ص ١١٥ .

٣ - حسن بيرنيا مشير الدولة .

وتبلغ الهضبة الإيرانية أقصى ارتفاعها فى الجنوب ، ويقل كلما اتجهنا شمالاً فيبلغ ارتفاعها فى كرمان ١٦٠٠ متراً تقريبًا ، بينما لايتجاوز فى مشهد ١٠٥٠ متراً ، وفى تبريز ١٢٠٠ متراً ، وتبلغ مساحة الهضبة الإيرانية ستمائة ألفًا ومليونين كيلو متراً مربعًا تقريبًا أى خمسة وخمسون فرسخ مربع ، وتشتمل إيران الحالية على حوالى ثلاثة وستين فى المائة من تلك المساحة تقريبًا ، أى ما يقرب من الثلثين ، ويتبع الباقى ممالك أخرى مثل أفغانستان وبلوشستان وغيرهما ، وقد أخذ هذا الباقى فى الانسلاخ عن إيران تدريجيًا منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجرى بعد سلسلة من الأحداث التاريخية » [١].

وعن تاريخ ظهور كلمة فارس للدالة على هذه المنطقة يقول « ج . هـ . أيليف J.H.Iliffe »: " ... في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد وبعد انقضاء حقبة طويلة من تاريخ العالم الشرقى غزت الشعوب الآرية الهضبة الإيرانية وتوغلت فيها إلى شرق وشمال بحر قزوين ، عندئذ اتخذت كلمة « فارس » صورتها النهائية ، وكانت تطلق بادىء الأمر على المنطقة التى تقع فى جنوب غرب إيران الحديثة على ضفة الخليج الفارسى وتتضمن قلب الإمبراطورية الفارسية التى تكونت فيما بعد بما فيها مدينة « باساركاد وبرسبوليس » وقد سماها اليونان « بارسا وبرسس » ثم أطلق عليها الغرب اسم « فارس » . وكانت تتكون فى عهد « دارا » من ولاية واحدة ولكن اسمها كان يطلق عادة على الإمبراطورية كلها تمجيداً لها باعتبارها موطنًا لأسرة الأكمينيين الحاكمة ، وفى العصر الحديث أيام « رضا شاه » استعمل اسم إيران من جديد وأصبح الاسم الرسمى وذلك تمشيًا مع السياسة التى تدعو إلى تمجيد أسرة الأكمينيين بمعناها الواسع أو بعث التراث الآرى "[٢] .

هذه مقدمة توضح مكانة فارس الموقع والواقع الذى يعد مفتاحًا لفهم ما قدمته بلاد فارس للحضارة الإنسانية .

---

١ - حسن بيرنيا : تاريخ إيران القديم ، ترجمة :د. محمد نور الدين عبد المنعم ، د. السباعى محمد السباعى ، القاهرة سنة ١٩٩٥ ، ص ٥ ، ٦ .

٢ - ج . هـ . أيليف : « فارس والعالم القديم » ترجمة : محمد صقر خفاجة ، ضمن كتاب تراث فارس، عيسى البابى الحلبى ، ١٩٥٩ ، ص ٣٦ .

الدين فى فارس :

تعتبر بلاد فارس بحكم الموقع الجغرافى الذى وضحناه آنفًا حلقة الوصل فى الفكر الدينى القديم بين حضارة وديانة حوض البحر المتوسط والشرق الأدنى القديم وبين حضارات وديانات شبه القارة الهندية والشرق الأقصى . فهى تمثل الملتقى الفكرى الدينى بين هذه الحضارات والديانات المختلفة فى جوهرها ومضامينها . والمقارنة المنهجية بين الدين فى فارس والدين فى هذه المناطق تؤكد على أوجه الشبه بين هذه الديانات جميعًا . فديانة فارس الشعبية القديمة «كانت تأمر بعبادة العناصر الأربعة النار « ممثلة فى كوكبيها العظيمين : الشمس والقمر » والهواء والماء والتراب[١] . وبتقديس كل مظاهر الطبيعة »[٢] وهذا يذكرنا بما شاع بين سكان شبه القارة الهندية . يقول ج . هـ . أيليف مؤكداً ذلك : " إن الدين الفارسى ، قبل ظهور «زردشت» ، كان يقوم إلى حد ما ، على عبادة الطبيعة كبقية الشعوب الآرية »[٣] لقد لعبت قوى الطبيعة دوراً هامًا فى تشكيل عقيدة الفرس شأنهم فى ذلك شأن بقية شعوب المنطقة «لقد عبد الإيرانيون القدماء (الفرس) عدداً كبيراً من آلهة الطبيعة ، فعبدوا إله الشمس الذى ينضج محاصيلهم وسموه « مترا » ... وعبدوا إله الخصب والأرض وسموها « أنيتا » ... وعبدوا الثور الذى مات ثم بعث حيًا ووهب الجنس البشرى دمه شرابًا ليسبغ عليه نعمة الخلود وسموها « هوما » ... كذلك عبدوا إله المطر الذى يروى حقولهم ، وعبدوا إله السحاب وإله الريح ، وكل آلهة الطبيعة التى ساعدتهم فى عملهم المضنى للحصول على الرزق ... وسموها كلها « دايفا » أى الأرواح الخيرة .

وكان الشتاء عندما ينتهى ويجيئ الربيع ويبدأ أوان بذر البذور فى الأرض ، يذهب الإيرانيون إلى الجبال يدعون آلهة الطبيعة لتساعدهم فى إنبات المحصول ومدهم بإنتاج طيب ذلك العام .. وعندما ينتهى الصيف ويجمع المحصول يذهب الإيرانيون مرة أخرى إلى الجبال يتعبدون ويثنون على آلهة الطبيعة ويقدمون لها القرابين من الفاكهة والحبوب والحملان الصغيرة.

---

١ – لاحظ تفسير فلاسفة اليونان لنشأة الوجود .

٢ – د. محمد غلاب : مرجع سابق ، ص ١٨١ .

٣ – إيليف : مرجع سابق ، ص ٣٦ .

لقد كانت تلك العقيدة بسيطة حقًا ، ولكنها لم تستمر بسيطة وقتًا طويلاً لأن الشعب الإيرانى لم يعد يؤمن بالأرواح الخيرة فحسب ، بل أصبح يؤمن بآلهة القبائل وآلهة العائلات وعدة أنواع أخرى من الآلهة والأرواح ، ومع تعدد الآلهة ظهرت التماثيل والأصنام "[١] .

فى مثل هذا الجو الدينى يبدأ دور الكهنة ويزداد نفوذهم بين العامة من الناس وتمارس أعمال السحر .

" أما الخاصة فقد كانت لهم عقيدة أرقى من هذه العقيدة ... إذ تحدثنا آثار ملكية وجدت فى مدينتى « سوز » و « بيرسيبوليس » أن كثيراً من الملوك كانوا يؤمنون بالإلهين « ميترا » و « أناهيتا » وغيرهما من آلهة الشعب ولكنهم كانوا يضعون على رأس هذه الآلهة جميعًا الإله « أهورامازدا » الذى سنتحدث عنه فى ديانة « زرادشت » . ومما يلفت النظر فى عقيدة الخاصة هو أن هذا الإله الرئيس كان عندهم غير مرئى ، وأنه لم يكن له معبد خاص ، وإنما كانت جميع بقاع الأرض معابد له . وأن النار لم تكن إلا رمزاً فحسب ... وقد ظل هؤلاء الملوك يعبدون « أهورامازدا » على شكله القديم عبادة حرة غير مقيدة بتعاليم «زرادشت» حتى أواخر القرن الخامس قبل المسيح حيث اعتنقوا الديانة الزرادشتية وطبقوا كل طقوسها[٢].

تلك هى صورة الحياة الدينية فى فارس (إيران القديمة) قبل ظهور الزرادشتية .

أهم أديان فارس (إيران القديمة) :

أولاً : الزرادشتية :

تعد الزرادشتية من أفضل الديانات القديمة التى ظهرت فى هذه المنطقة من العالم حتى قيل أنها تفوقت على ديانات بلاد ما بين النهرين ومصر واليونان . يقول جيمس هنرى برستيد: "كانت هذه الديانة من أنبل الديانات التى ظهرت فى العالم ، دعت هذه الديانة كل إنسان وأهابت به أن يختار أحد الطريقين ، إما أن يملأ قلبه بالخير والنور أو أن ينغمس فى الشر والظلمة "[٣] والحق الذى نستخلصه أن هذه الديانة كانت ثورة على العقائد السائدة وعلى طبقة الكهنة الذين استبد نفوذهم ونصبوا أنفسهم وسطاء بين الله وبين الناس .

---

١ - سليمان مظهر : مرجع سابق ، ص ٢٧٨ .
٢ - د. غلاب : مرجع سابق ، ص ١٨٣ .
٣ - د. الحينى : مرجع سابق ، ص ١٦٣ .

زرادشت مؤسس هذه الديانة :

لاتعرف بالضبط الزمن الذى كان يعيش فيه زرادشت أو المنطقة التى كان يعيش فيها داخل إيران . واختلف العلماء اختلافًا بينًا فمنهم من ذهب إلى القول أن ظهور زرادشت كان قبل ميلاد المسيح بألف وستمائة سنة أو بألفين بل بستة آلاف سنة . وقد قام أحد المتخصصين فى الدين الزرادشتى وهو « جاكسون Jackson » عن طريق دراساته الدقيقة المتعمقة بتحديد زمن ميلاد زرادشت فقرر أنه ولد فى النصف الثانى من القرن السابع ق.م (٦١٨) وتوفى فى النصف الأول من القرن السادس .ق.م(٥٤١)[١] " وعندما ولد زرادشت كانت بلاد فارس مسرحًا للاستبداد والوحشية والحروب ، وكان الحاكم يسمى نفسه ملك الملوك وكلمته هى القانون السائد فى البلاد "[٢] . فى وسط هذا الجو وفى تلك البيئة ولد زرادشت . وقد نسجت حول مولده العديد من القصص الأسطورية من بين هذه القصص ما يتعلق بميلاده المقدس ومنها ما يتعلق بطفولته ، ومن أمثلة هذه الأساطير . أسطورة تتحدث عن حمله المقدس وميلاده . فى مدينة أذربيجان ... غربى بحر قزوين ... فى إحدى جوانب تلك المدينة .. كان يعيش رجل اسمه « بوروزهازيو » من قبيلة « سبيتاما » مع زوجته الحسناء « دوغدوما » . وذات يوم ، بينما كان الرجل يرعى ماشيته فى الحقل ، إذ تراءى له شيخان نوريان اقتربا منه ، وقدما إليه غصنًا من أغصان نبات « الهوما » المقدس وأمراه أن يحمل الغصن معه إلى داره ويقدمه لزوجته ، لأنه يحمل كيان الطفل الروحانى ، وصدع الرجل بالأمر ، ومزج الغصن باللبن وشربه هو وزوجته ، فحملت الزوجة وليدًا هو « زارافوشترا » الذى نسميه الآن «زرادشت »[٣]. وهناك كثير من الأساطير ، يتصل كثير منها بمولده المعجز « استمع إله النور إلى شعبه وأرسل إليهم رجلاً قويًا يكون خلاصهم على يديه » وطبقًا لإحدى الأساطير دخل زرادشت جسد أمه - وكانت امرأة من سلالة الأشراف - على هيئة وميض من البرق ، وكان هذا رمزاً لرسالته فى الحياة : « أن يجلب النور لأبناء الظلام » وما إن خرج إلى العالم حتى انفجر ضاحكًا ، فولت أرواح الشر التى كانت تحيط بمهده هاربة فى اضطراب وانزعاج ، ونتيجة لذلك تهللت الطبيعة كلها ، وأخذت أوراق الأشجار ذاتها تنشد بحفيفها نشيد المجد ، وترنمت معها الرياح والأنهار بالنشيد العام الجامع .

---

١ - حسن بيرنيا : مرجع سابق ، ص ٣١٢ .

٢ - د. هنرى توماس : مرجع سابق ، ص ١٧ .

٣ - سليمان مظهر : مرجع سابق ، ص ٢٨٠ .

وبعد برهة عادت أرواح الشر وحاولت قتل الرضيع ، ولما كان فى حماية الله الخاصة فقد ذهبت مجهودات الأرواح أدراج الرياح . وما إن بلغ الرضيع مرحلة الطفولة حتى عاودت الأرواح خططها الشريرة ، وذات مرة ألقت به فى طريق قطيع حافل من الماشية « ولكن يد الله الحانية أوقفت أحد الثيران حارسًا فوقه إلى أن مر القطيع مندفعًا على كلا جانبى الثور » وفى مرة أخرى سجنته أرواح الظلام فى أحد أوكار الذئاب ، ولكن « يد الله أيضًا أنقذته وأعادته إلى النور »[١] وهكذا نجا الطفل من كل مؤامرات السوء التى دبرتها الأرواح الشريرة وحفظته عناية الله . هذا عن مولده .

مراحل تربيته :

عندما بلغ السابعة من عمره « ترك فى رعاية عدد من الحكماء الذين علموه سبيل التقوى. وكما جاء على لسان بعض العلماء الأقدمين ، كان الحكماء المصريون والأنبياء العبرانيين « منهم النبى " إرميا " ممن اشتركوا فى تربيته وتعليمه ، وكذلك يمكن أن يكون هناك ظل من الحقيقة فى هذا الخليط من الخرافات ، ذلك أن حكمة زرادشت لابد أن تكون قد تأثرت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بوحى أفكار إخناتون والفلاسفة الشرقيين الآخرين . وكان على أساتذته ... أن يؤدوا واجبًا مزدوجًا ، فقد أنقذوا جسمه من الأشواك السامة ، كما حفظوا عقله من أكاذيب أرواح الشر المسمومة "[٢] .

ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره أصبح على درجة من العلم والمعرفة تسمح له بتحمل تبعات المسئولية التى تنتظره . الدليل على ذلك : " أن والده قد عهد إليه بنصيب من ممتلكاته وهو فى هذه السن ليديرها بما عرف عنه من بصيرة وحسن إدراك "[٣] .

وفى الفترة مابين سن الخامسة عشرة من عمره إلى الثلاثين ، أخذ يهذب شخصيته ويصفيها فكان كثير التحدث مع علماء البلاد وحكمائها ، كما كان يتردد على الأماكن التى تلتقى فيها الطرق التجارية الهامة المؤدية إلى مختلف البلاد ، ليتيسر له التحدث إلى أكبر عدد من أهل العلم والفلسفة من مختلف البقاع . بهذا جمع كثيراً من الحكمة « صفى أخلاقه

---

١ - د. هنرى توماس : مرجع سابق ، ص ١٨ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٩ .

٣ - أحمد الشنتناوى : الحكماء الثلاثة ، سلسلة اقرأ ١٢٣ ، دار المعارف ، ص ١٧ .

وطهر نفسه فى مياه العواطف المقدسة النبيلة ، ساعد المسنين ، وطبّب للمرضى ، وأطعم الجياع، ورحم الحيوانات المثقلة بالأحمال فخففها عنها ، وتنقل بين أقرانه ليريحهم مما يصادفهم من عناء ، وبوجه عام أعد نفسه للتدرب العملى والاستقلال الذاتى . أو الحياة المستقلة " [١].

الدعوة والطريق الصعب :

عند الثلاثين من العمر أصبح مستعداً للنهوض بأعباء رسالته « اعتزل الناس وآثر الوحدة، والعزلة هى محراب الطبيعة الجليل حيث تستطيع النفوس أن يناجى بعضها بعضاً وسط ذلك الصمت المطبق والسكون المخيم على الكون . لجأ زرادشت إلى قمم جبال الهضبة الإيرانية بعيداً عن زحمة الحياة وجلبتها حيث لاصوت إنسان يقطع عليه تيار تفكيره أو يصرفه عن تأملاته . وهناك اتخذ من المياه والطير والحيوان والشمس والقمر والنجوم والسيارات أساتذة له يتلقى عنها أسرار الحياة . فأخذ يتأمل فى جوهر هذا الخالق المبدع لكل هذه الكائنات والمخلوقات ، وفى متناقضات الحياة ، وفى مصير الإنسان بعد الموت »[٢] وعندئذ كان قد وصل إلى درجة عالية من السمو الروحى أشرق عليه نوراً « ذلك أنه رأى من فوق قمة الجبل - جبل سايلان - تلك الرؤية الإلهية التى وجهته هذا التوجيه ، هناك فى كهف من كهوف الطبيعة كان قد أعده من قبل للأجسام السماوية ، وفى بقعة منفردة طالما أنفق فيها الساعات للتأمل والتفكير وجد « أهورامزدا » أمامه وجهًا لوجه ، وبعبارة أدق - طبقًا لتعاليمه - رأى أمامه وجوه « أهورا » السبعة هذا لأن زرادشت مع أنه يؤمن بأن الله واحد ، يضيف إليه سبعًا من الشخصيات ، فهو يمثل الأبدى ، والحكمة البالغة ، والعدل الذى لايحيد ، والقوة التى لاتغلب ، والتقوى والإحسان والحياة الأبدية .

وحين أظهر الإله الواحد ذو السبع صفات نفسه لزرادشت ، جعله نبيًا وقاده إلى السماء ، وعلمه التمييز بين الحق والكذب ، وحيث وعى النبى هذا الدرس فى قلبه هبط ثانيًا إلى الأرض ليعلمه أقرانه ، وعند هذه النقطة قامت أرواح شريرة من جديد - بوصفها حراس الكذب - لتغير على زرادشت وتقتله ، وفى شمال الإقليم ، وهو مقاطعة مليئة بالغابات والأحراش وأسباب الموت - أسرع « أهرمان » على رأس حلفائه ليدبروا قتله ، قال لهم :

---

١ - د. عبد الجليل شلبى : مرجع سابق ، ص ٤٣ .

٢ - أحمد الشنتناوى : مرجع سابق ، ص ٢٠ .

فلنقتل زرادشت الكامل العدالة والحق لأنه لو عاش فستموت الشرور ، وبغير الشرور لا حياة لنا ، سنموت نحن أيضًا ، ولكن زرادشت سلح نفسه بالحق والإيمان ، وجعل سيف العدل والحق حماية من هؤلاء الشياطين .

ورأى شياطين الشر أن حملتهم قد باءت بالفشل فلجأوا إلى حملة وأسلحة أخرى ، لجأوا إلى أسلحة مسمومة وخداع غير مسلح من التظاهر بالحب والصداقة ، أخفى الشيطان نفسه وتقنع بقناع الآلهة الجميلة الفاتنة آلهة الأسرار والآثام ، وأخذ « أهريمان » يوسوس له ويغريه بمتعة اللحم والدم ، ولكن زرادشت أعرض عن هذا الإغراء وانخرط فى الأعمال الموصلة إلى الله » [١] .

لقد انتصر على كل الأرواح الشريرة بفضل العناية الإلهية التى أحاطت به وواصل السير نحو تحقيق رسالته إلا أن أهل إيران وقد تعودوا آلهتهم وأصنامهم التى كانت حقائق ملموسة بين أيديهم ... بينما ما يدعو إليه زرادشت إله الخير وروح الشر لايمكن رؤيتها أو سماعها أو لمسهما ، وكل ماكان أهل ذلك الزمان يعجزون عن رؤيته بعيونهم أو لمسه بأيديهم أو سماعه بآذانهم فهو لايؤمنون بوجوده . لذلك فقد جحدوا دعوة زرادشت وأعرضوا عنها بل وأنكروها ، وبلغت المأساة ذروتها عندما أعرضت عنه أسرته وأنكره أهله فلم يؤمنوا بتعاليمه التى جاء بها .

« ومرت بزرادشت عشرة أعوام رهيبة هائلة وهو يبحث عن مؤمنين به ، ولقى خلال تلك السنوات من العنت والشقاء والعذاب ما لايتحمله بشر . فقد تخلى عنه أهله وعشيرته منذ أعلن فيهم رسالته ، وطردوه ، فترك مسقط رأسه وراح يتنقل من بلد إلى بلد تسبقه إليها شهرته التى تقول إنه رجل دعى يسب الدين والكهنة ... فيخشاه الناس ويأبون حتى أن يتضيفوه ، ويغلقون فى وجهه الأبواب فلايجد أمامه ليبيت لياليه الطويلة سوى حظائر الخيل والبغال والحمير .

واستمر زرادشت يناضل فى سبيل دعوته وهو يقطع أرض إيران طولاً وعرضًا ويعظ الناس ويرشدهم ويجادلهم ... ولكن أحداً مع ذلك لم يتبعه ، حتى كاد اليأس الكامل يأخذ به .

---

١ - د. عبد الجليل شلبى : مرجع سابق ، ص ٤٤ .

ومع هذا فإن ربه « أهورامزدا » لم يتركه ... فيقال إن الوحى نزل عليه فى هذه الفترة سبع مرات ... ظهر له فى إحداها « أهورامزدا » كما ظهر له بعد ذلك الملائكة الستة الكبار ليلقنوه أصول الحكمة ... وهؤلاء الملائكة الستة هم أساطين العرش ... وهم رموز ومثل عليا لمعان إنسانية مقدسة ... فثلاثة منهم ذكور يمثلون التفكير الطيب والحق الأسمى والإحسان ... وثلاث إناث يمثلن الفداء والخلود والتقوى ... وقد لقنه كل فرد منهم حقيقة من الحقائق الكبرى ... فتعلم حقيقة النار المقدسة ، والأسرار التى تنطوى عليها الأرض ، وحياة الحيوانات والنباتات ، وخواص المعادن ، والسر فى وجوب العناية بالماء ، والصراع الأزلى بين الخير والشر »[1] وبعد كل هذه المعاناة لاح له فى الأفق مقدمات النجاح « حينما جاوز الأربعين من عمره بدت فى أفقه طلائع النجاح ، فآمن به ابن عمه « ميتوما Metyomah » وانتصر لدينه ، فشد الله به أزره ، وقوى به دعوته . ومضت سنتان بعد ذلك لم يؤمن به فى أثنائهما أحد ، وإن كانت محتويات رسالته قد انتشرت وأصبحت معروفة لكثير من الناس . وبعد أن بلغ الثانية والأربعين أوحى الله إليه أن يذهب إلى كشتاسب (أو بوشتاسف أو بستاسف كما يسميه العرب) ملك إيران حينئذ ليبلغه رسالة ربه لعله يتذكر أو يخشى ، فصدع بما أمر به ، وشخص إلى عاصمة الملك ببلخ ، ودعا الملك إلى الدخول فى دينه ، بعد أن وقفه على أصوله ، وتلى عليه آيات من كتابه المقدس الذى أوحى إليه به ، فتأثر الملك بما سمع ورق قلبه لهذا الدين وإن كان لم يدخل فيه ، وأنزل زرادشت منزلاً كريمًا ، وأحاطه بحفاوة عظيمة ، وأعد لإقامته جناحًا خاصًا فى قصره زوده بفاخر الأثاث والرياش والأتباع ..

وقد أثارت حفاوة الملك بزرادشت حسد كثير من رجال الحاشية المقربين للملك ، فأخذوا يأتمرون بزرادشت ، ويسعون ضده بالوشاية ، ويدبرون له المكايد ويتربصون به الدوائر . ولكن انتهى الأمر بعد محن كثيرة أصابت زرادشت بانتصاره على أعدائه وإقامة الحجة عليهم وإثبات نبوته بظهور معجزات كثيرة على يديه وإبرائه لأمراض وعاهات يعجز الطب العادى عن شفائها »[2] نتيجة لما أظهره زرداشت من أعمال خارقة اعتنق الملك كشتاسب هذه الديانة وتعهد بنشرها والدفاع عنها ، ولعب وزيره « جاماسب » دوراً بارزاً فى مساندة زرادشت وكان له تأثير كبير فى نجاح الدعوة « تزوج جاماسب بعد ذلك " بروجست " ابنة زرادشت وبعد أن

---

١ - سليمان مظهر : مرجع سابق ، ص ٢٨٧ .

٢ - د. على عبد الواحد وافى : مرجع سابق ، ص ١٣٢ .

قبل كشتاسب عقيدة زرادشت انتشرت هذه العقيدة فى توران وإيران والهند وآسيا الصغرى. وقد حارب زرادشت فى أواخر حياته من أجل نشر مذهبه . وقتل أثناء حربه مع شعب «الهيون» وهو فى حالة دفاع » [١] .

هكذا كافح زرادشت وواجه الكثير من المشاق والصعاب فى سبيل دعوته . وهذا شأن أصحاب الرسالات فى كل زمان ومكان ... ولكن الإيمان بالدعوة والعزيمة والإصرار على تبليغها للناس أكبر من كل الصعاب والتحديات . وتصبح الدعوة أكثر نجاحًا وأوسع إنتشاراً بعد وفاة صاحبها .

الأسفار المقدسة للزرادشتية :

شأن كل عقيدة دينية جمع أصحاب زرادشت وأتباعه أقواله وأدعيته وأصول عقيدته التى دعا إليها فى كتاب مقدس سماه هؤلاء الأتباع بـ « الأبستا » (الأبستاق) فماذا عن هذا الكتاب ؟ « يطلق على الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية اسم « الابستاق » وهو تعريب لكلمة " الأفستا Avesta " (ومعناها الأساس أو الأصل أو المتن أو السند) والمقرر فى هذه الديانة أن « الابستاق » موحى به من الإله المسمى عندهم « أهورامزدا » وليس من وضع زرادشت .

وكان « الأبستاق » يشتمل على واحد وعشرين سفراً ... وكان مجموع الفصول التى تشتمل عليها هذه الأسفار ألف فصل ... ويحوى تفصيلاً لعقائد الديانة الزرادشتية وعباداتها وشرائعها وتاريخها وما اجتازته من مراحل وتاريخ نبيها زرادشت من قبل رسالته ومن بعدها.

ويقال أنه سجل على اثنتى عشر ألف جلد من جلود البقر أو الثيران أو الماعز ، وأنه قد كتب حفراً فى الجلد ونقشًا بالذهب »[٢] يقول المسعودى : " وكتب هذا الكتاب فى اثنى عشر ألف مجلد بالذهب ، فيه وعد ووعيد ، وأمر ونهى ، وغير ذلك من الشرائع والعبادات ، فلم تزل الملوك تعمل بما فى هذا الكتاب إلى عهد الإسكندر وماكان من قتله لدارا بن دارا ، فأحرق الإسكندر بعض هذا الكتاب .

---

١ – حسن بيرنيا : مرجع سابق ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

٢ – د. عبد الواحد وافى : مرجع سابق ، ص ١٣٥ .

ثم صار الملك بعد الطوائف إلى « أردشير بن بابك » فجمع الفرس على قراءة سورة منه يقال لها « اسناد » فالفرس (والمجوس) إلى هذا الوقت لايقرؤن غيرها ، والكتاب الأول يسمى « بثناه » . ثم عمل زرادشت تفسيراً عند عجزهم عن فهمه وسموا التفسير « زندا » ثم عمل للتفسير تفسيراً ، وسماه « بازند » ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادشت تفسيراً لتفسير التفسير وشرحًا لسائر ماذكرناه ، وسموا هذا التفسير « بارده » فالمجوس إلى هذا الوقت يعجزون عن حفظ كتابهم المنزل ، فصار علماؤهم وموابذتهم يأخذ كثير منهم بحفظ أسباع من هذا الكتاب وأرباع وأثلاث ، فيبتدىء كل واحد بما حفظ من جزئه فيتلوه ، ويبتدىء الثانى منهم فيتلو جزءاً آخر ، والثالث كذلك ، إلى أن يأتى الجميع على قراءة سائر الكتاب ، لعجز الواحد منهم عن حفظه على الكمال وقد كانوا يقولون : إن رجلا منهم «بسجستان » بعد الثلاثمائة مستظهر بحفظ هذا الكتاب على الكمال »[1] وهذا القول يجسد ضخامة ها الكتاب ودرجة اهتمام الناس به وحرصهم على حفظه .

أما عن محتويات هذا الكتاب وأسلوبه والطريقة التى كتب بها فيقول : « ديورانت » : ".. وهذا الجزء الباقى يبدو للأجنبى الضيق الفكر كأنه خليط مهوش من الأدعية والأناشيد ، والأقاصيص ، والوصفات ، والطقوس الدينية ، والقواعد الخلقية ، تجلوها فى بعض المواضع لغة ذات روعة ، وإخلاص حار ، وسمو خلقى ، أو أغان تنم عن تقى وصلاح ، وهى تشبه العهد القديم من الكتاب المقدس فيما تثيره فى النفس من نشوة قوية ، وفى وسع الدارس أن يجد فى بعض أجزائها مايجده فى « الرج -ڤدا » من آلهة وآراء ، ومن كلمات وتراكيب فى بعض الأحيان . وتبلغ هذه من الكثرة حداً جعل بعض العلماء الهنود يعتقدون أن « الأبستاق» ليست وحيًا من عند « أهورامزدا » بل هى مأخوذة من كتب « الفيدا » . ويعثر الإنسان فى مواضع أخرى منها على فقرات من أصل بابلى قديم ، كالفقرات التى تصف خلق الدنيا على ست مراحل (السموات، الماء، فالأرض، فالنبات، فالحيوان، فالإنسان) وتسلسل الناس جميعًا من أبوين أولين ، وإنشاء جنة على ظهر الأرض ، وغضب الخالق على خلقه ، واعتزامه أن يسلط عليهم طوفانا يهلكهم جميعًا إلا قلة صغيرة منهم ، لكن ما فيها من عناصر إيرانية خالصة يشتمل على كثير من الشواهد التى تكفى لصبغ الكتاب كله بالصبغة الفارسية

---

١ - المسعودى : مروج الذهب ، جـ ١ تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٣ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

العامة ، فالفكرة السائدة فيه هى ثنائية العالم الذى يقوم على مسرحه صراع يدوم اثنى عشر ألف عام بين الإله « اهورامزدا » والشيطان « أهرمان » وأن أفضل الفضائل هما الطهر والأمانة وهما يؤديان إلى الحياة الخالدة ، وأن الموتى يجب ألا يدفنوا أو يحرقوا كما كان يفعل اليونان أو الهنود القذرون ، بل يجب أن تلقى أجسامهم إلى الكلاب الطيور »[1] .

إن ديورانت يقدم العديد من الشواهد التى تؤكد ماسبق أن قلناه حول التفاعل الحضارى بين شعوب تلك المنطقة والتأثير والتأثر بين الأديان والمعتقدات .

ومن أهم أجزاء الأبستاق خمسة أجزاء هى :

١ - **اليسنا** : وتتألف من خمسة وأربعين فصلاً من الطقوس الدينية التى كان الكهنة الزرادشتيون يترغون بها ، ومن سبعة وعشرين فصلاً (من الفصل الثامن والعشرين إلى الرابع والخمسين) وتسمى « الجتها » وتشتمل على أحاديث النبى وما أوحى إليه مصوغة فى عبارات موزونة كما يظهر .

٢ - **سفر « الوسيرد » أو الفسيرد » (Visperd)** : ويشتمل على أدعية وصلوات مكملة لما فى « اليسنا » وترتل فى مناسبات خاصة ، ويبلغ عدد فصوله ثلاثة وعشرين أو سبعة وعشرين فصلاً .

٣ - **اليشتات** : أى الترنيمات أو المزامير Yashts وهى إحدى وعشرون ترنيمة تتلى فى مدح الملائكة المشرفين على أيام الشهر . فقد كان اعتقادهم أن لكل يوم من أيام الشهر الثلاثين حاميًا وحارسًا من الملائكة ، وكان يسمى اليوم باسم حاميه وحارسه ، وكان لكل ملك ترنيمة دينية خاصة تتلى باسمه . فلابد أن يكون عدد هذه « الميشتات » فى الأصل ثلاثين وأن يكون قد فقد منها تسع « يشتات » .

ويذكر البيرونى فى كتابه « الجماهر فى معرفة الجواهر » فى صدد هذه « اليشتات » أنه كان للملوك الساسانيين سبحة من الدر الثمين عدد حباتها إحدى وعشرين بعدد « اليشتات » وكانوا يسمونها « نسك شماره » أي عدد الأسفار ، لأنها بعدد كتبهم المعروفة - فبحسب هذه الرواية يكون عدد « اليشتات » فى الأصل واحد وعشرين فقط ، وتكون الحكمة فى الوقوف عند هذا العدد هو مطابقته لعدد أسفار « الأبستاق » .

---

١ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٤٢٨ .

٤ - **الخوردة أفستا** : أى الأبستاق الصغير . وهو سفر جامع لأدعية وصلوات خاصة بكل وقت من اليوم ، وبالأيام المباركة من الشهر والأعياد الدينية فى العام وأوقات الصحة والمرض التى تعرض فى الحياة ، ويشتمل كذلك على بعض أحكام العبادات والزواج والزفاف .

٥ - **الوانديدات أو الفانديدات** (vendidad) أى القانون المضاد للشياطين ويتألف من اثنين وعشرين فصلاً . ويعد أهم مرجع للوقوف على محتويات الديانة الزرادشتية وتفاصيل شرائعها " [١].

شروح الأبستاق :

سبق القول بأن معظم كتب « الأبستاق » قد فقدت حيث أن الأسكندر الأكبر قد أشعل النيران فى قصر السلطنة « بتخت جمشيد » فأتت على كل ما فى القصر وكان الأبستاق من محتوياته . وأحرق اليونانيون بعد ذلك جزءاً منها بعد أن ترجموا القسم العلمى منها .

وبعد أن أمر « بلاش الأول » الأشكانى بجمع الأوستا التى رتبت فى عهد « أردشير الأول» الساسانى [٢] ؛ وهذا فى مجموعه يمثل الأصل أو المتن الذى قامت عليه الشروح والحواشى فى مرحلة تالية على يد الكهنة ورجال الدين الزرادشتى . وترجع شروح «الأبستاق» وشروح شروحه إلى ثلاث مجموعات يطلق عليها اسم « الزند Zend » والبازند Pa-Zend و«الأيارده » وقد فقد معظم الشروح ولم يصل إلينا منها إلا القليل .

١ - **أما الزند** : فهو الشرح المباشر للأبستاق ، وقد دون باللغة الفهلوية ، وهى اللغة الفارسية فى مراحلها الوسطى (وتختلف عن اللغة التى دون بها « الأبستاق » وهى الفارسية فى مراحلها القديمة) وهذا دليل على أنه ألف فى عصر متأخر بأمد طويل عن العصر الذى ألف فيه « الأبستاق » لأول مرة . والراجح أنه بدء فى تدوينه فى عصر فلوجيسس الأول (بلاش الأول ٥١ - ٨٧ ق.م) حينما بُدىء فى جمع « الأبستاق » وتدوينه للمرة الثانية . والراجح كذلك أنه لم يتم تدوينه إلا فى أواخر عهد بنى ساسان ، أى حوالى منتصف القرن السادس الميلادى.

هذا وكان كثير من قدامى الزرادشتيين يعتقدون أن « الأبستاق » و « الزند » كليهما نزل من السماء بل لقد كان بعضهم يخلط بين الكتابين فيزعم أن الزند هو الكتاب الأصلى لزرادشت .

---

١ - د. على عبد الواحد وافى : مرجع سابق ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .
٢ - حسن بيرنيا : مرجع سابق ، ص ٣١٢ .

٢ - وأما « البازند » فهو تفسير « للزند » ، أي شرح لشرح « الأبستاق » . وقد كتب باللغة الفهلوية فى مراحلها التالية للفتح العربى حوالى القرنين الثانى والثالث الهجريين أى حوالى السابع والثامن الميلاديين على الأرجح .. وكان بعض الزرادشتيين يعتقدون أن «البازند» من عمل زرادشت نفسه .

٣ - وأما « الإيارِدة » بكسر الهمزة وفتح الراء وكسرها وفتح الدال فهو شرح « للبازند » أى شرح لشرح الشرح أو تفسير لتفسير التفسير »[١].

أصول العقيدة الزرادشتية :

لقد اشتملت هذه العقيدة على جوانب عقيدية وأخرى تعبدية ثم جانب تشريعى أخلاقى ... وقدمت العديد من مسائل اللاهوت وناقشت أصل الوجود وخلق العالم والحياة الآخرة ومصير الإنسان بعد الموت : مما سنعرض له تفصيلاً .

الألوهيـة : لقد شاع بين الفرس قبل زرادشت عبادة قوى الطبيعة وتأليهها ، بل وعرفوا عبادة الأصنام .

وجاءت دعوة زرادشت فى أصلها تدعو إلى عبادة إله واحد هو : « أهورامازدا » رب الخليقة ، والحياة ، والمادة والروح ، وهو المحرك الذى لاشكل له ، ولا حدود له ، ولانهاية له فى القانون الأبدى ، نموذج الكون الذى يسرى على كل البشرية فى كل الأزمنة[٢] .

ويواصل زرادشت دعوته شارحًا للناس دعوته الجديدة التى يعلنها على الناس ويدعوهم لاعتناقها .

يسأله كبير الكهنة فى بلاط « كشتاسب » " ماهى هذه العقيدة الجديدة التى تبشر بها أيها الرجل ... وما هو موطن الاختلاف بينها وبين عقيدة آبائك الأولين " ؟ .

أجاب زرادشت : لم أجيء لأبشر بعقيدة جديدة ... ولكن لتحسين عقيدة قديمة . والذى أعلمه هو حقيقة الخالق وهو لهذا خير ... أما عبادتكم للأصنام فليست حقًا ... وهى من أجل ذلك شر .

---

١ - د. على عبد الواحد وافى : مرجع سابق ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

٢ - هنرى توماس : مرجع سابق ، ص ٢٠١ .

وسأله كبير الكهنة : أتعنى أن آلهتنا الشمس والنار والجبال والنجوم آلهة زائفة ؟

أجاب زرادشت : كلا ... فهى ليست آله زائفة ... لأنها ليست آلهة على الإطلاق . مثل ذلك مثل الرجل الذى يبنى بيتًا ... هل تصفون البيت بأنه هو الرجل ؟ إن هذه هى الحقيقة ، فالشمس والقمر والجبال ليست آلهة ، بل هى من صنع الخالق .

وسأله أحد الكهنة : من هو ذلك الخالق ؟

قال زرادشت : إنه أهورامزدا إله الحكمة والحاكم الأسمى للعالم [١] هذا هو الإله الواحد الموصوف بالكمال التام « أهورامزدا » « إنه كامل العلم كامل القوى ، كامل الرحمة والرثاء لبنى الإنسان ، خالق الكون كله ، وهو أبو الجنس الإنسانى ، ويمد كل مخاوق بحياته وما يعيش به جسمه هو النور وهو بهاء الكون ، الشمس والقمر عيناه ، وكساؤه هو هذه القبة الصلبة الزرقاء قبة السماء ، هو الذى صنع السموات لتبعث النور ، وخلق الأرض لتنشىء الحياة ، هو الذى رسم للكواكب مجراها ، وقاد الشمس فى ممرها ، وأمسك السماء أن تقع على الأرض وأمسك الأرض أن تزول . وهو الذى يمد بالماء والنبات ، وهو الذى يتحكم فى سرعة الريح والسحاب ... « أهورامزدا » بعث فى الإنسان الرغبة فى الزرع ، ويبث فى البذور قوة النمو ،وفى كلمة هو مجموعة القوى الطبيعية التى تؤلف عناصر الحياة وتكسوها بالجمال»[٢] إنه مصدر كل خير ، الإله الواحد المتصف بصفات القدم والبقاء والقدرة والإرادة والعلم والمخالفة للحوادث ، وأنه يدرك الأبصار ولاتدركه الأبصار ، يعلم حقيقة مافى السماوات والأرض ولايصل أحد إلى معرفة حقيقته . و « اهورامزدا » يطلق فى « الأبستاق» على الذات المتصفة بهذه الصفات ، بل إن اسم « اهورامزدا » نفسه يدل معناه فى الفارسية على ذلك . فهو مركب من ثلاث كلمات وهى (اهو) و (مزدا) ومعناها على الترتيب : أنا - الوجود - خالق ، أى أنا وحدى خالق الوجود أو الكون »[٣] .

إن هذا الإله الواحد . يقف زرادشت أمامه يناجيه ويطلب منه العون ونور البصيرة فيقول : " أرجو أن يعلمنى خالق الحكمة شرائعه عن طريق الفكر الخير حتى يجد لسانى لها منفذاً ،

---

١ - سليمان مظهر : مرجع سابق ، ص ٢٩٩ .

٢ - د. عبد الجليل شلبى : مرجع سابق ، ص ٤٦ .

٣ - د. على عبد الواحد : مرجع سابق ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

فمن أجلك سأسرج أسرع الجياد المطهمة الممتلئة القوية فى انجاز التسبيح لك حتى تأتى إلى هنا يامزدا - الحق والفكر والخير ، وتكون مستعداً لعونى ، وبأشعار عرفت بحمية التقوى سأمثل أمامك بيدين مبسوطتين أمامك ، أنت أيها الحق ، بصلاة المؤمن ، وأمامك بجهد الفكر الخير وبهذه الصلوات أقدم وأسبح لك يامازدا والحق بأعمال الخير والفكر ، ولو كنت سيد مصيرى كما أريد إذن لاتجه التفكير نحو حماية العقلاء بنفس السبيل تلك الأعمال التى سأصل إليها وتلك التى تمت من قبل ، وتلك - أيها الفكر الخير - التى هى ثمينة فى العين - أشعة الشمس وانبساق الأيام الوضاح هى جميعًا تسبح لك أيها الحق وأهورامازدا . سأعلن نفسى مادحًا لك مازدا ، وأظل أيها الحق كذلك مادامت فى قوة وقدرة ، وأرجو أن يتم خالق العالم بالفكر الخير تحقيقًا وكل ما هو استجابة تامة لإرادته »[١] .

على هذا النحو صور زرادشت الإله الواحد « أهورامزدا » لكن هل ظلت دعوة التوحيد هذه على طبيعتها التى قال بها زرادشت ؟ والحقيقة أن هذا اللون من التوحيد لم يكن توحيداً خالصًا ... ذلك أن زرادشت لم يتخلْ عن تشخيص هذا الإله لقد صور « أهورامزدا » فى صورة إنسان إلهى هو روح لهضبة فارس ، ثم جعل رمزاً لهذا التجلى الإلهى ، وأدخله فى صراع وقتال مع إله آخر صانع الشر ثم جاء أتباعه من بعده وعادوا يقولون بتعدد الآلهة . كيف حدث ذلك ؟ .

يقول « ديورانت » : " وكان « لأهورامزدا » كما وصفه زرداشت سبعة مظاهر أو سبع صفات هى : النور ، والعقل الطيب ، والحق ، والسلطان ، والتقوى ، والخير ، والخلود . ولما كان أتباعه قد اعتادوا أن يعبدوا أربابًا متعددة فقد فسروا هذه الصفات على أنها أشخاص (سموهم أميشا اسبثنا أو القديسين الخالدين) الذين خلقوا العالم ويسيطرون عليه بإشراف أهورامزدا ، وإرشاده . وبذلك حدث فى هذا الدين ماحدث فى المسيحية فانقلبت الوحدانية الرائعة ، التى جاء بها مؤسسه شركًا لدى عامة الشعب »[٢] وفى ذات السياق يقول « جفرى بارندر » : " وتصبح صفات الإله كالاستقامة والخلود ... إلخ التى عرضها زرادشت ، أفراداً متميزة ، إن لم تكن كذلك بالفعل ، فهم الخالدون الستة (الملائكة المقربون) « أمهراسباند

---

١ - د. الحينى : مرجع سابق ، ص ١٦٧ .

٢ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٤٢٩ .

Amahraspands » وهم يجلســـون أمـــام عـــرش الإله ، ولهم مكانة خـاصـــة فى طقـــوس الزرادشتيين ، لأنهم يحرسون العناصر التى يتألف منها العالم (النار والتراب والماء ... إلخ) ومع ذلك فليسوا هم الكائنات السماوية الوحيدة ، فهناك أيضًا الظاهرون أو « اليـازات Ya-zata » أو الموجودات المعبودة ، وكثيراً ماتمت المقارنة بين وضع هذه الموجودات ووضع الملائكة والطبقات العليا من الملائكة فى الديانة المسيحية ، وعدد « اليازات » من الناحية النظرية عدد هائل ، ولكن من الطبيعى أن تكون بعضها شخصيات مهيمنة ، وقد كانت فى العادة هى الشـخصـيـات الآرية القـديمة »[١] . ولم يتـوقف الأمر عند ذلك وإنما كـان هناك فى معـارضـة هؤلاء الملائكة شياطين أرواح شريرة ، إذ " كان الفارسى التقى يعتقد (ولعله كان فى هذا الاعتقاد متأثراً بعقيدة البابليين فى الشياطين) أنه يوجد إلى جانب هؤلاء الملائكة والقديسين الخالدين الذين يعينون الناس على التحلى بالفضيلة سبعة شياطين (ديو) أو أرواح خبيثة تحوم فى الهواء ، وتغوى الناس على الدوام بارتكاب الجرائم والخطايا ، وتشتبك أبد الدهر فى حرب مع « أهورامازاد » ومع كل مظهر من مظاهر الحق والصلاح . وكان كبير هذه الزمرة من الشـياطين « أنكرا - مـينيومـا » أو « اهرمـان » أمـيـر الظلمـة وحاكم العالم السـفلى . وهو الطراز الأسبق للشيطان الذى لاينقطع عن فعل الشر ، والذى يلوح أن اليهود أخذوا فكرته عن الفرس ثم أخذتها عنهم المسـيـحـيـة ، مـثـال ذلك أن « أهرمـان » هو الذى خلق الأفـاعى ، والحشرات المؤذية ، والجراد ، والنمل ، والشتاء ، والظلمة ، والجريمة ، والخطيئة واللواط ، والحيض ، وغيرها من مصائب الحياة . وهذه الآثام التى أوجدها الشيطان هى التى خربت الجنة حيث وضع أهورامازدا الجدين الأعليين للجنس البشرى »[٢] .

وبهذا أصبح الاتجاه نحو الثنائية أحد عناصر العقيدة الزرادشتية فبعد أن كانت تقول بإله واحد . ظهر فى مقابل هذا الإله الواحد إله آخر ينازعه ويصارعه ففى مقابل الخير المطلق «أهورامـزدا » كـان الشـر المطلق « أهرمـان » ، إلا أن هذا الاتجـاه لم يظهـر إلا فى الديانة الزرادشتية المتأخرة فانتهى بها الأمر في عصورها الأخيرة إلى أن أصبحت ديانة مثنوية أو ثنوية أى تعتقد بوجود الإلهين : أحدهما « أهورامازدا » وتجعله إلهًا للخير والآخر «أهرمان»

---

١ - جفرى برندر : مرجع سابق ، ص ١١٩ .

٢ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٤٢٩ .

وتجعله إلهًا للشر ، وتعتقد أن بينهما صراعًا دائمًا لأن كليهما يرمى إلى السيطرة على العالم، مع أن « أهرمان » هذا - وهو فى الأصل (انكرامينو) ومعناه الخبث أو الشر - لايذكر فى الأسفار المقدسة للزرادشتيين فى مقابل « اهورامزدا » على أنه شريك له ، ولكنه يذكر مقابل « سبنتامينو » ومعناه القدسية أو الخيرية . فلم يكن أصل العقيدة الزرادشتية إلهان ، وإنما كان فيها قوتان متضادتان أو مجموعتان من القوى المتضادة : إحداهما مجموعة قوى الخير والنور والحياة والحق ، ويرمز إليها جميعًا « سبنتامينو » ويعمل على تحقيق أغراضها سبعة ملائكة قدسيون يمثلون الفضائل السبع العليا وهى : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل ، والإخلاص ، والأمانة ، والكرم ، والأخرى قوى الشر ، والظلام ، والموت ، والخداع ، ويرمز إليها جميعًا « انكرهمينو » الذى تحول اسمه إلى « أهرمان » ويقوم على تحقيق مقاصدها الآثمة سبعة شياطين خبيثة تمثل الرذائل الإنسانية الرئيسية وهى : النفاق ، والخديعة ، والخيانة ، والجبن ، والبخل ، والظلم ، وإزهاق الأرواح »[1] .

بناء على ماسبق نقول بدأت الزرادشتية بالثورة على تعدد الآلهة والدعوة إلى التوحيد وانتهت من حيث بدأت إلى الاتجاه نحو التعددية .

الحياة الآخرة ومصير الإنسان بعد الموت :

لقد عبرت الديانة الزرادشتية أصدق تعبير عن الإخاء الإنسانى والمحبة والعدالة وأكدت على كثير من القيم الخلقية أو المثل العليا ، وصورت الصراع الأبدى بين الخير والشر ، ومنحت الإرادة الإنسانية أقصى درجات التحرر ، إلا أنها فى ذات الوقت حددت المسئولية الإنسانية تجاه العالم والناس : فبقدر ما يمتلك الإنسان من الحرية بقدر ما تكون المسئولية عن أفعاله وبالتالى يكون الجزاء «وبحسب الأعمال تقاد الأرواح إلى صراط التنقية وهو قنطرة فوق جهنم - فذوو الأعمال الصالحة يمرون عليه فيرقون إلى الأعلى فيدخلون فراديس السماء ، موطن النور ومنزل السرور . ولكن الرجل السيىء الأعمال يسقط من فوق الصراط فيلقى به فى الجحيم ، موطن الذعر واظلمة والعذاب والدموع ، ويتولى تعذيبه عفاريت تولد من سيئاته وذنوبه ، وهى أفكاره السيئة وأقواله السيئة وأعماله السيئة - وهنا تصل الفضائل إلى قمة انتصارها، وتصل الرذائل إلى هزيمتها وانكسارها .« فى النهاية سوف يقضى على الرذائل

---

١ - د. على عبد الواحد : مرجع سابق ، ص ١٤٢ .

نهائيًا وكل ما يشكى منه ويؤلم سوف يفنى ، يفنى المرض ، والمعاناة ، ثم لايكون موت فى هذه الحياة الثانية . بعد أن يثاب الصالحون ويعاقب المسيئون ، سوف ترتفع الأعمال وتستأنف الحياة مرة ثانية على هذه الأرض حيث تقوم ملكة السماء ، ستكون الأرض منبسطة لا جبال فيها ولاوهاد ولا حر ولاثلوج ، النهابون الذين روعوا أهل فارس سيختفون ، الذين كانوا يأتون من وراء الجبال فينهبون القطائع ، والرياح التى كانت تنساب من فوقها فتسلب الناس صحتهم ، كل أولئك لن يكون لهم وجود فى مملكة السماء المقبلة ، ستكون الحياة كلها عدلاً خالية من الآلام ، خالية من الخوف والأحقاد ثم لايكون موت بعد ذلك لأنها حياة أبدية ، ليس فيها ظلم ولا خلافات ولا كذب ولا حماقات ولامعاناة - كل المخلوقات ستكون أبدية دائمة الحياة ، ويكون إله النور وحده هو الحاكم الأعلى »[١] .

إن عقيدة تتحدث عن الإله العادل الذى يفصل بين الأخيار والأشرار يوم التحكيم العظيم، مثل هذه العقيدة تضبط للناس سلوكهم فى الحياة . افتح أذنيك لتسمع أي سلطان هو خير .

تأمل بصفاء ذهن الطريقين

فبينهما يتحتم على كل امرىء أن يختار لنفسه

عالمًا مقدمًا بما سيتقرر فى أمرنا فى التحكيم العظيم[٢] (يوم الحساب)

خلاصة القول أن هذه الديانة تقرر :

حقيقة الموت : وماذا بعد الموت فى الدار الآخرة ، كما تؤكد على الحساب والصراط والعدل والجنة والنار ... والميلاد الثانى فى الآخرة ومصير الأخيار والأشرار . وكيف أن الإنسان فى الدار الآخرة بالأعمال الطاهرة والأقوال المستنيرة يتخلص من كل ألوان المعاناة وينعم بالراحة الأبدية .

الأخلاق والفضائل فى الزرادشتية :

لقد كانت رسالة زرادشت رسالة خلقية تهتم بالدعوة إلى الفضيلة وهجر الرذيلة وجعلت الخير الغاية القصوى والهدف الذى يجب أن نسعى إليه ونجتهد فى تحقيقه ، وربطت بين السعادة والطمأنينة وبين فعل الخير وأول الطريق الموصل إلى الخلود الأبدى هو :

١ - د. عبد الجليل شلبى : مرجع سابق ، ص ٥٠، ٥١ .

٢ - د. الحينى : مرجع سابق ، ص ١٧٣ .

طريق العدالة . فالعدالة عند زرادشت « فى التخلص من الخطأ عن طريق المعرفة الحقة لكل ماهو صواب والنور الذى يكشف عن هذه المعرفة إن هو إلا التناسق الأبدى الإلهى " فإن تعرف الحق ، تعرف الله " . وما العالم أجمع إلا نسيج حى ينسج طريقة متجهًا إلى الإله الحق. وكما أعلن زرادشت : " يستطيع الإنسان أن يتحد مع الله باتباع الحق الأسمى ، قانون العدالة " ويرمز أتباع زرادشت إلى مبدأ العدالة خلال معرفة الحق بما يسمونه « اللهب المقدس». ويجب ألا ننظر إلى هذا اللهب على أنه نار مادية ، وإنما هو يعبر عن « وجه الله الذى يسكن قلب الإنسان » . وعلى ذلك فأول علامة فى الطريق إلى معرفة الله هى نور العدالة اللامع الذى تغذيه نار الحق » .

أما ثانى معالم الطريق إلى الله فهو التعاون . وكما صرح زرادشت فحياتنا كلها إن هى إلا رحلة جريئة نقوم فيها بخدمة بعضنا بعضًا . ومن ثم فإن العلامة الثانية فى الطريق إلى الله هى خدمة الله خلال خدمة أخوتنا فى البشرية »[1] وثالث معالم الطريق هو الصدق فى القول لأن الشخص الذى يقول غير الحق قد يخدع صاحبه ، ولكنه لايستطيع أن يخدع الله ، ولهذا فإنه من الضرورى أن تكون شريفًا ليس فقط فى تفكيرك بل أيضًا فى حديثك ، بعبارة أخرى ليست الديانة الزرادشتية سلبية ولكنها طريق إيجابى للخلاص[2] .

ومجمل القول أن زرادشت دعى إلى التحلى بست خصال هى :

١ - طهارة الفكر والكلمة والعمل
٢ - النظافة والبعد عن كل ماهو دنس
٣ - الإحسان بالفعل والقلب
٤ - الرفق بالحيوانات النافعة
٥ - القيام بالأعمال النافعة
٦ - مساعدة الذين لايتيسر لهم تحصيل التعليم بتعليمهم

إن هذه الروح الطاهرة وتلك الأخلاق الحميدة تجعل من الزرادشتية ديانة إنسانية تسعى إلى بناء مجتمع تسوده روح المحبة والتعاون وتربط الأتباع برباط قوى ، وترقى بالنفس فى أعلى درجات الرقى والطهارة .

---

١ - د. هنرى توماس : مرجع سابق ، ص ٢٢ - ٢٤ .
٢ - د. عبد الجليل شلبى : مرجع سابق ، ص ٤٨ .

العبادات والشرائع :

أ - العبادات : من أهم العبادات فى الديانة الزرادشتية :

١ - تقديس النار : « النار فى الأرض هى العنصر الذى يمثل للناس تلك القوة العليا ، فهى ليست عنصراً أوليًا ساذجًا أبديًا أزليًا فحسب ، بل هى أيضًا قوة مطهرة مهلكة طاهرة نقية نافعة لايمكن أن يتطرق إليها الفساد ... وهكذا تبدو تلك الصورة التى يتصور الناس من أجلها أن أتباع زرادشت يعبدون النار ... بينما هم يؤكدون أن تلك الفكرة خطأ كبير ، فهم لايعبدون النار أو يتخذون منها إلهًا ، ولكنهم يرونها إلى جانب الشمس رمزاً لقوة الإله الذى لايمكن أن يراه أحد ... ويعدون الوثنية والشرك بالإله الواحد الخير الحق جريمة كبرى ، لأنها تتضمن إنكار مبدأ وحدة الواحد أهورامازدا .

ويقول الزرادشتيون أنهم يقدسون النار ولايعبدونها ، لأنها مقدسة كرمز ... ومن أجل ذلك تحملوا التبعة التى ألقاها زرادشت على أكتافهم بالاحتفاظ بشعلة النار مضطرمة بالمعنى الرمزى والمعنوى . فراحوا يوقدونها أبداً ويجعلونها تتأجج فى صدورهم إلى جوار تأججها فى المعابد ... وعندما توقد النار فى هيكل ، يصير من أهم الواجبات وأقدسها على رجال الدين أن يعملوا دائبين على إبقاء نارها المشتعلة ، فيأتوا إلى الهيكل خمس مرات فى اليوم ليقدموا إلى النار وقوداً من خشب الصندل وغيره من المواد العطرية ... فتنتشر فى الهيكل رائحتها الزكية ، وفى كل مرة يتلو الكاهن عبارات دينية يدعو بها الناس إلى التأمل فى الخير والكلام الطيب والعمل الصالح وهى جواهر الزرادشتية الثلاثة »[١] وقد سبق أن تحدثنا عنها .

٢ - الدعاء : أصل من أصول العبادة عند الزرادشتية يمارسه عامة الزرادشتيين وخاصتهم. وهى أدعية يتجهون بها إلى الإله والملائكة والأرواح المقدسة وقوى الخير .

٣ - الصلاة : تقام خمس صلوات حول النار المقدسة ، تقام واحدة عند شروق الشمس ، وواحدة عند الزوال ، وواحدة عند الغروب ، وتقم الصلاتان المكملتان للخمس بين هذه الصلوات الثلاث ، وتختتم كل صلاة منها بعظات يلقيها رجال الدين على المصلين ليبينوا لهم معالم دينهم ويرشدوهم إلى طرق الخير والفضيلة ويحذروهم من المعاصى وتعدى حدود الله[٢] .

---

١ - سليمان مظهر : مرجع سابق ، ص ٣١٣ .

٢ - د. على عبد الواحد وافى : مرجع سابق ، ص ١٤٧ .

ب – **الشرائع** : من أهم التشريعات التي حرصت عليها الزرادشتية :

١ – الحث على العمل والإنتاج . فمن نصوصها المقدسة أن من يشق الأرض بحراثه خير ممن قدم ألفًا من القرابين وممن يقدم عشرة آلاف من الأدعية والصلوات .

٢ – الطهارة والنظافة .

٣ – تحرم الانتحار تحريمًا قاطعًا .

٤ – الزواج واجب على كل قادر وتحث على تعدد الزوجات .

وقد ور فى الأبستاق أن « أهورامازدا » قد أوحى إلى « زرادشت » أن المتزوج أعلى منزلة من الأعزب ولو كان تقيًا عفيفًا . وأن من له بيت (أسرة وزوجة) أعلى منزلة عند الله ممن ليس له بيت ، وأن من له خلف أعلى منزلة ممن ليس له خلف »[1].

وهناك العديد من التشريعات الخاصة بدفن الأظافر والشعر فى حفرة وغير ذلك من أمور الحياة .

ثانيًا : الزرقانية :Zuravanism :

لقد تطورت الديانة الزرادشتية بعد وفاة زرادشت وظهرت عدة فرق دينية مستمدة من تعاليم زرادشت ومقيدة بأهورامازدا .

ومن بين هذه الفرق :

الزرقانية : نسبة إلى الإله الأعلى زرقان . ومجمل تعاليم هذه الفرقة :

١ – رد قوة الخير وقوة الشر إلى أصل واحد مشترك هو الإله الأعلى الأول « زورقان » الذى إليه يعود الخير والشر .

٢ – زرقان Zurvanism هو لا متناه من حيث الزمان والمكان .

٣ – زرقان هو الإله ذو (الوجوه الأربعة) وتمثل هذه الأوجه أو الصفات : الإنجاب والميلاد، والشيخوخة والعودة إلى اللامتناهى ، كما تمثل عصور العالم .

٤ – زرقان الإله الأعلى هو الذى أوجد « أهورامازدا » و « أهريمن » لحكم العالم والصراع عليه .

---

١ – المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

٥ - أكدت الزرقانية على التوحيد بالنظر إلى زرقان على أنه إله واحد هو إله الزمن المتناهى والقدر المسيطر على مصير البشر .

٦ - آمن الزرقانيون أن الشر الأساسى فى الجنس البشرى إنما يكمن فى الانحراف أو الخطأ العقلى (أو ضيق الأفق) أو الجشع الذى يتجلى ماديًا فى صورة الشهوة ، وعقليًا فى صورة الجهل .

٧ - ترى الزرقانية أن النساء هن المصادر المباشرة للكثير من الشرور فى العالم ، بغوايتهن للرجال فى طريق الانحراف أو الخطأ العقلى[1] .

هذه هى أهم تعاليم هذه الفرقة ، والذى نحب أن نؤكد عليه أنها لاتمثل دينًا جديداً وإنما هى حركة إصلاح دينى داخل الزرادشتية .

ثالثًا : الديانة المترية Mithraism :

تنسب هذه الفرقة إلى الإله مترا Mithras ومجمل تعاليمها :

١ - الإله مترا Mithras إله قديم وهو إله النور والشمس ، وقد استمر وجود هذا الإله رغم ظهور الزرادشتية بإصلاحها الدينى ، فقد أصبح « مترا » فى العصر الساسانى (٢٢٦ - ٦٥٠ م) الإله الرئيسى أو المركزى فى العقائد الهلينستية السرية[2] .

٢ - كلمة « مترا » تعنى العقد أو الاتفاق . ومترا هو الإله الذى يحفظ الحق والنظام ، ويقضى على القوى المفرقة : قوى الشر والغضب والجشع ، والتكبر ، والمماطلة ، وجميع الأشرار من الآلهة والبشر .

٣ - يوصف الإله « مترا » بأنه محارب قوى جبار ، وهو الذى يتعبد له المحاربون وهم على ظهور جيادهم ، قبل ذهابهم إلى المعركة .

٤ - لما كان « مترا » حارسًا للحقيقة أصبح قاضى الأرواح بعد الموت .

٥ - ولما كان الحافظ للاتفاقات والعقود ، فهو الذى يحدد متى تنتهى فترة حكم الشيطان.

---

١ - انظر : جفرى بارندر : المعتقدات الدينية ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، وكذلك د. محمد خليفة : تاريخ الأديان ، ص ١٦٨ .

٢ - المرجع السابق ص ١٦٨ .

٦ - كان الاعتقاد الأساسي في هذه العبادة هو التضحية بثور يقوم بها « مترا » وكان هذا عملاً خلاقًا وفداء في آن واحد .

انتشرت هذه العقيدة في آسيا الصغرى وفي معظم بلاد الإمبراطورية الرومانية .

رابعًا : المانديون Mandeans

المانديون أو الناروريون Nazoreans . فرقة صغيرة لاتزال موجودة في جنوب العراق ، ومجاورة لإيران ، ويدعى أعضاؤها أنهم من سلالة يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) ويعتقدون أن أسلافهم فروا إلى « بارثيا Parthia » بعدما سقطت أورشليم [١].

ويعرف الدكتور مراد كامل المانديون بأنهم « فرقة دينية من العارفين بالله ، خلطوا في تعاليمهم بين مذاهب اليهود والنصارى ووثنية البابليين ، ووثنية الفرس ، وأدخلوا عليها أخيراً بعض تعاليم الإسلام ، وهم يدعون أنهم على مذهب يحيى بن زكريا « يوحنا المعمدان » ولذلك كانوا يغتسلون في الأردن كما كان يحيى يغتسل في الأردن ، فلما هاجروا أخذوا يسمون كل نهر وكل ماء نهر الأردن ، وهم يزعمون أيضًا أنهم أهل المعرفة من النصارى وأن عندهم معرفة خاصة عن الأشياء الدينية والروحانية ، ولكنهم في الواقع لم يكونوا نصارى بل كانوا يعترضون على النصارى واليهود ، فحاربتهم الكنيسة ، كما حاربهم اليهود وكتبهم الباقية كلها دينية وعددها قليل وأهمها كتاب « الكنز الكبير » وفيه أجزاء أخذت من اليهودية والنصرانية والإسلام ، ومن قول أهل المعرفة ، ويظهر من هذا أنهم بدأوا بجمع رواياتهم وطقوسهم الدينية بعد فتح المسلمين العراق لكي يعدوا أنفسهم من أهل الكتاب ، وقد ضاعت كل كتبهم التي ترجع إلى ماقبل الإسلام [٢].

ومن أهم تعاليمهم :

١ - يرفضون تشبيه الإله بالبشر ، يصفون « المطلق » بأنه الكائن الأعظم الذي لاشكل له، ويلقبونه بـ « ملك النور » و « سيد العظمة » و « مانا العظيم » .

---

١ - جفرى بارندر : مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

٢ - جرجى زيدان : الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ، مراجعة وتعليق د. مراد كامل ، دار الهلال ، سنة ١٩٦٩ ، الحاشية ، ص ٣١ ، ٣٢ .

٢ - تم خلق العالم عن طريق فيوض عن « ملك النور » ومن أهم الموجودات التى صدرت عنه هو المخلص ماندا هايى « Mandad'Haye » أو (معرفة الحياة) .

٣ - كل شىء فى هذا العالم المادى له ما يقابله فى العالم السماوى .

٤ - يعتقدون أن الروح عندما تكون فى العالم فهى فى المنفى ، وأنها شعاع من النور سجين المادة منذ بداية الخلق .

٥ - تستطيع الروح أن تتخلص من هذا السجن عن طريق ممارسة طقوس « الماسيكتا Massiquta » أى الارتقاء أو الصعود حيث تعبر الروح إلى عالم النور ، عن طريق ممارسة شعائر التطهر الشهيرة عند وفاة الشخص .

٦ - مصافحة الأيدى عمومًا له مغزاه الدينى ، فهى تقوم بدور هام فى العبادة المائدية حيث تعرف باسم « كوشتا Kushta » [١].

خامسًا : المانوية :

المانوية : نسبة إلى « مانى بن فاتق » أو « مانى بن فاتك » ... وهى كديانة تعتبر امتداداً للزرادشتية ، وهى ديانة مركبة أى أنه اقتبس من ديانات أخرى وألف بينها ، فهى فى الأصل خليط مركب من الزرادشتية واليهودية والمسيحية وبعض الأساطير البابلية بالإضافة إلى بعض الأفكار والآراء الغنوصية .

من هو مانى مؤسس هذه الديانة ؟ :

ولد مانى ٢١٦ - ٢٧٤م من أسرة بارثية ملكية وقضى شبابه فى بلاد مابين النهرين التى كانت فى ذلك الوقت بوتقة تنصهر فيها كثرة من الديانات الرئيسية . ولد كما يقول هو عن نفسه فى قرية تعرف باسم « مردى نوس » بالقرب من بابل ، وكان والده يدعى فوتق بابك[٢].

فى وسط اجتماعى يلعب الدين فيه دوراً أساسيًا ترعرع مانى حيث « نشأ فى جنوبى بلاد بابل ، فى وسط طائفة عنطوسية معمدانية هى بلاشك الطائفة المندعية ، وهناك تلقى بوضوح مؤثرات كانت حاسمة بالنسبة لمستقبله » [٣].

---

١ - جفرى بارندر : مرجع سابق ، ص ١٢٨ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

٣ - جيو وايد نغرين : مانى والمانوية ترجمة وتعليق د. سهيل زكار ، دار حسان ، ١٩٨٥ ، ص ٤٢ .

ولما تم لمانى اثنتى عشرة سنة أتاه الوحى للمرة الأولى ، وكان هذا سنة ٢٢٨ - ٢٢٩ ويروى الفهرس بأن الوحى أتاه على قوله : « من ملك جنان النور ، وهو الله - تعالى عما يقوله - وكان الملك الذى جاءه بالوحى يسمى « التوم » وهو بالنبطية ، ومعناه القرين ، فقال له : اعتزل هذه الملة ، فلست من أهلها ، وعليك بالنزاهة وترك الشهوات ، ولم يأن لك أن تظهر ، لحداثة سنك » (١).

واستجاب مانى لأمر الملاك واعتزل الطائفة المعمدانية ، « فلما تم له أربع وعشرون سنة أتاه « التوم » (الملك أو القرين) فقال : « قد حان لك أن تخرج فتنادى بأمرك » (٢).

" وتذكر النصوص النبطية أنه تم منح مانى المعرفة الكاملة عند تبليغه بنبوته ، وتروى عنه قوله : « فى هذه السنة نفسها عندما كان الملك أردشير على وشك التتويج نزل الفارقليط الحى ، وكلمنى (للمرة الأولى) وأباح لى معرفة السر المحجوب عن عصور وأجيال بنى البشر ، السر العميق والعالى ، سر النور والظلام ، سر الصراع ، والحرب الماحقة ، كل هذا أباحه لى ... وهكذا أباح الفارقليط لى.وعلمنى كل ماكان وماسيكون » (٣).

وصل التفويض ببث الرسالة إلى العالم فى سنة ٢٤٠ - ٢٤١ م . حيث قال له الملك : "عليك السلام يا مانى ، منى ومن الرب الذى أرسلنى إليك ، واختارك لرسالته ، وقد أمرك أن تدعو بحقك ، وتبشر الحق من قبله ، وتحتمل فى ذلك كل جهدك " (٤).

" وتمشيًا مع نصيحة الملك ، أعلن مانى عن نبوته ، إلى والده وإلى أعضاء بارزين فى أسرته ، وضمن إيمانهم به وتحولهم إلى عقيدته " (٥).

نشر الدعوة :

بدأ مانى دعوته بعشيرته الأقربين ، ولما آمنوا به وبدعوته . رأى أن ينشر هذه الدعوة بين الأمم ، فذهب إلى الهند بسفينته ... ومن المحتمل أن رحلته لم تذهب به أبعد من إقليمى

---

١ - ابن النديم : الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت ، ص ٤٥٧ .

٢ - المرجع السابق نفس الصفحة .

٣ - جيو وايد نغرين : مرجع سابق ، ص ٤٣ .

٤ - ابن النديم : مرجع سابق ، ص ٤٥٧ .

٥ - جيو وايد نغرين : مرجع سابق ، ص ٤٥ .

مكران وتوران الفارسيين إضافة إلى المناطق الشمالية الغربية من الهند وقندهار (أى إلى المناطق التى تألفت منها باكستان) فقد كانت الأقاليم الشمالية الغربية من الهند واقعة منذ ذلك الحين ؛ أى فى حوالى سنة ١٣٠ ق.م تحت النفوذ الفارسى الشديد ... ففى هذه المناطق لربما كان مانى قادراً - على الأقل بين الأوساط العليا - على جعل نفسه مفهومًا بالتعبير عما كان يريده بلغته البارثية الأم .

ولم يقدر لنشاط مانى فى الهند أن يدوم طويلاً ، ولم يكن عليه أن يمكث هناك فترة تزيد عن السنة ، فقد جاء فى روايته قوله : " فى السنة التى توفى فيها الملك أردشير ، وأصبح ابنه شابور ملكًا ، وخليفة له ، أبحرت من بلاد الهنود إلى بلاد فارس ، وسافرت من بلاد فارس إلى بلاد بابل إلى ميسان وخوزستان .

انتقل مانى إلى إقليم « أشورستان » أى بلاد بابل الحقيقة ، وانتقل من هناك إلى أقاليم ميديا وبارثيا ، ونجح أثناء إقامته فى طيسفون فى إقامة علاقات مع الملك العظيم شابور ، وجرى استقباله من قبل الملك الجديد ، وحظى بثلاث مقابلات متتالية معه ، وحصل على هذه المقابلات بواسطة « فيروز » أخى الملك ، الذى كان مانى قد هداه إلى دينه الجديد أيضًا ، وكان برفقة مانى فى مقابلته الأولى للملك : أبوه ، واثنان من تلاميذه هما « شمعون » و «زكوا» (وكلاهما اسمان سريانيان) ، وقدم للملك بهذه المناسبة كتابه الأول « الشابورقان » (أى كتاب شابور) والذى هو - بالمناسبة - كتابه الوحيد الذى كتبه بالفارسية الوسيطة .

وتذكر المصادر المانوية أن شابور قد تأثر بعمق برسالة مانى ، ووافق على السماح له بنشر تعاليمه بكل حرية ، وفى كل مكان من الإمبراطورية ، ويقول مانى نفسه إن الملك العظيم قد بعث بتوجيهاته إلى السلطات المحيطة فى كل مكان لتقديم حمايتها للدين الجديد ، ويقصُّ علينا فى سيرته قائلاً : " مثلت أمام الملك شابور ، استقبلنى بحفاوة كبيرة ، ووافق على أن أتجول فى بلاده ، وأن أبشر برسالة الحياة ، وأمضيت كذلك ... أعوامًا معه بين حاشيته » ، ويروى ذكرياته عن مقابلته الأخيرة الحاسمة مع الملك العظيم قائلاً : " كان الملك شابور قلقًا على فكتب رسائل توصية ودفاع عنى إلى جميع الأشخاص البارزين ، بالعبارات التالية : ساعدوه ودافعوا عنه ، بحيث لايخالفه أحد ، أو يعتدى عليه » [1]هكذا لعب شابور دوراً

---

١ - المرجع السابق ، ص ٤٨ .

هامًا فى نشر دعوة مانى ومساندته بالإضافة إلى دور كل من فيروز ومهرشاه أخوى شابور فقد كان من أقوى أنصاره وأشدهم حماسًا .

خلاصة القول أن هذه الديانة « انتشرت أول الأمر فى بابل التى كانت مركز العقائد والديانات المختلفة ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى سورية وفلسطين وبلاد النبط (الشمال الغربى لبلاد العرب) ، ثم انتشرت فى مصر فيما بعد ، ومنها انتقلت إلى طرابلس وقرطاجنة ، وفى نفس الوقت راجت هذه الديانة فى بلاد الغال (فرنسا الحالية) وإيطاليا ، كما أن عدداً كبيراً فى بلاد الروم قد اعتنقها حتى القرن السادس الميلادى ، وقد بقى لهذه الديانة أتباع فى آسيا حتى عصر الخلفاء العباسيين » [١].

الكتب المقدسة فى هذه الديانة :

يقول جيو وايد نفرين : " كتب مانى باللغة السريانية ، واستخدم حروف الكتابة المطبقة فى بلاد بابل الجنوبية فى القرن الثالث ، ولم يوجد غير عمل كتابى واحد كتب بلغة أخرى ... هو المجلد المسمى « بالشابورقان » ثم يذكر بعد هذا القول أهم كتب الشريعة المانوية وهى :

١ - **الشابورقان** : أوقفه مانى على الملك العظيم شابور الأول ، وهذا المؤلف عرض مانى عقيدته فيه ، ومن محتوياته : تصور متداخل للكون ، وتصور للإيمان بالآخرة ، ثم خصص فصلاً للحديث عن " نزول رسل الله " وبين كيف أن الوحى قد نزل من السماء إلى الأرض بتجسيدات مختلفة ، وذكر بوذا وزرادشت ويسوع على أنهم سلف لمانى ، كما اشتمل على إشارة إلى ترجمة حياة مانى .

٢ - **الإنجيل الحى أو الإنجيل العظيم** : هذا الكتاب من الكتب التى دونها بالسريانية . وقد تم تقسيمه بشكل يتماشى مع عدد الأحرف فى الأبجدية السريانية إلى اثنين وعشرين سفراً . وقد أعلن فيه عن ذاته « أنه الفارقليط الذى بشر به المسيح وأنه خاتم النبيين » وقد افترض أن مانى قد أعد هذا الإنجيل وأودع فيه عقيدته بقصد أن يكون نظيراً بديلاً لإنجيل عيسى يلغى كل الأناجيل المسيحية المعترف بها ، ومن المحتمل أنه كان يفكر بإنجيل مسيحى واحد . وقد تم تنظيم هذا الإنجيل وتحريره من قبل « تاتين Tatten » الذى شغل دوراً بارزاً أثناء حياة مانى بين المسيحيين الناطقين باللغة السريانية .

---

١ - حسن بيرنيا : مرجع سابق ، ص ٣١٩ .

٣ - كنز الأحيـاء : يتألف هذا الكتاب من سبعة أسفار على الأقل ، وقد عالج الأفكار المانوية حول ماندعوه « الأنثروبولوجي والسايكولوجي » بما في ذلك تفسير ماني الأكثر تفصيلاً لموضوع أن الإنسان عالم صغير .

٤ - سـفـر الأسرار : يشتمل هذا السفر على ثمانية عشر بابًا ، وقد حوى هجومًا على خلفاء « ابن ديصان» .

٥ - سفر الجبابرة : في هذا الكتاب أقدم ماني على اقتباس أسطورة شرق أوسطية قديمة هي حكاية سقوط الملائكة ، ويقول ابن النديم : « يحتوي كتاب فرائض السماعين ، باب فرائض المختبتين » .

٦ - كتاب سفر الأحياء : ذكره ابن النديم .

٧ - كتاب فرقماطيا : ذكره ابن النديم [١].

٨ - كـفـالايا : يرتبط هذا الكتاب ارتباطًا وثيقًا بماني وقد تم نقله باللغة النبطية ، وبترجمة إغريقية ، ولابد أن هذا المصنف قد كان مجلداً كبيراً فيما مضى حوى - على الأرجح- أكثر من خمسمائة صفحة ، وقد أدعى أنه سجل لعقائد ماني وشروحه وإلهاماته[٢].

ويقدم ابن النديم عدداً كبيراً من رسائل ماني والأئمة من بعده [٣].

العقيدة المانوية :

يقدم ابن النديم أصول العقيدة المانوية على النحو التالي :

الألوهيـة : " قال ماني مبدأ العالم كونين ، أحدهما نور والآخر ظلمة ، كل واحد منهما منفصل من الآخر ، فالنور هو العظيم الأول ، ليس بالعدد ، وهو الإله ملك جنان النور ، وله خمسة أعضاء : الحلم، والعلم، والعقل، والغيب ، والفطنة . وخمسة أخر روحانية وهي : الحب، والإيمان ، والوفاء ، والمروة ، والحكمة . وزعم أنه بصفاته هذه أزلي ، ومعه شيئان اثنان أزليان ، أحدهما الجو ، والآخر الأرض . قال ماني : أعضاء الجو خمسة : الحلم ، والعلم، والعقل ، والغيب ، والفطنة . وأعضاء الأرض : النسيم ، والريح ، والنور ، والماء ، والنار .

---

١ - ابن النديم : مرجع سابق ، ص ٤٧٠ .

٢ - جيو وايد نغرين : مرجع سابق ، ص ١٠٢ -١٠٨ .

٣ - انظر : الفهرست : ص ٤٧٠ .

والكون الآخر هو الظلمة وأعضاؤها خمسة : الضباب ، والحريق ، والسموم والسم ، والظلمة . قال مانى : وذلك الكون النير مجاور للكون المظلم لاحاجز بينهما ، والنور يلقى الظلمة بصفحته ولا نهاية للنور من علوه ولايمنته ولايسرته ، ولانهاية للظلمة فى السفل ولافي اليمنة واليسرة »[١] . يقول جفرى بارندر : " أعلن مانى أنه هو الذى جاء ليتمم عمل زرادشت وبوذا والمسيح فهؤلاء جميعًا شذرات ناقصة من الحقيقة لكن حتى هذه الشذرات قد أفسدها أتباعه . ولقد وحد مانى ألهته بوصفه « رسول النور » مع آلهة المستمعين إليه ، فإذا ما وجه خطابه إلى المسيحيين فهو المخلص يسوع ، وعندما يخاطب الزرادشتيين ، فهو الإنسان الأول « أهورامازدا » . أما إله العهد القديم فقد كان مانى يبغضه ... وتكمن الثنائية فى قلب تعاليم مانى : فالله ، أب العظمة ، يعارضه أمير الظلام ، والاثنان عنصران أوليان"[٢].

كيف ينبغى للإنسان أن يدخل فى الدين ؟

يجيب مانى على هذا السؤال فيقول : « ينبغى للذى يريد الدخول فى الدين أن يمتحن نفسه : فن رآها تقدر على قمع الشهوة والحرص وترك أكل اللحمان وشرب الخمر والتناكح ، وترك أذية الماء والنار والسحر والرياء فليدخل فى الدين ، وإن لم يقدر على ذلك كله فلايدخل فى الدين . وإن كان يحب الدين ولم يقدر على قمع الشهوة والحرص فليغتنم حفظ الدين والصديقين ، وليكن به بإزاء أفعاله القبيحة أوقات يتجرد فيها للعمل والبر والتهجد والمسألة والتضرع ، فإن ذلك ينفعه فى عاجله وآجله ، ويكون صورته الصورة الثنائية فى المعاد »[٣] .

الشريعة :

" فرض مانى على أصحابه عشر فرائض على السامعين ، ويتبعها ثلاث خواتيم ، وصيام سبعة أيام أبدا فى كل شهر . فالفرائض هى : الإيمان بالعظائم الأربع : الله ونوره ، وقوته ، وحكمته ، فالله جل اسمه ملك جنان النور ، ونوره الشمس والقمر ، وقوته الأملاك الخمسة وهى : النسيم ، والريح ، والنور ، والماء ، والنار . وحكمته الدين المقدس ، وهو على خمسة معانى : المعلمين ، أبناء الحلم ، المشمسين أبناء العلم ، القسيسين أبناء العقل ، الصديقين

---

١ - ابن النديم : مرجع سابق ، ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

٢ - جفرى بارندر : مرجع سابق ، ص ١٢٩ .

٣ - ابن النديم : مرجع سابق ، ص ٤٦٥ .

أبناء الغيب ، السماعين أبناء الفطنة ، والفرائض العشر : ترك عبادة الأصنام ترك الكذب ، ترك البخل ، ترك القتل ، ترك الزنا ، وتعليم العلل والسحر ، والقيام بهمتين ؛ وهو الشك في الدين والاسترخاء والتواني في العمل » [١].

الصلاة : فرض ماني على أتباعه صلوات أربع أو سبع هي :

الصلاة الأولى عند الزوال ، والصلاة الثانية بين الزوال وغروب الشمس ، والصلاة الثالثة بعد غروب الشمس والصلاة الرابعة صلاة العتمة بعد غروب الشمس بثلاث ساعات .

الصوم : إذا نزلت الشمس القوس ، وصار القمر نوراً كله ، يصام يومين ، لايفطر بينهما ، فإذا أهل الهلال يصام يومين لايفطر بينهما ، ثم من بعد ذلك يصام إذا صار نوراً يومين في الجدي ، ثم إذا أهل الهلال ونزلت الشمس الدلو ، ومضى من الشهر ثمانية أيام يصام حينئذ ثلاثين يومًا يفطر كل يوم عند غروب الشمس .

الأخلاق : يمكن تلخيص جميع علوم الأخلاق المانوية الموصوفة للمستجيبين لمبادىء ماني في التواقيع Signacula الثلاثة المشهورة وهي :

التوقيع الأول : نظافة الفكرة والكلمة .

التوقيع الثاني : يحرم في المقام الأول أي عمل يمكن أن يضر بحياة النبات أو الحيوان فلم يسمح للمانويين القيام باجتثاث أي نبات أو قتل أي حيوان ، ويحظر أي تصرف يُعيق انتصار النور .

التوقيع الثالث : الامتناع التام عن المعاشرة الجنسية بما في ذلك التخلي عن الزواج[٢] .

سادسًا : المزدكية :

تنسب هذه الفرقة إلى مزدك ابن نامذان . الذي عاش نهاية القرن الخامس الميلادي في زمن قباذ بن فيروز والد أنوشروان العادل[٣] ... كانت ديانته قريبة جداً من عقيدة ماني وسار على منواله في كثير من مبادئه الفلسفية والدينية ؛ يقول ابن النديم أنه أمر أتباعه « بتناول

---

١ - المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٢ - جيو وايد نفرين : مرجع سابق ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

٣ - فخر الدين الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ص ١٤١ .

اللذات، والانعكاف على بلوغ الشهوات ، والأكل والشرب ، والمواساة والاختلاط ، وترك الاستبداد بعضهم على بعض ، ولهم مشاركة فى الحرم والأهل لايمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولايمنعه ، ومع هذه الحال فيرون أفعال الخير وترك القتل وإدخال الآلام على النفوس ، ولهم مذهب فى الضيافات ليس هو لأحد الأمم ، إذ أضافوا الإنسان لم يمنعوه من شىء يلتمسه كائنًا ماكان " (١).

« وفى رأيه أن العالم مركب من ثلاثة عناصر : الماء والنار والتراب ، والخير والشر من تركيبها . فالخير من قسم طيب والشر من قسم سيىء » (٢).

« أعلن وجوب اعتناق الشيوعية المغالية وصرح بأنها هى وحدها الوسيلة إلى إبادة الشر ، إذ الحقد الذى يأكل قلوب بنى الإنسان ، والحرب التى تمزق أشلاء أحد الأخوين بيد الآخر لامصدر لهما إلا الأموال والنساء ، فإذا ألغيت الملكية وأبيد الزواج وأصبح المال والمرأة مباحين لجميع الأفراد بلا قيد ولاشرط ، طهرت القلوب من الحقد إلى الأبد ، ووضعت الحرب أوزارها إلى نهاية الوجود ، وهو كما يبغى أن تباح الأموال والنساء ، يريد كذلك أن لايختص أحد بطقوس دينية دون الآخرين حتى تزول جميع الفروق والاختصاصات التى هى منشأ كل بلاء فى هذا الكون » (٣).

وكانت نهاية مزدك على يد أنوشروان الذى قتله وأتباعه نتيجة لآرائه .

بهذا نكون قد انتهينا من ذكر ديانات فارس « إيران القديمة » . وهى ديانات تأثرت كثيراً بالديانات الآرية والهندية وانتشرت فى بلاد كثيرة خاصة فى دول آسيا ، كما أنها أثرت فى كثير من الفرق والتيارات الدينية مثل اليهودية والمسيحية وبعض فرق الإسلام ، إلا أن الإسلام قد هدمها وأتى عليها جميعًا .

---

١ - ابن النديم : مرجع سابق ، ص ٤٧٨ .

٢ - حسن بيرنيا : مرجع سابق ، ص ٣٢٠ .

٣ - د. غلاب : مرجع سابق ، ص ٢٠٣ .

الفصل الرابع

أديان الصــين

أولاً : مقدمة :

تعد الحضارة الصينية من أقدم وأعرق الحضارات الإنسانية وقد أشاد الباحثون بهذه الحضارة وبالشعب الذى انتجها وقدمها للإنسانية . قال فيهم « ديدروا » : « أولئك قوم يفوقون كل من عاداهم من الآسيويين فى قدم عهدهم ، وفى فنونهم ، وعقليتهم ، وحكمتهم ، وحسن سياستهم ، وفى تذوقهم للفلسفة ، بل إنهم فى رأى بعض المؤلفين ليضارعون فى هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوربية وأعظمها استنارة » وقال ڤلتير : Voltaire « لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغير يذكر فى القوانين ، أو العادات ، أو اللغة ، أو فى أزياء الأهلين ... وإن نظام هذه الإمبراطورية لهو فى الحق خير ماشهده العالم من نظم » .

وقال الكونت كيسر لنج Count Keyserling : " لقد أخرجت الصين القديمة أكمل صورة من صور الإنسانية ، وكانت فيها صورة مألوفة عادية ... وأنشأت أعلى ثقافة عامة عرفت فى العالم كله ... وإن عظمة الصين لتتملكنى وتؤثر فى كل يوم أكثر من الذى قبله ... وإن عظماء بلادنا ... وإن أولئك السادة لهم طراز سام من البشر ... وسموهم هذا هو الذى يأخذ بلبى ... إن تحية الصينى المثقف لتبلغ حد الكمال ! ... وليس ثمة من يجادل فى تفوق الصين فى كل شأن من شئون الحياة ... ولعل الرجل الصينى أعمق رجال العالم على بكرة أبيهم " [(١)].

ويقول « جفرى بارندر » : " تقف الصين وحدها وسط حضارات العالم العظيمة ، قد تطورت فى عزلة تامة ، تقريبًا ، عن بقية الحضارات ، ولهذا كانت إنجازاتها فريدة ، وهذه الخاصية الفريدة جعلتها فى آن معًا ممتعة لمن يشاهدها ، محيرة لمن يحاول فهمها ، أجل فقد تطورت الصين بنفسها وساعدتها على ذلك عزلتها الجغرافية عند النهاية الشرقية القصوى

---

١ - ديورانت : مرجع سابق ، جـ ٤ ، ص ٩ ، ١٠ .

(فى الطرف الشرقى الأقصى) من العالم الأوربى الآسيوى القديم ، تحيط بها جبال وصحراء ولاتمر بها أية طرق تجارية »[١] وقال « جون كولر » : « تقوم الحضارة والثقافة الصينيان على أساس فلسفى تشكله فى المقام الأول ، مبادىء الكونفوشية والتاوية والكونفوشية الجديدة ، وقد قامت هذه الفلسفات الثلاث بتشكيل حياة الشعب ومؤسساته ، وكانت مصدر إلهام لها عبر مايزيد على خمسة وعشرين قرنًا من الزمان ، وكانت الفلسفة الصينية ، التى أكدت على أهمية المحافظة على الحياة الإنسانية العظيمة ورعايتها مرتبطة أوثق الارتباط بالسياسة والأخلاق ، واضطلعت بمعظم وظائف الدين ، ومن هنا فإن دراسة الفلسفة الصينية هى دراسة لها قيمتها ، ليس بسبب جدارتها الجوهرية فحسب ، وإنما كذلك بسبب الاستبصارات التى تجعلها ممكنة للعقل الصينى »[٢].

هذه خمس شهادات لمفكرين غربيين تجمع على قيمة الفكر الصينى القديم وتصور عظمة النتاج الحضارى ومكانته فى التاريخ .

كيف كانت البداية ؟

ليس هناك اتفاق أو إجماع بين المؤرخين على تحديد البدايات الأولى للفكر الصينى . وعلى الرغم من ذلك فقد بذلت محاولات لتحديد نشأة هذا الفكر تعتمد على الترجيح لا على القطع واليقين . يقول الأستاذ فؤاد شبل : " يبدأ تاريخ الصين بظهور خمسة أباطرة أسطوريين ، اعتبرهم الصينيون أنصاف آلهة وعبدوهم ، ونسبوا إليهم كشف الزراعة وتنظيم الرى ، وابتكار الأدوات الزراعية ، والمركبات ذات العجلات ، والقوارب ... وغيرها من المنجزات الحضارية ، واعتبرهم « كونفوشيوس » ومريدوه ، أبطال أزهر عصور الماضى المجيد .

ثم تلاهم الإمبراطور « ياو » أول حاكم بشرى حكم الصين (٢٣٥٧ - ٢٢٥٦ ق.م) ... وخلف هذا الحاكم وزيره القدير « شون » (٢٢٥ - ٢٢٠٦ ق.م) الذى خلفه الإمبراطور «يو» مؤسس أول أسرة مالكة صينية عرفت باسم « هسيا » لبثت تحكم حتى عام ١٧٦٦ ق.م ... وخلفتها أسرة « شانج » (وتعرف كذلك بأسرة «ين» التى بدأ حكمها عام ١٧٦٦ ق.م وانتهى عام ١١٢٣ق.م) هذا هو الرد المأثور للتاريخ الصينى العتيق كما يورده المؤرخون

---

١ - جفرى بارندر : مرجع سابق ، ص ٢٦٧ .

٢ - جون كولر : مرجع سابق ، ص ٣٢٥ .

الصينيون ، لكن مابرحت التواريخ السالفة الذكر محل نقاش وجدل »[١] أما عن التاريخ الذى يجمع عليه الباحثون فى الصين فهو عام ٧٧٦ ق.م س إذ يسجل الصينيون وقت ذاك حدوث كسوف شمسى ، كما ظهر فى هذا العام أول كتاب من المأثورات الصينية يعرف باسم « كتاب الأغانى » .

وبينما كانت الحضارة الصينية تتدرج فى معراج التقدم والارتقاء ، إذا بالبدو المغول يهاجمون عاصمة أسرة « تشو » وينهبونها ، ويعزلون الملك ، فكان أن انتقل مركز الحكم إلى مدينة تعرف الآن باسم « لويانج » فى « هونان » ... ويعتبر عام ٢٢١ ق.م ، بداية تفجر طاقات الصين الإبداعية فى ميدانى الاجتماع والاقتصاد .

وتتميز فترة الدول المتحاربة بالنشاط الفلسفى ، نشاط لانجد له نظيراً فى العالم بأسره ، اللهم إلا فى اليونان القديمة ، فكان آلاف الأساتذة - ممن ينتسبون إلى مختلف المدارس الفلسفية - يذرعون البلاد طولاً وعرضاً ، يعرضون خدماتهم الفكرية على مختلف الحكام .

وفى عام ٢١٣ ق.م أمر الإمبراطور « تشين شيه - هوانج » بإحراق جميع الكتب ، فكان أن أصيبت المدارس الفلسفية المزدهرة بضربة قاضية عطلت تطورها في طريق التقدم .

ثار الشعب الصينى على ذلك الإمبراطور المغولى الجاهل ، ونصب مكانه أسرة « هان » (٢٠٦ ق.م - ٢٢٠م) . واتصف حكمها باستقرار أحوال الصين الحضارية ، فسنت القوانين ، ووضعت نظام الاختيار للالتحاق بالوظائف العامة ، وصيغت التنظيمات الاجتماعية والسياسية التى ظلت قائمة دون تغيير جوهرى ، حتى تسلك النظام الشيوعى الحكم عام ١٩٤٩ .

وانبنى على توقف التطور الفلسفى ... سيطرة أفكار « كونفوشيوس » ومريديه على الفكر الصينى - بصفة جوهرية - »[٢] .

هذا عن تطور الحياة الفكرية فى الصين . فماذا عن الدين ؟

---

١ - فؤاد شبل : حكمة الصين ، جـ ١ ، دار المعارف بمصر ، ص ٢٠ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٢١ ، ٢٢ .

الدين عند الصينيون القدماء :

لقد شهدت الحياة الدينية فى الصين تطوراً يشبه إلى درجة كبيرة ماحدث فى الهند وفارس. ويحدثنا « د. كريمر » عن تطور الدين فى الصين فيقول : " يدرك دارس الديانة الصينية أن هناك فارقًا بين آلهة الصين التقليدية (التى تنتهى بسقوط أسرة هان عام ٢٢٠م) وتلك التى أعقبت العصور التقليدية . إذ أن الثانية أكبر عدداً وأكثر تنوعًا من حيث الأصل (بوذية وتاوية أو عبادات محلية متعددة) . كانت آلهة الصين القديمة - بالمقارنة - أقل عدداً ، وتتمثل نادراً جداً أو لاتتمثل أبداً فى الفن ، كما توصف عامة بدرجة من الغموض أو الإيجاز فى النصوص بحيث تظل شخوصها بل ونوعها - ذكر أم أنثى - على غير يقين ، ويبدو معهم جنبًا إلى جنب من ناحية أخرى - عدد وافر من الشخوص التى تبدو لأول وهلة أنها كائنات إنسانية ، وإن تبين بالفحص الدقيق أنها تكشف عما هو أكثر من المزايا البشرية العادية ، فهى آلهة أو أنصاف آلهة نزعت عنها »[١] .

وإذا كانت الشعوب القديمة قد شاع فيها عبادة قوى الطبيعة ، فكذلك كان « الصينيون عبدة للطبيعة تمامًا كأغلب الشعوب القديمة ... وأهم عناصر تلك العبادة الخوف من خوارق الطبيعة ، وعبادة الأرواح الكامنة فى جميع الأنحاء ، وتقديس ماعلى الأرض من صور رهيبة ومالديها من قدرة على الإنتاج والتوالد ، وخشية السماء وعبادتها وإجلال مافيها من شمس منعشة وأمطار مخصبة ، بل لقد كان الصينيون يعدون الشمس والمطر من عناصر الوئام والارتباط بين مافوق الأرض من حياة وما فى السماء من قوى خفية قادرة ... ومن هنا عبدوا الريح والرعد والأشجار والجبال والأفاعى .. وآمنوا بأن لكل من هذه المقدسات روحًا يجب أن تعبد ... وأصبحت أعظم أعيادهم هى الأعياد التى تقام لمعجزة « النماء » .. حيث يحتفل الشبان والفتيات بأيام الربيع فيرقصون ويتضاجعون فى الحقول وفى الخلاء ليضربوا المثل لأمهم الأرض فى الإخصاب والإنجاب »[٢] .

" وكانت الأرض والسماء فى هذا الدين البدائى مرتبطتين إحداهما بالأخرى ، لأنهما شطران من وحدة كونية عظيمة ، وكانت صلة إحداهما بالأخرى أشبه ماتكون بصلة الرجل

---

١ - د. صمويل كريمر : مرجع سابق ، ص ٣٢٩ .

٢ - سليمان مظهر : مرجع سابق ، ص ١٧٦ .

والمرأة وصلة السيد بالتاج واليانع بالين ، وكان نظام السموات ومسلك الآدميين الخلقى عمليتين متقاربتين متشابهتين لأنهما شطران من نظام عالمى لاغنى عنه يسمى « دو » - أى الطريقة السماوية - وليست الأخلاق الطيبة فى اعتقادهم إلا نتيجة للتعاون القائم بين أجزاء هذا الكل شأنها فى هذا شأن القوانين التى تسير نجوم السماء . وكان الإله الأكبر هو هذه السماء العظمى نفسها ، هذا النظام الأخلاقى ، هذا الترتيب القدسى ، الذى يشمل بين طياته الناس والجماد ويحدد العلاقات الحقة بين الأطفال وآبائهم ، والزوجات وأزواجهن ، وبين الأتباع وسادتهم ، والسادة والإمبراطور ، والإمبراطور والإله ، لقد كان هذا تفكيراً عجيبًا ولكنه تفكير نبيل يتأرجح بين التجسيد الشخصى حين يصل الشعب « لتين » - للسماء المعبودة - والتجريد حيث يتحدث الفلاسفة عن جماع تلك القوى - الشديدة البعيدة عن قوة البشر فرادى أو مجتمعين - التى تسيطر على السماوات والأراضين والناس . ولما تقدمت دراسة الفلسفة أضحت فكرة « السماء » الشيئية مقصورة على عامة الشعب ، أما فكرتها المجردة غير الشيئية فأضحت عقيدة الطبقات المتعلمة ودين الدولة الرسمى » [1].

على أساس هذا التقسيم صار لدينا عقيدة خاصة بعامة الناس وأخرى للخاصة .

« تتكون عقيدة العامة عند الصينيين من أقدم عصورهم من عبادة الأرواح الخفية والقوى الغامضة التى كانوا يشاهدون آثارها دون أن يدركوا كنهها على نحو ما فعلت جميع الشعوب الغابرة . وكانت هذه الأرواح المعبودة مؤلفة من نوعين :

أرواح الموتى من آباء وأجداد وغيرهم ، وتسمى عندهم بالـ « كوى » وأرواح القوى الطبيعية مثل الشمس والقمر والكواكب . وتسمى عندهم « شين » وكانت هذه الأرواح بنوعيها تنقسم من حيث المكان إلى قسمين : الأرواح العليا أو السماوية ، وهى جميع الكواكب أو النجوم ، والأرواح الدنيا أو الأرضية مثل الأنهار والبحيرات والمنابع والغابات والمروج والأودية والجبال والتلول والربوات ، وتندرج فى هذا القسم الأدنى أو الأرض أرواح الموتى كذلك » [2] .

---

١ - ديورانت : مرجع سابق ، جـ ٤ ، ص ٢٥٧ .

٢ - د. غلاب : مرجع سابق ، ص ٢١٧ .

أما عقيدة الخاصة : " كان الخاصة يعبدون السماء لما يرونه بعين الفكر كامنًا فيها من قوة معنوية لها كل السلطان على الأرض ومافيها ... تحصر العبادة فى السماء أو فى « شانج – تى » أى السلطان الأعظم .

لم تكن عقيدة الخاصة هذه مستحدثة فى العصور المتأخرة ، وإنما هى قديمة جداً ، إذ نراها مسطرة فى أقدم فصول كتاب « إى – كينج » ولقد كانت الرياسة فى هذه العبادات الراقية مقصورة على الملك الذى كان يُسمى « تى » أى السلطان ، وكانوا يلقبونه أيضًا (بابن السماء) وقد تطورت هذه الرياسة فى العصور المتأخرة فتجاوزت الملك إلى حكام المقاطعات والأقاليم .

لم تكن عقيدة الخاصة مجرد عبادات وطقوس دينية فحسب ، وإنما كانت ممتزجة بتفكيرات قيمة حول الكائن من حيث هو كائن ، وتحليلات لابأس بها للقوى الطبيعية : السماوية والأرضية التى كانوا يشاهدون آثارها ، وكان ذلك مقصوراً على الخاصة ومحرمًا على العامة تحريمًا قاسيًا ... وكان حكماؤهم يقولون : " ليس من العقل أن نسلم إلى الجمهور الأداة التى يسيء استعمالها ، والتى قد تجرحه فترديه قتيلا » .

كان أولئك الخاصة من أقدم العصور يسندون التأثير فى جميع الكائنات إلى قوتين عظيمتين : السماء والأرض ، ولكن كانوا يرون فى السماء وحدها السلطان الأعلى اللامحدود القوة ، وكانوا يعتقدون أن السماء نفسها كائن حى متحرك بالإرادة وبعبارة أدق : أن السماء هى العالم الحى المتحرك حسب نظام دقيق عجيب ، وأنها هى كل الكون ، وأن الأرض وجميع ما عليها من خصوبة وتناسل ومظاهر أخرى ليست إلا رمزاً تمثيليًا من رموز السماء ، وقد كانت الأرض هى الرمز النسوى للسماء ، لما يظهر على سطحها من خصوبة ونباتات ، ولكن ليس معنى هذا أن خاصة الصينيين كانوا يعتقدون – كما اعتقدت بعض الشعوب الأخرى القديمة – أن الكائنات تناسلت من زواج السماء مع الأرض ، كلا ، وإنما كانوا يعتقدون بالوحدة المطلقة ، وبأن الأرض ليست إلا مظهراً للسماء بحيث يستحيل تصور فصلها عنها ، كما تستحيل تثنيتهما فى الحقيقة ، لأن كل واحدة منهما هى الأخرى ، وهى أصل جميع الكائنات فى نفس الوقت .

ولئن وجدنا فى كتاب « إى كينج » أن عناصر الوجود الإيجابية مستقرة فى السماء ، وعناصره السلبية موجودة فى الأرض مثلاً ، وأن الأرض تدعى بالأميرة المخصبة ، فليس معنى هذا هو التثنية الحقيقية ، وإنما هى رموز لا أكثر ولا أقل [١].

تلك هى أهم عناصر العقائد الصينية القديمة سواء بين العامة أو الخاصة وهى لاتفترق كثيراً عما كان شائعًا بين الشعوب القديمة فى آسيا . وإن كنا نلمس بعض المميزات والخصائص التى تتميز بها عن غيرها .

خصائص الفكر الدينى الصينى :

للديانة الصينية خصائص تنفرد بها عن باقى ديانات العالم القديم من أهمها :

١ - تمتاز العقيدة الصينية عن عقائد الشعوب الأخرى بالمغالاة فى تقديس الأجداد إلى حد لم يعرف له نظير عند الأمم الغابرة .

٢ - الإغراق فى تقديس الأرض وعبادتها حتى كانوا يطلقون عليها اسم القوة المحسنة التى « تتسلم البذور لتردها ثماراً مضاعفة »[٢] .

٣ - أن الأديان فى الصين ليست محدودة مانعة ، ولم تدفع البلاد فى يوم من الأيام إلى الحروب الدينية ، فأنصار كل دين فى تلك البلاد متسامحون عادة مع أهل كل دين آخر .

٤ - لم يعرف التاريخ نفسًا أشد دنيوية من الصينى ، فأكبر ما يهتم به أن يعيش بخير فى هذه الحياة الدنيا ، وإذا صلى فإنه لا يطلب فى صلاته أن ينال نعيم الجنة بل يطلب الخير لنفسه فى هذا العالم الأرضى[٣] .

٥ - قبول الواقع الإنسانى وبنوع من التفاؤل والأمل ليس متوفراً فى ديانات الهند التى تسودها النظرة التشاؤمية ويبدو هذا فى قضية الشقاء والمعاناة التى اعتبرت قضية الإنسان الكبرى فى ديانات الهند بينما اختفت هذه القضية فى ديانات الصين . فهناك اعتراف بالواقع الإنسانى على ماهو عليه وأمل فى تحسين هذا الواقع وفق قوانين أخلاقية لتنظيم السلوك الإنسانى .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

٣ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٢٦٣ .

٦ - إن ديانات الصين تميل إلى الحكمة والعبر أكثر من الميل إلى التحليل الفلسفى العميق الموجود فى الديانات الهندية . وربما يرتبط هذا بالإتجاه إلى العالم والدنيا وتحقيق السعادة فيها من خلال الحكمة العملية التى تعين على فهم الحياة بدلاً من التركيز على الفهم والتحليل النظرى لطبيعة الكون . ورغم الاهتمام بالفلسفة ووجود فلاسفة فالانشغال واضح بمسائل الأخلاق أكثر من الاهتمام بأمور المنطق والميتافيزيقا ومشاكل المعرفة .

٧ - يظهر الفكر الدينى الصينى اهتمامًا كبيراً بالأسرة كمؤسسة اجتماعية أساسية وهو فى هذا يشترك مع الفكر الشرقى عمومًا ، لكن يتجاوز الفكر الصينى الاهتمام العام إلى اهتمام خاص يجعل من الأسرة مصدر دلالة وتوجهات القيم الاجتماعية الرئيسية . فالأسرة الصينية لاتقوم على الأساس الفردى المسيطر فى نظام الأسرة الغربية ولكنه يعتمد على النظام الجماعى بمعنى العائلة الكبيرة المشتركة التى تجمع بين أحضانها عدة أجيال مابين أبناء وآباء وأجداد بزوجاتهم وأبنائهم وأقاربهم المعتمدين عليهم . وتقع المسئولية على أكبر الذكور . وهناك وحدة اجتماعية أكبر من وحدة الأسرة بهذا المفهوم السابق وهى وحدة العشيرة التى تضم عدداً من الأسر التى تعود إلى نسب واحد . وتعكس الأخلاقيات الصينية نوعًا من التدين أو التقوى الأسرية أو مايمكن تسميته تجاوزاً بعبادة الأسرة .

٨ - اكتسب الحاكم فى الديانة الصينية وضعًا خاصًا فى الدين والأخلاق ؛ فالحاكم ليس مجرد المدبر لشئون الدولة ولكنه يقوم أيضًا بأداء بعض المراسم الرئيسية . وهو بمثابة الأب للعائلة الكبيرة التى هى الدولة ، وهو ابن السماء أو النموذج الأول على الأرض للنظام الأخلاقى للعالم ، فإذا كان سلوكه مناسبًا وأخلاقيًا فالدولة فى أحسن أحوالها ، ولكن إذا فشل فى أن يكون النموذج الأخلاقى ففى هذا تهديد للنظام الاجتماعى واستدعاء الكوارث ، وتشويه لفيض القوى الكونية ، ومن المحتمل وقوع البلايا بالشعب كدليل على عدم الرضا السماوى ، وباختصار فإن الحاكم السياسى يقوم بدور دينى وأخلاقى بالإضافة إلى دوره الإدارى الخاص بتسيير أمور الدولة [١].

أهم ديانات الصين :

شهدت الصين ثلاث ديانات لعبت الدور الرئيسى فى الحياة الدينية على مدى ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الصينى ، وهذه الديانات هى : الكونفوشية ، والتاوية (الطاوية) والبوذية .

---

١ - د. محمد خليفة : مرجع سابق ، ص ١١٢ - ١١٦ .

وسـوف نعرض فى هـذه الدراسة للديانة الكـونفـوشية والديـانة التاوية باعتبارهما ديـاناتين قوميتين :

أولاً : الكونفوشية :

الكونفـوشيـة هى أقـدم المدارس الكثيـرة التى تتألف منها المدارس المائة فى الصين ، وقد قدمت هذه المدرسـة ديانة سادت على كل الديانات السـابقـة والمعاصرة لها فى الصين . يقول فؤاد شبل : " إذا كانت الصين قد تعرضت لمختلف التيـارات الفكرية من فلسفيـة ودينية - لاسيـما التـاوية والبوذية - فإن سيطرتها على الذهن الصينى وتأثيرها على اتجاهات البلاد الفكرية ، كان وقـتيًا . فسرعـان ماحط عليها النسيـان ، على حين صمد المنحى التـفكيرى الكونفوشيـوسى لعاديات الزمن ، وظل يهيـمن على الفكر الصينى منذ تسليـم الجميع بغلبته إبان القرن الثانى الميلادى . وقد يعتنق الصينى البوذية أو التـاوية أو الإسلام أو المسيحية ، لكن يظل فى جوهره كونفوشيوسيًا . إذ ليست الكونفوشيوسية مجرد معـتقد يقر به المرء أو يلفظه ، فهى قد غدت جزءًا لايتجزأ من المجتمع ، وقسمًا ملتصقًا بفكر الأمـة كمجموعة ، بل لقد أضحت المعنى المقصود من كلمة «صينى » وليـست المصنفات الكونفوشيوسيـة مجرد شريعة طائفة معينة وسننها ، لكنها التراث الفكري لشعب بأسره " [١].

إذن فالكونفوشوسية هى أم الديانات الصينية وأكثرها انتشاراً إذ تمثل العمق الدينى داخل كيان الفرد الصينى بل والأمة الصينية .

كنفوشيوس : (٥٥١ ق.م - ٤٧٩ ق.م) :

يتكون اسم كنفوشيـوس وهو الاختصـار اللاتينى « Confecious » لاسـم الحكيـم الذى نتحدث عنه ، منه لفظين : « كنج Kung » وهو اسم القبيلة التى ينتمى إليها الحكيم ، ثم فـوتسى « Futze » ومعناه الرئيس أو الفيلسوف ، فاسم كنفوشيوس إذا يعنى رئيس قبيلة «كنج » وفيلسـوفـها أو حكيـمـها ، ولقـد ولد هذا الحكيم سنة ٥٥١ ق.م فى ولاية « لو LU» [٢].

---

١ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ٦٣ .

٢ - أحمد محمد الشنوانى : كتب غيرت الفكر الانسانى ، سلسلة الألف كتاب الثانى رقم ٨٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٠ ، ص ١٨ .

" وتصف الأقاصيص الصينية ، وهى التى لاتضارعها أقاصيص أخرى فى خصب خيالها ، كيف أعلنت الأشباح إلى أمه الشابة مولده غير الشرعى ، وكيف كانت الهولات التى تحرسها والأرواح الأنات تعطر لها الهواء وهى تلده فى أحد الكهوف . وتقول تلك الأقاصيص أنه كان له ظهر تنين ، وشفتا ثور ، وفم فى سعة البحر ، وأنه ولد من أسرة هى أقدم الأسر الباقية على قيد الحياة إلى الآن لأنه (كما يؤكد علماء الأنساب الصينيون) من نسل الإمبراطور العظيم « هوانج - دى » وإن له أحفاداً كثيرين .

وكان والد « كونج » فى السبعين من عمره حين ولد له ولده ، ومات حين بلغ ابنه سن الثالثة ، وكان كنفوشيوس يعمل بعد الفراغ من المدرسة ليساعد على إعالة والدته ، ولعله قد تعود فى طفولته تلك الرزانة التى هى من خصائص كبار السن ، والتى لازمته فى كل خطوة خطاها طوال حياته . لكنه مع هذا وجد متسعًا من الوقت يحذق فيه الرماية والموسيقى ، وبلغ من شدة ولعه بالموسيقى أنه كان يستمع مرة إلى لحن مطرب ، فتأثر به تأثراً حمله على أن يمتنع عن أكل اللحوم . وظل بعدئذ ثلاثة أشهر لايذوق فيها اللحم أبداً . ولم يكن يتفق اتفاقًا تامًا مع « نيتشه » فى أن ثمة شيء من التناقض بين الفلسفة والزواج ، ذلك أنه تزوج فى التاسعة عشرة من عمره ، ولكنه طلق زوجته وهو فى الثالثة والعشرين ، ويلوح أنه لم يتزوج بعدها أبداً » [١].

قلنا أنه تزوج فى التاسعة عشرة من عمره وفي ذات السن " التحق بوظيفة أمين لمخازن غلال بحكومة تلك الدولة ، ثم شغل وظيفة ملاحظ أراضى الدولة . وبعد مامر بطائفة من التجارب - موضع شك من الناحية التاريخية - عين عام ٥٠١ ق.م رئيس وزراء دولة « لو LU » وكان نجاحه - كما تدعى السجلات التاريخية الصينية - ساحقًا إلى درجة خشية دولة « تشى » «Ch'i» المجاورة ، استفحال نفوذ دولة « لو LU » بفضل إدارة « كنفوشيوس » الحيكمة . فكان أن عملت على إفساد تأثير حكمة « كنفوشيوس » فأرسلت إلى حاكم الدولة فرقة من أجمل الراقصات فافتتن بها ، فأهمل شئون مملكته ، فأصيب كنفوشيوس بقنوط بالغ، فاستقال من وظيفته وجمع حوله مريديه وطفق - منذ عام ٤٩٧ ق.م - يجوب أرجاء دولة الصين الإقطاعية فتعرض لمشاق وأخطار لامكان لتفصيلها هنا . وأخيراً استقر به المطاف فى

١ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٤١ .

مسقط رأسه بعد تجوال استمر ثلاثة عشر عامًا ، فمكث هناك ثلاثة أعوام يلقى الدروس على مريديه ، ومات عام ٤٧٩ ق.م ودفن بمقاطعة « تشوفو » ولايزال قبره يزار حتى الآن .

ولقد وصف كنفوشيوس نفسه بأنه وقتما كان شابًا يافعًا ، كان « لا شأن له ولا مكانة ، يعيش فى ظل ظروف ذليلة » . فكان عليه أن يعمل ليقيم أوده فى حرف أغلبها حقير وضيع، إلا أنه دأب على تثقيف نفسه ذاتيًا » [١].

" ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره بدأ يشتغل بالتعليم ، واتخذ داره مدرسة له ، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من الرسوم مهما كانت قليلة وكانت المواد التى يشملها برنامجه ثلاثًا : التاريخ والشعر ، وآداب اللياقة . ومن أقواله : " إن أخلاق الرجل تكونها القصائد وتنميها المراسم " (أى آداب الحفلات والمجاملات) « وتعطرها الموسيقى »[٢].

وكان « كنفوشيوس » يعلم « كتعليم سقراط شفهيًا لايلجأ فيه إلى الكتابة ، ولهذا فإن أكثر مانعرفه من أخباره قد وصل إلينا عن طريق أتباعه ومريديه ، وذلك مصدر لايوثق به ، وقد ترك إلى الفلاسفة مثلاً - قل أن يعبثوا به - وهو ألا يهاجموا قط غيرهم من المفكرين ، وألا يضيعوا وقتهم فى دحض حججهم . ولم يكن يعلم طريقة من طرائق المنطق الدقيق ، ولكنه كان يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم فى رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة العقلية .

ولم يكن يشك فى أن صنفين اثنين من الناس هما وحدهما اللذان يستطيعان أن يفيدا من تعاليمه وهما : أحكم الحكماء ، وأغبى الأغبياء ، وأن لا أحد يستطيع أن يدرس الفلسفة الإنسانية بأمانة وإخلاص دون أن تصلح دراسته من خلقه وعقله « وليس من السهل أن نجد إنسانًا واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح إنسانًا صالحًا » ، ولم يكن له فى بادىء الأمر إلا عدد قليل من التلاميذ ، ولكن سرعان ما تواترت الإشاعات بأن وراء شفتى الثور والفم الواسع كالبحر قلبًا رقيقًا وعقلاً يفيض بالعلم والحكمة ، فالتف الناس حوله حتى استطاع فى آخر أيام حياته أن يفخر بأنه قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا منزله ليشغلوا مراكز خطيرة فى العالم [٣].

١ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ٦٤ ، ٦٥ .
٢ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٤١ .
٣ - المرجع السابق ، ص ٤٢ .

وكان كنفوشيوس معلمًا من الطراز القديم يعتقد أن التنائى عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم ، وكان شديد المراعاة للمراسم ، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه ، وكان يبذل مافى وسعه للحد من قوة الغرائز والشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة الصارمة ، ويلوح أنه كان يزكى نفسه فى بعض الأحيان ... إنه كان متواضعًا فى عظمته ، ويؤكد لنا تلاميذه أن « المعلم كان مبرأ من أربعة عيوب : كان لايجادل وفى عقله حكم سابق مقرر ، ولايتحكم فى الناس ويفرض عليهم عقائده ، ولم يكن عنيداً أو أنانيًا . وكان يصف نفسه بأنه « ناقل غير منشىء » وكان يدعى أن كل مايفعله هو أن ينقل إلى الناس ما تعلمه من الإمبراطورين العظيمين « يو » و « شون » ، وكان شديد الرغبة فى حسن السمعة والمناصب الرفيعة ، ولكنه لم يكن يقبل أن يتراضي على شىء مشين ليحصل عليهما أو يستبقيهما ، وكم من مرة رفض منصبًا رفيعًا عرضه عليه رجال بدا له أن حكومتهم ظالمة وكان مما نصح به تلاميذه أن من واجب الإنسان أن يقول : « لست أبالى مطلقًا إذا لم أشغل منصبًا كبيراً ، وإنما الذى أعنى به أن أجعل نفسى خليقًا بذلك المنصب الكبير ، وليس يهمنى قط أن الناس لايعرفوننى ولكننى أعمل على أن أكون خليقًا بأن يعرفنى الناس » مات كنفوشيوس فى الثانية والسبعين من عمره [١].

الكتب المقدسة فى الصين :

القسم الأول : ويشتمل على كتاب الملوك الخمسة ويتكون من خمسة أجزاء هى :

الجزء الأول : الملك يه (Yih-King) : يرجع تاريخه إلى سنة ١٢٠٠ ق.م يشتمل هذا الكتاب على أفكار ترمز إلى آراء خلقية وروحية وسياسية . والظاهر أنه كان أول الأمر يستخدم فى الأغراض الدينية فحسب ، ولكن أضيفت إليه بعض الحواشى التى تنسب إلى كنفوشيوس والتى جاء بها معاصر له قصد تنقيحه وإخراج معانيه .

الجزء الثانى : الملك « شو Shu-King » أو كتاب التسجيلات يرجع تاريخه إلى سنة ٢٤٠٠ ق.م ، ويتضمن على نصوص قديمة تعد من أقدم النصوص التى نعرفها ، وهو يتضمن مجموعة من الوثائق التاريخية القديمة ، وسواء صحت نسبة هذا الكتاب إلى كنفوشيوس أو لم تصح ففيه نصوص تشير بوضوح إلى الاعتقاد فى حكومة فاضلة يهيمن عليها مبعوث إلهى كريم .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

الجزء الثالث : الملك « شى Shi-King » أو كتاب الأناشيد : وكثير من أناشيد أو أغانى هذا الكتاب يبدو فيه الطابع الاجتماعى أظهر من الطابع الدينى ، وهذا ناتج من طابع الصينيين الذين كانوا كالسومريين الذين كانوا يضعون التراتيل لآلهتهم ، والظاهر أن بعض هذه الأناشيد كانت ترتل عند تقديم القربان العظيم لمذبح السماء « Alter of Heaven » فى بكين Peking حتى سنة ١٩١١م .

الجزء الرابع : « لى كى Li - Ki » : أو كتاب السنن ، وهو يعنى فى المقام الأول بالمراسيم الدينية وتقاليدها ، وخاصة فيما يتصل بمعبد « شن Shen » ويتضمن إلى جانب ذلك توجيهات لاحترام الآباء التى تعد من الواجبات الدينية ، كما يحث أصحاب العقيدة على تقديم القرابين باعتقاد أن القربان أعظم أهمية من الطقوس الدينية .

الجزء الخامس : « تشن تسيو Chun Tsia » أو كتاب أخبار الربيع والخريف . من المظنون أن هذا الكتاب من وضع كنفوشيوس نفسه ، وهو يقص أحداث ولايته – مقاطعة «لو Lu» – ولكن على الرغم من أن أسلوبه أسلوب قص وأن القارىء العادى لايرى فيه إلا أحداثًا تسرد فإن الباحث المتخصص يرى فى أقوال كنفوشيوس ماوراءها من أهداف ، ومعنى هذا فيما يرى العلماء أن المؤلف أودع كتابه بطريق خفى أحكامًا خلقية ودينية تبدو وراء النص لايخطئها البصير به [١].

القسم الثانى : ويشتمل على أربعة أجزاء هى التى تشكل الكتب الأربعة :

الجزء الأول : مختارات كنفوشيوس لون يو Lun Yu وهى أقوال كنفوشيوس لتلاميذه وقد قاموا بجمعها وتنسيقها ، وترجمة هذه المختارات كغيرها من النصوص القديمة عسيرة ، ويختلف المترجمون فيها لأسباب كثيرة .

الجزء الثانى : العلم العظيم « تا هسو Ta Hsueh » وهو يضم تعاليم كنفوشيوس التى تحتوى اقتراحاته الخاصة بنظام الحكم . ويعكس هذا الكتاب تطوير هسون تسو لفكر كنفوشيوس .

الجزء الثالث : عقيدة الوسط « تشونج يونج Chung Yung » ويضم تعاليم تنسب إلى كنفوشيوس حول تنظيم الحياة وتذهب نظرية الوسط إلى « أن إرادة الله فينا هى ماتسمى

---

١ – د. الحينى : مرجع سابق ، ص ١٨٦ .

طبيعتنا ، أما الذى يوجه طبيعتنا فهو ما يسمى بالطريق والذى يجعل الطريق ممكنًا هو التعليم ، ويجب على الفرد ألا يحيد عن هذا الطريق أية لحظة ، وأى شىء يمكن أن يتخلى عنه المرء فهو من غير الطريق ، ولهذا السبب فالإنسان السامى هو حريص ويقظ ولو لم يكن يرى شيئًا ، وهو خائف ومنتفض ولو لم يسمع شيئًا ، لاشىء أعظم قابلية للكشف من المخفى، ولا شىء أقوى من المجهول ، ولذلك يحرص الإنسان على مراقبة أشد آرائه خفاء فى النقطة حيث لم تظهر بعد المشاعر باللذة أو بالسخط ، بالحزن أو بالفرح ، فى هذه النقطة تكون جرثومة كياننا الروحى ، وحيثما تبدو هذه المشاعر وتثير كلها الإتساق الصحيح فى هذه النقطة تكون حالة الانسجام ، وتلك الجرثومة الروحية هى الأصل العظيم للكيان كله ، وهذا الانسجام هو الطريق الوحيد فى العالم الذى يؤدى إلى الهدف ، وإذا تحققت الجرثومة الروحية وحالة الإنسجام كانت السماء والأرض فى انتظام ، وتطورت كل الكائنات " [١].

الجزء الرابع : كتاب منشيوس « منج تسو Meng Tzu » وهو شروح على متن مبادىء كنفوشيوس ، كتبها منشيوس ، الذى يعد من الشراح الأوائل لكنفوشيوس[٢] .

تعاليم كنفوشيوس :

هل جاء كنفوشيوس بدين جديد وعقيدة جديدة ؟ لقد أجاب بنفسه عن هذا السؤال فقال إنه « ناقل وليس مبدعًا » لم يأت بجديد . وتتبلور مساهمة كنفوشيوس فى الحضارة الصينية فى إخضاعه السنن والشرائع الصينية لأحكام العقل والمنطق ، والواقع أنه يعتبر مبدعًا عن طريق النقل [٣]. « لقد كان كنفوشيوس يعلم أتباعه فن الاستدلال ، ولكنه لم يكن يعلمهم إياه بطريق القواعد أو القياس المنطقى ، بل بتسليط عقله القوى تسليطًا دائمًا على آراء تلاميذه، ولهذا فإنهم كانوا إذا غادروا مدرسته لايعرفون شيئًا عن المنطق ، ولكن كان فى وسعهم أن يفكروا تفكيراً واضحًا دقيقًا » [٤]ذلك هو منهج كنفوشيوس فى التعليم ، فماذا عن تعاليمه التى حاول أن ينشرها بين الناس ؟ .

---

١ - المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

٢ - جون كولر : مرجع سابق ، ص ٣٣٥ .

٣ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ٨١ .

٤ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٥٢ .

نستطيع أن نحدد أهم تعاليمه على النحو التالى :

١ - المعرفة : « كان أول الدروس ، التى يلقيها عليهم المعلم ، الوضوح والأمانة فى التفكير والتعبير ، وفى ذلك يقول : " كل ما يقصد من الكلام أن يكون مفهومًا " ... " فإذا عرفت شيئًا فتمسك بأنك تعرفه ، وإذا لم تعرفه فأقر بأنك لاتعرفه - وذلك فى حد ذاته معرفة " (١).

وهذا ليس بالشيء المستغرب من رجل كان شغوفًا بالمعرفة منذ البداية إذ يؤثر عنه قوله : " وقتما كنت فى الخامسة عشرة وقفت نفسى على الاطلاع ، فلما بلغت الثلاثين توطدت معلوماتى ، فلما أصبحت فى الأربعين زالت شكوكى ، وفى الخمسين ميزت إرادة السماء ، وفى الستين كنت مستعداً للإصغاء إليها ، وفى السبعين تيسر لى إطاعة رغبة قلبى دون أن أتجاوز ما هو حق " (٢).

هكذا كانت المعرفة هى الطريق الموصل للحق ولاطريق غيره ... فكان يؤثر الإطلاع على الطعام والنوم ، وكثيراً ما أمضى أيامًا وليالى يستزيد من المعرفة ، متغاضيًا عن طعامه وراحته . وكان يبدى تصميمه على العمل على إزالة شرور أربعة أعتبرها أمهات الكبائر : عقلية مغرضة ، أحكام جائرة ، العناد ، الأنانية . وكان يقدس الحقيقة ، وفى هذا يقول : "أولئك الذين يدركون الحقيقة لايتساموان إلى مرتبة أولئك الذين يحبونها ، لكن من يحب الحقيقة لايرقى إلى درجة من يفرح بها " (٣).

ومن أقواله وحكمه فى مجال الدعوة إلى المعرفة :

« تتساوى طبائع الناس وغرائزهم ، لكنهم يتمايزون ويتفارقون بفضل المعرفة والتجربة » .

« لن أعلِّم إنسانًا لايعبأ بالمعرفة ، ولن أشرح المعارف لإنسان صدف عن السعى لإيضاح الأشياء لنفسه » .

« دراسة بدون تفكير عمل ضائع ، تفكر بلا دراسة مجازفة خطرة »(٤) إننا أمام شخصية تجعل من المعرفة أصلاً من أصول الحياة لاغنى عنه بل إن المعرفة ضرورة حتمية كى يصير الإنسان إنسانًا .

---

١ - المرجع السابق ، نفس الصفحة .
٢ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ٨٧ .
٣ - المرجع السابق ، ص ٨٧ .
٤ - المرجع السابق ، ص ٨٨ .

٢ - الأخلاق :

لم يضع كنفوشيوس فلسفة دينية فقد سبق القول أنه لم يأت بدين جديد إلا أنه حرص على إصلاح الهيئة الاجتماعية وتحقيق الرقى الإنسانى بالدعوة إلى الأخلاق السامية ، التى لاتصدر إلا عن حكيم منزه فى فعله عن الغرض وإنما الاعتقاد بأن الواجب هو الذى يفرض عليه ذلك ؛ يقول كنفوشيوس : " إن الحكيم يتعطش إلى الفضيلة ، والرجل العامى يتحرق إلى اللذائذ المادية ، وإن الحكيم يعنى بأن يلاحظ الواجب ويذعن له ، والرجل العامى لايهتم إلا بأن يتصيد مافيه من فوائد ، وإن الحكيم لايفهم فى العموم إلا الواجب أما العامى فهو لايفهم إلا منفعته [١].

إن الرسالة التى تعهد بأدائها هى العمل على نشر الأخلاق الفاضلة والقيم العليا الرفيعة «وكانت الأخلاق مطلبه وهمه الأول ، وكان يرى أن الفوضى التى تسود عصره فوضى خلقية ، لعلها نشأت من ضعف الإيمان القديم وانتشار الشك السوفسطائى فى ماهية الصواب والخطأ ، ولم يكن علاجها فى رأيه هو العودة إلى العقائد القديمة ، وإنما علاجها هو البحث الجدى عن معرفة أتم من المعرفة السابقة ، وتجديد أخلاقى قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم »[٢] .

وقد وضع العديد من القواعد التى تمثل القانون الخلقى ، ومن أقواله مايمكن أن يوضح لنا هذه القواعد ، وأكثر الأقوال وضوحًا فى هذا المجال جاء فيه : " إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل فى أنحاء الإمبراطورية قد بدأوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدءوا بتنظيم أسرهم ، ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدءوا بتهيب نفوسهم ، ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم بدءوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم ، عملوا أولاً على أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم ، ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم بدءوا بتوسيع معارفهم إلى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع فى المعارف لايكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء ، فلما بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملاً ، ولما كمل

---

١ - د. غلاب : مرجع سابق ، ص ٢٦١ .

٢ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٥٤ .

علمهم خلصت أفكارهم ، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم ، ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم ، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولايتهم ولما صلح حكم ولايتهم أضحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة " [١].

إننا أمام منهج محكم القواعد ذلك أن سعادة المجتمع تتحقق بالتزام هذا الطريق الذى يسير وفق تسلسل غاية فى الإحكام .

* البحث عن حقائق الأشياء .
* تحصيل العلم الكامل .
* خلاص التفكير من السحر والخرافات
* تطهير القلوب .
* تهذيب النفوس .
* تنظيم شئون الأسرة .
* إصلاح حكم الولايات .

النتيجة بعد كل ذلك سعادة المجتمع .

لقد عنى كنفوشيوس بالدعوة إلى إيجاد الشخص النبيل السامى الذى يجب أن يهتم بأربعة عناصر هى :

الثقافة ، السلوك الجيد ، الشرف ، الإيمان .

" ويجب أن ينشر حكمته وفضائله فى نماذج من العمل ، وأن يعمل دائمًا على الحصول على تسعة أشياء هى طرق الحياة السليمة .

بالنسبة لعينيه هو حريص على أن يرى جيداً وبوضوح .

وبالنسبة لأذنيه لايسمع إلا ما فيه خير .

وبالنسبة لمظهره وملامحه ، تجب أن تكون حسنة مقبولة .

وبالنسبة لسلوكه وتصرفه لابد أن تكون شيئًا يستحق الاحترام .

وبالنسبة إلى خطبه ومواعظه لابد أن تكون مخلصة منبعثة عن إيمان .

وبالنسبة لإدارة أعماله لابد أن يكون شريفًا .

وبالنسبة لشكوكه لابد أن يسأل الآخرين ، كى يتأكد مما تشكك فيه .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٥٥ .

وبالنسبة لمزاجه لابد أن يفكر فى أنواع المعاناة التى قد تنبعث من الغضب .

وبالنسبة لطموحاته يفكر دائمًا فى العدالة "[١].

إنه بهذا يضع نموذجًا للحاكم الفيلسوف المتصف بالحكمة .

٣ - السياسة :

إن النظام السياسى القائم على العدل يمثل أخلاق الدولة ويأتى على رأس الدولة الحاكم وهو الرجل السامى الذى يجب أن يكون مثلاً رفيعًا فى أخلاقه .

" وكان كنفوشيوس يحاول أن يجعل من قومه شعبًا أرستقراطيًا ، لا أقلية مغترة من المتعالين المتعصبين ، وإنما غالبية مهذبة من الأماجد المجاملين الكرام . وهو نفسه كان يحرص على معاملة الأمير والفقير على حد سواء بالأدب واللطف ، الأمير لجلال المركز الذى يشغله ، والفقير للبؤس الذى يعانيه" [٢].

ويقدم كنفوشيوس أسباب الفساد الذى يسود الحكم والصراع الذى يؤدى إلى التمزق والضعف . يقول فى ذلك : " إن العالم فى حرب لأن الدول التى يتألف منها فاسدة الحكم ، والسبب في فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لاتستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعى الطبيعى الذى تهيئه الأسرة " [٣]. إن الأسرة هى أساس النظام الاجتماعى وهى قاعدة الإصلاح السياسى . كيف ؟ .

يرى كنفوشيوس : " إن نظام المجتمع لابد أن ينبثق من تربية الأسرة ، نظام يقوم على الإخلاص والاحترام المتبادل ، الإمبراطور يقوم بدور الوالد ، وهو لابد أن يكون مرشداً ودوداً ، والشعب كله أبناؤه ، وأبناء الشعب يجب أن يكونوا محترمين طائعين : " عندما تهب الرياح له ، أن تنحنى الحشائش " إذ حدث نزاع أو انشقاق بين أفراد الأسرة فلابد أن يحزن الجميع له، وأن يعتبر حدثًا ليس أقل من قتل الأخر أخاه ، لأن الرحمة والحنان الأخوى بين أفراد الشعب ، والجزع الوالدى من الحاكم فرض يحتمه قانون السماء . ثم إذا ارتكب الوالد ظلمًا أو حاد عن العدالة فى أمر من الأمور فإن أبناءه لابد أن يكونوا محكومين بالشعور بالواجب ، وهو أسمى

---

١ - د. عبد الجليل شلبى : مرجع سابق ، ص ٨٢ .

٢ - د. هنرى توماس : مرجع سابق ، ص ٥٩ .

٣ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٥٥ .

وأعلى فى قانون الأخلاق من الولاء للمملكة ، إنهم لابد أن يقاوموا الظلم الذى يقع من أبيهم، وأيضًا إذا اختار الحاكم وزراء« بدون تعقل ، أو أساء سلطته كرئيس للأسرة ... ، فلابد أن يقاومه الشعب ، ولذا فإن حق التمرد قانون إلهى كحق الطاعة " [١].

والحاكم الذى يحتل موقع الأسرة الكبيرة ملزم بأن « يبدأ بوضع نفسه موضعها الصحيح فإن تم ذلك فلن تجرؤ الرعايا على الانحراف عن الحق ، فإذا كان الحاكم نفسه قويًا عادلاً ، تنصلح أحوال الجميع دون حاجة إلى إصدار الأوامر ، أما إذا تنكب الحاكم جادة الصواب ، فلن يستجيب أحد لأوامره " .

وسأله أحد مريديه عن صفة عضو الطبقة الحاكمة ، فأجاب : " يتولى تعليم نفسه إسعاد الناس جميعًا ، وإن استعانة الحاكم بالقوانين لقيادة الناس وتسيير شئونهم بفرض العقوبات ، يفقد الناس معنى الحياء ، على الحاكم أن يقود الناس بالحكمة ويكبح جماحهم بقواعد اللياقة، وعندئذ يسيطر عليهم معنى الحياة ، وتسودهم الطيبة والصلاح "[٢] .

والحكومة الصالحة والدولة السعيدة : " تعمل بجهد ومشقة لتقيم كيانها دولة مستقلة ووحدة متماسكة ، وتتحاشى - بقدر الإمكان - كل تعقيد وتشابك ، إنها تحد من الرفاهية بين حكامها ، ثم تحاول أن توزع الثروة بين الناس ، إنها تعنى بسن قوانين العقوبة ، وأن تزيد من الثقافة - إنها تدرس الأخلاق والموسيقى لكل أفراد الشعب ، لأن الموسيقى قريبة من الإحسان والعطف وباعثة عليه ، والموسيقى موحية بالعدالة "[٣] .

وسأله أحد الحكام عن الحكومة الصالحة فأجاب : " تكون الحكومة صالحة إذا ماكان الخاضعون لسلطانها سعداء ، والبعيدون عنها تواقين للانضواء تحت لوائها " [٤].

٤ - الإخاء الإنسانى :

إن القاعدة الذهبية عند كنفوشيوس « لاتفعل بالآخرين ما لاتحب أن يفعل الآخرون بك » وهذا يؤكد أخلاق الولاء وتبادل المعاملة وهذا المبدأ مناط سلوك الإنسان الحسن فى الحياة [٥].

---

١ - عبد الجليل شلبى : مرجع سابق ، ص ٨٤ .
٢ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ٩٢ .
٣ - عبد الجليل شلبى : مرجع سابق ، ص ٧٤ .
٤ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ٩٢ .
٥ - المرجع السابق ، ص ٨٩ .

يجب أن يدرك الإنسان كى يحسن إلى الناس أنه لايتعامل مع ملائكة وإنما مع بشر : نصفهم خير ، ونصفهم الآخر شرير ، فلنشجع الخير ونقاوم الشر ، بتطبيق مبدأ العدالة المتبادلة، وقد قال فى ذلك كنفوشيوس : " فى الوقت الذى يتقرر فيه هذا المذهب ، فإن العالم كله يصير جمهورية ... فيها يخاطب الناس بعضهم بعضًا بإخلاص ويظلهم السلام الشامل .. وتكبت مكائد الأنانية ، أما اللصوص والنهابون والخونة فسوف لاتبتلى بهم الأرض بعد ذلك ، وما الهدف من تعاليمى إلا رؤية ما أسميه التآلف العظيم بين الجنس البشرى " (١).

وسأله أحد تلاميذه عما يعنيه بلفظ الإنسانية فأجابه : " أن تتصرف وأنت خارج دارك كما لو كنت فى حضرة ضيف عظيم الشأن ، تعامل مع عامة الناس كما لو أنك تؤدى فريضة دينية، هنا ينتفى السخط فى الدولة والمنزل ، وعلى المرء الراغب فى بناء رفعته أن يساهم فى تشييد رفعة الآخرين وعلى من يتوق إلى النجاح أن يساعد غيره على بلوغه " (٢).

إن كنفوشيوس يقدم بهذا فلسفة إنسانية رفيعة تقوم على فهم الآخر وتقديره والحفاظ عليه والعمل من أجل إسعاده ... إنه يقدم صورة مثلى للإخاء الإنسانى القائم على التعاطف والتراحم والمحبة والتعاون .

٥ - المحبة :

لاتكتمل صورة المجتمع الأخلاقى الفاضل إلا إذا سادت المحبة بين البشر ، وقد سئل كنفوشيوس عن ماهية المحبة ؟ فقال :

" أن تكون قادراً على ممارسة خمس فضائل فى كل ناحية من نواحى العالم وهى : المجاملة، النخوة ، سلامة النية ، المثابرة ، الإحسان ، ولاتعنى المجاملة : الإذلال ، وذو النخوة يجتذب الجميع إلى صفه ، وسليم النية يثق به الناس ، والمثابر يبلغ هدفه ، والمحسن يقبل الناس على خدمته ، ومن غير المحبة يعجز الإنسان عن احتمال قسوة الحياة ، ولن يستطيع الاستمتاع بالرفاهية " (٣).

---

١ - د . هنرى توماس : مرجع سابق ، ص ٦٢ .

٢ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ٨٩ .

٣ - المرجع سابق ، ص ٨٩ .

ومن أقواله فى المحبة أيضًا : أحبوا أصدقاءكم ولكن أدبوا أعداءكم ، ولا تكرهوا أولئك الأعداء ، فالكراهية لاتولد إلا الكراهية ، ومن ناحية أخرى لاتردوا الكراهية بالمحبة لأن محبتكم هذه سوف تفسر خطأ وتعتبر ضعفًا من جانبكم بل وتشجع أعداءكم على زيادة درجة كراهيتهم لكم ، وإنه لمن الوحشية أن تثأروا إذا ما أصابكم أذى ولكنه من الحماقة أيضًا أن تغفلوا الأذى وتصفحوا ، فلتقدووا المسألة تقديراً عادلاً ثم يكون سلوككم طبقًا لهذا التقدير على أن ترعوا كرامتكم الشخصية وحقوق أعدائكم "[1] .

إنها المحبة المتوازنة التى تمثل صورة من صور العدالة وتحافظ على الكرامة الإنسانية ، محبة الأقوياء الأعزاء لامحبة الضعفاء الأذلاء « من المسلم به أن المحبة يمكن أن تتغلب على الكراهية كما يمكن أن تتغلب المياه على النار ، ولكن يجب ألا يفوتنا أن النار القوية المتأججة يمكن أن تجفف بركة الماء " [2]. إنها محبة عامة تمنح لكل البشر ، حتى هؤلاء الأعداء بشكل عادل . سأله أحد أتباعه : ماهو الحب ؟ أجاب حبك للبشر هو الحب .

فسئل : ولكن ماهو ؟ قال كنفوشيوس : " الاعتزاز بالجهد أكثر من الثمرة يمكن أن يسمى بالحب . إنه مجرد استمتاع بعمل شىء دون نظر إلى ثمرة هذا العمل التى يمكن الحصول عليها فى النهاية ... هذا هو الحب ... وعمل الخير دون نظر إلى مكافأة عنه فى هذه الحياة أو فى حياة أخرى مستقبلة ... ولكن لمجرد الاستمتاع بعمل الخير .. هذا هو الحب ... فالحب ثمرة نفسه ... والحب يجعل الأشياء تبدو جميلة ... والحب خلق السلام ...

وفكر كنفوشيوس برهة ثم قال : " إن القلب الذى يعمر بالحب لايخطىء " والحق أننا أمام فلسفة اجتماعية تشمل البعد الأخلاقى والبعد السياسى ، فلسفة ذات طابع إنسانى ، وهى فى ذات الوقت دعوة لاحترام العقيدة والدين الفطرى والجبلة الإنسانية .

تلاميذ كنفوشيوس :

لقد ترك كنفوشيوس عدداً غير قليل من التلاميذ يروى أنهم كانوا سبعين تلميذاً . وأهم شخصيتين بين هؤلاء التلاميذ هما : « منشيوس Mencuis » وهسون تسو Hsun - Tze

---

١ - د. هنرى توماس : مرجع سابق ، ص ٦١ .

٢ - المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٣ - سليمان مظهر : مرجع سابق ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

" ولقد ذهب واحد من الفلاسفة الصينيين المحدثين إلى تشبيه مكانه كنفوشيوس فى تاريخ الصين بمكانه سقراط فى تاريخ الغرب ، كما شبه « منشيوس » (المثالى فى مزاجه الخاص فى فلسفته) بأفلاطون ، و « هسون تسو » الواقعى بأرسطو ، ويشكل كنفوشيوس ، ومتشيوس ، وهسون تسو نوعًا من الثالوث بوصفهم الآباء المؤسسين للكونفوشية " [١].

منشيوس : (٣٧٢ - ٢٨٩ ق.م) :

منشيوس : التحريف الأوربى لأسم الفيلسوف الصينى « منج تزو » أو « منج كو » « Meng - Ko » وتعنى كلمة « تزو » المعلم " لاتزودنا المراجع الصينية عن حياة منشيوس بما يشفى الغليل . فإنها لاتذكر تاريخًا محدداً لميلاده ووفاته ، وإن كان من المسلم به أنه قد عاش فى فترة تقع بين عامى (٣٧٢ و ٢٨٩ ق.م) وأنه ولد بإمارة صغيرة متاخمة للإمارة التى ولد بها كنفوشيوس فى شمال شرق الصين ، وتعرف الآن باسم " شانتونج " ومات والده وهو فى الثالثة "[٢]. تحملت أمه أمر تربيته ورعايته بذلت أمه من أجل تربيته ونشأته جهداً ضخمًا ... حتى أنها بدلت مسكنها ثلاث مرات من أجله .. بدلته أول مرة لأنهما كانا يسكنان بجوار مقبرة فبدأ الصبى يسلك مسلك دافن الأموات ... وبدلته فى المرة الثانية لأنهما كانا يسكنان بجوار مذبح ، فبدأ الغلام يجيد تقليد أصوات الحيوانات المذبوحة ، ثم بدلته فى المرة الثالثة لأنهما كانا يسكنان بجوار سوق فشرع الصبى يسلك مسلك التجار ، ثم وجد آخر الأمر داراً بقرب مدرسة فرضيت بها .

وكانت أمه مثالية حقًا ... كانت إذا أهمل الغلام دروسه قطعت الخيط المقدس ... لتقول له عندما يسألها أنها تتلف الخيط تمامًا كما يفعل هو نفسه بإهماله وعدم مثابرته على الدرس. وكان لك التصرف يخجل الصبى ، فاضطر إلى الجد فى طلب العلم " [٣].

" ثم تزوج وقاوم فى نفسه الميل إلى تطليق زوجته ، وافتتح مدرسة لتعليم الفلسفة جمع فيها حوله طائفة من الطلاب ذاع صيتهم فى الأفاق ، وبعث إليه الأمراء من كافة الأنحاء يدعونه ليناقشوه فى نظرياته عن الحكم ، ولم يشأ فى أول الأمر أن يترك أمه المسنة ولكنها

---

١ - جفرى بارندر : مرجع سابق ، ص ٢٨٨ .

٢ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ٩٤ .

٣ - سليمان مظهر : مرجع سابق ، ص ٢٠٦ .

أقنعته بالذهاب بخطبة حبيتها إلى جميع رجال الصين "[١] . خرج منشيوس متجولاً باحثًا عن منصب كبير يحقق من خلاله أهدافه فى تطبيق أفكاره " التحق فترة قصيرة (٣١٩ - ٣١٢ ق.م) بوظيفة فى حكومة ولاية « تشى » . ثم طاف أرجاء الصين طوال أربعين سنة... باحثًا عن حاكم يضع تعاليمه موضع التنفيذ ، فلقد تبلورت غاية « منشيوس » فى تولى منصب الوزير الأكبر فى إحدى إمارات الصين ... أخفق « منشيوس » ولم يرض أن يعين فى منصب تكون فيه يداه مغلولتين بإرادة الحاكم ، وظاهر أنه عين فى منصب فخرى أطلق عليه لقب «وزير ضيف » وهو نوع من المستشارين فى شئون الدولة ، وقد رفض « منشيوس » تقاضى أى أجر أو مكافأة على استشاراته ونصائحه .

ولم يقنط « منشيوس » فى بلوغ مراده فى تولى منصب رفيع ، يطلق فيه العنان لتنفيذ مبادئه ، فطفق ينتقل هو ومريدوه من إمارة إلى أخرى ، وتطول إقامته فى الإمارة - أو تقصر- وفقًا للظروف والملابسات ، وقد سئل ذات مرة : « أليس من المغالاة أن تخلف بلاط حاكم إقطاعى إلى آخر متبوعًا بعشرات من العربات وبضع مئات من الرجال » ؟ فدافع عن تصرفه بأن ألهم الحفاظ على مبادىء السلف الصالح من الحكام . ولما لم تجد دعوته مجيبًا ، اعتزل المجتمع بقية عصره "[٢] . وهذا شأن العظام من أصحاب الرسالات الذين يواجهون بالصدود والإعراض والرفض ولكن لاتضعف لهم عزيمة وتجد أفكارهم نجاحًا بعد وفاتهم .

مؤلفاته :

اتفق الباحثون فى التراث الصينى أن « منشيوس » قد ترك ثلاثة كتب قطعوا بصحة نسبتها إليه ، واختلفوا فى أربعة كتب أخرى ، هل هى من تأليفه أو أنها من عمل تلاميذه ، وقد جمعت مؤلفاته فى كتاب « مصنفات منشيوس » ويعتبر هذا الكتاب من أعظم كتب العالم الثقافية . يقول ديورانت : " وقضى أيام شيخوخته وضعفه فى تعليم الطلاب وتأليف كتاب وصف فيه أحاديثه مع ملوك زمانه ... ولسنا واثقين من أن هذا الكتاب من تأليف منشيس نفسه ، أو من تأليف تلاميذه ، أو أنه هو وتلاميذه قد اشتركوا فى وضعه ، أو أنه مدسوس عليهم ، وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن كتاب منشيوس من أعظم الكتب الفلسفية الصينية القديمة وأجلها قدراً "[٣].

---

١ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٧٨ .
٢ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ٩٥ .
٣ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٨٠ .

تعاليمه :

كان الهدف الذى أعلن منشيوس أنه حريص على تحقيقه هو : " أن يستوعب حكمة القدماء دون أن يبدع شيئًا من ذات نفسه " " وعقيدته عقيدة دنيوية خالصة ... ولايكاد يوجد فيها شيء عن المنطق أو فلسفة المعرفة أو ماوراء الطبيعة ... وكان الذى يهم «منشيوس» هو أن يرسم طريقة للحياة الصالحة وتولى خيار الناس مقاليد الحكم ، وكان مبدؤه الأساسى أن الناس أخيار بطبيعتهم "[١] . ونستطيع أن نتناول أهم الآراء على النحو التالى:

١ - تقدير العلم ورجاله :

إن من أهم المسائل التى اشتملت عليها تعاليم منشيوس " إعلائه من شأن رجال العلم والإنسان الفاضل ، ووضعه فى مرتبة أسمى من مرتبة الأمراء والحكام . فإنه يحض رجل العلم على إظهاره اللامبالاة بالمركز أو الثراء . فلا يقاس النجاح لديه بحجم الوسط الذى يعمل فيه، ولكن بالأسلوب الذى يسوس فيه ذاته ، داخل نطاق هذا الوسط ، ويقول فى هذا الصدد: "يختلف النبيل فى عرف السماء عن ذلك النوع من الرجال الذى اصطلح الناس على إطلاق لقب النبيل عليه ، فالنبيل فى الحياة الدنيا ، دوق أو وزير أو ضابط عظيم ، لكن النبيل فى عرف السماء : المحسن ، العادل ، صاحب المبدأ السياسى ، المخلص الذى تطيب نفسه بفعل الخير ، لن يغير الترف من طباع النبيل ، ولن تفتنه المظاهر الخداعة عن مبادئه ، فإذا شغل منصبًا خطيراً ، التمس السبيل لتنفيذ مبادئه ، لا الاستمتاع المجرد بأطايب الحياة "[٢] .

ولعل حياة « منشيوس » كانت تمثل التطبيق العملى لهذا الإطار النظرى .

٢ - الأخلاق :

جوهر فلسفة « منشيوس » الأخلاق ، لقد كانت رسالته ذات طابع أخلاقى فى المقام الأول « ... إن فضل منشيوس على الأخلاق لايجحد ، لأنه قام بمجهود عنيف فى صقل آراء «كنفوشيوس » الأخلاقية وصوغها فى الأساليب البسيطة التى تجعلها مستساغة لدى الجماهير ، وليس هذا فحسب ، بل دافع دفاعًا جباراً عن مذهب أستاذه وهاجم خصومه من

---

١ - المرجع السابق ، ص ٨٠.

٢ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ٩٧ .

السوفسطائيين والاشتراكيين هجومًا عنيفًا ، ووصف مذاهبهم بالشدة والسوء ، كما نعت مذهب « كنفوشيوس » بالخير والجلال ، وهو فى هذا يقول مانصه : " أنا أناصر مذهب الحكماء القدماء ، وأحارب « يانج » - سوفسطائى - و « سى - تى » - اشتراكى - وأطرد المبادىء السيئة ، لكى لاتصل إلى التقدير والسيادة ، لأن هذه المبادىء الضارة لو نالت تقديراً فى نفس فرد من الأفراد لأضرت حالاً بسلوكه الداخلى ، ومتى أضرت بهذا السلوك النفسى أضرت بإدارته الحكومية ، وأن أولئك الأفراد الذين لايعرفون الأمراء ولا الأجداد السامين لو أنهم كانوا فى عصر دوق « تشيئوا » لسحقهم . أما أنا فإننى أشتهى أن ألهم بنى الإنسان العواطف الشريفة والمشاعر النبيلة ، وأن أقف تيار المذاهب السيئة ، وأن أخرس الألسنة الناطقة بالخطب المخالفة للعقل والمنطق وأضع عنانًا قاسيًا لحرية الرذائل »[1].

إنه بهذا يحدد فى وضوح جوهر دعوته ومنهج رسالته .

وأول ما يصادفنا فى فلسفته الخلقية مذهبه عن صلاح الفطرة البشرية وهى فكرة طريفة لم يسبقه إليها أحد غيره فى التاريخ الصينى ، فمن رأيه « الطبيعة البشرية تتبع الخير مثلما ينشد الماء المستوى الأوطأ » ويقول : " للناس جميعًا شعور أصيل بالعطف وانفعال بالحياء والاشمئزاز ، وتأثر بالمراعاة ، والامتثال ، وحساسية تجاه الصواب والخطأ " وعنده إن هذه هى " البدايات : للحب والعدالة واللياقة والحكمة ، على التوالى " ويقول : " إنها لم تغرز فى الناس من الخارج ، لكننا زودنا بها ، وهذا ماتبديه الحقائق " [2].

ويؤكد « منشيوس » على خيرية الطبيعة الإنسانية . يقول مجيبًا أحد سائليه : "من حيث الحقائق من الممكن أن يكون الناس أخياراً وهذا ما أعنى بقولى أن طبيعة الناس خيرة ، فإذا أصبحوا أشراراً فليس ذلك خطأ قواهم الطبيعية ، ولذلة فلكل الناس إحساس بالرحمة ، وكذلك إحساس بالخجل من النذالة ، وإحساس بالإجلال ، وإحساس بالصواب والخطأ ، وإحساس الرحمة يتمثل فى آداب الفرد ، وإحساس الخجل فى الآداب العامة ، وإحساس الإجلال نحو متاع المقدسات ، وإحساس الصواب والخطأ فى الحكمة ، وهذه الأربعة لانتلقنها من الخارج ، ونحن نتفاوت فى حظنا منها دون كسب لها ، قال السيد « منج »

---

١ - د. غلاب : مرجع سابق ، ص ٢٧٨ .

٢ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ٩٩ .

(منشيوس) أولئك الذين تعمل عقولهم بكل قوتها يصلون إلى فهم الطبيعة التى بها ولدوا، فإذا مافهموها فهموا السماء ، فتبقى عقولهم حية ، وتتغذى طبيعتهم وبذلك يعبدون السماء ... والموت غير الموقوت والعمر الطويل ليسا بشيئين مختلفين بالنسبة لهم لأنهم يهيئون أنفسهم كما لو كانوا فى انتظار الأمر ، ولذلك فهم يتخذون موقفهم مع القدر ... لاوجود لشىء لايقع عليه القدر ، وعلى ذلك فتقبل بخضوع مصير الحق " [١].

ويواصل منشيوس شرحه للطبيعة الخيرية بالحديث عن صلاح الفطرة البشرية ، وهو يعنى «بأن الصالح ما يتجانس مع الطبيعة البشرية ، وتتآلف عنده العلاقة بين الأخلاقيات والسيكلوجية تآلفًا وثيقًا ، ولمنشيوس كسيكلوجي - مزية كبرى - فإن فكرة النفس والبدن المنفصلين ، لم يستحوذ عليها أفهام مفكرى عصره ، لكنه سلم بنوع من الثنائية السيكلوجية: بين ما أطلق عليه « الطبيعة العاطفية و " الكفايات الفكرية " . وآمن بأن تكون القيادة للكفايات الفكرية "[٢] .

إن المذهب الأخلاقى الذى قال به منشيوس تمحور حول الأخلاق الفطرية . وهى الأخلاق التى يجب أن تسود باعتبار أنها توافق طبيعة النفس الإنسانية :

٣ - السياسة :

من المسائل التى حظيت باهتمام منشيوس أمور الحكم وكان يسعى أن يصل إلى الحكم حكام فلاسفة حكماء هدفهم العدالة المطلقة . وهو يرى أن منشأ المشاكل التى يعانى منها المجتمع نتيجة طبيعية لفساد الحكومات . يقول فى هذا « والآن ، إذا أردتم جلالتكم أن تنشئوا حكومة أعمالها صالحة ، فإن هذا سيبعث فى جميع موظفى مملكتكم الرغبة فى أن يكونوا فى بلاط جلالتكم ، وفى جميع الزراع الرغبة فى أن يفلحوا أرض جلالتكم ، وفى جميع التجار الرغبة فى أن يخزنوا بضائعهم فى أسواق جلالتكم وفى جميع الرحالة الأغراب الرغبة فى أن يسافروا فى طرق جلالتكم ، وفى جميع من يشعرون فى أنحاء مملكتكم بأن ظلمًا قد وقع عليهم من حكامهم الرغبة فى أن يأتوا ويشكوا إلى جلالتكم ، وإذا ما اعتزموا أن يفعلوا هذا فمن ذا الذى يستطيع أن يقف فى سبيلهم ؟» [٣] إ هذا هو الحل الذى يضمن

---

١ - د. الجينى : مرجع سابق ، ص ١٩٠ .

٢ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ١٠١ .

٣ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٨٠ .

استقرار المجتمع ونموه : أن تكون الحكومة صالحة ، ولايمكن أن تكون الحكومة صالحة إلا إذا كان الحاكم حكيمًا والحاكم الصالح يجب عليه :

١ - أن يشن الحرب على العدو المشترك وهو الفقر ، لأن الفقر والجهل هما منشأ الجرائم واضطراب النظام ، وعقاب الناس على ما يرتكبونه من الجرائم لأنهم لاتتاح لهم فرص العمل شرك دنيء ينصب للإيقاع بهم .

٢ - يجب على الحكومة توفير الرفاهية لرعاياها ، ولهذا ينبغى لها أن تضع الخطط الاقتصادية الكفيلة بتحقيق هذه الغاية . فعليها أن تفرض أكثر الضرائب على الأرض نفسها لا على ماتفعله أو مايقام عليها من المنشآت وعليها أن تلغى كل العوائد الجمركية .

٣ - يجب على الحكومة أن تجعل التعليم عامًا وإجباريًا ، لأن هذا أصلح أساس لنشر الحضارة وتقدمها ، « والقوانين الطيبة لاتعادل كسب الناس بالتعليم الطيب »[١].

ومن المسائل الطريفة ذات الأهمية البالغة فى استقرار النظام السياسى الذى وضع «منشيوس » أصوله : أن تكون الحكومة فى خدمة الشعب . لقد نادى بأن التنظيم السياسى والاقتصادى أساسه منفعة الشعب لا كفالة مصالح الارستقراطية الحاكمة . يقول مؤكداً ذلك المعنى : « الشعب أهم عامل من عوامل قيام الدولة ووجودها ، تفوق أهميته الأرض والإنتاج بما لايقاس ... ويأتى الحاكم فى آخر القائمة المتضمنة عوامل قيام الدولة ، وبالتالى فإن ظفر الحاكم بتأييد الفلاحين يجعل منه إمبراطوراً ، فى حين أن توفيقه فى نيل تأييد الإمبراطور يحيله إلى حاكم إقطاعى ليس إلا ، وحصوله على تأييد الحاكم الإقطاعى ينيله منصبًا رئيسيًا » .

كذلك عارض منشيوس معارضة قوية مبدأ وراثة العرش ، ويضرب المثل بما فعله الإمبراطور « ياو » (وهو حاكم أسطورى تتناقل الأقاصيص الصينية سيرته وتمجد أفعاله ويتخذه الشعب الصينى مثالاً للحاكم الصالح) من أنه لم يخلف العرش لولده ، ولكن عهد به إلى أقدر رجال الإمبراطورية وأفضلهم وكان فلاحًا يدعى « شون » . وفضلاً عن ذلك ، طالب « منشيوس » ملك « تشى » بأن يعهد بالحكم إلى أولئك الذين درسوا فن الإدارة ، وهو يعنى بالدارسين هؤلاء الذين تعلموا فى « مدرسة كنفوشيوس » ، ويحتم امتناع الملك عن التدخل فى الأعمال الإدارية ويشبه تدخله بتدخل الفرد العادى فى أعمال حفار الأحجار الكريمة»[٢].

---

١ - المرجع السابق ، ص ٨١ .

٢ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ١٠٩ .

ومن المبادىء السياسية التى أقرها « منشيوس » حق الشعوب فى الثورة ، وينادى بهذا المبدأ فى حضرة الملوك . وقد أقر هذا المبدأ ملوك الصين وأهلها وهو أن الحاكم الذى يستثير عداوة الشعب يفقد « حقه الإلهى فى الحكم ، ومن حق الشعب أن يخلعه »[1].

تلك أصول وقواعد للحكم الصالح والحكومة الصالحة ... وقد عرض فؤاد شبل هذه القواعد فيما أطلق عليه برنامج « منشيوس السياسى » وحدد هذا البرنامج فى النقاط التالية:

١ - المساواة ، فهو القائل : « ينتمى الحكماء إلى النوع الذى ننتمى نحن إليه » .

٢ - الشعب أعظم عناصر الدولة أهمية ، والحاكم أقلها شأنًا .

٣ - إستشار الشعب بتقرير المثوبة والعقاب ، فلا ينفرد الموظفون الرسميون بالأمر والنهى وحدهم .

٤ - العمل لإسعاد الشعب ، جماع رسالة الحكومة ، ويجب على الحاكم أن يقاسم الشعب السراء والضراء .

٥ - العلاقة بين الحاكم والمحكومين يجب أن تكون تبادلية ، ويقول فى هذا الشأن : « إذا مانظر الحاكم إلى وزرائه كما لو كانوا يديه وقدميه ، وجب أن ينظروا إليه على اعتبار أنه معدتهم وقلبهم ، فإذا اعتبرهم كلابًا وخيولاً ، وجب أن ينظروا إليه كرجل عادى ، فإن نظر إليهم على أنهم وسخ وكلأ ، وجب أن يعتبروه لصًا وعدواً » .

٦ - أقر مبدأ الثورة على الحاكم ، إن تصدعت علاقته برعيته .

٧ - صاغ الفكرة الواردة بكتاب التاريخ - وهو من أعمدة التراث الفكرى الصينى العتيق- ومؤداها أن الحاكم يدير شئون البلاد بتفويض من السماء ، وينقضى التفويض إذا أساء السياسة ، وبالأحرى يتوقف سلطان الحاكم على رضاء الرعية [2].

بهذا العرض لآراء « منشيوس » السياسية نكون قد وصلنا إلى معرفة مجمل آرائه وأفكاره ومدى إسهامه فى تطوير ودعم « المدرسة الكنفوشية » .

---

١ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٨٣ .

٢ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ١١١ .

هسون تزو : Hsun Tzu (٢٩٨ - ٢٣٨ ق.م) :

يعد هسون تزو ثالث ثلاثة كان لهم فضل تأسيس وتطوير ونشر آراء الكنفوشية . تجمع المصادر الصينية على أنه قد عاش بين عامى ٢٩٨ - ٢٣٨ ق.م ، وكان من مواطنى مملكة «تشاو » (ومكانها جنوب ولايتى خوبى وشانسى الحاليتين) ودرس الحكمة فى مملكة «تشى» . وهناك نبه ذكره وطار صيته ، فقلدته حكومة تلك المملكة منصبًا رفيعًا ، وكان بلاط هذه المملكة يضم ممثلين لكثير من المدارس الفلسفية ، فكان طبيعيًا أن يحتدم الجدال بينهم ، وقد أثار « هوسون تزو » عداوة المفكرين الآخرين ، فاندفعوا للكيد له ، فاضطر لمغادرة هذه البلاد إلى مملكة « تشيو » بجنوب الصين ، حيث عين قاضيًا ، لكنه عزل من منصبه ، ثم أعيد إليه بعد فترة ، وفى آخر أيامه ، كرس معظم وقته للتدريس » .

وتتلمذ على « هسون تزو » كثير من أقطاب الفكر الصينى فى طليعتهم : « هان فى تزو» زعيم المدرسة التشريعية الفكرية القديمة ، « ولى سو » رئيس الوزراء الذى عاون أول أباطرة « تشين » فى توحيد الإمبراطورية [١].

أهم تعاليمه :

ألف « هسون تزو » كتابًا أطلق عليه اسمه ، يحتوى على اثنين وثلاثين فصلاً تتسم بالترابط والتناسق . وقد حرص « هسون تزو » على الكتابة لمناهضة الخرافات والسحر والشعوذة التى سيطرت على أذهان معاصريه ، والمطالبة بالاحتكام إلى العقل وحده ، والاستناد إلى الأحكام التى تمليها طبيعة الكون وفطرة الإنسان ، ولقد كره حكومات جيله وازدرى أمراء بلاده الأشرار ، وانتقد تعلق العامة بضروب السحر ومعرفة الطالع ، وخلف تراثًا ضخمًا من مؤلفاته ، وبفضله تجدد شباب مدرسة كنفوشيوس الفكرية . وهو يبدى تقديراً عظيمًا لمعلم الصين الأول كنفوشيوس ويعد تعاليمه ذروة الكمال وقمة الصفاء الذهنى[٢] .

لقد دافع « هسون تسو » عن الكنفوشية وهو مزود بالمعرفة الكاملة لدعاوى الفلسفات المعارضة ، وتسلح بوسائل فنية عالية مكنته من المشاركة فى المناظرات الفلسفية التى تطورت مع اقتراب العصر من نهايته ، فعرض الكنفوشية بطريقة جعلت من عرضه أكمل البحوث

---

١ - المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

الفلسفية وأحسنها تنظمياً في عصر الفلاسفة ... ولقد أصبحت الكنفوشية عند « هسون تسو» فى مثل هذا الجو العقلى الصارم ، أكثر عقلانية ، وأكثر مادية ، صارت السماء غير شخصية وغدت هى الطبيعة والصورة الطبيعية ، والطبيعة البشرية التى هى أبعد من أن تكون خيرة بالفطرة ، كما ذهب إلى ذلك « منشيوس » ، كانت فى أساسها شريرة فى رأى « هسون تشو » [١].

ويمكن حصر أهم تعاليمه فى القضايا الآتية :

١ - الطبيعة الإنسانية :

يتناول « هسون تسو » فى كتابه المسمى باسمه الفصل الثالث والعشرون تحليل الطبيعة الإنسانية فيقول : " الإنسان شرير بطبعه ، وصفاته الطيبة مكتسبة وليست أصيلة » وفى هذا النص يؤكد على « أن الطبيعة الإنسانية شريرة أصلاً ، ومن خلال المؤسسات الاجتماعية والثقافية يصبح الناس أخياراً ، فالبشر لايفتقرون إلى بدايات الفضائل الأربع التى قال بها منشيوس فقط ، وإنما هم يمتلكون فعلاً بدايات الشر فى رغبتهم الكامنة فى الربح والمتع ، ومع ذلك فإنه من الممكن لكل شخص أن يصبح حكيماً ذلك أن كل شخص يحظى بالعقل ، ومن خلال إعمال العقل يظهر الخير ، فيما يقول « هسون تسو » : وقد قال منشيوس إن البشر يولدون أخياراً ، ويقول « هسون تسو » إنهم يولدون أشراراً . وقد قال « منشيوس » إن المجتمع والثقافة يجلبان الشر ، ويقول « هسون تسو» إن المجتمع والثقافة يجلبان الخير ، بينما يقول منشيوس إن أى شخص يمكن أن يصبح حكيماً بسبب خيره الأصلى فإن « هسون تسو » يقول إن أى شخص يمكن أن يصبح حكيماً بسبب عقله الأصلى وقابليته للتربية .

والمشكلة بالنسبة لـ « هسون تسو » هى إيضاح كيف أنه إذا كان البشر يولدون أشراراً ، فإن بمقدورهم أن يصبحوا أخياراً ، وهو يذهب إلى القول بأن الخير يجىء كنتيجة للتنظيم الاجتماعى والثقافى ، والنظام الاجتماعى والثقافى يجيئان نتيجة :

١ - الدافع لحياة أفضل .

٢ - الحاجة إلى التغلب على المخلوقات الأخرى والحجج هى أن :

---

١ - جفرى بارندر : مرجع سابق ، ص ٢٩٣ ، ٢٩ .

أ - الناس ليس بمقدورهم تقديم المتطلبات اللازمة للعيش ، دع عنك الحياة على نحو أفضل ، إلا من خلال تعاون الآخرين .

ب - الناس ليس بمقدورهم تأمين أنفسهم ضد المخلوقات وقوى الطبيعة المختلفة دون التعاون المتبادل .

وحيث أنه من الواضح لهذين السببين ، أن الناس يتطلبون التنظيم الاجتماعى ، فإن السؤال هو ما يلى : كيف سيجلب التنظيم الاجتماعى الخير ؟ وإجابة « هسون تسو » عن هذا السؤال هى أن التنظيم الاجتماعى يقتضى وضع قواعد للسلوك ، واتباع هذه القواعد من شأنه أن يجلب الخير .

ونظريته هى أن الناس يولدون برغبات لايتم إشباع بعضها عادة . وعندما تظل الرغبات غير مشبعة ، فإن الناس يبذلون قصارى جهودهم لإشباع رغباتهم المتضاربة دونما قواعد أو قيود فينشأ تنافس وصراع يجلبان الفوضى ، الأمر الذى يضر بالجميع ، ومن هنا فقد قام الملوك الأوائل بوضع قواعد للسلوك تنظم الأنشطة المتضمنة ، فى محاولة إشباع الرغبات ، وبهذه الطريقة استحدثت القواعد المختلفة المطلوبة للحياة الاجتماعية ، وبمقتضى هذه الطريقة فى التفكير فإن الخير الأخلاقى قد تم جلبه كنتيجة لتنظيم السلوك الإنسانى ، الذى تقتضيه الحياة الاجتماعية (١).

وعلى هذا يمكن القول بأن الخير مكتسب وليس فطريًا فى الإنسان .

٢ - العقل ومكانته فى الكون :

العقل عند « هسون تسو » صاحب السيادة على الإنسان وعلى الكون . ولذلك فإنه يقرر أن العقل قادر على إحداث التغيير المطلوب وأن الكمال البشري يبدأ من العقل . ولقد قامت هذه الفكرة على نظرة إنسانية وعقلانية للدين ، فأدان ، بغير تحفظ ، بعض الممارسات الدينية واعتبرها من قبيل الخرافات - ومن ذلك - : الصلاة استجلابًا للمطر ، وطرد المرض بالرقى والتعاويذ ، وقراءة بخت المرء من ملامح وجهه ، لكنه أباح غير ذلك من أمور كالتنبؤ بالغيب، شريطة أن تقوم التأويلات على ضوء العقل البشرى ، كما أنكر وجود الأرواح الشريرة والأشباح الضارة . وأصبحت أرواح الأسلاف وقوى الطبيعة عند « هسون تسو » تجليات

---

١ - جون كولر : مرجع سابق ، ص ٣٦٩ - ٣٧١ .

للسمو الخلقى . وبالفهم الكامل للطبيعة يستطيع الناس فى رأيه أن يسيطروا على الكون وعلى بيئتهم ، وهكذا أصبح « هسون تسو » أعظم الفلاسفة العقليين فى الكنفوشية »[١].

٣ - تعظيم العلم والعلماء :

للعلم والعلماء مكانة رفيعة عند « هسون تسو » يعلى من شأن المعلم ويدعو إلى التعلم والدراسة ، يقول فى ذلك :

" إذا حرم إمرؤ من معلم يقوم إعوجاجه ، أو من سنن تهديه سواء السبيل ، يغدو لصًا - وإن كان ذكيًا - وقاطع طريق ، إن كان سجانًا ، فإن اشتغل بالمنطق الجدلى تتصف محاوراته بالسخف . ولكن إن توافر له المعلم والسنن اتسع أفق ذهنه ، وإذا كان باحثًا فسرعان مايدفع أبحاثه ، ويستطيع - إن كان قديرًا - إنجاز أى عمل يتعهده ، وإذا كان باحثًا فسرعان مايدفع أبحاثه إلى النتائج المرتجاة . وإذا كان من أصحاب المنطق الجدلى ، فعلى يديه يتم حل كل مشكلة ، فالمعلم والسنن أعظم ذخيرة يحرزها المرء ، وفشله فى إحرازها أبشع مصائبه والمرء الذى يفتقد إلى معلم وسنن يزيد من حدة طبعه الأصيلة القائمة على الشر ، فى حين أن المعلم والسنن تؤكد التثقيف الذاتى »[٢] إن المعلم اعتماداً على هذا النص هو الضامن الوحيد لاتزان سلوك الشخص وبالتالى إصلاح حال المجتمع . فالمعلم رأس المجتمع ، والحاجة إليه كالحاجة إلى ماء الحياة وقد انعكس ذلك على سلوك « هسون تسو » فقد أحب أستاذه من كل قلبه .

٤ - السياسة :

كان طبيعيًا أن يضع « هسون تسو » نظرية سياسية تطرح فلسفة الحكم كما يتصور ؛ شأنه فى ذلك شأن « منشيوس » ومن تعاليمه فى هذا المجال أنه يقرر :

١ - الفوارق الاجتماعية بين الناس . قدرة الناس على تكوين النظم الاجتماعية راجع إلى قيام فوارق اجتماعية فى أوساطهم ، مبعثها وجود مقاييس العدالة . يقول موضحًا هذا التمايز الطبقى بين الناس : « نشأ التمييز بين الأرفع منزلة ، والأوطأ منزلة منذ وجدت السماء والأرض (لأن السماء أرفع منزلة ، والأرض ، أوطأ منزلة) . وعندما انتحل بعض

---

١ - جفرى بارندر : مرجع سابق ، ص٢٩٤ ، ٢٩٥ .

٢ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

الأفراد لأنفسهم عروشًا ، انبعثت الطبقات . فلا يتسنى لنبيلين أن يخدم أحدهما الآخر ، ولايعقل أن يصدر فرد من عامة الناس الأوامر لزميله ، هذا هو قانون الطبيعة . إذا تساوى الناس فى المراكز والسلطة ، وفى محبة - وكراهية - الأشياء نفسها ، فلا مناص من احتدام الصراع بينهما ، صراع يشيع الفوضى فى المجتمع وينيخ الفقر والجوع بكلكله على الجميع . فكان أن تطلب الحال تقسيم الناس إلى طبقات تضم : الغنى والفقير ، وصاحب السلطان وعامة الناس، ليلزم كل فرد حده. هذه هى الضرورة الجوهرية لتشييد دعائم الإمبراطورية»[١].

٢ - الحكومة للشعب وليست للحاكم .

٣ - إفقار الناس وإساءة معاملة العلماء يدفع البلاد إلى الخراب .

٤ - لايحالف التوفيق فى الحرب حاكمًا يبغضه الناس ، ويرتابون فى نواياه .

٥ - أهم وظائف الحاكم اختيار وزرائه من أصحاب الفضل ، وأن تكون الكفاية أساس قربهم منه ، وألا يدع للمحسوبية سبيلاً إليه أيًا ما تكون الدواعى .

٦ - عصيان الحاكم الطالح واجب على الشعب ، لكن على الشعب أن يبذل الولاء والطاعة للحاكم الصالح [٢].

بهذا العرض نكون قد قدمنا صورة للدور الذى لعبته الكنفوشية فى تشكيل حضارة الصين. والذى نود أن نؤكده أنه يمكن اعتبار الكنفوشية ديانة وفى ذات الوقت يمكن النظر إليها باعتبارها فلسفة ؛ ولاتناقض فى ذلك فالغالب على ديانات الشرق القديم الطابع الفلسفى والذى نحب أن نؤكده أيضًا أن الكنفوشية مازال لها نفوذ قوى فى حياة الصينيين حتى اليوم لأنها تجمع قيم وتقاليد الشعب الصينى العريقة فتحتوى على أسس ومبادىء أخلاقية ... كما وضعت أسس النظام الاجتماعى والسياسى . وهى تجمع بين المثالية والروحية من جهة وبين الواقعية والمادية من جهة أخرى ؛ وظلت بذلك فلسفة حية متجددة بسبب آراء رهبانها الثلاثة « كنفوشيوس » « منشيوس » « هسون تسو » .

---

١ - المرجع السابق : ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

٢ - المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

ثانيًا : التاوية :

التاوية فلسفة دينية أو اتجاه دينى يتسم بالنزعة الصوفية التى كانت رد فعل طبيعى للنزعة الاجتماعية التى سادت « الكنفوشية » . والتاوية على هذا النحو تشغل أهمية فى الفكر الصينى بعد الكنفوشية وتؤكد الفلسفة التاوية على الأسس الميتافيزيقية للطبيعة بدلاً من التشديد على المجتمع الإنسانى .

" وقد ساعد على ظهورها بعض العوامل الاجتماعية من بينها صعود بعض الطبقات الاجتماعية الدنيا وتأثيرها فى بنية المجتمع الصينى "(١).

" انتجت التاوية قدراً ضخمًا من المصنفات الأدبية المتصلة بالتصوف والشعر ولولاها لتطبع الفكر الصينى بالضحالة والجمود بيد أن هذا العكوف على الغيبيات ، يعتبر أشد نقاط الضعف فى التاوية ، فإنها وإن تألقت فى بدايتها لكنها تطورت إلى حمأة من الشعوذة والتدجيل على أيدى فريق من مدعى العلم ، اتخذوا من مبادئها سبيلاً للبحث عن سر حياة خالدة ، فكانت أن عافت مبادئها الطبقة المستنيرة "(٢) .

لاوتسو Lao Tzu ٥٧١ -

لاوتسو المعلم العجوز دار حول شخصيته كثير من الجدل . هل هو شخصية حقيقية أم أنه شخصية أسطورية ؟ .

وتحفظ السجلات التاريخية الصينية أنه سيد من النساك عاش أكثر من مائة وستين عامًا. وتحدد الدراسات الحديثة تاريخ مولده فى عام ٥٧١ ق.م ، « فى قرية « كيوه - جن» بمنطقة « لى » بإقليم « تشو » ، كان يعيش رجل شديد الفقر اسمه « لى - لى » وبرغم شدة فقره إلا أنه لم يجد صعوبة فى أن يتزوج ، وفى السنة الثانية من عهد الإمبراطور الحادى والعشرين من أسرة « شو » أى منذ حوالى ٢٥٥٠ سنة ، رزق الفقير من زوجته ولداً سمياه «لى - يبه - يانج » ... ولايعرف أحد عن حياة « لى - يبه - يانج » سوى القليل ... كل مايعرفه التاريخ أنه أصبح فى بواكير شبابه أمينًا للمحفوظات الامبراطورية بمدينة « لو - يانج » ، وأنه ظل يشغل هذا المركز أعوامًا عديدة .

---

١ - د. محمد خليفة : مرجع سابق ، ص ١٢٨ .

٢ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ٢١٠ .

وقد أتاح ذلك العمل للفتى فرصة للدراسة والبحث ، وعندما بدأ فيما بعد يعبر عن آرائه فى الفلسفة والدين نال إعجاب الكثيرين الذين أطلقوا عليه اسمه الذى عرف به وهو « لاو - تسى » ومعناها الفيلسوف العجوز . ولكن الشهرة لم تغير من حياة « لاو - تسى » ومضت السنوات تتابع وهو لايزال كما هو أمينًا للمحفوظات ، وكان من المحتمل أن يظل فى المكتبة حتى نهاية عمره الطويل ، لولا أن حكام الولاية ازداد بهم السوء ، واستشرى فيهم الفساد ، واشتدت عليهم الأنانية ، وبعد بهم السفه عن الشرف ، فعافت نفس الفيلسوف سفالة السياسين ومل عمله فى أمانة المكتبة ، وشعر أنه من المهين له أن يعيش تحت حكم السفهاء ، وقرر أن يبرح المكان الذى قضى فيه معظم حياته ، وبرغم أنه كان وقتئذ فى التسعين من عمره إلا أنه صمم على مغادرة المكتبة الإمبراطورية والهجرة بعيداً عن « لو - يانج » ... بعيداً جداً ... ليعيش فى الريف بمعزل عن الناس » [١].

كتاب « لاو - تسى » الطريق إلى الفضيلة : « التاو - تى - كينج » .

The Tao King . يقول جوزيف كاير : « التاو - لى - كينك » عبارة عن مجموعة من واحدة وثمانين مقطوعة شعرية ... هى النصوص المقدسة للتاوية . وهى أقصر الكتب المقدسة الدينية فى العالم . إنه كتاب قصير ولكنه محير ، لاحتوائه على عدد كبير من الآراء الغامضة المتناقضة فى ظواهرها التى تعز على التوضيح والتبيان »[٢] .

" ويعرض « لاو - تسى » آراءه فى هيئة حكم مأثورة تتكرر المرة بعد الأخرى ، وفى الوسع حصر الآراء فى النقاط التالية :

إيقاع الحياة - وحدة العالم بأسره والظواهر البشرية - أهمية المحافظة على البساطة الأصيلة للفطرة البشرية - خطورة تغالى الحكومة فى التدخل فى حياة البشر - مذهب حرية العمل - تأثير الروح الشامل - عبر التواضع - السكينة والهدوء - القوة حمقاء والكبر سلبة وحب التسلط جنون " [٣].

---

١ - سليمان مظهر : مرجع سابق ، ص ٢٢٢ .

٢ - جوزيف كاير : حكمة الأديان الحية ، ترجمة : حسين الكيلانى ، مكتبة الحياة ، بيروت ، سنة ١٩٦٤ .

٣ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ٢١٤ .

أهم المبادىء فى التاوية :

١ - **التـاو** : " المبدأ الأول على نحو مطلق هو بغير سمات أو خواص على الإطلاق ، وبما أنه هو نفسه بغير سمات أو خواص ، فهو المصدر والشرط الخاص بكل السمات والخصائص ، وبهذا المعنى فإنه العدم ، ولكنه ليس ببساطة لاشيء « ذلك لأنه مصدر كل شيء إنه سابق لكل الأشيـاء الموجودة ، يمنحها الحياة والدلالة ، ويشكل الواحدية التى تشكل أساس كل التنوع والتعدد فى العالم . ويقول « لاو تسو » : " إن التاو الذى يمكن الحديث عنه ليس التاو الأزلى ، والاسم الذى يمكن أن يسمى ليس الإسم الأزلى ، والمجرد من الإسم هو أصل السماء والأرض أما المسمى فهو أم كل الأشياء "[١] .

يقول « لاو تسو » : فى الفصل الأول من الطريق إلى الفضيلة « التـاو » الذى يمكن أن نخبر عنه ، ليس هو التاو الأبدى . والإسم الذى يمكن أن يسمى به ، ليس هو الإسم الأبدى . ما لا اسم له ، هو بداية السماء والأرض ، أما الذى له اسم فهو الأم لعشرة آلاف شيء لو تجردت من الرغبة لعاينت المجهول ، لو اتبعت الرغبة ، لما شاهدت سوء الظاهر الاثنان يخرجان من نفس المصدر ، ويختلفان فى الاسم ، ويبدو هذا وكأنه ظلمه ، ظلمة فى داخل ظلمة . هى البوابة لكل المجهول »[٢] .

ويقول فى الفصل الرابع :

« التاو » وعاء فارغ لايمتلىء أبداً ، يصب فيه ولايمتلىء أبداً . أيها النبع الذى لاقرار له لعشرة آلاف شيء ! .

لايستوعب جوهرك ... خفف عنا الحدة فى الأشياء ، وأحلل لنا العقدة وأحمنا من بهرة الضياء ..

يا أيها المختبىء فى الأعماق ، وحاضر أبداً ... أنا لا أعرف من أين تأتى يا أول كل الأباطرة » [٣].

" وتكمن أهمية « التاو » فى إدراك أن هناك شيئًا سابقًا ومتقدمًا على الأشياء المختلفة المحددة الموجودة فى العالم ، شيئًا يضفى الوحدة على الأشياء الموجودة ، والتى تحدد وجود كل

---

١ - جون كولر : مرجع سابق ، ص ٣٧٩ .

٢ - لوتسو : الطريق إلى الفضيلة ، ترجمة : علاء الديب ، دار سعاد الصباح ، سنة ١٩٩٢ ، ص ٦ .

٣ - المرجع السابق ، ص ١٠ .

شيء ، ووظيفته على وجه الدقة ، أما ماهو ذلك الشيء فأمر لايمكن بالطبع ، أن يقال ، ذلك أن كل مايمكن الحديث عنه محدود محتوم ، بينما لايمكن أن يقال إن المصدر محدود محتوم ، ذلك أنه هو نفسه الذى يضع القيود والحتميات " [١].

٢ – الدعوة إلي السكينة والهدوء :

يميل « لاو تسو » إلى السكون والهدوء والاستسلام ، وهو أساس العقيدة التاوية فى إيمانها بالطبيعة ، والدعوة للعودة إليها ، لتكون مرشداً وهادياً للناس ... إن السكينة والهدوء تعنى أن يعيش الناس قانعين بما لديهم غير متطلعين إلى ماهو فوق ماتعطيه الطبيعة. يقول فى ذلك :

" إن كثرة النواهى والمحرمات فى المملكة تزيد من فقر الأهلين ، وكلما زاد عدد الأدوات التى تضاعف من كسبهم زاد نظام الدولة والعشيرة اضطراباً ، وكلما زاد ما يجيده الناس من أعمال الختل والحذق زاد عدد ما يلجأون إليه من حيل غريبة ، وكلما كثرت الشرائع والقوانين كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق . ولهذا قال أحد الحكماء : لن أفعل شيئًا ، فيتبدل الناس من تلقاء أنفسهم ، ولن أظهر شيئًا من المطامع فيصل الناس من تلقاء أنفسهم إلى ماكانوا عليه من سذاجة بدائية ، وسأنظم الدولة الصغيرة القليلة السكان بحيث إذا وجد فيها أفراد للواحد منهم من الكفايات ما لعشرة رجال أومائة رجل فلن يكون لهؤلاء الأفراد عمل وسأجعل الناس فيها وإن نظروا إلى الموت على أنه شيء محزن مؤسف له – لايخرجون منها ، ومع أن لهم سفنًا وعربات فإنهم لايرون مايدعو إلى ركوبها ، ومع أن لهم ثياباً منتفخة واسعة وأسلحة حادة فإنهم لايجدون مايدعو إلى لبس الأولى أو استخدام الثانية ، وسأجعل الناس يعودون إلى استخدام الحبال المعقودة ، وعندئذ سيرون أن طعامهم الخشن وملابسهم البسيطة جميلة ، ومساكنهم الحقيرة مساكن للراحة ، وأساليبهم العادية المألوفة مصادر للذة والمتعة " [٢] .

٣ – الأخلاق :

الأخلاق هى الجوهر الحقيقى فى فلسفة « التاو » وهذا طبيعى باعتبارها مذهب دينى فلسفى شرقى .. ونستطيع من خلال أقواله أن ندرك أهم الفضائل الى يدعو إليها . فمن ذلك:

---

١ – جون كولر : مرجع سابق ، ص ٣٨ .

٢ – سليمان مظهر : مرجع سابق ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

١ - الخير الأعلى كالماء ... ينفع أشياء كثيرة ولكنه يتخذ مواقع مظلمة يحتقرها الناس .

٢ - ليس الخير فى أن يستحوذ المرء على كل مايريد ، الخير فى أن يقف حيث يجب .

٣ - فى الكلام الكثير سآمة عظمى . الأفضل التزام الصمت .

٤ - تقدر عظمة الخطاب بصدقه .

٥ - بعدم تصديق امرىء تصيره كذابًا .

٦ - تقاس عظمة الصداقة بالحب .

٧ - الثروة والقوة والكبرياء تترك إرثها من الهلاك .

٨ - المنة تجلب المشقة مكانها .

٩ - أكثر من يتعذب هو الأكثر أنانية .

١٠ - عندما ظهر المكر والحيلة ساد نفاق كثير(١) .

هذه الأقوال تشير إلى فضائل : حب الخير ، الصدق ، الحب ، التواضع ، الدعوة إلى الإيثار ، رفض النفاق .

كما يدعو « لاوتسو » إلى :

١ - الشفقة والتعاطف

٢ - حسن التدبير .

" وثمة مبدأ رئيسي عند « لاوتسو » يقضى بانسجام اتجاهات المرء الخلقية مع نواميس الكون الأساسية والحرص على الابتعاد عن التمرد عليها "(٢) .

- السياسة :

نستطيع أن نستخلص من أقوال لاوتسو الكثير من المبادىء السياسية التى نادى بها . ومن هذه المبادىء :

١ - الحاكم الحكيم هو ذاك الحاكم الذى ينتهج الطريق الطريق السوى ويلتزم الحق فى أفعاله .

---

١ - جوزيف كاير : مرجع سابق ، ص ٢٤٧ ، ١٤٨ .

٢ - فؤاد شبل : مرجع سابق ، ص ٢٢٤ .

٢ – علاقة الحاكم بالشعب يجب أن تسودها العدالة والحب وذلك لايتحقق إلا إذا أنكر الحاكم ذاته . يقول « لاوتسو » .

« الحاكم ليس له قلب يختص به ... بل يعد قلب الشعب قلبه

أنا خير مع الأخيار ... ومع الأشرار أيضًا خير .

أنا أصدق الصادقين ... والكاذبين أيضًا أصدقهم

بذلك أتلقى الثقة ...

الحكيم يقيم فى المملكة والخوف يملأ قلبه ... من أجل المملكة يبلد حسه الأجناس المائة تسدد أبصارها وأسماعها إليه ... وهو يلقى الجميع وكأنهم أطفاله [١] .

نبذ الحروب والدعوة إلى السلام ، يقول فى ذلك :

" من كل الأشياء ... الأسلحة هى أدوات الشر . مكروهة من الكائنات لذلك فإن الحكيم (الذى يسير على الطريق) لايسكن قريبًا منها .

إن وجد النبيل فى بيته فهو يفضل اليسرى ... وإن استخدم السلاح فهو يفضل اليمنى ..

الأسلحة هى أدوات الشر .. ليست أدوات الرجل النبيل ... إنه لايلجأ إليها إلا مضطراً..

وداعة السلام مثله الأعلى .. إذا انتصر لم يجد فى الانتصار جمالاً ... لأن من يجده جميلاً .. يفرح بقتل غيره من البشر ... ومن يفرح بقتل غيره من البشر ... لايصح أن يفرض إرادته على المملكة . عندما يقتل الناس جماعات .. يندبونهم فى يأس وحزن ... ومن ينتصر فى المعركة ... فعليه أن يحتفل بانتصاره كما يحتفل بجنازة[٢] .

بهذا العرض لآراء « لاوتسو » نكون قد وصلنا إلى نهاية عرضنا لأديان الصين وفلسفة حكمائها ... والتى جاءت تعبيراً عن المجتمع الصينى الذى تشكل وفق ظروف بيئية ذات أبعاد جغرافية وتاريخية جعلت لهذا الشعب خاصية متميزة ولفلسفته مذاقًا خاصًا ، صحيح

---

١ – لوتسو : الطريق إلى الفضيلة : ترجمة د. عبد الغفار مكاوي ، الألف الكتاب الأولى سنة ١٩٦٧ ، ص ١٢٩ .

٢ – المرجع السابق ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

أننا يمكن نجد أوجه شبه بينها وبين أديان وفلسفات الشرق القديم بصفة خاصة إلا أنها تبقى في النهاية ذات طابع خاص متمايز .

وبعرض أديان الصين وفلسفتها نكون قد وصلنا إلى نهاية البحث في أديان الشرق القديم مضافًا إليها الديانة المصرية القديمة . وقد حاولنا من جانبنا أن نقدم صورة عامة ومجملة تفتقد إلى بعض التفاصيل التي لاتتسع لها مثل هذه الدراسة المدخلية لتاريخ الأديان .

الباب الثالث

الأديان السماوية

الفصل الأول : الديانة اليهودية .

الفصل الثاني : الديانة المسيحية .

الفصل الأول
الديانة اليهودية

اليهودية إحدى الديانات السماوية ذات المكانة الهامة فى تاريخ الأديان ، ذلك أنها من أقدم الديانات التوحيدية التى مازال لها وجود حتى اليوم ، ولأن لها روابط عقدية مع ديانات وضعية أخرى سماوية سواء بالسلب أو الإيجاب ، واليهود أتباع هذه الديانة كانت لهم سياسات وتصرفات وأفكار أثرت إلى درجة كبيرة فى مجرى التاريخ العام للعالم ؛ فإن هذا ما يدفعنا لدراسة هذه الديانة لكشف الحقائق والأساطير التي اشتملت عليها أسفارهم المقدسة وما أضافوه إلى هذه الأسفار من كتابات حظيت بنفس قداسة الأسفار بالإضافة إلى تفسيراتهم للتاريخ .

أولاً : النشأة والتطور :

المرحلة الأولى : لقد احتوت أسفار العهد القديم على تاريخ بنى إسرائيل ، الذى يرجع نسبهم إلى يعقوب بن اسحق بن إبراهيم ... لذلك فقد حرص كتاب اليهود على تحديد البداية لنشأتهم بنزوح سيدنا إبراهيم إلى أرض كنعان (فلسطين) . وهذا فيه كثير من التجنى والبعد عن الحقيقة ، يقول ندرة اليازجى : " تخبرنا التوراة أن قصة اليهود تبدأ بقصة إبراهيم. فما هى علاقة إبراهيم باليهود ؟ لم يكن إبراهيم يهوديًا بل كان مؤمنًا بالله ، كان إبراهيم كلدانيًا تحققت عنده الرؤيا والتجربة الروحية ، فخرج على تقاليد قومه وأهله "[1] فنسبة إبراهيم عليه السلام إلى اليهودية أو محاولة اليهود إرجاع أصولهم التاريخية إليه فيه كثير من الخطأ والتجنى ؛ يشهد بذلك التناقض الذى يسود إصحاحات العهد القديم فى حديثها عن إبراهيم عليه السلام ، جاء فى الإصحاح الحادى عشر : " وأخذ تارح أبرام ابنه ولوطًا بن هاران ابن ابنه وساراى كنته امرأة إبرام ابنه ، فخرجوا معًا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك ، وكانت أيام تارح هناك مئتين وخمس سنين ومات تارح فى حاران "[2] وهذا يعنى أن الذى فكر فى الذهاب إلى أرض كنعان هو تارح أبو إبراهيم .

---

١ – ندرة اليازجى : رد على اليهود ، دمشق سنة ١٩٨٤ ، ص ٤٤ .

٢ – العهد القديم : الإصحاح ١١ : ٣١ ، دار الكتاب المقدس ، القاهرة .

ويأتى الإصحاح الثانى عشر وينسب أمر الانطلاق إلى أرض كنعان إلى أمر الرب . فيقول : " وقال الرب لإبرام أذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك ، فاجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك ، وتكون بركة ، وأبارك مباركيك . ولاعنك ألعنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض . فذهب إبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط . وكان إبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران . فأخذ إبرام ساراى امرأته ولوطًا ابن أخيه وكل مقتنياتهما التى اقتنيا والنفوس التى امتلكا فى حاران . وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان . فأتوا إلى أرض كنعان . واجتاز إبرام فى الأرض إلى مكان شكيم " [(١)].

أما الإصحاح الخامس عشر فيؤكد نفس المعنى الذى جاء فى الإصحاح الثانى عشر . يقول الإصحاح الخامس عشر . " وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها " [(٢)].

وعلى الرغم من الغموض والتناقض الذى يحيط بأمر انطلاق إبراهيم إلى أرض كنعان إلا أن ما نود أن نؤكده أن هذا الزعم القائل بنسبة اليهود إلى إبراهيم زعم باطل . وقد ذهب أكثر الباحثين إلى أن هذه الرحلة تمت حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م . ويرجع بعضهم حدوثها سنة ١٨٥٠ق.م[(٣)].

ويركز كتاب اليهود على إقحام سيرة إبراهيم عليه السلام وعقيدته فى تطور الديانة اليهودية لدرجة أنهم جعلوه على رأس الآباء الذين سبقوا موسى عليه السلام فى تأسيس العقيدة .

وننتقل من رحلة إبراهيم عليه السلام الذى غادر أرض كنعان بعد ذلك إلى مصر ، كما نقف على رحلة يعقوب « إسرائيل » ودوره فى تاريخ اليهود . لقد حرص اسحق عليه السلام أن لايتزوج من أرض كنعان تنفيذاً لوصية إبراهيم عليه السلام . جاء ذلك فى الإصحاح الرابع والعشرين " وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولى على كل ماكان له . ضع يدك تحت فخذى. فاستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لاتأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا

---

١ - الكتاب المقدس : سفر التكوين ١٢ : ١ - ٧ .

٢ - سفر التكوين : الإصحاح ١٥ : ٧ .

٣ - د. أحمد شلبى : اليهودية ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٩٢ ، ص ٥٧ .

ساكن بينهم . بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني اسحق " [١] ونفس الشيء فعله اسحق حين أوصى بعدم زواج ابنه يعقوب من أرض كنعان . جاء في الإصحاح الثامن والعشرين " فدعا اسحق يعقوب وباركه وأوصاه وقال له : لاتأخذ زوجة من بنات كنعان. قم اذهب إلى فدان أرام إلى بيت بتوئيل أبي أمك وخذ لنفسك زوجة من هناك من بنات لابان أخي أمك " [٢].

أليس في ذلك دلالة على أن إبراهيم ونسله لم يكونوا واثقين من شعب كنعان ؟ وقد أدى بهم ذلك إلى العزلة داخل أرض كنعان . ومن المؤشرات التي تؤكد انعدام الثقة بين العبرانيين وبين الكنعانيين . الخروج من أرض كنعان إلى مصر . صحيح أنهم عادوا مرة أخرى إلى أرض كنعان إلا أن عزلتهم صارت سمة من سمات الشخصية اليهودية .

متى هاجر يعقوب وبنيه إلى أرض مصر ؟

" يرى بعض المؤرخين أن يعقوب عليه السلام هاجر بأهله من فلسطين إلى مصر حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد . على أثر ماحاق بفلسطين من مجاعة ، وما أصاب مراعيها من جدب وقحط وجفاف ، وتفصيل لك أن أبناء يعقوب عليه السلام كانوا في هذه الفترة يترددون على مصر بقصد التجارة وطلب القوت ، فتعرفوا على أخيهم يوسف عليه السلام الذي كان في ذلك الوقت أمينًا على خزائن مصر فأكرمهم ، وطلب منهم أن يحضروا جميعًا ومعهم أبوهم يعقوب عليه السلام إلى أرض مصر ، ليعيشوا فيها ، ويهجروا فلسطين . وقد لبى يعقوب طلب يوسف عليه السلام فحضروا إلى مصر وكان عددهم ستًا وستين (٦٦) نفسًا سوى نسوة أولاده . وقد أكرم يوسف عليه السلام مثوى أبيه وإخوته . ورقق عليهم قلب ملك مصر في ذلك الوقت . وطلب بنو إسرائيل من ملك مصر أن يسكنهم في أرض جاسان ، فاستجاب لهم " [٣]. يقص علينا سفر التكوين هذه الوقائع في الإصحاح الخامس والأربعين والسادس والأربعين والسابع والأربعين . يقول في الإصحاح الخامس والأربعين : " فلم يستطع يوسف أن يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده فصرخ أخرجوا كل إنسان عني . فلم يقف أحد

---

١ - تكوين : إصحاح : ٢٤ : ٢ - ٥ .

٢ - تكوين : إصحاح : ٢٨ : ١ - ٣ .

٣ - الشيخ محمد السيد طنطاوي : بنو إسرائيل في القرآن والسنة ، دار الشروق ، سنة ١٩٩٧ ، ص ١٥.٢٤.

عنده حين عرف يوسف أخوته بنفسه . فأطلق صوته بالبكاء فسمع المصريون وسمع بيت فرعون. وقال يوسف لأخوته أنا يوسف أحي أبى بعد . فلم يستطع أخوته أن يجيبوه لأنهم ارتاعوا منه . فقال يوسف لاخوته تقدموا إلى فتقدموا . فقال أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه إلى مصر . والآن لا تتأسفوا ولاتغتاظوا لأنكم بعتمونى إلى هنا . لأنه لاستبقاء حيوة أرسلنى الله قدامكم . لأن للجوع فى الأرض الآن سنتين . وخمس سنين أيضًا لاتكون فيها فلاحة ولا حصاد . فقد أرسلنى الله قدامكم ليجعل لكم بقية فى الأرض وليستبقى لكم نجاة عظيمة"[١].

هكذا كانت بداية اللقاء ثم أمرهم بعد ذلك بالعودة إلى أرض كنعان للعودة بأبيهم إلى مصر جاء فى سفر التكوين : " أسرعوا وأصعدوا إلى أبى وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف . قد جعلنى الله سيداً لكل مصر . أنزل إلىَّ . لاتقف ، فتسكن فى أرض جاسان وتكون قريبًا منى أنت وبنوك وبنو بنيك وغنمك وبقرك وكل مالك "[٢] وبالفعل نفذ يعقوب وبنيه وقبلوا دعوة يوسف . جاء فى الإصحاح السادس والأربعين : " فقام يعقوب من بئر سبع . وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهم ونساءهم فى العجلات التى أرسل فرعون لحمله . وأخذوا مواشيهم ومقتناهم الذى اقتنوه فى أرض كنعان وجاءوا إلى مصر "[٣].

هكذا وصل يعقوب إلى مصر مع بنيه وأعطاه يوسف الأرض التى سكنها فى أخصب بقعه.

" أما تاريخ دخول يعقوب (إسرائيل) مصر فيحدد بالتقريب سنة ١٧٠٠ ق.م حيث عاصروا فى مصر :

كل حكم الهكسوس (١٧٠٠ - ١٥٧٠ ق.م) .

كل ملوك الأسرة الثامنة عشر (١٥٧٠ - ١٣٠٠ق.م) الذين منهم تحتمس الثالث ، وأمينوفيس الرابع ، وإخناتون .

وبعضًا من ملوك الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٠-١٢٠٠ق.م) ومنهم رمسيس الأول ، وسيتى الأول ، ورمسيس الثانى ثم الخروج فى أيام ملكه حوالى سنة١٢٨٠ق.م تقريبًا "[٤].

---

١ - تكوين : ٢٥ : ١ - ٨ .

٢ - تكوين : ٤٥ : ٩ - ١١ .

٣ - تكوين : ٤٦ : ٥ - ٧ .

٤ - الأب متى المسكين : تاريخ إسرائيل : دير القديس أنبا مقار ، سنة ١٩٩٧ ، ص ٢١ ، ٢٢ .

المرحلة الثانية : الخروج من مصر :

خرج الإسرائيليون من مصر حوالى سنة ١٢١٣ ق.م على يد منفتاح الذى تعقبهم وقضى عليهم فى مصر . لماذا ؟

كان الخروج من مصر بقيادة « موسى بن عمران بن قاهات بن لاوى بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم الخليل ، ولد سنة ١٥٤٨ ق.م فى أول حكم الملك « أمنوفيس الأول » وآخر حكم الملك « أحمس الأول» اللذين اشتدا فى اضطهاد الرعاة من بنى إسرائيل وتسخيرهم وإذلالهم مع الأسرى وغيرهم ، بعد خروج الهكسوس من مصر . وأمر القابلات المولدات بإلقاء الأطفال الذكور من أولادهم فى اليم عقب ولادتهم ، واستبقاء الإناث " [١].

لقد تغيرت معاملة المصريين لهم وبدأ عصر الاضطهاد . وهذا مايؤكده التاريخ « إن سيرة بنى إسرائيل بعد يوسف فى مصر وخروجهم منها إلى حلولهم فى شرق الأردن مذكورة بأساليب متنوعة فى أسفار الخروج والعدد وتثنية الاشتراع من الأسفار الخمسة الأولى . والسفر الرابع من الأسفار العائدة إلى حقبة موسى وهو سفر الأحبار الذى هو تشريعى فى الدرجة الأولى متصل كذلك بهذه الحقبة .

ولقد ذكر الإصحاح الأول من سفر الخروج ماكان من نمو بنى إسرائيل وتكاثرهم وامتلاء الأرض منهم وخشية ملك مصر من عواقب ذلك واضطهاده لهم وتسخيره إياهم فى بناء مدن «فيتوم » و « رعمسيس » وتشغيلهم بالطين واللبن والأعمال الشاقة الأخرى ، وأمره للقابلات العبرانيات بقتل كل ذكر يولد لهم مما يتطابق بعضه مع ما قرىء من أوراق البردى ... والراجح أن حالة بنى إسرائيل تبدلت بعد تقويض حكم الهكسوس فى القرن السادس عشر وقيام الإمبراطورية المصرية . ويستدل من أوراق البردى المذكورة أن تسخيرهم واضطهادهم قد بلغ الذروة فى عهد رمسيس الثانى أعظم ملوك الأسرة التاسعة عشرة التى حكمت حسب تقدير «برستيد » من سنة ١٣٥٠ - ١٢٥٠ق.م وحسب تقدير « شارويم » من سنة ١٤٦٢ - ١٢٨٨ق.م »[٢].

---

١ - غطاس عبد الملك : رحلة بنى إسرائيل إلى مصر الفرعونية والخروج ، دار الهلال ص ١٧٨ .

٢ - محمد عزة دروزة : تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، سنة١٩٦٩ ، ص٦٥ .

" وقد حكى القرآن الكريم فى كثير من آياته نماذج من العذاب الذى أنزله فرعون مصر وجنده ببنى إسرائيل ، من ذلك قوله تعالى فى سورة إبراهيم ﴿ وإذ قال موسى لقومه أذكروا نعمة الله عليكم إذ نجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلك بلاء من ربكم عظيم ﴾ (إبراهيم : ٦) .

لكن ما الذى دفع حكام مصر لهذا الموقف واضطهاد بنى إسرائيل ؟ يوضح ذلك الدكتور أحمد بدوى عند وصفه لعلاقة المصريين ببنى إسرائيل فيقول : " من الثابت فى تاريخ مصر – بناء على ماجاء فى كتب السماء من ناحية ، وماشهدت به آثار الفراعنة من ناحية أخرى – أن (العبرانيين) قد عرفوا مصر منذ أيام الدولة الوسطى على الأقل . يجيئونها أول الأمر لاجئين، يطلبون الرزق فى أرضها ، ويلتمسون فيها وسائل العيش الناعم والحياة السهلة الرضية بين أهلها الكرام . ثم يجيئونها أسارى فى ركاب فرعون كلما عاد من حروبه فى أقاليم الشرق ظافراً منصوراً . فينزلهم حول دور العبادة يخدمون فى أعمال البناء ، ويعبدون أربابهم أحراراً ، لم يكرههم أحد على قبول مذهب أو اعتناق دين وتطيب لهم الإقامة فى مصر، وتستقيم لهم فيها أمور الحياة ثم تنزل بالمصريين بعض الشدائد ، وتحل بديارهم بعض المحن والنوائب ، فيتنكر لهم بنو إسرائيل ويتربصون بهم الدوائر . ويعملون على إفقارهم ، وإضعاف الروح المعنوية بين طبقات الشعب ، ابتغاء السيطرة على وسائل العيش فى هذا القطر ، ليفرضوا عليه سلطانهم ، تارة عن طريق الضغط الاقتصادى ، وأخرى عن طريق الدين والعقيدة "[١] إن ماحدث لبنى إسرائيل فى مصر ودفعهم إلى الخروج منها كان نتيجة طبيعية لسلوكيات هذا الشعب .

المرحلة الثالثة : موسى وبنو إسرائيل فى سيناء :

" كان رحيلهم من مصر بقيادة موسى ، فى ليلة الخامس عشر من شهر نيسان سنة ١٤٦٨ق.م ، بعد أن قضوا فى مصر مائتى وعشر سنين ، منذ دخول يعقوب وبنيه إلى مصر فى زمان يوسف ١٦٧٨ق.م ، وكانوا إذ ذاك جميعًا لايتجاوزوا السبعين نفسًا ، بخلاف يوسف وولديه اللذين ولدا فى مصر ، وقد اجتازوا النصف الأخير من تلك المدة فى ضنك ومذلة ، بعد

---

١ – د. أحمد بدوى : موكب الشمس جـ ٢ ، القاهرة ، ص ٥٨٨ ، ٥٨٩ .

أن اعتلى الملك « أحمس الأول» عرش مصر وطرد الهكسوس . وأما المدة التى قضاها بنو إسرائيل فى مصر ، فقد ذكرت فى التوراة على أنها ٤٣٠ سنة فى أكثر من موضع "[١].

عبر الإسرائيليون البحر من مصر إلى سيناء وقد شاهدوا بأنفسهم غرق فرعون . وبدأت مرحلة جديدة فى سيناء . يقول الأب متى المسكين : " رحلة مريرة دامت فى التيه والترحال فى برارى وجبال سيناء أربعين سنة ، أظهر الله فيها لهذا الشعب إحسانات لاتعد ولاتحصى ، وتحمل منهم موسى ما لايطيق حملة بشر ، مع أنه كان حليمًا جداً : " وأما الرجل موسى فكان حليمًا جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض " (عدد ١٢:٣) وبالرغم من هذه الوداعة وهذا الحلم الفائق ضج موسى من أخلاق هذا الشعب وصرخ إلى الله : " فقال موسى للرب : لماذا أسأت إلى عبدك ؟ ولماذا لم أجد نعمة فى عينيك ؟ حتى أنك وضعت ثقل جميع هذا الشعب على ؟ لعلى حبلت بجميع هذا الشعب ؟ أو لعلى ولدته حتى تقول لى : أحمله فى حضنك كما يحمل المربى الرضيع إلى الأرض التى خلفت لآبائه ؟ " (عدد ١١ : ١١ ، ١٢).

وبسبب حماقة هذا الشعب غضب عليهم الله ، فمات جيل الآباء كله فى سيناء ، ولم يدخل منه إلى أرض كنعان إلا اثنان : « يوشع بن نون » و « كالب بن يفنى » مع بقية الشعب المولود فى الطريق ، حتى موسى لم يدخل أرض كنعان بل رآها من بعيد وحياها ومات على الرجاء . ولكن كان قصد الله واضحًا من رحلة التيه وموت جيل بأكمله فى سيناء ، إذ كان يلزم لهذا الشعب أن تتصفى أخلاقه وعاداته غير المرغوب فيها من كل المؤثرات السلبية التى اكتسبوها من مصر على مدى أربعة قرون . كما كانت برية سيناء بهدوئها وانعزالها الكلى عن العالم البيئة المفضلة أمام الله لكى يلقن الشعب أصول العبادة الجديدة ، وتنضبط أخلاقه وسلوكه بحسب نواميس الله .

وقد اختلفت الأبحاث بخصوص الطريق الذى اتخذه موسى فى رحلته إلى أرض كنعان ، ولكن الطريق الأكثر ترجيحًا هو الذى يمر حول شبه جزيرة سيناء بمحاذاة البحر الأحمر - مبتدئًا من خليج السويس وليس العقبة - مما يتوافق مع الأربعين سنة التى قضوها فى الترحال ، وبذلك تكون منطقة « ايليم » المذكورة فى سفر الخروج هى الآن واحة أو وادى « غرنل » الذى

---

١ - غطاس عبد الملك : مرجع سابق ، ص ١٨٣ .

يبعد عن السويس ٦٣ كم ، وبحيث تكون « دفقة » هي الآن مناجم « سرابيت الخادم » (عدد ٢٣ : ١٢) ، وحيث تكون « رفيدين » هي الآن وادى « رفايد »[١] وفى طريقهم عبر سيناء متجهين إلى الشام وقعت منهم بعض الأفعال القبيحة . من بين هذه الأفعال :

١ - بعد أن سار بهم موسى - عليه السلام - فى أرض سيناء فترة من الوقت ، جاعلاً وجهته أرض فلسطين من بلاد الشام ، ثاروا عليه وعلى أخيه هارون - عليهما السلام - وقالوا لموسى وهارون كما تحكى التوراة عنهم : - ليتنا متنا فى مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع فإنكما أخرجتمونا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع ... لماذا أصعدتانا من مصر ؟ من أجل أن نموت نحن وأولادنا ومواشينا بالعطش » (خروج : ١٦ :٣) .

٢ - بعد أن رأى بنو إسرائيل غرق فرعون بأعينهم ، وساروا مع موسى - عليه السلام - إلى بلاد الشام ، شاهدوا قومًا يعبدون أصنامًا لهم ، فما لبث بنو إسرائيل بعد مشاهدتهم لهؤلاء الوثنيين إلا أن قالوا لنبيهم موسى - عليه السلام - اجعل لنا أصنامًا نعبدها ، كما أن لهؤلاء أصنامًا يعبدونها وذلك لأن الوثنية التى عاشوا فيها فى مصر كانت مازالت عالقة فى نفوسهم الضعيفة ، وقى حكى القرآن الكريم عنهم هذه الرذيلة فقال تعالى ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون (١٣٨) إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ماكانوا يعملون (١٣٩) قال أغير الله أبغيكم إلهًا وهو فضلكم على العالمين (١٤٠) وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاد من ربكم عظيم ﴾ (الأعراف : ١٣٨ - ١٤١) .

٣ - خلال سير موسى بقومه فى صحراء سيناء إلى بلاد الشام ، واعد الله تعالى موسى أن يعطيه التوراة لتكون هدى لبنى إسرائيل بعد أربعين يومًا يصومها ، فلما حل الموعد ترك موسى بنى إسرائيل مستخلفًا عليهم أخاه هارون ، وذهب إلى الطور لتلقى التوراة . وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك فقال تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولاتتبع سبيل المفسدين ﴾ (الأعراف : ١٤٢)

---

١ - متى المسكين : مرجع سابق ، ص ٣١ ، ٣٢ .

لكن ماذا حصل من بنى إسرائيل بعد أن تركهم موسى لتلقى التوراة ؟

لقد حصل منهم أنهم انتهزوا لين جانب هارون - عليه السلام - معهم ، فعبدوا عجلاً جسداً له خوار ، صنعه لهم السامرى من حلى نسائهم التى استعاروها من قبط مصر ، وحاول هارون أن يصدهم عما ترددوا فيه من ضلال وكفر ، ولكنهم أعرضوا عنه قائلين - كما حكى القرآن عنهم فى سورة طه - ﴿ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ (طه : ٩١) فلما اشتد عليهم فى النهى عن عبادة العجل تطاولوا عليه وكادوا يقتلونه .

٤ - بعد كل هذه الأحداث والإساءات من بنى إسرائيل " واصل بهم موسى - عليه السلام- سيره إلى أرض الشام ، وقبل أن يصل بهم إلى الأرض المقدسة التى كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة ، أمرهم أن يعدوا أنفسهم لدخولها وأن يوطنوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله ، واختار منهم اثنى عشر نقيبًا أمرهم أن يتقدموه فى دخول الأرض المقدسة ليعرفوا أحوالها وأحوال سكانها . ونفذ النقباء ماكلفهم به موسى - عليه السلام - ثم عادوا بعد تعرفهم على أحوالها وأحوال سكانها ، ليقولوا له : إن الأرض المقدسة تدر لبنًا وعسلاً ، إلا أن سكانها من الجبارين ، وأخذ كل نقيب يخذل جماعته عن دخولها ، إلا رجلين منهم فإنهما أمرا بنى إسرائيل أن يطيعوا نبيهم موسى - عليه السلام - وأن يصمموا على دخول الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم ، وبشرهم بالنصر إذ هم اعتمدوا على الله تعالى وأخلصوا النية للجهاد . ولكن بنى إسرائيل عصوا نصيحة الرجلين الناصحين لهم ، كما عصوا نبيهم موسى - عليه السلام - فكانت نتيجة جبنهم وعصيانهم أن ابتلاهم الله تعالى بالتيه أربعين سنة .

وقى حكى القرآن الكريم بأسلوبه البليغ هذه القصة من سورة المائدة فقال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكًا وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين (٢٠) ياقوم أدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولاترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين (٢١) قالوا ياموسى إن فيها قومًا جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن خرجون منها فإنا داخلون (٢٢) قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين (٢٣) قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون (٢٤) قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾[1] .

---

١ - د. محمد السيد طنطاوى : مرجع سابق ، ص ٢٩ - ٣١ .

هذا مجمل حال بنى إسرائيل مع موسى - عليه السلام - فى سيناء ... ومات موسى وهارون - عليهما السلام - قبل دخول الأرض المقدسة .

المرحلة الرابعة : دخول الأرض المقدسة :

" حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أغار بنو إسرائيل بقيادة « يوشع » خليفة موسى بعد وفاته على كنعان (فلسطين وما إليها وهى الأرض المقدسة التى وعدهم الله بها كما يزعمون) واحتلوها واستولوا على جميع مافيها من خيرات وثروات بعد أن أبادوا معظم أهلها واستعبدوا ما أبقوا عليه منهم "[١] كيف تم لهم ذلك ؟ .

يجيب الأب متى المسكين على ذلك مستشهداً بما جاء فى العهد القديم سفر يوشع فيقول: "وكان بعد موسى عبد الرب أن الرب كلم « يوشع بن نون » خادم موسى قائلاً : موسى عبدى قد مات ، فالآن قم أعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم أى لبنى إسرائيل ... فوقف الكهنة حاملوا تابوت عهد الرب على اليابسة فى وسط الأردن راسخين ، وجيمع إسرائيل عابرون على اليابسة ، حتى انتهى جميع الشعب من عبور الأردن (يوشع ١:١ و ١٧:٣) كانت معجزة عبور الأردن على مستوى عبور البحر الأحمر ، تلك بعصا موسى وبأمر الرب وهذه بعبور تابوت عهد الرب أولاً والشعب من ورائه ، ثم سقطت أول المدن الكبرى على الشاطىء الآخر من الأردن - أريحا - بأيدى الشعب بدون حرب ، وكان ذلك تمهيداً جيداً لأذهان الشعب أنهم إن كانوا سيملكون فليس بقوتهم وذراعهم « وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافًا عظيمًا فسقط السور فى مكانه ، وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة » (يوشع ٦ ٢٠) .

حينئذ بدأت بعد ذلك « حرب الرب » إلتى أكمل بها وعده لموسى لامتلاك الأرض ، وكانت دموية بأقسى مايمكن التعبير »[٢] .

يقول ديورانت فى وصف هذه الحروب : " كما أن هزيمتهم للكنعانيين ليست إلا مثالاً آخر لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين ، وقتل المهاجمون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من بقى من نسائهم ، وجرت دماء القتلى أنهاراً ، وكان هذا القتل كما تقول نصوص الكتاب المقدس « فريضة الشريعة التى أمر بها الرب موسى »

---

١ - د. على عبد الواحد : مرجع سابق ، ص ٧ .

٢ - الأب متى المسكين : مرجع سابق ، ص ٥٢ .

و«زكاة للرب » ولما استولوا على مدينتين من المدن - «أريحا » و «عادى» - قتلوا من أهلهما ١٢,٠٠٠ رجل ، ولسنا نعرف فى تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف فى القتل والاستمتاع به ، ومثل هذه السهولة فى تعداد القتلى إلا فى تاريخ الآشوريين ، ويقال لنا «إن الأرض استراحت من الحروب أحيانًا » فقد كان موسى من رجال السياسة المتصفين بالصبر والأناة ، أما يوشع فلم يكن إلا جنديًا فظًا ، وقد حكم موسى حكمًا سليمًا لم تسفك فيه دماء، وذلك بما كان يقضى به من أحاديث جرت بينه وبين الإله ، أما يوشع فقد أقام حكمه على الطريقة الواقعية التى لا أثر فيها للعواطف حتى استولى اليهود على الأرض الموعودة»[1].

" وقصة دخول بنى إسرائيل بقيادة « يوشع » الأرض المقدسة قد أشار إليها القرآن الكريم فى آيات متعددة منها قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين (٥٨) فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون (٥٩) ﴾ [2].

وبهذا استطاع « يوشع » أن يبسط نفوذه على أرض كنعان ووجه الدعوة لاجتماع ممثلى الأسباط من كل الأطراف لإقامة العهد أمام الله لعباده « يهوه » وإعلان الخضوع لله ، فاجتمعوا فى « شكيم » فى وسط البلاد وأقاموا العهد ، ومن هذه اللحظة انقضى عهد الأسباط وبدأت إسرائيل كشعب موحد تحت قسم العهد وبدأ تاريخ شعب إسرائيل[3] . وهو تاريخ قصير ومختصر لم يستمر طويلاً على أرض فلسطين .

بهذا القدر من السرد التاريخى نكون قد وصلنا إلى معرفة البدايات الأولى لنشأة اليهودية كديانة ودولة ... صحيح أن هناك من الأحداث لتاريخية التى أعقبت ماذكرناه من أحداث إلا أننا نرى أن ماذكرناه فى هذا الصدد يحقق الهدف من دراستنا .

أشهر أسماء بنى إسرائيل :

لقد أطلقت على بنى إسرائيل عدة أسماء منها :

---

١ - ديورانت : مرجع سابق جـ٢ ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

٢ - د. محمد السيد طنطاوى : مرجع سابق ، ص ٣٣ .

٣ - متى المسكين : مرجع سابق ، ص ٦٠ .

١ - **العبرانيون** : أطلق هذا الاسم عليهم وفى سبب ذلك نجد ثلاثة آراء :

الـــرأى الأول : قيل أنهم سموا بالعبرانيين (أو بالعبريين) نسبة إلى إبراهيم - عليه السلام - فقد ذكر فى سفر التكوين باسم (إبراهيم العبرانى) لأنه عبر نهر الفرات وأنهار أخرى .

الرأى الثانى : ذهب إلى أنهم سموا بالعبريين نسبة إلى (عبر) وهو الجد الخامس لإبراهيم عليه السلام .

الرأى الثـالث : قال إسرائيل ولفنسون : " إن كلمة عبرى ترجع إلى الموطن الأصلى لبنى إسرائيل ، وذلك أنهم كانوا فى الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التى لاتستقر فى مكان بل ترحل من بقعة إلى أخرى بإبلها وماشيتها للبحث عن الماء والمرعى ، وكلمة عبرى فى الأصل مشتقة من الفعل الثلاثى عبر بمعنى : قطع مرحلة من الطريق ، أو عبر الوادى أو النهر من عَبْره إلى عَبْره ، أو عبر السبيل : شقها ، وكل هذه المعانى موجودة فى هذا الفعل سواء فى العربية أو العبرية ، وهى فى مجملها تدل على التحول والتنقل الذى هو من أخص ما يتصف به سكان الصحراء ، وأهل البادية ، فكلمة عبرى مثل كلمة بدوى أى : ساكن الصحراء أو البادية ، وقد كان الكنعانيون والمصريون والفلسطينيون يسمون بنى إسرائيل : بالعبريين ، لعلاقتهم بالصحراء ، وليميزوهم عن أهل العمران ، ولما استوطن بنو إسرائيل أرض كنعان وعرفوا المدنية والاستقرار صاروا ينفرون من كلمة عبرى التى كانت تذكرهم بحياتهم الأولى حياة البداوية والخشونة ، وأصبحوا يؤثرون أن يعرفوا ببنى إسرائيل فقط »[١].

٢ - إسرائيل : سموا بذلك نسبة إلى يعقوب - عليه السلام - الذى كان يطلق عليه اسم إسرائيل يقول الأب متى المسكين : « كلمة إسرائيل » باللغة العبرية تعنى « الله يجاهد » « Yisrael يسرائيل » ولكن أعطيت ليعقوب بن اسحق بن إبراهيم ، بمعنى أنه جاهد مع الله وغلب ، وذلك بعد ليلة جهاد فى الصلاة وتوسل حتى الفجر : « فقال له : ما اسمك ؟ فقال: يعقوب ، فقال : لايدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » (تك ٣٢:٢٧ . ٢٨) ومنذ ذلك الحين ويعقوب يسمى : « إسرائيل » ثم أطلقت كلمة « إسرائيل » على أسباط يعقوب الاثنى عشر « بنى إسرائيل » [٢].

---

١ - د. إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ، ص ٧٧ .

٢ - متى المسكين : مرجع سابق ، ص ٢١ .

٣ - **يهود** : عن سبب تسميتهم بهذا الاسم ذكر العلماء هذه الآراء :

الرأى الأول : قيل إنهم سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل ، وقالوا « إنا هدنا إليك» أى : تبنا ورجعنا .

الرأى الثانى : قيل إنهم سموا بذلك ، لأنهم يهودون ، أى يتحركون عند قراءة التوراة .

الرأى الثـــالث : قيل إنهم سموا بذلك نسبة إلى « يهوذا » الابن الرابع ليعقوب عليه السلام [١].

نحن أمام ثلاثة أسماء أطلقت على بنى إسرائيل فأى الأسماء أكثر دلالة ؟ يقول الدكتور جواد على : « ولفظ يهود أعم من لفظ عبرانيين وبنى إسرائيل ، ذلك أن لفظة يهود تطلق على العبرانيين وعلى غيرهم مما دخل فى دين يهود وهو ليس منهم ، وقد أطلق الإسرائيليون وأهل يهوذا لفظ يهود على أنفسهم ، وعلى كل من دخل فى ديانتهم ، تمييزاً لهم عن غيرهم ممن لم يكن على هذا الدين وهم الغرباء » [٢].

موسى الكليم : ١٥٤٨ :

هو موسى بن عمران بن قاهات بن لاوى بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم الخليل ، ولد سنة ١٥٤٨ ق.م .

وقد وردت قصة ميلاده فى العهد القديم الاصحاحات من الثانى إلى الرابع عشر من سفر الخروج . وقد عرض قصة الميلاد هذه محمد عزة دروز ملخصًا فقال : « وقد احتوى خبر ولادة موسى وإلقائه باليم خوفًا من قتله والتقاطه من قبل بنت فرعون وتربيته فى بيت الملك وقتله مصريًا اعتدى على عبرانى وفراره إلى مدين وإسقائه غنم بنات كاهنها (شعيب) وزواجه من « صفورة » إحدى البنات وإقامته فى مدين إلى أن هلك الملك الذى وقع حادث قتل المصرى فى عهده »[٣] .

وقد ذكر القرآن الكريم قصة ميلاد موسى - عليه السلام - فى سورة القصص .

---

١ - د. محمد لسيد طنطاوى : مرجع سابق ، ص ١٢ .

٢ - د. جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ١ المجمع العلمى العراقى ، ص ٩٥ .

٣ - دروزة : مرجع سابق ، ص ٦٦ .

قال تعالى ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولاتخافى ولاتحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين (٧) فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنًا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين (٨) وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لايشعرون (٩) وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين (١٠) وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون (١١) وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون (١٢) فرددنه إلى أمه كى تقر عينها ولاتحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون (١٣) ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك نجزى المحسنين ﴾(١٤) .

وتتواصل الأحداث ويرى موسى من فضل ربه الكثير وهذا ما تتحدث عنه أيضًا الآيات فى سورة طه . يقول تعالى ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى (٣٧) إذ أوحينا إلى أمك مايوحى(٣٨) أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى (٣٩) إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولاتحزن وقتلت نفسًا فنجيناك من الغم وفتناك فتونًا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى﴾ (٤٠) .

بعد أن قتل موسى المصرى انتصاراً لأحد العبرانيين ذهب إلى مدين وهناك فى أرض مدين التقى بكاهنها « شعيب » وكان له سبع بنات تزوج من إحداهن صفورة مقابل أن يرعى الغنم ثمان سنوات أو عشر .

وظل موسى يرعى الغنم فى « مدين » حتى قارب الثمانين من عمره فى عهد الملك « تحتمس الثالث » فرعون مصر ، وهو يفكر فى مذلة إخوته وعبوديتهم ، واستحوذ لك على تفكيره أينما حل ، حتى ظهر له الرب وناداه قائلاً : « هلم انزل إلى مصر ، وادخل إلى فرعون، واصعد أخوتك »وتحكى التوراة أنه حدث بعد تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات ، وتنهد بنو إسرائيل من العبودية فصرخوا ، فسمع الله أنينهم ، وتذكر ميثاقه مع إبراهيم واسحق ويعقوب .

وكان موسى إذ ذاك يرعى غنم حميه « يشرون بن رعوئيل » الكاهن ، فساق الغنم إلى ماوراء البرية حتى جاء إلى جبل « حوريب » فظهر له ملاك الرب كلهيب نار فى وسط علقة ،

فنظر فإذا العليقة تتقد ، فلما قرب ناداه الرب قائلاً ياموسى ، إنك بالواد المقدس فاخلع نعليك ، فغطى موسى وجهه وخاف وخلع حذاءه ، فقال له الرب : « رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم ، وقد أردت أن أنقذهم واصعدهم من تلك الأراضى إلى كنعان ، إلى أرض تفيض لبنًا وعسلاً » [١].

عاد موسى إلى مصر مرة ثانية وبدأ « يتجول بين هؤلاء المستضعفين المسترقين من اليهود يستحثهم على الثورة والتمرد ، أوعز إليهم أن يدعو آلاتهم ، وأن يتركوا نقل الأحجار وحريق الآجر . وبذا تحول موسى الأمير المصرى . والراعى البدوى إلى قائد عمال . وكان أول من نظم صناع الطين وكون منهم وحدة فى التاريخ كله .

وقدم موسى التماسًا لفرعون أن يطلق سراح أرقائه اليهود ، ولكن فرعون لم يأبه به ، بل قال له : بأى وجه جئت إلى بهذا الطلب الشاذ الغريب ؟ وقال موسى : جئت إليك بسلطان من ربى ، قال فرعون ومن ربك ؟ كم من الزمن حكم ، وكم من المدن غزا ، وأى الأسرار أزالها عن عرشها ليتبوأه ؟ وكما تقص أساطير الربانيين أجابه موسى : لقد كان إلهى قبل أن يوجد العالم ، وهو كائن بعد نهاية العالم ، وعندما يتجلى برحمته فالعاطفة هى رداؤه ، والحب تاجه، وعندما حقق العدالة فالنار سهمه ، واللهب حرابه ، والسحب هى تروسه ، والبرق سيفه.

ولكن كان فرعون جاحداً غليظ القلب تجاه إله موسى وشعبه ، فقال له : أما أنه توجد قوة عليا ، واحدة فى السماء وعلى الأرض ، وهذه القوة العليا هى أنا نفسى »[٢].

إن هذه الأحداث جعلت من موسى – عليه السلام – شخصية تمتلك الخبرة والبصيرة وأجرى الله على يده الكثير من المعجزات برهانًا على صدقه ودليلاً على رعاية الله له . خرج موسى من مصر – كما سبق القول – وعاش ومعه قومه من بنى إسرائيل فى البرية بسيناء .

وفى سيناء تجلى الرب على موسى ، وقد ذكرت الاصحاحات التاسع عشر إلى الحادى والثلاثين من سفر الخروج « تجليات الرب لموسى فى جبل سيناء وبعضها على مرأى ومسمع بنى إسرائيل وما ألقى إليه من وصايا وتشريعات دينية وتعبدية وخلقية ومدنية وأسرية »[٣]. وأبلغ موسى شعبه جميع كلام الرب وجميع الأحكام فاستجاب له الجميع .

---

١ – غطاس عبد الملك : مرجع سابق ، ص ١٨٠ .

٢ – د. عبد الجليل شلبى : مرجع سابق ، ص ١٧ .

٣ – دروزة : مرجع سابق ، ص ٧٢ .

ولقد أطلق على موسى - عليه السلام - كليم الله ذلك أن الله كان يخاطبه ويناديه باتفاق العهد القديم والقرآن الكريم فى إثبات ذلك . قال تعالى : ﴿ وهل أتاك حديث موسى (٩) إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى(١٠) فلما آتاها نودى ياموسى (١١) إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى﴾ (١٢) .

وقال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما ءاتيتك وكن من الشاكرين ﴾ (١٤٤) .

وقال تعالى فى سورة النساء : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليمًا ﴾ (١٦٤) .

هذا هو موسى بن عمران الذى أنزلت عليه التوراة وجاء برسالة ربه إلى بنى إسرائيل .

الكتب المقدسة عند اليهود :

أ - التوراة : العهد القديم :

التوراة كتاب منزل من عند الله عز وجل على موسى عليه السلام كما ذكر فى القرآن الكريم ، قال تعالى : { أنزل التوراة والإنجيل } (آل عمران : ٣) وقال { ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل } (آل عمران : ٤٨) وقال : { ومصدقًا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم } (آل عمران : ٥٠) .

وقال : { ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم } (المائدة : ٦٦) ومثل هذه الآيات كثير .

أما التوراة فى نظر اليهود فتطلق على أسفار موسى الخمسة أو « البانتاتيك » (وهى تحريف عن كلمة يونانية مركبة معناها الكتب الخمسة) وهى تمثل القسم الأول من العهد القديم هذا عن التوراة[١] .

فماذا عن العهد القديم ؟ يقول الدكتور محمد خليفة حسن « العهد القديم هو كتاب اليهود المقدس الذى يضم ثلاثة أقسام رئيسية هى : التوراة والأنبياء والمكتوبات وتسميته

---

١ - د. على عبد الواحد : مرجع سابق ، ص ١٣ .

بالعهد القديم أو العهد العتيق تسمية مسيحية غير مقبولة عند اليهود لأن فيها إشارة إلى أن العهد المعطى لبنى إسرائيل عهد قديم حل محله عهد جديد معطى للمسيحية الجديدة »[١] وفى ذات السياق يقول الدكتور على عبد الواحد وافى : « اعتمد اليهود فى أسفارهم تسعة وثلاثين سفراً أطلق عليها فى العصور المسيحية اسم « العهد القديم Ancien Testament » للتفرقة بينها وبين ما اعتمده المسيحيون من أسفارهم التى أطلقوا عليها اسم « العهد الجديد Nouveau Testament » واعتبروا هذه الأسفار التسعة والثلاثين أسفاراً مقدسة أى موحى بها » [٢].

وإذا كان اليهود يرفضون إطلاق اسم العهد القديم على كتابهم المقدس فما هى التسمية التى يرتضيها اليهود ؟ « أما التسمية اليهودية لكتاب العهد القديم فهى « كتاب العبرى The hebrew Bible » أو « الكتاب The Bible » ويعرف أيضًا باسمه العبرى « المقرا » أى « المقروء » كما يعرف اختصاراً بـ « التناخ » وهى اختصار التسمية العبرية للتوراة والأنبياء والمكتوبات »[٣] .

وقد دارت مناقشات حول علاقة هذه الأسفار بالوحى الإلهى . إلاّ إن البحث العلمى يثبت « أن الجزء الأول من الكتاب المقدس وهو المعروف بالعهد القديم لم يكن على هذا الحال التى نراها عليه الآن إلى زمن المسيح – عليه السلام – إذ يذهب الباحثون إلى أن الشطر الأكبر منه قد تم تدوينه فى الفترة التى فيما بين عزرا والفتح الرومانى ، وأن رجال الدين هم الذين قاموا بهذا العمل ، وأن القرن الأول الميلادى شهد الكتاب المقدس وهو لم يكن على ترتيبه الحالى ولم كتمل كما هو الآن » [٤].

ويحدثنا القس « سيكل سيل » عن جميع أسفار الكتاب وقانونيتها فيقول : " كان عند البابليين والمصريين واليونانيين عادة شائعة ، هى أن يكتبوا كتبهم المقدسة ويضعوها فى معابدهم للمحافظة عليها ، وكذلك كانت العادة عند العبرانيين (خر ١٠:٢٠ وتث ٩:٣١و٢٦) فإن لَوْحَى الوصايا العشر كانا قد وضعا فى تابوت العهد . وفى هذا المكان

---

١ – د. محمد خليفة حسن : مدخل نقدى إلى أسفار العهد القديم ، القاهرة ، سنة ١٩٩٦ ، ص ٩ .
٢ – د. على عبد الواحد : مرجع سابق ، ص ١٣ .
٣ – محمد خليفة : مرجع سابق ، ص ٩ .
٤ – د. الحينى : مرجع سابق ، ص ٢٠٥ .

بالذات وضعت التوراة فيما بعد (١ص ١٠ : ٢٥) ويظهر أن هناك سببًا وجيهًا للاعتقاد أن عملية الجمع والنسخ والحفظ كان قد قام بها الكهنة والأنبياء في المعابد ، وكان لكل نبي زمرة من التلاميذ يستعين بهم ، وأغلب الظن أن كتابة التاريخ الديني كانت بعض ماقام به الأنبياء وتلاميذهم . ويقول الكتاب المقدس إن عزرا كان قد أخذ على عاتقه درس الوثائق والسجلات ليميز بين الحقائق التاريخية الملهمة وغير الملهمة . وقد أطلق على هذه السجلات والوثائق بعد التثبت من صحتها وجمعها اسم « مدرش » (٢ أي ١٣:٢٢ ، ٢٤:٢٧)[١] ماذا يعني هذا الكلام ؟ أن أول مايعنيه أن هناك مدخلاً للجهد البشري في الكتابة والجمع والترتيب والتمييز بين بعض الوقائع وبعضها الآخر .

ومما يقوي ذلك ما قاله القس « سيكل سيل » أيضًا وهو يتحدث عن : كيف قبلت الأسفار؟ فيقول : " إن الوصايا العشر والأحكام الموجودة في (حز ٢٠: ٢٢ ، ٢٣ :٢٣) كانت أول كتاب منزل قبل به بنو إسرائيل على سفح جبل سيناء . وكان هذا الكتاب هو العهد الذي قطعه الله مع بني إسرائيل ، ويقول الكتاب : " وأخذ موسى كتاب العهد وقرأ في مسامع الشعب . فقالوا كل ماتكلم به الرب نفعل ونسمع له " (حز ٢٤ : ٧) .

أما الكتاب المنزل الثاني الذي قبل ، فقد كان سفر الشريعة – أي سفر التثنية الذي وجد في الهيكل في أيام « يوشيا » الملك سنة ٦٢١ ق.م . وكان للعثور على هذا الكتاب أثر هام في حياة الشعب فإنه تاب ورجع إلى الله ، كما أن الملك « يوشيا » قطع عهداً أمام الرب «لحفظ وصاياه وشهاداته وفرائضه بكل القلب وكل النفس» (٢ مل ٢٣ : ٣) .

وفي أيام عزرا الكاتب سنة ٤٤٦ ق.م . قبل كتاب الشريعة المؤلف من أسفار موسى الخمسة يقول نحميا " فأتى عزرا الكاتب بالشريعة أمام الجماعة من الرجال والنساء ... وقرأوا في السفر في شريعة الله ببيان وفسروا المعنى وأفهموهم القراءة (نح ٨ : ٢ و ٨) وهذه المرة أيضًا كما في المرة الثانية تاب الجميع إلى الله وتعهدوا بحفظ شريعته "[٢] .

من كل ما سبق نستطيع القول أن في الأسفار الخمسة الأولى من النصوص مايمكن رده إلى موسى – عليه السلام – وأنه عليه السلام سجل في ألواح مايسمى بالوصايا وأن هناك بعض الأسفار الأخرى قد وصلت عن طريق الأنبياء وتلاميذهم وبعض الكهنة .

---

١ – سيكل سيل : المرشد إلى الكتاب المقدس ، جـ١ ، مكتبة المشعل الإنجيلية ، بيروت سنة ١٩٥٨ ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

٢ – المرجع السابق : ص ٢٧ .

محتويات العهد القديم وترتيبها :

العهد القديم كتب بأكثر من لغة ورتبت أسفاره ترتيبات مختلفة وتفصيل ذلك فيما يلى :

١ - اختلف اليهود والمسيحيون فى الأسفار التى يضمها العهد القديم كما اختلف أحبار اليهود والباحثين حول نسبة هذه الأسفار وجمعها . وقد كان هناك اختلاف بين اليهود أنفسهم، ذلك لأن السامريين يخالفون سائر اليهود فى أنهم لايؤمنون إلا بالأسفار الخمسة وهى المصطلح عليها بالتوراة[١] .

٢ - يقول حبيب سعيد : " جمع الكهنة والكتبة الكتاب المقدس العبرى (أى العهد القديم) كما هو الآن بين أيدينا ، وذاع استعماله وقراءته بمعرفة الربيين والأحبار ، وقد قسم اليهود كتابهم المقدس إلى أقسام ثلاثة :

القسم الأول : « الناموس » أى التوراة - وهو الذى يشمل الأسفار الخمسة الأولى فى العهد القديم ، الذى كتبها موسى كما يقولون .

القسم الثانى : « الأنبياء » وهم الأنبياء المتقدمون (يشوع والقضاة وصموئيل الأول والثانى ، والملوك الأول والثانى) والأنبياء المتأخرون وهم أشعيا ، وأرمياء ، وحزقيال ، وصغار الأنبياء الاثنى عشر .

القسم الثالث : « الكتابات » (وهى المزامير والأمثال وسفر أيوب ونشيد الأنشاد ، وراعوث ، والمراثى ، والجامعة وأستير ، ودانيال ، وعزرا ، ونحميا ، وأخبار الأيام الأولى والثانية)[٢] .

٣ - ويقول القس سيكل سيل : « وقد جمعت الأسفار ورتبت فى الأصل على النحو التالى :

أ - التوراة أو الناموس وهى أسفار موسى الخمسة المؤلفة من التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية .

ب - الأنبياء : وهو قسمان : القسم الأول ويتألف من أسفار يشوع ، والقضاه ، وصموئيل والملوك .

---

١ - د. الحينى : مرجع سابق ، ص ٢٠٩ .

٢ - حبيب سعيد : أديان العالم ، الكنيسة الأسقفية بالقاهرة ، ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

والقسم الثانى ويتألف من : أشعيا ، وأرميا ، وحزقيا ، والأنبياء الاثنى عشر وهم : «هوشع ، ويوئيل ، وعاموس ، وعوبديا ، ويونان وميخا ، وناحوم ، وحبقوق ، وصفنيا ، وحجى ، وزكريا ، وملاخى » .

جـ - المكتوبات المقدسة وتشمل : المزامير ، والأمثال ، وأيوب ، ودانيال وعزرا ، ونحميا ، وأخبار الأيام ، والأدراج الخمسة وهى : نشيد الإنشاد ، وراعوث ، والمراثى ، والجامعة ، وأستير .

أما الترجمة السبعينية (اليونانية) فأقسامها تختلف عن الأولى وهى كما يلى :

أ - أسفار الشريعة أو الناموس ب - الأسفار التاريخية

جـ - الأسفار الشعرية د - أسفار الأنبياء .

أما أسفار العهد القديم التسعة والثلاثون ، فمقسمة عند اليهود إلى ٢٤ سفراً ، فقد دمجوا سفر صموئيل الأول بالثانى ، والملوك الأول بالثانى ، والأيام الأول بالثانى ، وعزرا بنحميا ، كما جعلوا من أسفار الأنبياء الإثنى عشر سفراً واحداً ، بينما « يوسيفوس » يذهب إلى أبعد من ذلك فيدمج راعوث بالقضاة والمراثى بارميا ، فيجعلها جميعاً اثنين وعشرين سفراً "[١] .

٤ - ويقول الدكتور إيفار ليسنر : " وقبل أن يولد المسيح بقرون عدة أمكن جمع كتب اليهود الدينية فى ٣٩ سفراً كتبت باللغتين العبرية والآرامية ، وينقسم هذا الكتاب - العهد القديم - إلى ثلاثة أقسام رئيسية هى التوراة « Torah » " أسفار الشريعة " " Nebiim الأنبياء " " Ketubim الكتابات المقدسة " ويضم التوراة « Torah » خمسة أسفار ، ويعتقد أن موسى هو الذى كتب تلك الأسفار الخمسة ، التى أجمع فيما بعد على تسميتها بالبنتاتوك « Pentateuch » التى كانت تعتبر دستوراً لليهود ، فمتى كتب تلك الأسفار ؟ وأين ؟ ومن الذى كتبها ؟ تلك الأسئلة العويصة حاول الكثيرون الإجابة عليها فيما يقرب من ٥٠ ألف مجلد ، ولنحاول هنا أن نوجز هذا العدد من المجلدات فى أبسط صورة ممكنة .

يصنف العلماء أقدم أجزاء التوراة - أى النسخ المنفصلة والمتماثلة فى الوقت نفسه التى تحكى قصة الخلق - تحت الحرفين J و E إذ فى جزء منها يسمى الخالق (Jehovah) وفى جزء

---

١ - سيكل سيل : مرجع سابق ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

آخــر يدعى « Elohim » ويسود الافتراض بأن الروايات الخاصة « بيهوه » قد كتبت فى «يهوذا » وما يتعلق بايلوهيم « Elohim » فقد سجل فى « افرايم » . وفى عام ٧١٩ ق.م، بعد سقوط السامرة أمكن توحيد تلك النصوص وتم تصنيف جزء ثالث تحت الرمز O من بينها سفر التثنية ، وجزء رابع تحت الرمز F ، قام الكهنة فى وقت لاحق بضمه إلى المجموعات الأخرى ، ولقد اتخذت الأجزاء الأربعة صورتها الراهنة نحو عام ٢٠٠ ق.م »[١] .

حاولنا فيما سبق أن نقدم أهم الآراء التى تناولت محتويات العهد القديم وترتيبها لكى تدرك مدى الخلاف العميق بين مختلف الآراء . وفى هذه الاختلافات دلائل قوية على أن الجهد البشرى – وليس الوحى الإلهى – كان له الدور الأكبر فى ترتيب هذه الأسفار .

تقنين الأسفار المقدسة :

تساءل سيكل سل قائلاً : لماذا اعتبرت أسفار العهد القديم قانونًا ؟ وما معنى هذه الكلمة؟ .

يجيب على ذلك بقوله :" لقد اعتبرت هذه الأسفار قانونًا لأنها مصدر الإيمان وأساسه . وهى تختلف عن سائر الكتب الأخرى لأنها تؤلف فى مجموعها وحدة مثالية . وكلمة «قانون» يونانية مأخوذة من الكلمة العبرية « قانا » وهى عصا مستقيمة لقياس المساحات . غير أن استعمالها اتسع فيما بعد حتى أصبحت تعنى قانونًا أو قاعدة (غلاطية ٦:١٦) وإطلاق كلمة قانون على أسفار الكتاب المقدس يرجع إلى القرن الرابع بعد الميلاد . أما اعتبار أسفار العهد القديم قانونية فيرجع إلى ماقبل ذلك بعدة قرون " [٢].

ويحدثنا حبيب سعيد عن الظروف التى أدت إلى تقنين هذه الأسفار فيقول : " تحت تأثير الحركة الهلينية « اليونانية » التى سادت منطقة الشرق الأوسط عقب غزوات الإسكندر الأكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وتغلغل الفكر اليونانى والثقافة اليونانية ، بزغت فكرة تنظيم وتقنين الأسفار المقدسة العبرية للتمييز بين الأسفار المقدسة وأسفار « الأبوكريفا » (غير القانونية) ، التى كانت قد انتشرت حوالى سنة ٢٠٠ ق.م ، وكان الكتاب المقدس اليونانى (الترجمة السبعينية) قد تضمنت أسفار (الأبوكريفا) هذه (وهى عزرا الأول ، عزرا الثانى .

---

١ – دكتور إيفار ليستر : الماضى الحى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨١ ، ص ١٤٠ .

٢ – سيكل سيل : مرجع سابق ، ص ٢٥ .

يهوديت ، طوبيت ، تتمة سفر إستير ، الحكمة ، يشوع ابن سيراخ ، باروخ النبى ، رسالة أرمياء ، نشيد الفتيان الثلاثة ، قصة سوسنة ، قصة بعل والتنين ، صلاة منسى ، سفر المكابيين الأول ، سفر المكابيين الثانى) . و « الأبوكريفا كلمة يونانية معناها « خفى » واستعملت أيضًا بمعنى غامض أو سر . وبعض الكنائس تقرأها فقط للإفادة وتهذيب الأخلاق»[١].

على هذا النحو من الخلاف حول قانونية بعض الأسفار وعدم قانونية البعض الآخر ، نكون قد انتهينا من عرضنا لأسفار العهد القديم .

ب - التلمود :

" تألف من بحوث أحبار اليهود وربانييهم وفقهائهم المنتمين إلى فرقة الفريسيين ، فى شئون العقيدة والشريعة والتاريخ المقدس وما إلى ذلك ثلاثة وستون سفراً ، ألفت فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد ، وأطلق عليهم اسم « المشناة » بمعنى المثنى أو المكرر أى أنها تكرار وتسجيل للشريعة ، ثم شرحت هذه المشناة فيما بعد وأطلق على هذه الشروح اسم «الجمارا » أى الشرح أو التعليق ، وألفت هذه الشروح فى فترة طويلة تمتد من القرن الثانى إلى أواخر السادس بعد الميلاد . وتألف من المتن والشرح (أى من المشناة والجمارا) ما أطلق عليه اسم « التلمود » بمعنى التعاليم "[٢] .

ويقول الدكتور الحينى : « وأما التلمود فهو هذه الأحاديث الشفوية التى سجلت بعد ذلك والتى كانت ثمرة النظر ودراسة الأسفار التى جاءت عن « يهوه » وهذه الدراسة وصلت إلى صورتها الكاملة فى الفترة التى تلت سقوط بيت المقدس أى بعد سنة ٧٠م ، وهذه الفترة تنقسم إلى ثلاث مراحل :

الأولى : مرحلة المعلمين : « Tannaim » وكانوا جميعًا من الفريسين « Pharisees » الذين أقاموا بموضع بالقرب من يافا وأسسوا مدرستهم بزعامة « يوحنا بن زكا Johana ben Zakkai وخلفائه من بعده ، ولقد أتم اثنان من هذه المدرسة التلمود الفلسطينى المطبوع الآن فى مجلدات من أربعة إلى ثمانية .

---

١ - حبيب سعيد : مرجع سابق ، ص ٩٢ .

٢ - د. على عبد الواحد : مرجع سابق ص ٢١ ، ٢٢ .

أما المرحلة الثانية : فهى الخاصة بالموضحين « Amoraim » وفيها كان التأثير البابلى وذلك حوالى عام ٢٢٠م ، وفيها تم جمع التلمود البابلى فى « مدرسة سورا » «Sura » .

أما المرحلة الثالثة والأخيرة : فهى مرحلة المقررين والتى فيها أكمل التلمود ، وتمتاز هذه المرحلة بالبت فى المسائل الهامة والبارزة فى أمور اليهود ، وهذه المرحلة انتهت حوالى سنة ٥٥٠م ، ومن ذلك الوقت لم يضف شىء إلى التلمـــود ، وتلت هذه الفـــتـــرة من تاريخ « Geohim » وهو اللقب الذى أضفى على رؤوس هاتين المدرستين ، وهذا العصر بدأ من أواخر القرن السادس الميلادى إلى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، وفيه اعترف اليهود بزعماء هاتين المدرستين مرجعًا دينيًا لهم »[١] .

« واللفظة " تلمود " مشتقة من لفظة عبرية « Lamad » ومعناها " يتعلم " أو يعلم . ويدأ العمل فى التلمود فى مدينة طبرية فى مدرسة يوحنا الذى توفى سنة ٢٧٩ بعد الميلاد على أنه لم يفرغ منه إلا فى القرن الرابع . وفى الوقت عينه جمع الحبر « اشى » (٣٥٢ - ٤٢٧ ، ب.م) وتبعه الحبر « رابينا » (٤٩٩.م) تلموداً ثانيًا باللغة الآرامية ، بمقتبسات عبرية نقلها عن قدامى علماء الشرع ، ليصحح بها بعض الأخطاء فى النسخة الفلسطينية . وهو فى وضعه الحالى يعادل أربعة أمثال التلمود الفلسطينى ، من حيث حجمه ومحتوياته ، وذلك لأنه يشتمل على ٢٩٤٧ صفحة . وقد كان لهذا التلمود أثر بالغ على اليهود فى كل تاريخه ، وكان بمثابة مرساة تشبث بها القوم فى تجاربهم وضيقاتهم التى عانوها[٢] .

بالحديث عن التلمود نكون قد انتهينا من الحديث عن أهم كتبهم المقدسة التى شملت أسفار العهد القديم . وقد تبين من العرض أن هذه الكتب فيها الكثير من جهد البشر .

أهم فرق اليهود :

كثرت فرق اليهود وتعددت فى مختلف مراحل تاريخهم لدرجة أن عددها كان حوالى ١٠٥ كل فرقة منها تدعى أنها أمثل طريقة وأشد تمسكًا بالدين اليهودى عن غيرها من الفرق الأخرى .

---

١ - د. الحينى : مرجع سابق ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

٢ - حبيب سعيد : مرجع سابق ، ص ١٩٧ .

" وأهم موضوع يدور حوله اختلاف هذه الفرق هو الاعتراف بأسفار العهد القديم والأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى - عليه السلام وأسفار التلمود أو إنكار بعض هذه الأصول ورفض الأخذ بما جاء فيها من أحكام وتعاليم "[١] .

١ - الفريسيون Pharisien :

يعنى اسم هذه الفرقة حرفيًا « المنفصلون » أو « المعتزلون » عن الآخرين ، لأسباب تتعلق بالطهارة الطقوسية "[٢] وقد أطلق عليهم أعداؤهم هذه التسمية . ولذلك فهم يكرهونها ، ويسمون أنفسهم « الأحبار » أو « الأخوة فى الله » و « الربانيون » Godly ones[٣] ، « ويمثل الفريسيون فرقة دينية سياسية خلال فترة الهيكل الثانى ، وأصلهم غير معروف ويعتبرهم بعض العلماء امتداداً للحسيديين المعروفين بمقاومتهم للتأثير الثقافى اليونانى الهلينستى على اليهود . وقد تبنى الفريسيون التعليم الدينى اليهودى التراثى أو التقليدى... وقد كون الفريسيون جماعة صغيرة مغلقة على نفسها وتعيش حياة جماعية وبخاصة فى المأكل وتحافظ عى قواعد الطهارة ، وقد حاولوا فرض سيادتهم على الهكيل ومنافسة الصدوقيين[٤] فى هذه السيادة ، وقد أدخل الفريسيون فى العقيدة عادات شعبية لها أصل فى التوراة ؛ الأمر الذى رفضه الصدوقيون . ولا نعلم على وجه اليقين متى تكونت هذه الفرقة ، ومن أشهر ما قيل فى هذا الصدد ماذكره المؤرخ اليهودى يوسيفوس « Flavius Jo- sep hus » من أنها تكونت فى عهد « يوناتان Jonathan » الذى كان صديقًا حميمًا لداود عليه السلام » [٥].

ومن أهم مايميز عقيدة الفريسيين أمران :

الأمــر الأول : أنها تعترف بجميع أسفار العهد القديم والأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى وأسفار التلمود ، بل إن فقهاءهم (وهم الذين يطلق عليهم اسم الربانيين) هم الذين ألفوا أسفار التلمود .

---

١ - د. على عبد الواحد : مرجع سابق ، ص ٥٤ .

٢ - د. محمد خليفة حسن : مرجع سابق ، ص ٢٢٢ .

٣ - د. أحمد شلبى : مرجع سابق ، ص ٢٢٧ .

٤ - د. محمد خليفة : مرجع سابق ، ص ٢٢٢ .

٥ - د. على عبد الواحد : مرجع سابق ، ص ٥٥ .

الأمر الثانى : أنها تؤمن بالبعث ، فتعتقد أن الصالحين من الأموات سينتشرون فى هذه الأرض ليشتركوا فى ملك المسيح المنتظر الذى يزعمون أن سيأتى لينقذ الناس ويدخلهم فى ديانة موسى .

وتذكر أناجيل المسيحيين أن الفريسيين كانوا من ألد أعداء المسيح عيسى بن مريم وأنهم هم الذين حاولوا أن يظهروه بمظهر الداعى إلى شق عصى الطاعة على قيصر ، وكانوا على رأس المتآمرين به ، ولم ينفكوا يدبرون له الكيد حتى حكم عليه بالصلب .

وتتضمن هذه الأناجيل فصولاً طويلة يوجه فيها المسيح - عليه السلام - تقريعًا شديداً إلى الفريسيين ، ويكشف عن كفرهم ونفاقهم والتوائهم وتحريفهم لتوراتهم ، وابتداعهم تعاليم وأحكامًا فاسدة ما أنزل الله بهم من سلطان " [١].

٢ - فرقة الصدوقيين Saducéens :

تلى هذه الفرقة فرقة الفريسيين من حيث الأهمية . يرى بعض الباحثين أن هذه التسمية نسبة إلى صادوق الكاهن الأعظم فى عهد سليمان ، أو إلى كاهن آخر بهذا الاسم وجد فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وينكر Guignebert هذه النسبة لأن حرف الدال المضعف فى تسمية الفرقة وليس مضعفًا فى كلمة صادوق ، ثم إن أتباع هذه الفرقة لم يدعوا أبداً الارتباط بهذا الكاهن أو ذاك . ويرى Guignebert أن هذه التسمية من صنع أعدائهم وأنها من نوع التسمية المضادة لأن الصدوقيين عرفوا بالإنكار فسماهم أعداؤهم الصدوقيين "[٢] .

« يمثل الصدوقيون طبقة عليا تتكون من أمراء أورشيلم والانتماء إلى فرقتهم ظل محصوراً فى الطبقة العليا من الكهنة وفى الدوائر العسكرية والأسر اليهودية الأرستقراطية ... وقد كان للصدوقيين تأثير كبير فى المجالين السياسى والاقتصادى ، أما الدين بالنسبة لهم فقد ارتبط بالهيكل وطقوسه بدون قاعدة دينية لاهوتية قوية [٣].

ومن أهم ما تتميز به عقيدة هذه الفرقة :

١ - أنها لاتعترف إلا بالعهد القديم، وترفض الأخذ بالأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى عليه السلام .

---

١ - المرجع السابق : نفس الصفحة .

٢ - د. أحمد شلبى : مرجع سابق ، ص ٢٣٠ .

٣ - د. محمد خليفة : مرجع سابق ، ص ٢٢٤ .

٢ - إنها لاتؤمن بالبعث ولا باليوم الآخر ، وتعتقد أن عقاب العصاة وإثابة المحسنين إنما يحصلان فى حياتهم " [١].

٣ - فرقة السامريون :

« السامريون فرقة دينية يهودية تعد من أقدم الفرق الدينية فى اليهودية حيث تعود بأصولها إلى انقسام مملكة سليمان - عليه السلام - إلى مملكتين : شمالية وعاصمتها السامرة، وجنوبية وعاصمتها أورشليم ، ويسمى السامريون أنفسهم « شو مريم » بمعنى حراس الشريعة ، وأيضًا « بنو إسرائيل » معتبرين أنفسهم الإسرائيليين الحقيقيين وهم من نسل سبطى افرايم ومنسى ويسمون لذلك بنو يوسف » [٢] .

ومن أهم عقائد هذه الفرقة :

١ - أنها لاتؤمن إلا بالأسفار الخمسة التى تمثل القسم الأول من العهد القديم وبسفر يوشع وسفر القضاة ، وتنكر بقية أسفار العهد القديم وأسفار التلمود .

٢ - لايؤمنون بالبعث ولا باليوم الآخر .

٣ - يذكر ابن حزم أنهم يبطلون كل نبوة كانت فى بنى إسرائيل بعد موسى ويوشع - عليهما السلام - [٣].

٤ - فرقة الحسيديون Hasideans :

فرقة دينية يهودية ظهرت حوالى القرن الثانى قبل الميلاد . ومن أهم مايميزهم عن غيرهم من فرق اليهود :

١ - التزامهم الشديد بالوصايا وصلاتهم الدائمة ، وتمسكهم المتشدد بطقوس السبت .

٢ - تحريم الأضحية والقرابين .

٣ - تنكر التفرقة العنصرية وتقرر مبدأ المساواة بين الناس فى القيمة الإنسانية ، وتحرص على التعايش السلمى بين الشعوب .

---

١ - د. على عبد الواحد : مرجع سابق ، ص ٥٦ .

٢ - د. محمد خليفة حسن : مرجع سابق ، ص ٢١٩ .

٣ - د. على عبد الواحد : مرجع سابق ، ص ٥٨ .

٤ - تحرم نظام الرق وتحظر أن يملك الإنسان أخاه الإنسان وأن يحرم فرد من حريته .

٥ - تحرم الملكية الفردية وتوجب أن تكون جميع الملكيات ملكيات عامة .

٦ - تحرم الاشتغال بالتجارة لما تبعثه فى النفوس من جشع وحرص على جمع المال ، كما تحرم صناعة الأسلحة والذخيرة وسائر آلات الحرب ، وتحرم استخدام الذهب والفضة والتعامل بهما .

٧ - تحرم الزواج وتوجب التبتل والبعد عن النساء .

٨ - تحارب الترف والحياة الناعمة وتدعو إلى الزهد والتقشف [1].

٥ - القراءون أو العنانيون :

يعتبر القراءون من أهم الفرق اليهودية وهى أحدثها جميعًا ، فقد أنشأها عنان بن داود أحد علماء اليهود فى بغداد فى أواخر القرن الثامن بعد الميلاد أى بعد نشأة الديانة اليهودية بنحو عشرين قرنًا[2] وهم يلقبون بعدة ألقاب منها « أبناء المقرا » و « أهل المقرا » إشارة إلى تمسك القرائين بالعهد القديم كمصدر وحيد للتشريع ، وعدم الاعتراف بالتشريعات الشفوية"[3] .

وأهم ما يميزهم :

١ - التمسك بالعهد القديم وحده وعدم الاعتراف بالتلمود وتعاليم الربانيين والحاخامات.

٢ - من أهم التشريعات : حرم زواج العم من ابنة أخيه وزواج الخال من ابنة أخته ، وقد سوى بين الابن والبنت فى الميراث وقرر أن الزوج لاحق له فى تركة امرأته .

٣ - فتح باب الاجتهاد فى فهم النصوص المقدسة [4].

هذه أهم الفروق اليهودية وهناك فرق أخرى لايتسع المجال لذكرها .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٦١ .

٣ - د. محمد خليفة حسن : مرجع سابق ، ص ٢٢٧ .

٤ - د. على عبد الواحد : مرجع سابق ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

أهم عقائد اليهود :

لقد اشتملت الأسفار الخمسة التى تنسب إلى موسى - عليه السلام - وغيرها من أسفار العهد القديم على كثير من الوصايا والتشريعات الدينية والتعبدية والخلقية والمدنية والأسرية .

" من جملتها التوحيد المطلق وعبادة الله وحده والحظر البات لعبادة أى شىء غيره بأى شكل وعدم السجود لأى صورة مصورة أو منحوتة ، وعدم الحلف بالله باطلاً ، وتحريم العمل فى السبت على الإسرائيلى وعبده وأمته وبهيمته ونزيله ، وتكريم الوالدين ، والنهى عن القتل والسرقة والزنا وشهادة الزور على القريب ، واشتهاء بيت القريب وامرأته وعبده وأمته وثوره وحماره ، وعدم صنع أصنام أو مذابح من فضة وذهب والاكتفاء بمذابح ترابية وحجرية ، وإيجاب عتق أى عبد عبرانى بعد ست سنين من خدمته إلا إذا فضل البقاء عبداً ، وإعطائه زوجة إذا كان متزوجًا قبل عبوديته وبقاء زوجته وأولاده منها إذا تزوج وأنجب أثناء العبودية ، والرفق بالنساء والعدل بين الزوجات ، وعدم ظلم الغرباء والأرامل والأيتام ، وعدم أخذ الربا من العبرانى ، ورد الرهون لأصحابها ، وعدم تحريف الشهادة وكتمها ، وعدم التآمر من المنافقين ، وعدم أخذ الرشوة ومضايقة الغرباء ، وقتل القاتل ، وقتل ضارب والديه ولاعنهما وقتل من يخطف أحداً أو يبيعه ، وقصاص العين والسن بالسن واليد باليد والرجل بالرجل والكى بالكى والجرح بالجرح والرض بالرض ، وقتل من يذبح لألهة أخرى أو يأتى بهيمة ، وعدم استبقاء الساحرات ، واسترداد المسروق من السارق بزيادة وهدر دم السارق إذا قتله صاحب المال ... إلخ مما فيه كثير من مكارم الأخلاق الرفيعة والأنظمة التى تحمى المجتمع وتحفظ أمنه وتوطد التضامن والبر والإحسان فيه ، والتى ناقضها بنو إسرائيل وظلوا يناقضونها فى معظم حقب تاريخهم "(١) .

وهناك العديد من الوصايا والتشريعات لايسع المجال لذكرها . ونتناول الآن بعض المسائل الاعتقادية بشىء من التفصيل .

١ - الألوهية :

أ - مرحلة تعدد الآلهة :

لقد تأثر اليهود منذ ظهورهم على مسرح الأحداث التاريخية بكثير من المعتقدات التى كانت سائدة فى مصر ووادى الرافدين وإيران والهند ... وانتقلت إليهم معبودات هذه الشعوب

---

١ - محمد عزة دروزة : مرجع سابق ، ص ٧٢ .

من الآلهة وقد عبر ديورانت عن ذلك بقوله : " وكان اليهود فى ظهورهم على مسرح التاريخ بدواً رحلاً يخافون شياطين الهواء ، ويعبدون الصخور والماشية والضأن وأرواح الكهوف والجبال، ولم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل ، ذلك أن موسى لم يستطع منع قطيعه من عبادة العجل الذهبى لأن عبادة العجول كانت لاتزال حية فى ذاكرتهم منذ كانوا فى مصر ، وإنا لنقرأ فى سفر الخروج (الإصحاح ٣٢ الآيات ٢٥ - ٢٨) كيف أخذ اليهود يرقصون وهم عراة أمام العجل الذهبى ، وكيف أعدم موسى واللاويون ثلاثة آلاف منهم عقاباً لهم على عبادة هذا الوثن . وفى تاريخ اليهود الباكر شواهد كثيرة تدل على أنهم عبدوا الأفعى، ومن هذه الشواهد صورة الأفعى التى وجدت فى أقدم آثارهم ومنها الأفعى النحاسية التى صنعها موسى والتى عبدها اليهود فى الهيكل إلى أيام « حزقيا » (حوالى ٧٢٠ ق.م) وكانت الأفعى تبدو حيواناً مقدساً لليهود كما كانت تبدو لشعوب كثيرة عداهم ، وذلك لأنها رمز للذكورة المخصبة من جهة ، ولأنها من جهة أخرى تمثل الحكمة والدهاء والخلود؛ فضلاً عن أنها تستطيع أن تجعل طرفيها يلتقيان .

وكان بعض اليهود يعظمون بعل ، الذى كان يرمز إليه بحجارة مخروطية قائمة كثيرة الشبه « بلنجا » إله الهندوس ، وذلك لأنه فى رأيهم الجوهر الذكر فى التناسل ، وزوج الأرض الذى يخصبها .

وكما أن آثار عبادة الآلهة الكثيرة البدائية قد بقيت فى عبادة الملائكة والقديسين ، وفى الأصنام الصغيرة المتنقلة التى كانوا يتخذونها آلهة لبيوتهم ، كذلك ظلت المعتقدات السحرية التى كانت منتشرة فى العبادات القديمة باقية عند اليهود إلى عهود متأخرة رغم احتجاج الأنبياء والكهنة "(١) .

ب - الإله الواحد :

أطلق العهد القديم على الإله الذى عبده اليهود اسم « يهوه » وصار هذا اسم الإله الواحد الأعظم . لكن متى بدأت عبادة الإله بهذا الاسم ؟

يجيب حبيب سعيد عن ذلك فيقول : « عرف العبرانيون الله الذى عبدوه باسم " يهوه " على أنه لايمكن الفصل بقول جازم حاسم عن التاريخ الذى بدأت فيه عبادة الله بهذا الاسم .

١ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

ففى أقدم الوثائق التاريخية التى كتبت فى اليهودية فى القرن الثامن قبل الميلاد - والتى عرفت بالحرف «J» - دعى الله بهذا الإسم - يهوه - منذ بدء الجنس البشرى فى جنة عدن[١] أما فى وثيقة أخري أطلق عليها حرف «E» وذاعت فى شمال فلسطين ، فإن اسم الله «يهوه» قد أوحى إلى موسى فى العليقة المشتعلة بالنار فى « مديان » يوم أمر أن ينطلق إلى مواطنيه الأسارى فى مصر حاملاً رسالة العتق والخلاص من إله آبائهم إبراهيم واسحق ويعقوب ، واسمه « يهوه » (خروج : ٣) وهذا الرأى تؤيده الوثيقة الكهنوتية التى أطلق عليها الحرف «P» والتى جمعت بعد عودة اليهود من السبى فى بابل فى القرن السادس »[٢].

ما معنى إسم يهوه ؟ :

يجيب سبتينو موسكاتى قائلاً : « لايعرف معنى الاسم « يهوه » على وجه اليقين ، وفى الآية المشهورة من سفر الخروج (١٤:٣) يفسره بعض العلماء بأن معناه « هو الذى يكون » ، ويفسره آخرون بأن معناه « هو الذى يوجد » (بكسر الجيم) أى « الخالق » وهناك تفسيرات أخرى .

ورب العبريين محجوب عن عين الإنسان إلا فى حالات معينة وأشكال خاصة ، ويجب ألا يصور بأية صورة ، وليس له مسكن ثابت ، ولكن يمكن أن يكون فى أى مكان ، فإنه إله شعب بدوى ، وهو لا أسرة له ، وليس بذكر أو أنثى ، وهو مقدس وعادل ، وقد عقد عهداً خاصًا بإسرائيل ، وجعل من إسرائيل شعبه المختار .

وبدون معبد أو مذبح كان إله إسرائيل يظهر وسط السحب ، ويبدى قوته فى البرق والعاصفة ، وكان يقود شعبه فى تجوالهم مستقراً فوق « تابوت العهد » وهو صندوق مصفح بالذهب ، يعلوه تمثالا ملكين من طائفة « الكروبيم » ويحمله بنو إسرائيل معهم ، فإذا استقر بهم المقام وضعوه فى خيمة ، ولم يستبدل معبد بهذه الخيمة إلا حين جاء عصر سليمان »[٣] . هذا هو إله اليهود كما صورته أسفار العهد القديم بدأ مجرداً من أشكال المادة وانتهى به الأمر إلى أن صورته خيالات اليهود بصور شتى .

---

١ - هذا كلام غير موثوق به ونعتقد أنه بعيد عن الصحة تمامًا .

٢ - حبيب سعيد : مرجع سابق ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

٣ - سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة د. السيد يعقوب بكر ، دار الرقى ، بيروت، سنة ١٩٨٦ .

٢ – الوحى :

يقول حبيب سعيد : « الوحى فى نظر اليهود هو إعلان إرادة الله وقصده فى مواقف تاريخية صريحة بتداخله الإلهى فى سير الحوادث وتوجيهها ، وادعى الأنبياء العبرانيون أنهم لسان حال « يهوه » فقدموا رسائلهم بقولهم « هكذا قال الرب » اعتقاداً منهم أنهم يقدمون للناس رسالة مباشرة من الله ، على أنهم لم يهتموا إلا قليلاً بالإنباء بأحداث المستقبل ، أو إعلان المبادىء والأحكام الدينية والأدبية »[١] ويقول الدكتور إيفار ليسنر : " وكان الأنبياء على يقين راسخ لايتزعزع من أن أفكارهم نابعة من « يهوه » وغالبًا ماكانوا يستهلون حديثهم بالعبارة « هكذا قال السيد الرب » [٢].

ويحدثنا القس سيكل سيل عن أساليب الوحى فيقول : " كان الوحى تكتنفه الأسرار ، بيد أننا نعلم أنه كان يجىء عن طريق الأصوات والرؤى والأحلام أو بواسطة ملاك ، وكان الوحى على مايظهر على درجات ، فهناك فرق بين الرؤى والأحلام والألغاز ، وبين إعلان الله الواضح عندما كان يتكلم فما إلى فم ، ووجهًا إلى وجه ، كما بين ذلك سفر العدد (١٢:٦-٨) .

والجدير بالذكر أن الله لم يختر الملائكة لإبلاغ رسالته لبنى البشر بل اختار أناسًا ضعفاء كسائر البشر ، ذوى شخصيات مختلفة تتفاوت مواهبهم وتختلف أساليبهم فى الكتابة ، وكان روح الله يستخدم كفاءة رسله فى هذا السبيل فيعلمهم مايجب أن يقولوه تاركًا لهم الحرية لتبليغ الناس حسب استطاعتهم لأن الله لايتخذ من الإنسان آلة صماء لمقاصده .

إن الوحى الذى كان مصدره الله الذى لايتغير جاء « بأنواع وطرق كثيرة » حسب احتياجات البشر ، ولذا فالوصايا المعطاة لنوح بعد الطوفان كانت بدائية بالنسبة إلى الوصايا العشر ، وشرائع سفر التثنية التى فرضت على الإنسان محبة الله ومحبة أبناء جنسه فى حين خلت وصايا نوح من ذكر المحبة على الإطلاق ، وكذلك تعاليم المسيح : فإنها مختلفة عما سبقها من تعاليم وأسمى منها ، لأن المسيح يعلمنا أن نحب جميع الناس حتى أعدائنا .

ويعتقد البعض أن الضعف البشرى يظهر حتى فى الكتب الموحى بها ، ففى سفر المزامير وسفر استير مثلاً نجد الكاتب تسوده روح الغيظ والنقمة ، بدلاً من روح المحبة والتسامح ،

---

١ – حبيب سعيد : مرجع سابق ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

٢ – د. إيفار ليستر : مرجع سابق ، ص ١٤٨ .

والسبب فى ذلك راجع لما لقيـه من تعذيب واضطهاد من أعدائه ، كما أن البعض يعزو الآراء الواردة فى سفر الجامعة إلى ضعف الإنسان [١].

هذا عن الوحى ... والسؤال . هل حقيـقة الوحى يتم بواسطة البشر ؟ وهل يتعمد الله أن يأتى الوحى على أيدى إناس ضعاف ؟ وهل الوحى يمكن أن يتأثر بشخصية الموحى إليه ؟ أسئلة كثيرة تترك الإجابة عليها للقارىء حتى يفكر فى الأمر ويعمل عقله فى فهم مايريد فهمه.

٣ - النبوة :

اشتمل العهد القديم على عدد كبير من أسفار الأنبياء وتشكل النبوة جزءاً هاماً من التراث اليهودى . من هو النبى فى الفكر الدينى اليهودى ؟

يقول القس سيكل سيل : " إن النبى كما يذكر سفر الخروج (١٥:٤ و ١:٧) هو شخص يتكلم على لسان شخص آخر أو نيابة عنه ، ولهذا فإن هارون كان يدعى نبى موسى لأنه هو الذى كان يكلم فرعون نيابة عن أخيه ، ونبى الله يعنى الشخص الذى يتكلم على لسان الله أو باسمه " [٢].

ويقول الدكتور إيفار لستر : " لم يعد من العسير على أى امرء فى الوقت الراهن تحديد ماهية النبى ، فالنبى إنسان يتنبأ بالمستقبل ، لكن أنبياء التوراة لم يهتموا بالمستقبل ولم يزعموا أنهم يعرفون المستقبل بمجرد وحى مقدس ولم يتكهنوا بمجىء المُخلّص فحسب . فلقد كان دورهم الجوهرى مغايراً لذلك تماماً .

ولايغيب عن بالنا أن « Prophetes » لفظ يونانى ، حيث أن مفهوم النبوة يتعذر التعبير عنه بلفظ عبرى سهل بسيط ، وكلمة نبى (Nabi) هى اللفظ العبرى للنبى ، و (Nabiim) هى ما أطلقه العبرانيون على أسفار الأنبياء فى الكتاب المقدس ، ومع ذلك فإن كلمة نبى (Nabi) ليست إسرائيلية أصلاً ، وحرى أن نبحث عن أصلها حيث أنها تلقى الضوء على معناها الأساسى ، فنحن نجد كلمة نبأ فى كل من اللغات الآشورية والبابلية والعربية ، ففى الآشورية تعنى : التحدث أو التخاطب أو الإعلان أو الإشارة ، وكان يوجد إله بابلى

---

١ - القس سيكل سيل : مرجع سابق ، ص ٤٣ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٤٥ .

يدعى « نابو أو نيبو » ، وهو اللفظ نفسه الذى نجده فى أسماء بعض ملوكهم أمثال «نابوبولصر Nabopolassar » و « نبوخذنصر Nebuchadnszzar » .

ولعل اللغة العربية أهم مصدر لأى بحث علمى بين اللغات السامية حيث أن صلتها بالسامية القديمة أوثق من ارتباط السنسكريتية بالهندوسية القديمة ، واللفظ نبأ فى العربية يعنى الإعلان ، أى أن المتحدث لايعبر عن أفكاره الخاصة لكنه ينقل رسالة شخص آخر ، ومن ثم فإن النبى هو لسان حال آخر ، وأنه يحمل رسالة يريد إبلاغها أو اتصالاً بعينه ينبغى القيام به . وهكذا نصل إلى جوهر الحقيقة وهى أن الأنبياء لم يدركوا أنهم يتحدثون بسلطان من أنفسهم بل كأداة لإرادة عليا ، فقد كانوا يشعرون بأنهم « فم الله » [(١)].

ويقدم موسى بن ميمون ، الفيلسوف اليهودى ، بحثًا مستفيضًا عن حقيقة النبوة وماهيتها وماينبغى أن يتصف به الأنبياء خاصة ونستشهد ببعض أقواله فى هذا الصدد؛ يقول : « إعلم أن الحقيقة وماهيتها هو فيض فيض من الله عز وجل بواسطة العقل الفعال على القوة الناطقة أولاً ، ثم على القوة المتخيِّلة بعد ذلك وهذه هى أعلى مرتبة الإنسان وغاية الكمال الذى يمكن أن يوجد لنوعه »[(٢)] . ثم يستشهد بنصوص التوراة فيقول : « ولاشىء نعلمك من كلامهم عليهم السلام » ونترك نصوص التوراة تتحدث « إن يكن فيكم نبى للرب فبالرؤيا أتعرف له فى حلم أخاطبه » (العدد ١٢:٦) فقد أخبرنا تعالى بحقيقة النبوة ، وماهيتها ، وأعلمنا أنه كمال يأتى فى الحلم أو الرؤيا ، والرؤيا مشتق من « رآه » « رأى » وهو أن يحصل للقوة المتخيلة من كمال الفعل حتى ترى الشىء كأنه من خارج ويكون الأمر الذى ابتداؤه منها كأنه جاءها عن طريق الأحكام » [(٣)].

هذا عن مفهوم النبوة وتعريف النبى . وهناك مباحث أخرى كالتفرقة بين النبى الحقيقى وبين من يدعى النبوة لانأتى على ذكرها هنا باعتبارها من المسائل الدقيقة التى تحتاج إلى تفصيل.

---

١ – د. إيفار ليسنر : مرجع سابق ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

٢ – موسى بن ميمون : دلالة الحائرين : تحقيق د. حسين آتاى ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ص ٤٠٠ .

٣ – المرجع السابق : ص ٤٠٠ – ٤١٥ .

٤ - اليوم الآخر :

لقد رأينا فيما سبق من فصول هذا الكتاب أن كثيراً من الأديان التى سادت بين شعوب الأمم القديمة قد آمنت بالحياة الآخرة وبفكرة البعث والخلود إلا أن الديانة اليهودية فى أول عهدها لم تلتزم هذه العقيدة على الرغم من أن هناك من الأنبياء الذين ظهروا قبل السبى من أشاروا إشارات واضحة إلى عقيدة البعث . فمثلاً هوشع يؤكد على وجود عقيدة البعث فيقول: « هلم إلى الرب لأنه هو افترس فيشفينا ، ضرب فيجبرنا ، يحيينا بعد يومين ، فى اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه » (هوشع ٦:١-٢) وفى سفر اشعيا تصادفنا العبارة التالية : «تحيا أمواتك تقوم الجثث . استيقظوا ترنموا ياسكان التراب » (اشعيا : ٢٦ : ١٩)[(١)].

ولم يستمر إنكارهم للبعث ففى الأطوار الأخيرة من تطور الدين ، اضطر القوم إلى قبول عقيدة قيامة الأموات والحياة بعد الموت وذلك بفعل تأثير الدين الفارسى [(٢)].

بهذه الإشارات إلى طبيعة العقيدة فى الديانة اليهودية . نكون قد وصلنا إلى ختام حديثنا عن هذه الديانة ... دون أن نكون قد تعرضنا للعديد من مشكلاتها نظراً لطبيعة هذه الدراسة.

---

١ - د. محمد خليفة حسن : مرجع سابق ، ص ١٦٠ .

٢ - حبيب سعيد : مرجع سابق ، ص ١٨٢ .

الفصل الثانى
الديانة المسيحية

مقدمة :

المسيحية إحدى الديانات الكبرى الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام . وهى فى ترتيب النزول تعد ثانى هذه الديانات . أما بالنسبة لعدد معتنقيها فهى أكبر ديانة من حيث عدد سكان العالم الذين يدينون بها ، وقد أطلقت تسمية المسيحية على أتباع عيسى بن مريم . متى كان ذلك ؟ يقول جوزيف كاير : « وضع تعبير مسيحى لأتباع عيسى لأول مرة فى مدينة أنطاكية فى سوريا (وذلك كما ورد فى الإصحاح الحادى عشر الفقرة ٢٦) وكان المسيحيون يومئذ كلهم من اليهود الذين اعتبروا أنفسهم بنى إسرائيل الصميمين والبقية المخلصة وشعب الله الذى أوتى الحكمة والنبوة وإيضاح معالم النواميس ؛ ولذلك فإنهم لم يعتبروا أنفسهم أتباع دين جديد وإنما مفسرين للديانة الموسوية الوطيدة الأركان »[(١)].

وعلى هذا النحو اعتقد اليهود فى أول الأمر أن المسيحية ماهى إلا امتداد لليهودية وهم وحدهم القيمون عليها ، ولعل مادفعهم إلى هذا الاعتقاد ما ورثوه من التراث اليهودى من أن فكرة ظهور مسيح يهودى من نسل داود أحد الأصول الراسخة فى العقيدة الدينية اليهودية التى انبثق عنها بناء كامل من المفاهيم العنصرية التى تزرع فى الوجدان اليهودى أفكار الاستعلاء العنصرى على سائر الشعوب .

وتعرف هذه الفكرة فى العقيدة الدينية اليهودية بمصطلح خاص بها هو مصطلح «مشيحوت» ويعنى المسيحانية أو الخلاص ، والخلاص فى نطاق هذا الاصطلاح يستمد دلالته الأصلية من حالة الانكسار العسكرى والهزائم المتلاحقة التى منى بها بنو إسرائيل والتى انتهت بهم إلى السبى الأشورى عام ٧٢٢ قبل الميلاد والسبى البابلى عام ٥٨٦ قبل الميلاد ؛ وهى الحالة التى وصلت إلى ذروتها فى العصر الرومانى عام ٧٠ ميلادية بالشتات الكامل فى أنحاء الأرض ، مما فرضته عليهم الإرادة الإلهية عقابًا عدلا عما انخرطوا فيه من دروب الفساد الأخلاقى والانهيار الدينى والانحراف بالعقيدة عن مسارها الصحيح إلى مسار الوثنية والشرك بالرب .

---

١ - جوزيف كاير : مرجع سابق ، ص ٥٥ .

يأتى مفهوم المسيحانية إذن لتعويض مشاعر النقص وحالة الدونية التى سقط فيها بنو إسرائيل . لقد بدأ هذا المفهوم على نحو تدريجى فى نطاق الكتب المقدسة اليهودية . فظهر أول ماظهر فى نصوص العهد القديم خاصة فى أسفار الأنبياء ، فكان فى بداية نشأته تحدد فى الاعتقاد بمجيىء بطل يهودى بشرى يتميز بصفات القدرة القتالية التى تمكن بنى إسرائيل من الخروج من حالة الفشل العامة التى عاشوها بين شعوب الشرق القديم[1] . على هذا الشكل كانت البداية عند اليهود . تصورهم للمسيحية على أساس أنها امتداد لليهودية وتصورهم للمسيح كبطل مقاتل يخلصهم من الهزائم المتتالية . وظل اليهود على اعتقادهم هذا ... إلا أن « المسيحية خطت باليهودية خطوة اسمى - كما يرى الأستاذ بوكيه - بالإضافة إلى أنها تريد تخليصها مما ران عليها ، ولعل من الأمثلة على هذا التطور الدينى الذى يبتغيه الدين الجديد مانراه فى الأحكام ، فقد جاء فى انجيل متى (٥/٢١، ٢٢) على لسان المسيح قوله : «سمعتم أنه قيل للقدماء لاتقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم ، وأما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم ، ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع ، ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم » وفى الإصحاح نفسه (٢٧، ٢٨) «قد سمعتم أنه قيل للقدماء لاتزن ، وأما أنا فأقول لكم أن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه » وفى الإصحاح نفسه ؟ « لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء القدماء بل لأكمل » والإشارة إلى القدماء تعنى أنبياء بنى إسرائيل ، هذا التطور الذى نراه فى الأحكام والذى هو سمة الدين المسيحى الجديد هو من النقلة الدينية التى تميزه عن اليهودية فى مبدأ هام ، هو النظرة إلى البشر . فاليهودية لاتؤثر إلا منزلة بنى إسرائيل ، ولاتعد شعبًا يستوجب النسبة إلى الله سوى بنى إسرائيل ، كما يرى ذلك واضحًا فى العهد القديم وفى التلمود وخاصة فى التسابيح ، أما الدين الجديد فيتميز بنظرة اجتماعية تتفق ومنهج الحياة ، دعا إلى الحب والتسامح ، وهو الاتجاه الذى كانت تفتقر إليه اليهودية ، والذى كان من أوضح ميزات الدين الجديد »[2].

جاءت المسيحية إذن كى تصحح الكثير من الأخلاق الأنانية عند اليهود ولأنها دين جديد لابد أن يحمل فى طياته للإنسانية رؤية جديدة أكثر فاعلية فى الحياة الإنسانية .

---

١ - د. منى ناظم : المسيح اليهودى ، الاتحاد للصحافة والنشر ، أبو ظبى ، ص ١٨ .

٢ - د. الحينى : مرجع سابق ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

المسيح عيسى بن مريم عليه السلام :

لاشك أن شخصية السيد المسيح شخصية عجيبة من كل نواحيها فميلاده ليس ميلاداً عاديًا ولكن كان ميلاداً إعجازيًا . قال تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم . وجيهًا فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر . قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (آل عمران : ٤٥ : ٤٧) ولعل ذلك ما أثار حول شخصيته العديد من الشكوك ؛ يقول ديورانت : « هل وجد المسيح حقًا ؟ أو أن قصة حياة مؤسس المسيحية وثمرة أحزان البشرية ، وخيالها ، وآمالها - أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كرشنا ، وأوزريس ، وأتيس ، وأدنيس ، وديونيسس ، ومثراس ؟ لقد كان « بولنجبروك » والملتفون حوله ، وهم جماعة ارتاع لأفكارهم « فولتير » نفسه ، يقولون فى مجالسهم الخاصة إن المسيح قد لايكون له وجود على الإطلاق ، وجهر « فلنى Volney » بهذا الشك نفسه فى كتابه « خرائب الإمبراطورية » الذى نشره فى عام ١٧٩١[١].

وبالتأكيد نحن وكافة المؤمنين فى العالم نرفض هذه الشكوك ونؤمن بأن المسيح شخصية حقيقية لاشك فى ذلك أبداً .

ماذا عن ميلاده ونشأته ؟

لقد اختلفت الروايات حول تاريخ ميلاد المسيح عيسى بن مريم ولكن الجيل متى يحدد طبيعة الميلاد وزمانه ومكانه ، فيقول فى الاصحاح الأول « أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا ، لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس ، فيوسف رجلها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها أراد تخليتها سراً ، ولكن فيما هو متفكر فى هذه الأمور إذ ملاك الرب قد ظهر له فى حلم قائلاً يا يوسف ابن داود لاتخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذى حبل به فيها هو من الروح القدس ، فستلد ابنًا وتدعو اسمه يسوع ، لأنه يخلص شعبه من خطاياهم ، وهذا كله كان لكى يتم ماقيل من الرب بالنبى القائل ، هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنًا ويدعون اسمه عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا .

---

١ - ديورانت : مرجع سابق ، جـ ١١ ، ص ٢٠٢ .

فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب وأخذ امرأته ، ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر ، ودعا اسمه يسوع » (متى ١:١٨-٢٥) إن هذا النص حدد طبيعة الحمل وطريقة الميلاد .

والإصحاح الثانى من إنجيل متى يقول : " ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودوس الملك إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم ، قائلين أين هو المولود ملك اليهود ، فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له " (متى ٢ : ١و٢) فى هذا النص تحديد لمكان الميلاد « بيت لحم » وتاريخ الميلاد فى عهد « هيرودوس » الملك .

ماذا قال المؤرخون عن قصة ميلاده ؟

تحدث المؤرخون عن المسيح فى ضوء ماذكرت الأناجيل . يقول ديورانت : « يحدد متى ولوقا ميلاد المسيح فى الأيام التى كان فيها هيرودوس ملكًا على بلاط اليهود » أى قبل العام الثالث قبل الميلاد ، على أن لوقا يقول عن يسوع إنه كان « حوالى الثلاثين من العمر ، حين عمده يوحنا فى السنة الخامسة عشرة من حكم « تيبيريوس » أى فى عام ٢٨ - ٢٩م ، وهذا يجعل ميلاده المسيح فى عام ٢ - ١ ق.م)[١] .

وبعيداً عن الآراء الخلافية حول تاريخ الميلاد نتوقف عند العصر الذى ولد فيه وذلك بالنظر فيما ورد من نصوص فى الأناجيل المختلفة . وعن أحداث الميلاد جاء فى إنجيل لوقا : " فى تلك الأيام صدر أمر من أغسطس بأن يكتتب كل المسكونة ، وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان « كيرينيوس » والى سورية ، فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد إلى مدينته ، فصعد يوسف أيضًا من الجليل من الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التى تدعى بيت لحم ، لكونه من بيت داود وعشيرته ، ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد ، فولدت ابنها البكر وقمطته واضجعته فى المذود ، إذ لم يكن لهما موضع فى المنزل . (لوقا ٢:١-٧) .

يعلق متى هنرى على هذه الآيات فيرى أن وقت الميلاد كان وقتًا مناسبًا للأسباب التالية :

١ - فقد ولد وقت أن كانت المملكة الرابعة فى أوج عزها ، عندما كانت مملكة عامة شاملة جامعة أكثر من الممالك الثلاث التى سبقتها . فقد ولد فى أيام « أوغسطس قيصر » عندما

---

١ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ١١ ، و ص ٢١٢ .

امتدت الإمبراطورية الرومانية إلى أرجاء فسيحة جداً لم تصل إليها من قبل ولا من بعد ، إذ امتدت من « بارثيا » إلي « إيطاليا » حتى دعيت « إمبراطورية كل الأرض » وقيل عنها أنها « كل المسكونة » (ع١) إذ قَلَّ أن يوجد جزء متمدن فى العالم لم يخضع لها يومئذ .

٢ - وولد لما أصبحت اليهودية ولاية فى تلك الإمبراطورية ، تدفع لها الجزية .

٣ - كان هنالك سلام عام فى الإمبراطورية (١).

هذا عن طبيعة العصر الذى ولد فيه والبيئة السياسية العامة .

عملية ختان المسيح :

لما تمت ثمانية أيام ختن الصبى . وذلك فى اليوم الذى حدده الناموس . يعلق متى هترى على هذا الحدث فيقول :

١ - مع أنها كانت عملية أليمة إلا أن المسيح قبلها ... وخضع للناموس لكى يعطى دليلاً على طاعته المبكرة .

٢ - ومع أن عملية الختان افترضت أن المسيح أجنبى ، لأن الختان كان يعنى دخول المختون فى العهد مع الله ، ومع أن عملية الختان كانت تفترض أن المختون تزال عنه بعملية قطع الغلفة ، الأوساخ والأقذار ، إلا أنه خضوع للناموس لأنه أراد أن يكون لا فى شبه الجسد ، بل فى شبه الجسد الخاطىء وفى شبه جسد الخطية .

٣ - ومع أن المسيح بعملية الختان جعل نفسه ملتزمًا بكل الناموس (عل ٥:٣) إلا أنه خضع له لأنه أراد أن يتخذ صورة عبد ، مع أنه ولد حراً (٢).

يقول لوقا : " ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبى سمى يسوع كما تسمى من الملاك قبل أن حبل به فى البطن (٢:٢١) .

يقول الدكتور جورج فورد معلقًا على هذه الآية : " فى اليوم الثامن بعد ولادة هذا الطفل ، أجرى لـه فرض الختان الـذى جعله الله لإبراهيم علامة لإفـراز شعبه مـن الأمم الـوثنيين حولهم"(٢).

---

١ - المرجع السابق ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

٢ - د. جورج فورد : سيرة المسيح ، كنيسة قصر الدوبارة ، ص ٤٧ .

زيارة الطفل يسوع للهيكل :

لما بلغ من العمر أربعين يومًا قدم الطفل إلى الهيكل إذ كان هو البكر ، يقول لوقا : « ولما تمت أيام تطهيرها حسب شريعة موسى صعدوا به إلى أوشليم ليقدموه للرب ، كما هو مكتوب فى ناموس الرب ، إن كل ذكر فاتح رحم يدعى قدوسًا للرب ، ولكى يقدموا ذبيحة كما قيل فى ناموس الرب ، زوج يمام أو فرخى حمام » (لوقا ٢:٢٢ - ٢٦) .

هيرودوس ومذبحة أطفال بيت لحم :

قام جماعة من المجوس بزيارة بيت لحم لمشاهدة الطفل المولود الذى ظهر نجمه فى السماء ، وكان هيرودوس ينتظر عودتهم إلا أنهم لم يعودوا إليه . فاغتاظ وأمر بقتل جميع أطفال بيت لحم والبلاد المجاورة لها من ابن سنتين فما دون لاعتقاده أن الصبى يسوع لابد أن يكون واحداً منهم .

رحلة المسيح مع أمه ويوسف النجار إلى مصر :

فراراً من بطش هيرودوس وظلمه وحفاظًا على حياة الطفل اصطحب يوسف النجار السيدة مريم ووليدها إلى مصر حيث الأمان والطمأنينة .

وعن خط سير هذه الرحلة : فقد ورد فى كتاب « خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر » على النحو التالى : " اتفق الباحثون تقريبًا على أن يوسف والعذراء والصبى جاءوا مصر عن طريق صحراء سيناء ، ودخلوها من جهة الفرما ومنها إلى مدينة بسطا (تل بسطة بجوار الزقازيق) واتجهوا غربًا فعبروا فرع النيل الشرقى عند سمنود ، وظلوا سائرين غربًا إلى فرعه الغربى فعبروه ومروا بوادى النطرون ، ومن هناك ساروا إلى الوجه القبلى فنزلوا بمدينة الأشمونين ، ثم مضوا إلى القوصية . فإلى قرية ميرة (الآن مير) وهبطوا حيث يوجد دير المحرق الآن . وبعدما أقاموا به بضعة أشهر على الأرجح ، ظهر ملاك الرب ليوسف فى حلم ، وقال له : قم خذ الصبى وأمه وعد إلى اليهودية ، لأن هيرودوس الذى كان يطلب نفس الصبى قد مات . فقاموا وانحدروا شمالاً حتى جاءوا بابليون (الآن مصر القديمة وكان بها حى لليهود لايزال لهم به آثار حتى اليوم) ونزلوا فى الموضع الذى به كنيسة القديس سرجيوس (المعروفة بكنيسة أبى سرجة) وغادروها إلى عين شمس . وكانت هذه مدينة عامرة باليهود ولهم بها هيكل كان يعرف بهيكل « أونياس » . فأقاموا يستظلون بشجرة يقال إن موضعها حيث توجد الآن شجرة

معروفة بشجرة العذراء بالمطرية . ومن هناك انطلقوا إلى أرض إسرائيل عن طريق محافظة الشرقية فالصحراء كما جاءوا " [١].

حياة المسيح فى الناصرة :

أقام الصبى يسوع مع أمه مريم ويوسف فى الناصرة ولعله قد التحق فى سن السادسة بالمدرسة كسائر أولاد اليهود ، مراعاة لقانون الدين ، الذى جعل تعليم الأولاد إلزاميًا ، فأصبح يسوع شريكًا لجمهور الأولاد فى المدارس[٢] ولم يواصل الدراسة لأنه تحمل أعباء كثيرة وهو لم يزل فى حداثة سنه " كان عليه أن يمارس يوميًا حرفة النجارة ليكسب رزقه ، حتى أطلق اليهود عليه لقب « النجار ابن مريم » ، وتعلم القناعة بحالته الفقيرة ، والخضوع للأكبر منه سنًا ، ومما يؤكد استنتاجنا أن حياته كانت اعتيادية تمامًا ، أن أخوته لم يؤمنوا به ، كما أن صيته لم يمتد فى البلاد المجاورة " [٣].

وسارت حياة المسيح عليه السلام فى الناصرة على نحو طبيعى لايتميز عن غيره إلا بحسن الخلق وهدوء الطبع تحيطه عناية الله وترعاه .

و " عندما كان فى الثانية عشرة من عمره كانت تبدو عليه صفات الباحث عن الحقيقة ، المستقل بنفسه المعتمد على تفكيره وعقله ، وعندما صحبه والداه إلى بيت المقدس . انغمس فى جدال مع الربانيين الرجعيين فى المعبد اليهودى ، وكان عقله الشاب القوى مصراً على استخلاص العقيدة من الروايات العديدة القديمة ، وقد رجع أبواه وهما يظنانه مع الرفقة العائدة وبعد مسيرة يوم رجعا ، فوجداه بعد ثلاثة أيام فى الهيكل بين المعلمين يجادلهم ، والناس يدهشون لأسئلته وأجوبته . وقالت له أمه : لماذا فعلت بنا هكذا ؟ هو ذا أبوك وكنا نطلبك معذبين ، فقال لهما : لماذا تطلبانى ، ألا تعلمان أننى لابد أن اشتغل بالسؤال عن أبى ؟ وكانت كلمات غريبة من شاب ناشىء ، ولم يفهما ما أراد ، ولكنهما كانا متعودين أن يذعنا له فلم يجادلاه ، وكما فى إنجيل لوقا كانت أمه تحتفظ بكل مايقول " [٤].

---

١ – لجنة التاريخ القبطى : خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر سنة ١٩٩٦ ، ص ٣٢ .

٢ – د. جورج فورد : مرجع سابق ، ص ٥٩ .

٣ – المرجع السابق ، ص ٦١ .

٤ – د. عبد الجليل شلبى : مرجع سابق ، ص ١٠١ .

يخلو الكتاب المقدس من أى ذكر عن المسيح من الثانية عشرة من عمره إلى بداية سن الثلاثين حين ذهب إلى نهر الأردن ليطلب من يوحنا أن يعمده يقول متى : " حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه ، ولكن يوحنا منعه قائلاً أنا محتاج أن اعتمد منك وأنت تأتى إلى ، فأجاب يسوع وقال له : اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر. حينئذ سمح له ، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء . وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتيًا عليه ، وصوت من السموات قائلاً هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت " (متى ٣:١٣-١٧) .

لماذا ذهب يسوع ليعتمد من يوحنا ؟ يجيب وليم باركلى على ذلك بقوله :

١ - ظل يسوع فى الناصرة مدة ثلاثين عامًا ، يعمل بأمانة الواجبات البسيطة فى البيت وفى دكان النجار - وطيلة ذلك الوقت كان يعلم أن عالما فى انتظاره ، وكان يحس بشعور متزايد بعمله المنتظر ، ونجاح أى مشروع يتوقف على حكمة اختيار البداية ، وقد انتظر يسوع إلى ساعة الصفر ، وعندما رأى يوحنا يظهر فى الميدان ، أدرك أن الوقت قد جاء .

٢ - ولماذا كان هذا الأمر كذلك ؟ هناك سبب واحد بسيط وحيوى ، وهو أن اليهودى لم يكن يقبل أن يعمد أبداً . كان اليهود يعرفون المعمودية لكنهم كان يطبقونها على الدخلاء فقط الذين يدخلون اليهودية من أديان أخرى ، وقد كان طبيعيًا فى نظرهم أن الدخيل الذى أفسدته الخطية يحتاج إلى المعمودية ، لكن اليهودى لم يكن يقبل أبداً أن واحداً من أبناء إبراهيم ، من الشعب المختار ، يحتاج إلى المعمودية ، كانت المعمودية للخطاة المنفصلين عن الله ، لكن اليهودي لايعتقد أنه كذلك ، لذلك كان خروج كثيرين من اليهود إلى يوحنا ليعتمدوا منه حدثًا تاريخيًا هامًا ، ولم يحدث من قبل .

كانت هذه نقطة البداية التى اختارها يسوع ، إذ وجد الناس يحسون بخطاياهم ، وبحاجتهم إلى الله كما لم يشعروا من قبل ... وفى معموديته ، ربط نفسه بالناس الذين يبحثون عن الله ، لقد أراد أن يعمد من يوحنا ليمثل فى ذلك الناس الذين جاء ليخلصهم[١] .

---

١ - وليم باركلى : تفسير العهد الجديد « إنجيل متى » جـ١ ترجمة القس فايز فارس ، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

ويضيف المعرب القس فايز فارس قائلاً :

١ - قال له يسوع اسمع الآن ... لنهتم بهذه الكلمة « الآن » لماذا ؟

أ - ذلك لأن يسوع كان فى حالة الاتّضاع إذ أخذ شبه جسد الخطية ، مع أنه لم يعرف خطية صار خطية لأجلنا .

ب - لأن معمودية يوحنا فى ذلك الوقت كانت الأداة التى استخدمها الله ليعلن الناس فيها تكريس نفوسهم لله .

جـ - لأن المعمودية كانت الفرصة الأولى التى ظهر فيها يسوع أمام الجمهور ليبدأ بعد ذلك خدمته العلنية .

٢ - أما السبب الذى أورده يسوع للمعمودية فهو " لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر " ذلك لأن المسيح كإنسان جاء مولوداً تحت الناموس وقد كان عليه أن يكمل بر الناموس ، ونائبًا عن البشر .

٣ - لما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء - كان الناس وهم صاعدون من الماء يعترفون بخطاياهم لكن يسوع لم يكن له خطايا يعترف بها لذلك صعد حالاً من الماء .

٤ - ثم انفتحت السموات له - قال البعض إن نوراً باهراً ظهر وراء الجلد للحظة من الزمان، وقال البعض الآخر إن يسوع رأى ماوراء النجوم ، وقد كان هذا لتشجيع المسيح فى بدء خدمته الجهارية ، ولتشجيع البشر على اتباعه وسماع رسالته لأن الخطية تقفل باب السماء أمامنا ولكن بالمسيح تفتح السماء لنا " [١].

التجارب الثلاث التى تعرض لها المسيح عليه السلام :

يحدثنا الكتاب المقدس عن تجارب ثلاث تعرض لها السيد المسيح مع بداية دعوته وإعلان رسالته .

التجربة الأولى : تجربة الجوع : يقول متى " ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من إبليس . فبعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً ، فتقدم إليه المجرب وقال له :

---

١ - المرجع السابق ، هامش ص ٦٥ ، ٦٦ .

" إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً " فأجاب " مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الله " (متى ٤ : ١ - ٤) .

التجربة الثانية : تجربة حب الظهور : يقول متى : " ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة ، وأوقفه على جناح الهيكل ، وقال له : " إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل ، لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك ، فعلى أياديهم يحملونك لكى لاتصدم بحجر رجلك " ، قال له يسوع : " مكتوب أيضًا لاتجرب الرب إلهك " (متى ٤ : ٥ - ٧) .

التجربة الثالثة : تجربة الشرك بالله : يقول متى : " ثم أخذه أيضًا إبليس إلى جبل عال جداً ، وأراه جميع ممالك العالم ومجدها ، وقال له : " أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لى " قال يسوع " إذهب ياشيطان ، لأنه مكتوب " للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد " ، ثم تركه إبليس ، وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه " (متى ٤ : ٨ - ١١) . وقبل أن نقف عند كل تجربة من هذه التجارب . نجيب على السؤال ما سر هذه التجارب وما حكمتها ؟ يقول الدكتور جورج فورد فى ذلك : " أشرف المسيح بانتهاء سنى الاستعداد على خدمته الجهارية ، لكن عليه أن يمر أولاً فى أتون التجربة ليثبت أهليته ليكون المخلص ، فيصارع قائد قوات الشر ويقهره لتتم أول النبوات التى أعطيت للبشر ، لما قال الله فى جنة عدن لأبوينا الأولين إن نسل المرأة سيسحق رأس الحية (تكوين ٣ : ١٥) فعليه أن يقهر إبليس هذا العاتى الذى لم يقهره بشر بعد ، لكى يفتح لغيره باب الفوز الوحيد بهذا الخصم الجبار ، لأن غلبة كل من يسلم من مخالبه المهلكة لاتكون إلا باسم المسيح ، وبقوة الروح القدس الذى أصعده إلى برية التجربة ثم كلله بالنصر .

خضع المسيح كابن الإنسان لقوانين الحياة الأرضية التى ... منها : أن وراء كل جبل مرتفع واديًا منخفضًا ، وبعد كل ابتهاج عظيم انزعاج يضارعه ، فارتفاع المسيح وابتهاجه فى معموديته بالأمس ، أبدلا سريعًا باتضاعه وانزعاجه فى برية التجربة ، وينبئنا التاريخ المقدس بأن الشيطان يترقب زمن ارتفاع الإنسان ليسقطه ، وبذلك يتضاعف أذى الساقط مع افتخار الذى أسقطه كفانا شاهداً على ذلك موسى وإيليا وبطرس ويهوذا الاسخريوطى ... لأن إبليس أسقط موسى[1] فى خطية الغضب التى حرمته دخول أرض الميعاد بعد عناء أربعين سنة .

---

١ - نحن نؤمن بعصمة كل الأنبياء .

وافقدته نيل أمانى حياته الطويلة ، وكان ذلك عند بلوغه أوج عظمته الفائقة (العدد ١٢ : ١٣ و ٢٠ : ٨ - ١٣) وإيليا نال انتصاره الباهر على المملكة وملكها وكهنة أوثانها على جبل الكرمل ، ولم يمر عليه أكثر من يوم إلا رماه إبليس فى خطية اليأس ، فهرب مخذولاً إلى برية سيناء بعيداً عن محل مأموريته وطلب الموت لنفسه (١ملوك ١٨:٣٠-٤٠ و٢٠:١-٩) وبطرس ارتفع إلى السماء عندما مدحه يسوع بكلام بليغ ، فحالا أسقطه العدو الروحى فى خطية الكبرياء ، وجعله ينتهز المسيح ليمنعه من طريق الصليب ، محاولاً أن يفسد عمله الخلاصى ، لذلك عنفه المسيح تعنيفًا لم يعامل غيره به قائلاً له : " اذهب عني ياشيطان ! أنت معثرة لى " (متى ١٦ : ١٣ -٢٣) ويهوذا الاسخريوطى لما استكمل سنى تمتعه بالوسائل الممتازة لترقيته الروحية بمرافقته الدائمة للمسيح ثلاث سنين ونصفًا ، أسقطه هذا المجرب المقتدر فى خطيئة الطمع الفاحش الذى أغرقه فى الهوة العميقة التى جعلت اسمه إلى آخر الزمان مثال قساوة القلب الفائقة البربرية ، والخانة الشنيعة الدنيئة (أعمال ١:١٥-٢٠) وقد اتخذ إبليس الطاغى هذه الخطة مع المسيح[1] إن فى ذلك بيان يوضح عداوة إبليس لبنى البشر يقول تعالى فى القرآن ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ « فاطر : ٣٥ » .

أما عن التجارب الثلاث :

التجربة الأولى : تجربة الجوع يعلق عليها الدكتور جورج فورد فيقول :

" لم يكن المسيح قد أكل شيئًا مدة أربعين ليلة التى قضاها فى البرية ، فاغتنم المجرب فرصة إعيائه الجسدى ليفرغ قواه فى ثلاث تجارب قوية ، كان صوم المسيح هذا أمراً عرضيًا طبيعيًا ، أولاً : لأن البرية لاتقدم له بسهولة طعامًا ، وثانيًا : لأنه مشغول عن التفتيش عن الطعام بانصرافه إلى الأمور الروحية ، ولايرضى أن يترك البرية إلا بإرشاد الروح الإلهى الذى أصعده إليها ، فلم يشعر كثيراً بالجوع إلا عند نهاية هذه المدة الطويلة .

ولما كانت إجابة المسيح الأولى « مكتوب » فقد أعلن لمجربه وللعالم أنه قدم ذاته للتجربة لا كصاحب سلطان، بل كبشر تحت القانون والطاعة وكخاضع نظير سائر البشر لأقوال الكتاب، وفى الوقت ذاته أظهر باستناده على أقوال الكتاب ماهو المرجع الحقيقى فى أمور الدين .

---

١ - د. جورج فورد : مرجع سابق ، ص ٨٣ .

تمسك المجرب بأن المسيح ابن الله ، لأن افتخاره يزيد كثيراً إن تغلب على ابن الله ، لكنه رغم ذكائه الفائق نسى أن ابن الله لايجوع ولايأكل خبزاً ، ولايمكن أن يجرب ، فاصلح المسيح وهم إبليس لما أوضح له أنه يقابله ، لا كابن الله ، بل كابن الإنسان . لم يهتم المسيح كثيراً فى كل حياته بتذكير الناس أنه ابن الله ، فبينما يشير إلى ذاته فى الإنجيل كابن الله أقل من عشر مرات ، يشير نحو خمسين مرة إلى كونه ابن الإنسان .

وقد قصد المجرب فى هذه التجربة أيضًا أن يغرى المسيح على الاهتمام أولاً بخدمة ذاته ، فإن أقنعه أن يفعل معجزته الأولى لمنفعته الشخصية ، يعد ذلك نجاحًا عظيمًا له ، لأنه يعطل عمل المسيح المخلص ، أن يصير المسيح من الذين يعيشون لذواتهم ، لكن المسيح جعل هدف كل معجزاته خدمة للآخرين ، حتى أعدائه .

ثم إن لهذه التجربة معنى يتعلق بعمل المسيح بين الناس كمخلص ومصلح ، أراد المجرب أن يغريه على تقديم الأمور الجسدية على الروحية ، مراعاة لمزاج عامة الناس ، فينضم كثيرون إليه لهذا السبب ، ويكون نجاحه فى الظاهر سريعًا ، فرفض المسيح هذه الحيلة ، لأن مبدأه «أعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقى للحياة الأبدية »(يوحنا ٦:٢٧) . وبجوابه علم البشر فى كل مكان وزمان أن خدمة الأرواح تقدم على خدمة الأجساد ، وأن الإحساس الحقيقى هو ماينفع النفوس قبل الأجساد ، وأن الإحسان إلى الجسم الفانى يقصد به أولاً أن يصير مقدمة ووسيلة للإحسان إلى النفس الخالدة » [(١)].

ونستطيع أن نستخلص الكثير من الدروس الروحية للتجارب الثلاث على هذا النحو :

القبض على يوحنا وقيام المسيح بعمله :

بعد أن تم تعميد المسيح بوقت قليل تعرض يوحنا لحادث أليم يعتقد أنه كان آخر أحداث أيام حياته حيث « أمر هيرودوس أنتباس (صاحب المدن الأربع) فى الجليل بسجن يوحنا ، وتقول الأناجيل إن سبب القبض على يوحنا هو انتقاد هيرودوس لأنه طلق زوجته ، وتزوج هيروديا وهى لاتزال زوجة لفليب أخيه غير الشقيق ، أما يوسفوس فيقول إن سبب القبض عليه هو خوف هيرودوس أن يكون يوحنا يستتر بستار الإصلاح الدينى ليثير القلاقل السياسية فى البلاد » [(٢)] .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٨٥ ، ٨٨ .

٢ - ديورانت : مرجع سابق ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

لما سمع يسوع بأن يوحنا قد أسلم ليد هيرودوس ، قام على التو بعمل المعمدان ويخطب فى الناس مبشراً بملكوت الله ، ويقول لوقا إنه « عاد إلى الجليل » وإنه « كان يعلم فى مجامعهم » ... وليست لدينا صورة مطبوعة فى أذهاننا عن ذلك الشاب المثالى وهو يقوم بدوره فى قراءة الكتاب المقدس على المجتمعين فى الناصرة ، ويختار لهم فقرة من سفر إشعيا: " روح الرب علىَّ لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين ، أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ، لأنادى للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالإطلاق " " والعمى بالبصر ، وأرسل المنسحقين فى الحرية " ويضيف لوقا " وجميع الذين فى المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه ، فابتدأ يقول لهم إنه اليوم قد تم هذا المكتوب فى مسامعكم " وكان الجميع يشهدون ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فيه " ، ولما عرف أن يوحنا قد قتل وأن أتباعه كانوا يبحثون عن زعيم جديد تحمل يسوع العبء وما يستتبعه من خطر ، وأرتد أولاً فى حذر وحيطة إلى القرى الهادئة وصار يتجنب على الدوام الجدل السياسى ، ثم أصبح فى كل يوم أعظم جرأة فى إعلانه إنجيل التوبة ، والإيمان ، والنجاة ، حتى ظن بعض أتباعه أنه هو يوحنا قام من بين الموتى " (١).

من هنا بدأت رسالة المسيح عيسى بن مريم تعلن عن نفسها جهاراً وتحدد أهدافها الروحية بجلاء ووضوح .

المسيح يختار تلاميذه :

كان من أوائل التلاميذ الذين ساروا خلف المسيح طائعين أندراوس ويوحنا من بيت صيدا تبعا المسيح فوراً بكل الاحترام ، دون أن يقولا شيئًا ، ثم أتى أندراوس بأخيه سمعان وقد منحه اسمًا جديداً فسماه بطرس وانضم إليهم تلميذاً رابعًا اسمه فيلبس - هؤلاء هو أول من دعاهم تلاميذ ، أما عن تلاميذه الإثنى عشر فهم :

١ - بطرس (سمعان) ، ٢ - اندراوس ، ٣ - يعقوب الكبير بن زبدى أخو يوحنا ، ٤ - يوحنا ، ٥ - فيلبس ، ٦ - برثولماوس ، ٧ - متى ، ٨ - توما ، ٩ - يعقوب الصغير بن حلفا ، ١٠ - سمعان القانوى ، ١١ - يهوذا أخو يعقوب الصغير ، ١٢ - متياس ... وقد أرسلهم السيد المسيح إلى أنحاء العالم ليبشروا بالعهد الجديد .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٨٥ ، ٨٨ .

معجزات السيد المسيح : لقد جرت على يد السيد المسيح الكثير من المعجزات والعجائب التى لاينكرها أحد ؛ يقول أحد الكتاب " إن عجائب المسيح كانت جزءاً من بعثته الروحية لامجرد براهين عليها " فقد كان من الطبيعى له بالنظر إلى شخصيته الفريدة أن يشفى الأمراض ، ويسيطر على عناصر الطبيعة ، ويشبع جموع الجياع ، ولكنه لايجوز لنا التطرف فى تعظيم أهمية هذه النظرية إلى حد تقليل أهمية النظرية الأخرى وهى : أن كثيراً من العجائب كانت لها غاية بيانية ، أو أن القصد منها كان البرهان على صحة الدعوة "[١] . وقد ذكر القرآن العديد من معجزات المسيح عليه السلام فى قوله تعالى فى سورة المائدة ، ﴿ إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلاً . وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى . وتبرئُ الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى . وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين . وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ « المائدة : ١١٠ ، ١١١ » .

وقال تعالى : ﴾ إذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم : هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون لنا عليها من الشهدين ، قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابًا لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ «المائدة : ١١٢ - ١١٥ » .

وقوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ .... وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ « آ عمران : ٤٩ » .

العهد الجديد :

يمثل العهد الجديد القسم الثانى من الكتاب المقدس وهو يشتمل على الأسفار التاريخية ، الأناجيل الأربعة وسفر أعمال الرسل . وكلمة إنجيل كلمة يونانية معربة معناها خبر سار أو بشارة .

---

١ - القس سكيل سيل : مرجع سابق ، ص ٤٢ .

أولاً : الأناجيل الأربعة هي :

الأول إنجيل متى : يقول القس سيكل سيل :

" يسمى الإنجيل باسم « متى » أحد تلاميذ المسيح ، ومن أقدم العصور كان الاعتقاد عامًا بأن « متى » هو كاتبه . فقد قال بعض آباء الكنيسة الأولين أن « متى » كتب إنجيلاً في اللغة العبرانية أو اللهجة العامية التي نسميها اليوم بالآرامية ، وكثيرون من علماء العصر الحاضر يعتقدون أن ما كتبه « متى» في الأصل كان مجموعة من أقوال « يسوع » ، وقد ترجمت هذه المجموعة إلى اليونانية وأضيف إليها بعض فقرات منقولة من إنجيل مرقس . ولايمكن الجزم في تاريخ كتابة الأصل العبراني ، أما الإنجيل كما هو بين أيدينا فهو بلا ريب قد كتب في زمان يلي زمان كتابة مرقس . وقد حدد بعض العلماء تاريخه بين سنة ٦٠ ، وسنة ٧٠ .م ووضعه غيرهم بين سنة ٧٠ و ٨٠ م." [١].

يحتوى إنجيل « متى » ١٠٦٨ عدداً وأنه يعيد ٨٥٢ عدداً مما أورده « مرقس » وهذه الأعداد المأخوذة عن « مرقس » تختص برواية الأحداث في حياة يسوع . وأهم ما تتميز به بشارة « متى » كما يقول وليم باركلي :

١ - يهتم متى باليهود خاصة .

٢ - يهتم بموضوع الكنيسة ورسالتها .

٣ - يهتم بالتعليم أي بتعليم رسالة المسيح .

٥ - الفكرة المسيطرة على هذه البشارة هي فكرة يسوع الملك [٢].

ويقول سيكل سيل : " وفي هذا الإنجيل ثمانية وعشرون إصحاحًا تندرج في خمسة فصول كبار :

الفصل الأول : يتضمن تاريخ تسلسل المسيح من إبراهيم وداود وبعض أمور تختص بمولده وطفولته ص ١ ، ٢ .

الفصل الثاني : يشتمل على خبر يوحنا المعمدان واعتماد المسيح وتجربته وشروعه علانية في خدمته ص ٣ ، ٤ .

---

١ - القس سيكل سيل : مرجع سابق ، ص ٢١٨ .

٢ - وليم باركلي : مرجع سابق : ص ١٤ ، ١٧ .

الفصل الثالث : يتضمن الأخبار بتعاليم المسيح وعجائبه إلى وقت تجليه ص ٥ - ١٧ .

الفصل الرابع : يتضمن مخاطبات المسيح ومعجزاته العديدة منذ يوم تجليه إلى ماقبل صلبه بيومين ص ١٨ - ٢٥ .

الفصل الخامس : ذكر آلام المسيح وموته ثم قيامته ص ٢٦ - ٢٨ .

الثانى : إنجيل مرقس :

يعتقد البعض أن هذا الإنجيل من أقدم الأناجيل الموجودة إذ استقى منه كل من « متى » و« لوقا » الكثير من الأحداث .

يقول القس مرقس داود : " إن التقليد الذى يؤكده الأقدمون جداً هو أن القديس « مرقس» هو كاتب هذا الإنجيل ، تحت إرشاد القديس « بطرس » ، وأن القديس « بطرس » أيد ما كتبه ، قال أحد المؤرخين الأولين ، إن « مرقس » - تلميذ بطرس والناطق بلسان بطرس - دون كتابة ما كرز به بطرس شفويًا " وإن كان « مرقس » ليس من بين الاثنى عشر كمتى ويوحنا ، فإن هذا لايقلل من شأن إنجيله ، ولايعتبر دليلاً على عدم قانونيته . ويقول القديس « جيروم» إن « مرقس » بعد كتابة هذا الإنجيل ذهب إلى مصر ، وكان أول من كرز بالإنجيل فى الاسكندرية ، حيث أسس هناك كنيسة ، كان لها المثل الأعلى فى قداسة السيرة ، وقد قال أحدهم " إنه زين بتعاليمه وبحياته الكنيسة التى أسسها ، حتى أن قدوته أثرت فى كل أتباع المسيح "[1].

يرى البعض أن هذا الإنجيل كتب بين سنة ٦٠ و ٧٠ وفيه ستة عشر إصحاحًا تندرج فى ثلاثة فصول كبار هى :

الفصل الأول : يتضمن خبر خدمة يوحنا المعمدان ، وخبر عماد المسيح وتجربته ص ١ : ١ - ١٣ .

الفصل الثانى : يتضمن تعاليم المسيح وعجائبه من شروعه فى خدمته علانية إلى زيارته أورشليم فى الفصح الأخير ص ١ : ١٤ - ص ١٠ .

الفصل الثالث : يتضمن خبر دخول المسيح إلى أورشليم وأمثاله ، ومخاطباته هناك والحكم عليه ، وموته وقيامته وإرساله رسله ص ١١ - ١٦ ... بعض النسخ القديمة من هذا الإنجيل

---

١ - القس مرقس داود : إنجيل مرقس جـ ١ ، ص ٦ .

لها خاتمة تختلف عن خاتمته المعروفة (مر ١٦ : ١٩ - ٢٠) وأقصر منها ، وهذا جعل كثيرين يستنتجون أن خاتمته الأصلية فقدت من زمن بعيد ، وأن الإثنتى عشرة آية الأخيرة أضيفت بعدئذ لتحل محل القطعة المفقودة "(١) .

الثالث : إنجيل لوقا :

" لوقا الطبيب الحبيب " (كو ٤ : ١٤) درس الطب ومارسه ويقول بعضهم إنه كان رساماً، وأنه رسم صورة للعذراء مريم .

لايمكن تحديد زمن كتابه إنجيل « لوقا » بالضبط ، فبعض العلماء يرتأون أنه كتب بين سنة ٦٠ - ٧٠م ، ويرى غيرهم أنه كتب بعد ذلك التاريخ .

إن لوقا لم يكن من الرسل الاثنى عشر ، وهو لايدعى أنه شاهد بعينه الأمور التى كتبها بل صرح بأنه جمع كل ماكتبه باجتهاد وتدقيق من الذين كانوا معاينين وخداماً للكلمة (ص ١ : ١ - ٤) ولكنه يوضح لنا (ص ١ : ١ - ٤) أنه بذل عناية كبيرة للحصول على مادته من شهود عيان يوثق بهم .

وقد لاحظ المفسرون أن لوقا كثيراً ما أهمل ترتيب ذكر الحوادث بالنظر إلى تاريخها ، واعتبر فى ترتيبها العلاقة المعنوية الداخلية أكثر من علاقة أحوال الزمان الخارجية ، وغلب أن يستأنف أخباره بعبارات شائعة لاتعين الوقت كقوله مثلاً ... وكان فى إحدى المدن .. وفى أحد الأيام دخل سفينة ... وفيما هو صلى على انفراد ... وفيما هو سائرون دخل قرية ... وهلم جرا ... ومما يبرهن على اجتهاد لوقا فى جمع المواد لإنجيله أن نصف مواد إنجيله غير موجودة فى مكان آخر ، فهى المستند الوحيدة الذى حفظ لنا الكثير من الأمثال : كمثل السامرى الصالح والابن الشاطر وسواهما كثير ... وبعض العجائب أيضاً لاذكر لها إلا فى لوقا "(٢).

ويقول متى هنرى : " ويلاحظ أن طريقته فى الكتابة دقيقة جداً وأن أسلوبه مؤدب وطريف وسام ، ومع ذلك فهو واضح جلى ، كما يلاحظ أيضاً أنه كتب بأسلوب يونانى راق جداً أسمى من أسلوب أى إنجيل آخر " (٣).

---

١ - سيكل سيل : مرجع سابق ، ص ٢٢٣ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

٣ - متى هنرى :مرجع سابق ، ص ٦ .

وفى هذا الإنجيل أربعة وعشرون إصحاحًا تنحصر فى أربعة فصول كبار :

الفصل الأول : يتضمن ذكر ميلاد يوحنا المعمدان والمسيح وتاريخهما من أول الأمر إلى اعتماد المخلص ، ص ١ - ٣ .

الفصل الثانى : يتضمن تعاليم المسيح وعجائبه الكثيرة فى مدة خدمته ثلاث سنوات إلى أن ذهب إلى اليهودية لأكل الفصح الأخير ص ٤ - ٩ .

الفصل الثالث : يتضمن تعاليم يسوع وأمثاله وأفعاله فى اليهودية وأورشليم إلى أن سلمه يهوذا ص ١٠ - ٢١ .

الفصل الرابع : يتضمن أخبار آلام المسيح وموته وقيامته وصعوده ص ٢٢ - ٢٤ .

الرابع : إنجيل يوحنا :

يقول وليم باركلى : " بشارة يوحنا بالنسبة للكثيرين من المسيحيين ، هى أثمن سفر بين أسفار الإنجيل ، بل هى أقدس أقداس العهد الجديد ، فهو السفر الذى يغذى العقل ، ويملأ القلب ، وتستريح إليه النفس .. والدارس لهذه البشارة ، حتى ولو بصورة سطحية سريعة ، يستطيع أن يكتشف تباينها عن البشائر الثلاث الأولى ، فهى لاتورد الكثير مما أوردته تلك البشائر ، إنها لاتتحدث عن ميلاد المسيح ، ولامعموديته ، ولاتذكر شيئًا عن التجارب الثلاث فى البرية ، وهى لاتتحدث أيضًا عن العشاء الأخير ولا جشيمانى ، ولاحادثة الصعود. ولاتشير بكلمة واحدة إلى معجزات إخراج الشياطين ، والأرواح الشريرة ، وربما أغرب الكل ، أننا لانقرأ فيها شيئًا من أمثال المسيح ، وقصصه التى تكون جانبًا جوهريًا من البشائر الأولى. ومن الأمور التى تدعو للغرابة أيضًا ، الصورة المغايرة التى قدم بها يوحنا بعض الحقائق عن حياة المسيح وخدمته ، مما يعطى المجال للقارىء السطحى أن يكتشف بعض التناقضات الظاهرية "[١] .

وفى هذا الإنجيل واحد وعشرون إصحاحًا تندرج فى خمسة فصول كبار هى :

الفصل الأول : يتضمن ذكر أمور شتى من أمور يوحنا المعمدان وأفعال المسيح بعد شروعه فى خدمته . ص ١ .

---

١ - وليم باركلى : مرجع سابق ، ص ٧ ، ١٠ .

الفـصل الثـانى : يتضـمن أقوال المسيح وأعماله العديدة إلى ظهوره الأخير فى أورشليم ص٢ - ١٢ .

الفصل الثالث : مخاطبات المسيح الوداعية مع رسله قبل موته ص ١٣ - ١٧ .

الفصل الرابع : يتضمن خبر تسليم المسيح والقضاء عليه وصلبه ص ١٨ - ١٩ .

الفصل الخامس : أمور قيامة المسيح ومحادثته الأخيرة مع تلاميذه ص ٢٠ ، ٢١ .

ثانيًا : سفر أعمال الرسل :

سفر أعمال الرسل أو (سفر بركسيس Praxis مأخوذة من كلمة يونانية معناها الأعمال) وينسب هذا السفر للقديس لوقا صاحب الإنجيل الثالث ... وقد كتبه باللغة اليونانية حوالى سنة ٦٣ ميلادية على أرجح الأقوال ، أى فى العصر نفسه الذى كتب فيه إنجيله .

وموضـوعه : تاريخ حياة الحواريين وتاريخ طائفة ممن كانوا لهم أثر كبير فى المسيحية من التلاميذ والتابعين [١].

منهجه : يقول سيكل سيل : " يظهر من الاثنى عشر أو الثلاثة عشر إصحاحًا الأولى أن «لوقا» جرى فى كتابتها على النهج الذى اتبعه فى إنجيله من جميع الإفادات المتفرقة التى اتصلت إليه من أوائل عهد الكنيسة ، ويعتقدون أن جل اعتماده فى هذه الإصحاحات كان على مصدرين يشتركان معًا فى بعض الأحيان ، أحدهما من أورشليم والثانى من أنطاكية ، وأنه فى هذا القسم من كتابة ترجم كثيراً عن الآرامية . وأكثر الرسل ظهوراً فى هذا القسم هو «بطرس» . ثم من الإصحاح الثالث عشر فما بعد يصبح سفر الأعمال عبارة عن ترجمة «لبولس» وهو يعتمد على يومية « لوقا » نفسه وتذكراته ، وعلى معلومات اتصلت به من أفراد « كفيلبس » المبشر " [٢].

وإذا كانت الأناجيل الأربعة قد اهتمت بتاريخ المسيح عليه السلام ، فإن سفر أعمال الرسل هذا قد اهتم بتاريخ تلاميذ المسيح ولذلك أطلقوا عليها جميعًا الأسفار التاريخية . يقول سيكل سيل : " ومن الواضح أن للسفر ماعدا غايته التاريخية المجردة غاية أخرى وهى الدفاع

---

١ - د. على عبد الواحد : مرجع سابق ، ص ٩٩ .

٢ - سيكل سيل : مرجع سابق ، ص ٢٣٢ .

عن المسيحية تجاه الانتقاد القائم ضدها فى ذلك الحين . وحيث أن هذا السفر كتب حوالى أواخر القرن الأول حين بدأت الكنيسة تقع تحت الشبهة أمام السلطات الحاكمة : فإن كاتبه كان شديد الرغبة فى أن يبرهن على أن هذه الشبهات لا أساس لها (أنظر ٢٣ : ١٩ و ٢٥ : ١٨ ومابعده و ٢٦ : ٣١) وفى (١٣ : ١٢ و ١٨ : ١٤ و ١٥ و ١٩ : ٣١) ترى أن الكاتب يقصد أن يبين أن السلطة الرومانية كانت دائمًا فى أوائل البعثة المسيحية تعدها حركة غير سياسية وتحمى الرسل من اضطهاد اليهود "[1] .

ثالثًا : الرسائل :

إضافة إلى الأناجيل الأربعة وسفر أعمال الرسل توجد رسائل أخرى عديدة تبلغ إحدى وعشرين رسالة وهى :

أ - رسائل بولس :

وعددها أربع عشرة رسالة كتبها كلها فى الأصل باللغة اليونانية فى عصور مختلفة من نحو ٤٥ وتنتهى حوالى سنة ٦٥ . منها عشر رسائل إلى بعض البلاد وبعض الشعوب وأربع رسائل إلى بعض تلاميذه . أما الرسائل العشر التى أرسلها إلى بعض البلاد وبعض الشعوب فهى :

١- **رسالة بولس إلى أهل رومية** ، كتبها فى مدينة كورنثوس وذلك فى سنة ٥٧م على الأرجح ، ويعتقد بعض العلماء الحديثين أن الإصحاح الأخير من هذه الرسالة لم يكن فى الأصل جزءًا منها ، بل كان مذكرة مستقلة عنها أضيفت إليها بعد ذلك .

٢ - **رسالتا بولس إلى أهل كورنثوس** :

كانت كورنثوس عاصمة أخائيا من أعمال بلاد اليونان القديمة وأشهر مدائنها وأفضلها فى عظمة البناء واتساع التجارة وغنى الأهالى وتميز موقعها . كان أهلها مشهورين بالغنى الجزيل والتنعم ورفاهية المعيشة والتقدم فى الصنائع والفنون والعلم والفطنة ، ولذلك تدعى نور بلاد اليونانيين وزينتها ، ولكن لم تكن شهرة حذاقتهم أعظم من شهرة فسادهم وسوء آدابهم حتى صارت مجاهراتهم بالفواحش التى كان يستبيحونها مثلاً سائراً بين الناس . عاش فيها

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

« بولس » وأسس فيها كنيسة واستطاع أن يصلح أحوال أهلها ، وبعد أن قام « بولس » فيها ثمانية عشر شهراً وذهب مع « ايلا » و « بريسكلا » إلى « أفسس » حيث جعل إقامته فيها وانضم إليه هناك بعدئذ « إبلو » الذي خلفه في « كورنثوس » لمداومة عمله فيها ... وصلت بولس أخبار الصراعات التي نشبت بين الطوائف المختلفة في « كورنثوس » فقد كتب عدة رسائل وصل إلينا في العهد الجديد أجزاء منها في الرسالة الأولى والرسالة الثانية إلى أهل « كورنثوس » ولكننا نعرف من هاتين الرسالتين أنه كتب أكثر من رسالتين ، وقد ورد ذكر أربع رسائل على الأقل[1] .

٣ - رسالة بولس إلى أهل غلاطية :

إن غلاطية ولاية في وسط آسيا الصغرى ، سميت بذلك نسبة إلى سكانها الأصليين الذين ارتحلوا إليها نحو عام ٢٨٠ ق.م من جنوب أوربا الشرقي وكانوا من الجنس الذي استوطن فرنسا .

وأرجع الآراء حول زمن كتابتها أنها كتبت في سنة ٥٦ و ٥٧م . وفي هذه الرسالة ستة إصحاحات تندرج في ثلاثة أجزاء هي :

الجزء الأول :تبرئة بولس لنفسه ولما بشر به من التعاليم (ص ١ و ٢) .

الجزء الثاني : محاماة عن تعليم التبرير مجانًا بالإيمان مبرهنًا ذلك بشهادات العهد القديم (ص ٣ - ٥ : ١ - ١٢) .

الجزء الثالث : نتائج تعاليم النعمة ونصائح متنوعة للتعبد بقوة الروح القدس وإرشاده الموعود به (ص ٥ : ١٣ - ٢١ و ص ٦) .

٤ - رسالة بولس إلى أهل أفسس :

كانت أفسس مدينة في آسيا الصغرى اشتهرت اشتهاراً عظيمًا بهيكل الإلهة « ديانا » الكاذبة التي تدعى أيضًا أرطاميس . وأن أهل « أفسس » يعبدون الأوثان ويصدقون الأوهام الباطلة ويتهافتون على الفواحش . ومع ذلك نجح « بولس » بينهم بإرشاد كثيرين منهم إلى الإله الحق ، وكان تأسيس الكنيسة في « أفسس » نحو سنة ٥٤ للمسيح بخدمة وأتعاب

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

« بولس » و « اكلا » و «بريسكلا » . وهذه الرسالة كتبها إليهم « بولس » وهو أسير ومن الأرجح أنه كان فى رومية فى مدة أسره ... ويعتقد كثيرون أنه لم يكتب هذه الرسالة لأهل «أفسس » خاصة وإنما كتبها ليطلع عليها عدد من الكنائس وفى جملتها كنيسة « أفسس ».

وفى هذه الرسالة ستة إصحاحات تندرج فى جزئين كبيرين :

الجزء الأول : تعليمى وهو يحيط بالثلاثة إصحاحات الأولى (١ - ٣) .

الجزء الثانى : عملى وهو يحيط بالثلاثة إصحاحات الأخيرة (٤ - ٦) (١).

٥ - رسالة بولس إلى أهل فيلبى :

فيلبى أول مدينة من « مكدونية » ، وهى كولونية أى لها من الدولة الرومانية ما لمدينة رومية نفسها من حقوق ...

إن « لوقا » يخبرنا فى (١ ع ١٦ : ٩) إلخ بدعوة بولس برؤيا إلى « مكدونية » وبعمله فى « فيلبى » والاضطهاد القاسى الذى كابده هناك وذلك سنة ٥١م . ويخبرنا أيضًا فى (١ ع ٢٠ : ١ - ٥) بزيارة « بولس » أهل « مكدونية » مرتين بعد ذلك وفى المرة الأولى كان مشغولاً جداً بجمع صدقات للفقراء القديسين الذين فى أورشليم كما يظهر من (٢كو ص ٨ و ٩) (٢).

تعرض بولس فى « فيلبى » إلى الاضطهاد والسجن وكانت الكنيسة فى فيلبى وريثة لهذا الاضطهاد بعد أن غادرها « بولس » مضطراً ، وقد قال لهم « بولس » إنهم كانوا شركاء فى قيوده وفى المحاماة عن الإنجيل (١:٧) وهو يطلب إليهم أن لايخافوا من مقاوميهم لأنهم يجوزون فيما جازه هو بنفسه ولايزال يحتمله حتى الآن (١:٢٨ - ٣٠) .

وثمة علاقة خاصة بين بولس وأهل فيلبى تفوق أية علاقة مع شعب آخر أو كنيسة أخرى ، يقوم دليلاً على ذلك أنه لم يأخذ أى مساعدة من أى إنسان ولا من أية كنيسة . ولكنه قبل أن يأخذ هدية من كنيسة « فيلبى » وحدها وقد حدث ذلك مرتين : المرة الأولى فور مغادرته لهم أرسلوا له هدية وهو فى « تسالونيكى » (٤:١٦) والمرة الثانية عندما وصل إلى «كورنثوس» بطريق أثينا أرسلوا له هداياهم (٢ كو ١١ - ٩) .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢٤٨ - ٢٥٠ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٢٥٣ .

وقد أرسل لهم هذه الرسالة بدوافع عدة أهمها :

١ - إنها رسالة شكر لأنهم تذكروه وأرسلوا له هدية فى عام ٦٣م . فكتب لهم هذه الرسالة معبراً عن عواطف شكره وامتنانه لهم .

٢ - أرسل أهل « فيلبى » « أبفرودتس » حاملاً لهديتهم وليكون فى خدمة « بولس » ولكن « أبفرودتس » لم يتمكن من خدمة « بولس » فقد هاجمه المرض ولزم الفراش ، وعندما تماثل للشفاء أرسله إلى « فيلبى » ومعه هذه الرسالة يوصيهم فيها خيراً « بأبفرودتس » .

٣ - كانت هذه الرسالة رسالة تشجيع للفيلبيين فى تجاربهم .

٤ - الرسالة دعوة للوحدة .

وقد كتبت هذه الرسالة بأفصح العبارات ولهذا يعتبرها كثير من المسيحيين من أحب الرسائل التى كتبها « بولس » وقد أطلق عليها لقبان جميلان جديران بها ... « فقد سميت بأنها " رسالة الأمور الفائقة " وسميت أيضًا بأنها " رسالة الفرح الدايم "[(١)] .

وتشمل هذه الرسالة أربعة إصحاحات تندرج فى ثمانية فصول هى :

الفصل الأول : عنوان الرسالة (ص ١ : ١ و ٢) .

الفصل الثانى : شكر بولس لله على ثباتهم فى الإيمان وصلاته لكى يتقدموا فى العبادة (ص ١ : ٣ - ١١) .

الفصل الثالث : شرح نتائج حبسه فى رومية وانتشار الإنجيل فيها حتى قصر الملك وإظهار رغبة فى إفادة الكنيسة حتى أنه مع كونه يشتهى أن ينتقل من هذا العالم ويتشرف برؤية المسيح يريد أن يبقى فى الجسد للسعى فى هذه الإفادة (ص ١ : ١٢ - ٢٦) .

الفصل الرابع : نصائح لأهل « فيلبى » بكلام المحبة أن يمتلكوا أخلاقًا وسيرة لائقة بالإنجيل (ص ١ : ٢٧ - ص ٢ : ١٦) .

الفصل الخامس : إظهار اهتمام « بولس » بإفادة أهل « فيلبى » إذ أرسل إليهم « تيموثاوس » و « أبفرودتس » (ص ٢ : ١٧ - ٢٣) .

---

١ - وليم باركلى : تفسير العهد الجديد فيلبى ، ص ١١ - ١٥ .

الفصل السادس : تحذيره لهم من المعلمين المعاندين المتهودين الذين يدعون التبشير بالإنجيل ، مبينًا لهم رغبته العظيمة في إنجيل المسيح والبر الذى يصدر من الله بالإيمان(ص٣) .

الفصل السابع : نصائح شتى بالسرور والعدالة وممارسة الصلاة ووصايا بإحراز الفضائل المزينة للمسيحيين ، وتعريف بوصول النفقة التى تكرموا عليه بإرسالها ووعد لهم بالعوض النفيس من إله عهده حسب غنى مجده (ص ٤ :١ - ٢٠) .

الفصل الثامن : خاتمة الرسالة (ص ٤ : ٢١ - ٢٣)[1] .

٦ - رسالة بولس إلى أهل كولوسى :

كانت « كولوسى » إحدى المدن العظيمة فى « فريجية » من أعمال آسيا الصغرى واقعة إلى الجنوب الغربى منها بالقرب من « لاودكيه » و « هيرابوليس » (ص ٤ : ١٣) ولم يتحقق تأسيس كنيستها بسعى أحد من الرسل . وإنما بسعى شخص متدين ، ولعله كان يسمى « فيلمون » أو «ابفراس» على الأرجح وإلى وقت كتابة هذه الرسالة لم يكن « بولس» قد ذهب إلى هناك .

وهذه الرسالة تتفق مع الرسالة إلى « أفسس » فى تاريخ كتابتها وفى المكان الذى كتبت فيه .

وكان الدافع إلى كتابة هذه الرسالة مجيء « ابفراس » خادمهم فى الإنجيل إلى « رومية » ليستشير « بولس » فى تعاليم جديدة نادى بها بعض المعلمين المزورين وقد تضمنت أيضًا ردًا على التعليم الغنوصية التى انتشرت فى معتقدات الكولوسيين .

والرسالة تحتوى على أربعة إصحاحات تندرج فى ثمانية فصول هى :

الفصل الأول : مقدمة الرسالة (ص ١ : ١ و ٢) .

الفصل الثانى : شكر « بولس » وصلواته من أجل أهل كولوسى (ص ١ : ٣ - ١٤) .

الفصل الثالث : بيان مجد المسيح وفضله وساطته التى جذبت الأمم إلى كنيسة الله (ص١ : ١٥ : ٢٩) .

الفصل الرابع : تحقيق « بولس» لأهل « كولوسى » اهتمامه بهم وصلواته من أجلهم لكى يعيشوا ويتقدموا فى معرفة المسيح ونعمة الله (ص ٢ : ١ - ٧) .

---

١ - سيكل سيل : مرجع سابق ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

الفصل الخامس : التحذير من الأوهام الفلسفية التى يتخذها أهل الباطل والحث على التمسك بصافى تعاليم المسيح (ص ٢ : ٨ - ١٧) .

الفصل السادس : التحذير من السجود للملائكة والتغاضى عن المسيح (ص ٣ : ١٨ - ٢٣) .

الفصل السابع : النصيحة بأن يرغبوا فى الأمور السماوية ويمارسوا الفضائل المسيحية مع ذكر عدة واجبات أدبية (ص ٣ - ص ٤:١) .

الفصل الثامن : نصائح وتعاليم وتحيات عديدة يتصل بها ختام الرسالة (ص٤) .

٧ - رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكى :

تسالونيكى مدينة كبيرة اسمها الأصلى « ثرماى » ومعناه « الينابيع الحارة » وقبل دخول « بولس » بمائة عام كان « هيرودوس » قد وصفها بأنها مدينة عظيمة ، وكانت دائمًا مرفأ مشهوراً ، وعلى هذا المرفأ أقام أحشويرش الفارسى قاعدة بحرية عندما غزا أوربا ، وظلت حتى الحكم الرومانى من أكبر موانىء العالم ، وفى عالم ٣١٥ ق.م أعاد « كاسدد » بناء المدينة وخلع عليها اسم « تسالونيكى » نسبة إلى « تساليا » اسم زوجته التى كانت ابنة «فليب» المقدونى وأخت « اسكندر الأكبر » ، وكانت مدينة حرة ، بمعنى أنها لم تعان أبداً ذل الجيوش الرومانية فيها ، وكان لها برلمانها الخاص وقضاتها من أبنائها ... وقد أقام بها «بولس» وكرز فى المجمع ثلاثة سبوت متتالية (أعمال ١٧ : ٢) وهذا معناه أن مدة إقامته هناك لم تزد عن ثلاثة أسابيع ، وقد نجح نجاحًا عظيمًا مما هيج اليهود عليه وأثاروا الفتن والقلاقل مما اضطر الإخوة إلى تهريب « بولس » إلى « بيريه » خوفًا على حياته (أعمال ١٧ : ١٠ - ١٢) وترك « بولس » « تيموثاوس » و « سيلا » وراءه ؛ أما هو فذهب سراً إلى أثينا [١].

وقد كتبت هذه الرسالة نحو سنة ٥٢م . كتبها « بولس » من « كورنثوس » أثناء مدة إقامته هناك فى المرة الأولى فتكون إذن من جهة الوقت أولى الرسائل التى كتبها « بولس » .

وفى هذه الرسالة خمسة إصحاحات تندرج فى ستة فصول هى :

---

١ - وليم باركلى : مرجع سابق ، ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .

الفـصل الأول : مقدمة الرسالة بالشكر لله على الفضائل السامية التى حصل عليها أهل «تسالونيكى » (ص ١ : ١ - ٤) .

الفصل الثـانى : ذكر سرور الرسول بقبولهم الإنجيل عن رغبة روحية ورجوعهم إلى الله من عبادة الأصنام وصيرورتهم مثالاً حسنًا للكنائس المجاورة لهم (ص ١: ٥-١٠) .

الفصل الثالث : احتجاج « بولس » لهم أن يشهدوا له بصفو الضمير وخلوص النية وصدق المحبة التى بشرهم بها هو وأصحابه الذين كابدوا معه اضطهادات كثيرة من أجل ذلك (ص٢: ١ - ١٦) .

الفـصل الرابع : بيان اعتناء « بولس » بحفظهم من غرور المجرب وثباتهم وتقدمهم فى الإيمان والطهارة (ص ١٧٢ و ص ٤ : ١ - ١٢) .

الفصل الخامس : تعاليم مغرية عن الذين ماتوا على إيمان الإنجيل بكونهم يرقدون بالمسيح ويستريحون معه إلى القيامة (ص ٤ : ١٣ : ١٨) .

الفصل السـادس : مواعظ وصلوات كثيرة مطابقة لكونهم أبناء النور وتحريض على النمو فى الطهارة والمحبة الأخوية واحترام خدامهم ببشارة الإنجيل (ص٥) [1].

٨ - رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكى :

تحتوى هذه الرسالة على ثلاثة إصحاحات تندرج فى سبعة فصول :

الفصل الأول : السلام بالرب إلى أهل الكنيسة (ص : ١ و ٢) .

الفـصل الثـانى : مدح غوهم فى الإيمان والمحبة والصبر على الاضطهادات المتتابعة التى أصابتهم والتشجيع لهم على احتمالها بمجىء المسيح (ص ١ : ٣ - ١٠) .

الفصل الثالث : صلاة « بولس » من أجلهم لإكمال تقديسهم (ص ١: ١) .

الفصل الرابع : دفع أوهامهم من جهة اقتراب اليوم الأخير بكونه لابد أن يتقدمه الارتداد أولاً ويظهر إنسان الخطية ابن الهلاك (ص ٢ : ١ - ١٢) .

الفصل الخامس : الشكر لله على رحمته فى اصطفائه إياهم ودعوته لهم إلى خلاص المسيح ومجده ، ثم النصيحة لهم بالرسوخ فى الإيمان والصلاة من أجلهم والتماس صلاتهم من أجله (ص ٢ : ١٣ - ٢١ و ٣ : ١ - ٥) .

---

١ - سيكل سيل : مرجع سبق ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

الفصل السادس : مواعظ جديدة لهم ولاسيما الذين لاتهذيب لهم والذين يتداخلون فى مالا يعنيهم (ص ٣ : ٦ - ١٦) .

الفصل السابع : ختام الرسالة (ص ٣ : ١٧ و ١٨)[١] .

٩ - رسالتا بولس الأولى والثانية إلى تيموثاوس :

ولد « تيماثوس » فى « لستره » أو « دربة » فى « ليكأونية » من أعمال الأناضول . وكان أبوه يونانيًا وأمه يهودية اسمها « أفنيكى » وجدته « لوئيس » ، واشتهرت هاتان المرأتان بإيمانهما فاهتمتا بتربيته اهتمامًا مقدسًا حتى صارت الكتب المقدسة مغروسة فى عقله منذ صباه ، واهتدى فى شبابه إلى معرفة الحق « بيسوع » بواسطة « بولس » ، ولما رحل «بولس » ثانية إلى « دربة » و « لسترة » وجده محترمًا جداً فى كنيسة ذلك المكان فاختاره رفيقًا ومعينًا له على أتعابه الإنجيلية ... ومع أنه كان نحيف الجسم إلا أنه كان قوى الإيمان وغنيًا بالمواهب الروحية . وقد أقامه « بولس » راعيًا وهو فى سن الحداثة ، ولكنه اختتن رغبة فى الاتفاق بينه وبين اليهود ، ومن ذلك الوقت شرع فى مرافقة « بولس » فى أسفاره مؤازراً له فى وظيفته الرسولية ومبشراً بالإنجيل ومقرراً للكنائس الناشئة حينئذ ، وكان لايفترق عنه إلا حينما يرسل إلى مكان مخصوص ، إلا أن « بولس » تركه فى « أفسس » ليحفظ طهارة تعليم الإنجيل ويرتب أمور الكنيسة هناك . وبعد ذلك كتب إليه الرسالة الأولى .

وفى الرسالة الأولى ستة إصحاحات تندرج فى أحد عشر فصلاً هى :

الفصل الأول : مقدمة الرسالة (ص ١ : ١ و ٢) .

الفصل الثانى : نصائح « لتيمارثاوس » فى الغاية التى تركه لأجلها فى « أفسس » (ص١:٣-١٤) .

الفصل الثالث : تشجيعات له مأخوذة من الإنجيل (ص ١ : ١٥ - ٢٠) .

الفصل الرابع : تعليم وجوب الصلاة والشكر وموضوعهما (ص ٢ : ١ - ٨) .

الفصل الخامس : قانون لسلوك النساء المسيحيات (ص ٢ : ٨ - ١٥) .

الفصل السادس : تعاليم مختصة بالأساقفة والشمامسة (ص ٣) .

الفصل السابع : نبوة باستقبال كفر بالإنجيل (ص ٤ : ١ - ٤) .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

الفصل الثامن : وصايا تتعلق بسيرة « تيموثاوس » (ص ٤ : ٦-١٦) .

الفصل التاسع : ذكر قوانين تجب مراعاتها لدرجات عديدة من جماعة المسيحيين ولاسيما الأرامل (ص ٥) .

الفصل العاشر : تعاليم تتعلق بالعبيد والمعلمين والمزورين والأرامل (ص ٦ : ١ - ١٠).

الفصل الحادى عشر : وصايا وتعاليم بليغة « لتيموثاوس » (ص ٦ : ١١ - ٢١)[١].

رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس :

كتبها « بولس » وهو فى سجن رومية وقد كتبها إلى أعز أحبائه ، وهى الأخيرة من رسائله كتبها وهو فى غياهب السجن ينتظر الموت الشنيع .

وتحتوى هذه الرسالة على أمور ومسائل هامة أهمها :

أولاً : بعد عبارات التحية والشكر يحث « الابن الحبيب » على الثبات فى الإنجيل (ص١:٦-١٥) .

ثانيًا : يحضه على القيام ببعض الواجبات المتعلقة بالسيرة الرعوية (ص٢:١٤-٢٦) ويحذره من المعلمين الكذبة (ص ٣:١ - ١٧) .

ثالثًا : يحضه بكل ورع على الأمانة فى كل واجبات وظيفته (ص ٤ : ١ - ٨) .

رابعًا : يوصيه بأن يأتى سريعًا ويصف له وحدته وعزلته ويرسل تحياته الأخيرة لكثيرين من أصدقائه الأعزاء (ص ٤ : ٩ - ٢٢)[٢] .

١٠ - رسالة بولس إلى تيطس : Tite

قيل أن « تيطش » من أنطاكية الشام ، ولانعرف عن حياته شيئًا سوى أنه كان تابعًا «لبولس» ، ومباشراً خدمة الكلمة تحت مناظرته وتدبيره .

وفى هذه الرسالة ثلاثة إصحاحات تندرج فى سبعة فصول هى :

الفصل الأول : مقدمة الرسالة (ص ١ : ١ - ٤) .

الفصل الثانى : بيان رسم المشايخ وذكر أسمائهم وصفاتهم (ص ١ : ٥ - ٩) .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢٦٣ - ٢٦٦ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٢٦٦ - ٢٦٨ .

الفصل الثالث : تنبيه على وجوب الاحتراس من اليهود وأهل كريت (ص ١ : ١٠ - ١٦).

الفصل الرابع : نصائح المؤمنين على اختلاف درجاتهم باعتبار الفداء والطهارة والسعادة بالمسيح (ص٢) .

الفصل الخامس : وصية فى الطاعة لذوى السلطة ولطف السلوك (ص ٣ : ١ - ٧) .

الفصل السادس : وصايا بتأييد تعاليم النعمة كل حين للاستمرار على عمل الخير واجتناب عناد المبتدعين (ص ٣ : ٨ - ١١) .

الفصل السابع : ختم الرسالة بطلبات وقوانين وتسليمات (ص ٣ : ١٢ - ١٥)[١] .

١١ - رسالة بولس إلى فليمون :

فليمون أحد تلاميذ « بولس » ، اشتهر بالتقوى وكان شماسًا أوراعيًا لكنيسة «كولوسى» والظاهر أن هذه الرسالة قد كتبت فى « رومية » فى مدة سجن « بولس » وذلك نحو سنة ٦٠م . وقد اشتملت الرسالة على الموضوعات التالية :

١ - عبارة شكر موجزة من أجل ماسمعه « بولس » من أعمال « فليمون » الخيرية (١-٧) .

٢ - يعرض « بولس » ملتمسة من أجل « أنيسمس » (٨ - ١١) .

٣ - يتوسل إلى « فليمون » من أجل أن يقبله نظيره « نظير بولس » ويتعهد بأن يعد نفسه مطالبًا بكل عطل أو ضرر الحقه به « انيسمس » (١٢ - ٢٠) .

٤ - ولثقته التامة بأن « فليمون» يجيبه إلى كل ماطلبه منه يلتمس منه أن يعد له منزلاً حين يفرج عنه من السجن (٢٢)[٢] .

١٢ - الرسالة إلى العبرانيين :

لانعرف على وجه الدقة كاتب هذه الرسالة هل هو « بولس » أو « لوقا » أو « ابلوس » أو « برنابا » فالكنيسة الشرقية تعتقد بإجماع الآراء أنه كتبها إما بنفسه أو بواسطة شخص آخر . بينما لم تسلم الكنيسة الغربية بأن « بولس » كاتبها ولا قبلتها فى عداد الأسفار القانونية حتى القرن الرابع للمسيح وعندئذ قبلت الكنيسة الغربية الرأى بأن «بولس» كاتبها .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٢٧٠ .

واختلف حول العبرانيين الذين أرسلت إليهم الرسالة ؛ فهناك من يرى أنهم المسيحيون العبرانيون فى فلسطين وهناك من يرى أنها أرسلت إلى العبرانيين المقيمين فى رومية .

وأهم موضوعات هذه الرسالة :

١ - أن الخدمات الاستثنائية التى كان يقوم بها الملائكة قد ألغيت وحلّت مكانها الخدمة الدائمة التى يقوم بها المسيح الإله والإنسان .

٢ - أن خدمة موسى الاشتراعية قد أتمها المشترع الإلهى .

٣ - أن ذبيحة رئيس الكهنة الرمزية قد حلت محلها ذبيحة حقيقية ذات قيمة أسمى .

٤ - أن الاتصال مع الله بالوسائط (أو بطريقة غير مباشرة) قد حل محله الاتحاد المباشر بين الله والإنسان فى المسيح ، واتصال الرأس بجسده الذى هو الكنيسة [١].

وهذه الرسالة جميعها لم تعتمد من الكنيسة إلا فى سنة ٣٦٤م . أما قبل ذلك فكان بعض هذه الرسائل موضع شك فى صحة نسبته إلى « بولس » عند كثير من المسيحيين ، حتى أن مجمع نيقية Concile de Nicée المنعقدة سنة ٣٢٥م . وهو من أكبر مجامعهم « المسكونية» لم يعترف برسالة بولس إلى العبرانيين »[٢] .

رابعًا : الرسائل الجامعة أو الكاثوليكية

عدد هذه الرسائل سبع رسائل كتبت كلها فى الأصل باللغة اليونانية ، وكتبت فى عهود مختلفة يرجع أقدمها إلى حوالى سنة ٥٠م. وأحدثها إلى حوالى سنة ٩٠م. وهذه الرسائل هى:

١ - رسالة يعقوب :

إن كاتب هذه الرسالة ادعى أنه عبد الله والرب يسوع المسيح ، وقد أجمع جمهور العلماء الباحثين والمدققين فى معرفة كتاب الله على أن هذا الشخص هو أخ الرب الذى ذكره «بولس» كواحد من الرسل (غل ١ : ١٩) وأنه هو قسيس كنيسة أورشليم الذى ذكره « لوقا » فى (اع ١٢ : ١٧ و ١٥ : ١٣ و ٢١ : ١٨) وأنه هو المذكور مع أخوة الرب « يوسى » و«سمعان » و « يهوذا » إذ كان واحداً منهم ...

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢٧٣ .

٢ - د. على عبد الواحد : مرجع سابق ، ص ١٠٢ .

والمسلم به عند الجميع أن كاتب هذه الرسالة كان معدوداً في مقام سام في مجمع الرسل والمشيخة في أورشليم .

وفي تاريخ هذه الرسالة آراء . فذهب بعضهم إلى أنها كتبت في صدر القرن الأول قبل مجمع أورشليم ، وذهب آخر إلى أنها كتبت بعد ذلك أي قبل خراب أورشليم بوقت وجيز حوالي سنة ٦١م وذهب آخر إلى غير ذلك .

ووصفت هذه الرسالة بالجامعة لأنها لم تكتب إلى كنيسة مخصوصة بل إلى المسيحيين من جميع أسباط إسرائيل المتشتتين في فلسطين وغيرها .

والمقصود بهذه الرسالة أربعة أمور :

الأول : تعزية المسيحيين في ضيقاتهم العديدة .

الثاني : تصحيح آرائهم وتمكين ضمائرهم في تعليم التبرير بالإيمان المثمر .

الثالث : تحذير المؤمنين من التخلق بالخصال الرديئة والعادات القبيحة التي كانت شائعة بين اليهود .

الرابع : تنبيه الأشرار على قرب حسابهم يوم الدين[١].

٢ - رسالتا بطرس الرسول :

أ - الرسالة الأولى : يظهر من فاتحة هذه الرسالة أنها خطاب للمؤمنين من اليهود المتغربين من شتات « بنتس » و « غلاطية » و « كيدوكية » و « آسيا » و « بيثينية » وهي بلدان في آسيا الصغرى .

وفي هذه الرسالة خمسة إصحاحات تندرج في ستة عشر فصلاً هي :

الفصل الأول : يتضمن السلام على الإخوة المختارين المطهرين المطيعين والشكر لله لأجل رحمته الفائضة عليهم والبركات الغزيرة التي أنعم بها عليهم في الدنيا والآخرة (ص١:١-٥).

الفصل الثاني : يتضمن الخير الناتج لهم من البلايا لأنها تؤهلهم للتمتع بالخلاص التام بيسوع المسيح (ص١:٦-١٢) .

---

١ - سيكل سيل :مرجع سابق ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

الفصل الثالث : يتضمن نصح المؤمنين بأن يكونوا أطهاراً لكونهم خدام الله ومفديين بدم ابنه الكريم (ص ١ : ١٣ - ٢٠) .

الفصل الرابع : يتضمن الأمر بالمحبة الأخوية لأنهم بنو الله المولودون جديداً (ص ١ : ٢١ - ٢٥) .

الفصل الخامس : يتضمن الوعظ بأن يمارسوا كلمة الله لكونهم كهنة روحانيين مبنيين على المسيح حجر الزاوية المتين الذى تأسست عليه الكنيسة (ص٢:١-٨) .

الفصل السادس : يتضمن بيان صفات المؤنين من حيث أنهم بنون لله (ص٢:٩و١٠) .

الفصل السابع : يتضمن الطلب من المؤمنين أن يجتنبوا شهوات الجسد ويمجدوا الله ويمارسوا مايجب عليهم سواء كانوا رؤساء أم عبيد (ص٢ : ١١ - ١٨) .

الفصل الثامن : يتضمن التوصية بالصبر فى الاضطهاد اقتداء بالمسيح الذى بآلامه ننال الخلاص (ص٢ : ١٩ - ٢٥) .

الفصل التاسع : يتضمن أمر الأزواج والزوجات بأداء الحقوق المنوطة بهم (ص٣:١-٧) .

الفصل العاشر : يتضمن التوصية بالمودة الأخوية والتمسك بالإيمان فى الاضطهادات لكى يستطيعوا أن يحاموا عن الإنجيل بنباهة وحكمة (ص ٣ : ٨ - ١٦) .

الفصل الحادى عشر : يتضمن بيان أن هلاك الأقدمين بالطوفان هو رمز إلى هلاك الأشرار فى يوم الدينونة ، وأن خلاص نوح وأهل بيته فى الفلك هو رمز إلى الخلاص الذى تشير إليه المعمودية باسم المسيح فادينا (ص ٣ : ١٧ - ٢٢) .

الفصل الثانى عشر : يتضمن التوصية بمماثلة المسيح الذى فدانا بدمه من الإثم وبالاستعداد للدينونية المزمعة (ص ٤ : ١ - ٦) .

الفصل الثالث عشر : يتضمن الإلحاح على المؤمنين بممارسة السهر والصلاة والصدقة وضيافة الغرباء والممارسة اللائقة للمواهب الروحانية (ص ٤ : ٧ - ١١) .

الفصل الرابع عشر : يتضمن الحث على الاحتمال والثقة بالله فى آلامهم المستقبلة لأجل إيمانهم بالمسيح (ص ٤ : ١٢ - ١٩) .

الفصل الخامس عشر : يتضمن نصح خدام الكنائس أن يرعوا رعية المسيح منتظرين إكليل المجد ووعظ الشعب بأن يسيروا سيرة حسنة لكى يحصلوا على الحياة الأبدية (ص ٥:١-٩).

الفصل السادس عشر : يتضمن ختم الرسالة بدعوات وتحيات وبركات (ص٥ : ١٠-٢٤).

ب - الرسالة الثانية : هناك خلاف حول كاتب هذه الرسالة وأغلب الظن أن بطرس لم يكتبها بنفسه بل كتبها أحد أتباعه . وفى هذه الرسالة ثلاثة إصحاحات تندرج فى تسعة فصول هى :

الفصل الأول : يتضمن السلام على الإخوة وإيضاح البركات المتواترة التى دعوا إليها بنعمة الله (ص ١ : ١ - ٤) .

الفصل الثانى : التوصية بالاجتهاد فى ممارسة الواجبات المسيحية ليثبتوا بذلك دعوتهم الإنجيلية وانتخابهم (ص ١ : ٥ - ١١) .

الفصل الثالث : بيان أن دنو استشهاده كان مدعاة لنصحه أيام برقة (ص١:٢ -١٥).

الفصل الرابع : إيضاح ما رآه وسمعه إثباتًا لشهادته لمجد المسيح ثم وصيته بالالتفات إلى كلمة الله الموحى بها فى الكتب المقدسة (ص ١ : ٦ - ٢١) .

الفصل الخامس : الإنباء بمجىء المعلمين المزورين وتعاليمهم الفاسدة والقضاء الإلهى عليهم (ص٢) .

الفصل السادس : تحذير المؤمنين من المستهزئين والغاشين الذين يهزأون بانتظار مجىء المسيح (ص ٣:١ - ٧) .

الفصل السابع : بيان سبب إبطاء ذلك اليوم العظيم ووصف أحواله ونتائجة الهائلة (ص٣:٨-١٤) .

الفصل الثامن : بيان مطابقة تعليم « بولس » لتعليم هذه الرسالة (ص١٥٣ و ١٦) .

الفصل التاسع : ختم الرسالة بتحذير المؤمنين ممن يضلونهم ، ونصائح لهم بالتقدم فى معرفة المسيح وهداية نعمته (ص ٣ : ١٧ و ١٨)[١].

٣ - رسائل يوحنا :

هناك شك حول شخصية كاتب هذه الرسائل الثلاث ولأن الشبه كبير بين هذه الرسائل وإنجيل « يوحنا » اعتقد البعض أن كاتب هذه الرسائل وكاتب الإنجيل شخص واحد .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢٧٦ - ٢٨٤ .

أ - الرسالة الأولى : تحتوى هذه الرسالة خمسة إصحاحات تندرج فى ستة عشر فصلاً :

الفصل الأول : إيضاح حقيقة لاهوت المخلص وناسوته (ص ١ : ١ - ٤) .

الفصل الثانى : بيان أن الذين لهم شركة مع الله يسيرون فى نور الطهارة ، وأن الله يعفو عن النادمين المعترفين بآثامهم ويزكيهم حسب وعده وبره (ص ١ : ٥ - ١٠) .

الفصل الثالث : تحذيره المؤمنين من الخطية وإرشاد الخطاة إلى المسيح شفيعنا فى السماء لأنه هو الكفارة لجميع الخطايا (ص ٢ : ١ و ٢) .

الفصل الرابع : بيان أن معرفة المسيح والشركة معه يجب أن يبرهن عليها بالطاعة لوصاياه والاقتداء بمثاله والمحبة للقريب (ص ٢ : ٣ - ١١) .

الفصل الخامس : تحذير المؤمنين من الرغبة فى أمور العالم الفانية (ص ٢ : ١٢ - ١٧).

الفصل السادس : تحذير المؤمنين من ضلال الكفار وإنكارهم أن يسوع هو المسيح المنتظر ، وإيضاح أن هؤلاء هم المسحاء الكاذبون ، ثم بيان أن مسحة الروح القدس هى وحدها تصون الإنسان صيانة حقيقية (ص٢ : ١٨ - ٢٣) .

الفصل السابع : تنبيه على مراعاة فاعلية الروح القدس من حيث أنها تهذب العقل تهذيبًا مؤثراً وتجعل الإنسان فى حال القداسة التى بها تتبرهن الولادة الثانية (ص ٢ : ٢٤ - ٢٩).

الفصل الثامن : تعجب من محبة الله العظيمة فى تنبيه الخطاة وأنهم حينما يشعرون بهذه النعمة يرجون مجداً أبديًا ويجدون فى طلب القداسة بالعزم والنية (ص٣ : ١ - ٣) .

الفصل التاسع : بيان مايتميز به بنو الله عن بنى الشيطان (ص ٣ : ٤ - ١٠) .

الفصل العاشر : التوصية بحفظ المحبة الأخوية لأن ذلك دليل على الولادة الثانية والثقة بالله (ص ٣ : ١١ - ٢٤) .

الفصل الحادى عشر : تحذير من المعلمين المزورين الذين ينكرون مجىء المسيح متجسداً وتعليم المؤمنين كيف يفرقون بين روح الحق وروح الضلال (ص ٤ : ١ - ٦) .

الفصل الثانى عشر : مبالغة فى النصح بالمودة الأخوية باعتبار أن الله قد أرسل ابنه كفارة لخطايانا وأن هذه المودة دليل على اتحادنا بالله واطمئناننا فى ترجى يوم الدينونة (ص ٤ : ٧ - ٢١) .

الفصل الثالث عشر : بيان ارتباط الولادة الثانية بالمحبة لله والطاعة الكاملة والانتصار على العالم (ص ٥ : ١ - ٥) .

الفصل الرابع عشر : بسط الشهادات الكثيرة التى تحقق تعاليم المسيح وبيان الاتصال الدائم بين الإيمان الحقيقى والحياة الأبدية (ص ٥ : ٦ - ١٣) .

الفصل الخامس عشر : تصريح بأن الرب دائمًا حاضر ليسمع الصلوات وأنه قد توجد خطية للموت (ص ٥ : ١٤ - ١٧) .

الفصل السادس عشر : ختم الرسالة بإظهار الفرق العظيم بين المولودين ثانية ، المعلمين من الله وبين العالم الموضوع فى الشرير (ص ٥ : ١٨ - ٢١)[١] .

ب - الرسالة الثانية : هذه الرسالة موجهة « إلى السيدة المختارة وأولادها » وأغلب الظن أنها كتبت بعد سنة ٧٠م .

وفى الرسالة ثلاثة عشر عدداً تتدرج فى خمسة فصول :

الفصل الأول : تسليمات رسولية على « كيريه » وبنيها ومدح محبتهم الصادقة (ع٤-٦)

الفصل الثانى : إظهار فرحة برسوخهم فى الإيمان وتوصيته لهم بالاستمرار على الطهارة والمحبة (ع٤-٦) .

الفصل الثالث : تبيينه لهم أنه قد قام مضلون كثيرون ، ولذلك يجب التيقظ والحذر منهم والتمسك بتعليم المسيح لينالوا بذلك الثواب الأبدى (ع ٧ - ٩) .

الفصل الرابع : نهيه لهم عن مخالطة الذين يزرعون التعاليم الفاسدة (ع ١٠ و ١١) .

الفصل الخامس : ختم الرسالة (ع ١٢ و ١٣) [٢].

جـ - الرسالة الثالثة : فى هذه الرسالة خمس عشرة آية تنطوى على خمسة فصول :

الفصل الأول : وصف ماعند الرسول من المحبة « لفايس » والدعاء له أن صحة جسمه مثل صحة نفسه (ع ١ و ٢) .

الفصل الثانى : مدحه إياه على ماشهد له به الأخوة من الرسوخ فى الإيمان والسلوك بالحق (ع٣و٤) .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٢٨٨ .

الفصل الثالث : مدح كرمه الفائق على المبشرين المحتاجين الذين تصرفوا بكل قوتهم فى نشر الإنجيل بين الأمم (ع ٥ - ٨) .

الفصل الرابع : الشكوى من « ديوتريفس » بأن ظلمه كان مضراً للكنيسة وتحذيره من الاقتداء به (ع ٩ - ١١) .

الفصل الخامس : توصيته إياه « بديمتريوس » ثم وعده بالزيارة له وختامه الرسالة بتحيات (ع١٢ - ١٤) .

٤ - رسالة يهوذا :

ادعى يهوذا كاتب هذه الرسالة أنه أخو يعقوب . وفى هذه الرسالة خمس وعشرون آية تنقسم إلى سبعة فصول :

الفصل الأول : تحيات عامة ونصح للمؤمنين بغيرة أن يحفظوا طهارة الإيمان الذى سلم مرة للقديسين (ع ١ - ٤) .

الفصل الثانى : تذكيرهم أمثلة هائلة من العهد القديم فى انتقام الله من الإسرائيليين المردة والملائكة الأشرار وأهل سدوم وعميرة الفاسقين (ع٥ - ٨) .

الفصل الثالث : بيان أن هؤلاء المعلمين المزورين الذين يدنسون أجسادهم ويزدرون بالجلال الإلهى إنما يجهزون أنفسهم ويعدونها للانتقام بالظلمة الأبدية (ع ٩ - ١٣) .

الفصل الرابع : البينة على أنه لابد من تعذيب المنافقين بمقتضى نبوءة « أخنوخ » بمجىء المسيح للدينونة (ع ١٤ و ١٥) .

الفصل الخامس : زيادة وصف أولئك الفاسدى التعاليم والآداب (ع ١٦ - ١٩) .

الفصل السادس : وعظ المؤمنين أن يجتهدوا فى بنيان أنفسهم بواسطة فاعلية الروح القدس (ع ٢٠ - ٢١) .

الفصل السابع : توصيته إياهم بالشفقة على الذين هم فى خطر الفكر والغيرة على انتشالهم منه ثم ختم الرسالة بتمجيد الله مخلصنا (ع ٢٢ - ٢٥) [١].

هذه هى الرسائل الجامعة التى اعتمدتها الكنيسة فى سنة ٣٦٤ م .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

خامسًا : رؤيا يوحنا اللاهوتى :

يطلقون عليها العديد من الأسماء « رؤيا يوحنا » أو « السفر النبوى » أو « التنبثى » أو « الأبوكاليبسى » ، وقد صيغت نبواته فى قالب رمزى ، وقد اتخذت النبوات العبرانية هذا الأسلوب فى الوقت الذى كانت فيه الأمة اليهودية فى خطر الانقراض من ظلم الممالك المعادية لها ولاسيما مملكتى سورية ورومية ، وكانت كل هذه المؤلفات فى أولياتها تضرب على وتر واحد وهو « أن الرب سينقذ شعبه عن قريب بمجىء المسيح » وكان لجميع هذه الرؤى روح واحدة إذ استخدمت جميعًا ضربًا واحدًا من التمثيل الغامض المعنى ، وأغلبها تدعى أن كاتبها أحد الأبطال القدماء ، ورؤيا يوحنا هذه هى الوحيدة من بين رؤى كثيرة التى حفظت مكانها وعدت أهلاً لأن يكون لها مكان بين أسفار العهد الجديد القانونية .

وقد اتفقت التقاليد القديمة أن هذه الرؤيا كتبت سنة ٩٥ - ٩٦م فى هذه الرؤيا اثنان وعشرون إصحاحًا تنقسم إلى أربعة أجزاء :

الجزء الأول : المقدمة وهى تتضمن عنوانًا للسبع الكنائس فى الأناضول وتماجيد لله ووصف الرؤيا الجليلة التى تشرف بها يوحنا فى منفاه (ص١) .

الجزء الثانى : يتضمن سبع رسائل إلى الكنائس السبع (ص ٢ و ٣) .

الرسالة الأولى : إلى كنيسة « أفسس » (ص ٢ : ١-٧) .

الرسالة الثانية : إلى كنيسة « سميرنا » (ص ٢ : ٨ - ١١) .

الرسالة الثالثة : إلى كنيسة « برغامس » (ص ٢ : ١٣ - ١٧) .

الرسالة الرابعة : إلى كنيسة « ثيانيرا » (ص ٢ : ١٨ - ٢٩) .

الرسالة الخامسة : إلى كنيسة « سرديس » (ص ٣ : ١ - ٦) .

الرسالة السادسة : إلى كنيسة « فيلادلفيا » (ص ٣ : ٧ - ١٣) .

الرسالة السابعة : إلى كنيسة « لاودكية » (ص ٣ : ١٤ - ٢٢) .

الجزء الثالث : وصف رؤى عديدة عجيبة مما رآه هذا الرسول (ص ٤ و ٥) .

الجزء الرابع : يتضمن بقية السفر من (ص ٦ - ٢٢) وكل ذلك يتعلق بأحوال الكنيسة فى العصور المستقبلة إلى كمال السعادة فى عالم المجد [١].

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢٩٢ - ٢٩٦ .

بهذا نكون قد انتهينا من عرض محتويات العهد الجديد المعتمد من الكنيسة فى كل أنحاء العالم .

سادسًا : إنجيل برنابا :

فصلنا هذا الإنجيل عن الأناجيل الأربعة المعتمدة من الكنيسة وذلك لأن الكنيسة ترفض هذا الإنجيل ولاتعترف بموضوعاته التى اشتمل عليها .

من هو برنابا ؟ Saint Burnabbé

كان يهوديًا من اللاويين وكان اسمه يوسف ، وقد سماه التلاميذ « برنابا » ومعنى هذه الكلمة « ابن الواعظ » وهو من التلاميذ السبعين على الأرجح ، وقد باع كل مايملكه من أرض فلسطين وقدم ثمنه للتلاميذ ليستعينوا به فى الدعوة إلى المسيحية ومساعدة فقراء المسيحيين ، وهو الذى ضمن « بولس » أمام التلاميذ وشهد بصحة إيمانه وقص عليهم هدايته وظهور المسيح له ، وقد كلفه التلاميذ عدة مهام تتعلق بالتبشير وتنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ، فقام وحده بما عهد إليه خير قيام ، ثم اصطحب « بولس » بعد ذلك وعملا معًا على تبليغ رسالة المسيح إلى الكفار وهدايتهم إلى المسيحية واصطحبا معهما « مرقص » ابن أخت « برنابا » فطوفا معًا لهذه الغاية فى كثير من البلاد منها « أنطاكية Antioche » وقبرص، وقد نجحا فى رسالتهما أيما نجاح ، وظهر على أيديهما معجزات كثيرة ، وبلغا فى نفوس أتباعهما منزلة كبيرة حتى لقد افتتن بهما أهل قبرص واعتقد الكثير منهم أنهما إلهان ، ولما بلغهما ذلك مزقا ثيابهما واندفعا إلى الجمهور صارخين متبرئين مما وصفا به ، فرجع الناس عن ضلالتهم ، ثم اختلف « برنابا » مع « بولس » فافترقا ، ورجع « برنابا » فى هذه المرة مع ابن أخته « مرقص » ليكمل مابدأ عمله فى هذه البلاد مع « بولس » (أعمال الرسل إصحاحات ٤ و ٩ و ١١ و ١٣ و ١٤) [١].

ماذا عن إنجيل برنابا ؟ : هذا الإنجيل المنسوب للقديس « برنابا » كان معروفًا لدى المسيحيين منذ أقدم عصورهم ، فقد ورد ذكر هذا الإنجيل فيما ينسب لقدامى رجال الكنيسة من بحوث وقرارات ، ومن ذلك القرار الذى أصدره البابا « جلاسيوس الأول Saint Gélase » الذى تولى بابوية الكنيسة الكاثوليكية بروما من سنة ٤٩٢ - ٤٩٦م - وعدد فيها الكتب المنهى عن قراءتها ، وذكر من بين هذه الكتب إنجيل برنابا[٢] .

---

١ - د . على عبد الواحد : مرجع سابق ، ص٧٣ ، ٧٤ .

٢ - المرجع السابق ، ص ٩٥ .

ونتيجة لقرار تحريم قراءته اختفت جميع نسخه حتى القرن الثامن عشر ، يقول الشيخ محمد أبو زهرة : : أقدم نسخة معروفة هى النسخة الإيطالية التى عثر عليها فى فجر القرن الثامن عشر ، ولكن وجودها يمتد إلى منتصف القرن الخامس عشر أو أول القرن السادس عشر، وقد وجدت فى جو مسيحى خالص ، فلا مظنة لأن تكون مدخولة عليهم . فأول من عثر عليها فى خزانة كتبه رئيس دينى خطير ، وكاشفها راهب ، ولما تداولتها الأيدى انتقلت إلى مستشار مسيحى من مستشارى ملك بروسيا ، ثم آلت إلى البلاط الملكى "[١] .

أهم القضايا التى وردت فى إنجيل برنابا مخالفة للعقيدة المسيحية :

١ - يقرر برنابا أن المسيح ليس إلا بشراً رسولاً وأنه ليس إلهًا ولا ابنًا لله .

٢ - إنه يقرر أن المسيح لم يصلب ولكنه شبه لهم .

٣ - يقرر أن مسيحا أو المسيح المنتظر الذى ورد ذكره فى العهد القديم ليس يسوع بل محمد عليه السلام .

٤ - يقرر أن الذبح الذى تقدم به إبراهيم الخليل عليه السلام للفداء هو لإسماعيل وليس لإسحاق .

وواضح أن ذلك يوافق العقيدة الإسلامية ويخالف مخالفة تامة ما استقرت عليه عقيدة المسيحيين ولذلك من الطبيعى أن يبحث المسيحيون عن أدلة للطعن فى هذا الإنجيل .

العقيدة المسيحية :

نعرض للعقيدة المسيحية كما يؤمن بها المسيحيون دون إضافة أو تعليق التزامًا بالموضوعية .

أولاً : العقيدة على سبيل الإجمال :

كتب أحد النصارى إلى صديقه المسلم يبين له عقيدته التى آمن بها فقال : " إن عقيدتنا أن تؤمن بالله وأن المسيح ابن الله الذى هو الله والروح القدس ثلاثة أقانيم فى أقنوم واحد ، أحيا الموتى وأيدّ بعض الحواريين فأحيوا الموتى كمثل مافعل ، أرسلهم المسيح إلى جميع الأجناس وأمرهم بإفشاء أمره بعد أن كان هو يدل لهم شرائعه بنفسه ورآه الناس بأعينهم وهو

---

١ - الإمام محمد أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية ، دار الفكر العربى ، ص ٧١ .

يتواضع فيجب عليهم أن يفعلوا كما رأوا خالقهم فعل لأنه عز وجل لما كلم العالم على ألسنة أنبيائه الذى جعلهم رسله ووسائطه إلى خلقه ليعلموهم الإقرار بربوبيته وشرعوا لهم ترك أوثانهم أصنامهم الغاشية ضلالها فى جميع الأرض ، فنزل هو سبحانه وتعالى بعد ذلك من السماء ليكلم الخلق بذاته حتى لاتكون لهم حجة عليه فتنقطع حجتهم بعد أن كلمهم بذاته لابواسطة بينهم وبينه فترتفع المعاذير عمن ضيع عهده بعدما كلمه بذاته اتمامًا لرحمته على الناس ، فهبط بذاته من السماء والتحم فى بطن مريم العذراء البتول أم النور فأخذ منها حجابًا كما سبق فى حكمته الأزلية لأنه فى البدء كانت الكلمة . والكلمة هو الله وهو المخلوق من طريق الجسم وخالق من طريق النفس وهو خلق جسمه وخلق أمه ، وأمه كانت من قبله بالناسوت ، وهو كان من قبلها باللاهوت وهو الإله التام وهو الإنسان الكامل ، ومن تمام رحمته على الناس أنه رضى بإهراق دمه عنهم فى خشبة الصليب فمكن اليهود أعداءه من نفسه ليتم سخطه عليهم فأخذوه وصلبوه وفار دمه لأنه لو وقع منه شىء فى الأرض ليبست إلا شىء وقع فيها فنبت فى موضعه النوار ، لأنه لما لم يكن فى الحكمة الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصى آدم الذى استهان بقدرته فلم يرد الله الانتقام منه لإعلاء منزلة السيد وسقوط منزلة العبد أراد أن ينتصف من الإنسان الذى هو إله مثله فانتصف من خطيئة آدم بصلب عيسى المسيح الذى هو متساو معه فصلب ابن الله عز وجل الذى هو الله فى الساعة التاسعة من يوم الجمعة ، صلبته اليهود ، واليهود تقرأ أنها صلبته ، وإنكار الصلوبية كفر ... " إلى أن قال " وأركان ديننا خمسة : التغطيس (العماد) والإيمان بالتثليث ، والاعتقاد بأن اقنوم الأبن قد التحم بعيسى فى بطن مريم ، والإيمان بالقربان ، والإقرار للقسيس » [1].

ودستور إيمان كل المسيحيين على اختلاف كنائسهم : " نؤمن بإله واحد أب واحد ضابط الكل خالق السماء والأرض كل ما يرى وما لايرى ، وبرب واحد يسوع المسيح الابن الوحيد المولود من الآب قبل الدهور نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق مساو للآب فى الجوهر الذى به كان كل شىء الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خطايانا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، وتأنس وصلب عنا على عهد « بيلاطس » وتألم وقبر . قام من الأموات فى اليوم الثالث على ماقى الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب ، وأيضًا يأتى بمجده ليدين الأحياء والأموات ، الذى لافناء لملكه ، وبالروح القدس

---

١ – عبد الرحمن زاده : الفارق بين المخلوق والخالق تصحيح عبد المنعم درويش ، القاهرة ، سنة ١٩٨٧ ، ص٧.

الرب المحيي المنبثق من الأب ، الذي هو مع الأب والابن يسجد له ويمجده الناطق بالأنبياء ، وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية ، ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، ونترجى قيامة الموتى والحياة في الدهر العتيد آمين "[١] .

هذا عن مجمل ما يعتقد المسيحيون ... فماذا عن العقيدة على سبيل التفصيل ؟

ثانيًا : عقيدتهم في المسيح :

يقول نقولا يعقوب أحد الكتاب المسيحيين : " نعتقد أن المسيح إله وإنسان معًا في ضوء الوحي الإلهي الإنجيلي ، وتبيانًا لهذا على وجه التمثيل نقول : " إن الله الواحد الأحد ظهر في الإنسان يسوع المسيح وحل فيه بملء لاهوته حلولاً في غير حصر : " فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديًا " (كولوسي ٢ : ٩) " الله بعدما كلم الآباء بالأنبياء قديمًا بأنواع وطرق كثيرة كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثًا كل شيء ، الذي به أيضًا عمل العالمين ، الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته ، بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي " (عبرانيين ١ : ١ - ٣) وظهر للبشر لذلك صح أن يسمى المسيح إلهًا وإنسانًا معًا " [٢].

يتضح من هذا القول أن المسيح إله وإنسان في آن واحد ، ويذكر القس سيكل سيل في النبوءات المتعلقة بالمسيح « النبوءة متى (٢:٧) " قال لي أنت ابني . أنا اليوم ولدتك " (متى ١:١٠) " قال الرب لربي) (اش ٩ : ٦) «إلهًا قديراً أبًا أبديًا» (متى ٥ : ٢)[٣].

بهذا يصبح لدينا : - المسيح الإله ، المسيح الإنسان كما يصبح لدينا الآب والإبن .

ويقول كل من القس اندراوس واطسون والدكتور إبراهيم سعيد " إن في اللاهوت ثلاثة أقانيم : الأب والابن والروح القدس ، وهؤلاء الثلاثة إله واحد ، جوهر واحد ، متساوون في القدرة والمجد "[٤] صار لدينا أقانيم ثلاثة الأب والابن والروح القدس .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٨ .

٢ - نقولا يعقوب غبريل : مباحث المجتهدين ، دار الهداية ، ص ٨٢ .

٣ - سيكل سيل : مرجع سابق ، ص ٣٠٨ .

٤ - د. اندراوس واطسون ، د.إبراهيم سعيد : شرح أصول الإيمان ، دار الثقافة المسيحية ، ص ٥٦ .

ويحدثنا حبيب سعيد عن الابن . وكيف صار ابنًا فيقول : " الله يفكر ، وفكره هو «كلمة» ... وهذا الفكر يولد فيسمى « ابنًا » وأخيراً يعبر هذا « الكلمة » أو « الابن » عن شخصية الله ... « فكر » الله لانهائى ومعادل لله ، فريد لامثيل له ، البكر من روح الله .

هو « الكلمة » الذى يعلن لنا ذات الله وصفاته .

هو « الكلمة » الذى به خلقت كل شىء .

هو « الكلمة » مصدر الحكمة فى العالم .

و « كلمة » الله اللانهائية ، لايدعىَ فقط « كلمة » للدلالة على « حكمة » الله بل يدعى « ابنًا » لأنه مولود ، وفكر الله أو « كلمته » لايجىء من العالم الخارجى ، بل هو مولود بروحه ، ولذلك سمى « ابنًا » ، وكما أنه فى النظام البشرى ، يدعى أصل التوالد الطبيعى « أبًا » ، كذلك سمى أصل التوالد الروحى فى الثالوث « الآب » والمولود منه «الابن » ، لأنه صورة كاملة للآب وشبيه به .

وأخيراً تمثل هذا « الكلمة » أو « الابن » الأزلى « بشراً سويًا » وفى هذا « الكلمة » أو « الابن » قد أودع الله حياته ، وكماله ، ولانهائيته ، فهو حى كما أن الله حى ، وكامل كما أن الله كامل ، ولانهائى كما أن الله لانهائى . والآب لم يوجد أولاً ثم فكر بعد ذلك ، لأن الآب والأبن واحد فى الأزلية ، والله غير قابل للتغير ، فلا زيادة فيه ولانقصان ، ومن ثم استطاع الله إذ نظر إلى « كلمته » إلى « ابنه » إلى صورته » أن يقول فى هيام الأبوة الحقة « أنت ابنى أنا اليوم ولدتك » اليوم أى منذ الأزل وإلى الأبد »[1] .

هذا عن الابن ، فماذا عن الروح القدس ؟ :

يحدثنا حبيب سعيد أيضًا فيقول : " وإن كان الله هو مصدر الحياة والحق والخير فى العالم، فلابد أن تكون له إرادة ، وأن يكون له عقل ، وأن تكون له محبة ، وأن يكون له فكر ، ومن حقائق الوجود أن كل كائن يحب كما له ... وفى ذات الله ، الآب يحب الابن الذى ولده ، وهو رسم جوهره ، والابن يحب الآب الذى ولد منه ، أحدهما يفكر فى الآخر ، وأحدهما يحب الآخر محبة قوية دافقة كاملة بحيث تخلق بينهما رابطة حية ، والمحبة فى مثل هذا الطور لاتنطق ولاتصيح ، ولاتعبر عن نفسها بألفاظ منطوقة ، ولا بأنغام مسموعة ، ولكنها تعبر عن نفسها

---

١ - حبيب سعيد : مرجع سابق ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

- كما يحدث لنا نحن البشر - بزفرة أو أنه أو نسمة . لهذا سمى الأقنوم الثالث فى الذات الإلهية « الروح القدس »[١] .

هذا مجمل عقيدة المسيحيين فى الألوهية .

وهم يؤكدون أن التوحيد عقيدتهم إلا أن الوحدانية التى يؤمنون بها وحدانية من نوع جديد. يقول القس صموئيل مشرقى : " تدين المسيحية بالوحدانية من نوع فريد لانظير له يطلق عليه اسم « الوحدانية المقنمة » ... إن هذا التوحيد فى الجوهر يجمع معه تثليث فى الأقانيم دون أن يشوب ذلك وحدانية الذات الإلهية فى شيء "[٢] ويقول فى موضع آخر : " تجمع عقيدتنا المسيحية بين التثليث والتوحيد ، ولذلك فإننا نؤمن بوحدانية ذات الله وأنه تعالى ثلاثة أقانيم ، ولسنا بذلك نقول بتعدد الذوات أو انقسام الذات فالذات واحدة لاثلاث ذوات ولا ثلاث تركيبات فى الذات ؛ وذلك لأن الذات الإلهية لاتعدد فيها ولاتركيب ولا انقسام هذه العقيدة فى قدس أقداس المسيحية لأنها العقيدة الأساسية المركزية التى نبدأ بها وهى لذلك تحتل المكانة الأولى فيها ، ومن ثم فهى مركز جميع عقائدها الأخرى "[٣] .

والآن نتساءل ... متى ظهرت هذه العقائد فى المسيحية ؟ يجيب على ذلك كاتبو دائرة المعارف الكتابية وهم من كبار اللاهوتيين يقولون :

" إذا توخينا الدقة فإننا لانستطيع أن نقول أن عقيدة الثالوث قد أعلنت فى العهد الجديد، مثلما لانستطيع أن نقول إنها قد أعلنت فى العهد القديم ، ذلك أن عقيدة التثليث غير معلنة بوضوح فى العهد القديم ، ولكن هناك إشارات وتلميحات يستطيع شخص قد عرف عقيدة التثليث أن يجد فيها ما ينم عن هذه العقيدة . كما أن العهد الجديد يعلن الثالوث فى تلميحات ضمنية وليس بعبارات واضحة ، ولايذكره إلا فى عبارات متفرقة ، وليس فى صيغة عقائدية محددة ... وعندما نتحدث عن عقيدة الثالوث فإننا نجمع شتات هذه الإشارات فى مفهوم عقائدى واضح "[٤].

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

٢ - القس صموئيل مشرقى : الإلهيات ، القاهرة سنة ١٩٨٧ ، ص ٧٥ .

٣ - المرجع السابق ، ص ٨٤ .

٤ - د. صموئيل حبيب وآخرون : دائرة المعارف الكتابية ، دار الثقافة جـ ٣ ، ص ٤٢٨ - ٤٣١ .

ويقول الدكتور نعيم حنا : " بل إنه من المسح التاريخى للعقيدة المسيحية إن المسيحيين الأوائل لم يعرفوا مفهوم التثليث ، أو لعله لم يكن واضحًا فى أذهان المؤمنين الأوائل ، ذلك أن أول من استخدم كلمة الثالوث ، واصطلاح التثليث كان « ترتليانوس Tertilian » فى أخر القرن الثانى الميلادى تقريبًا (ولد ترتشيانوس فيما بين سنتى ١٥٥ - ١٦٠ بعد سنة ٢١٠ تقريبًا) ومعنى ذلك أنه طوال القرن الأول والثانى الميلاديين لم تكن عقيدة التثليث قد تمت صياغتها فى شكل قانونى إيمانى »[١].

ثالثًا : عقيدة الخلاص :

عقيدة الخلاص عقيدة مركبة تحتوى فى داخلها عقائد أخرى مثل الخطية الأولى وصلب المسيح إلى غير ذلك ... ولأن عقيدة الخلاص تعد جوهر المسيحية وصلب العقيدة فسنعرض لها من منظور مسيحى خالص .

أ - الخطية الأولى :

يقول نقولا يعقوب : " إن آدم عصى ربه « أى أخطأ » فطرد من الجنة (تكوين ٣) وصداه (فى سورة البقرة ٣٤) ﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ واستحق الموت الأبدى ، وتولدت فيه الشهوات الرديئة ، وتأصل الميل فيه إلى فعل المنكر ، فورث بنوه هذا الميل وساروا فى خطة أبيهم فامتلأت الأرض شراً وتحتم الهلاك على كل ذى بشر إتمامًا لعدل الله ، إذ لم يكن لهم من سبيل لإصلاح هذا النقص والرجوع إلى الحالة الأصلية « حال الطهارة والقداسة اللائقة بالجنة التى لايدخلها إلا المطهرون » ، والله لايمكن أن يحيد عن القانون الذى سنه لأنه عادل والعدل يقضى أن الخاطىء يموت وأن الشريعة تجرى مجراها "النفس التى تخطىء هى تموت ، الابن لايحمل إثم الأب والأب لايحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون (حزقيال ١٨ : ٢٠) وإذا كان المشترع لايعمل بما سنه ، فقل على العدالة السلام .

وكما أن الله عادل هو رحيم أيضًا ، والعدل والرحمة من صفات الله الأساسية ، ولايمكن اجتماعهما فى غير الله ، والفداء الذى أكمله المسيح على الصليب - وليس آخر - كفيل ببيان اجتماعهما فى الله .

---

١ - د. نعيم حنا : عقيدة الخلاص بين المسيحية والأديان الوضعية فى آسيا . رسالة ماجستير مخطوطة إشراف د. سعيد مراد ، د. عبد الحليم عويس جامعة الزقازيق سنة ١٩٩٨ ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

ولما كان الله رحيمًا أحب أن يرحم الإنسان ويخلصه من عذاب النار (ولكن دون مخالفة العدل) لذلك دبر منذ البدء عمل الفداء ، بهذا يجعلون خطية آدم الأولى دافعًا لترتيب الفداء[١].

" ويرى معظم اللاهوتيين المسيحيين أن خطية آدم قد انسحبت على الجنس البشرى كله ، وأصبح جميع البشر منذ آدم وحتى قيام الساعة خطاة يستحقون عقاب الخطية وهو الموت ، وهى الفكرة التى تمثل مفهوم الخطية الأصلية أو الموروثة والتى يتم تعريفها بأنها فساد أصاب النفس البشرية وانحراف فى ميول هذه النفس عن الصلاح والبر ، وفساد فى طبيعة الإنسان الأدبية والأخلاقية ، وهذا الفساد الأصلى موروث أى أنه خاص بالطبيعة البشرية وليس مكتسبًا بعد الولادة . وهذا الفساد دخل فى تكوين الطبيعة البشرية فأورثها الموت وهذه هى اللعنة تمامًا . إذ لم يعد فى استطاعة الإنسان بعد هذه الخطية أن يواصل مسيرته كأن شيئًا لم يكن ، ففى اللحظة التى سمح الإنسان فيها للخطية بأن تقيم فى فكره ومخيلته ، وفى رغبته وإرادته : فى تلك اللحظة بالذات حدث فيه تغيير هائل ، وهو مايتضح جليًا فى محاولة آدم وحواء بعد السقوط مباشرة الاختباء من وجه الله والتستر أحدهما من الآخر وشعورهما المرير بالخجل نتيجة إحساسهما بالعرى " [٢].

هكذا ورث الجنس البشرى الخطية من آدم . ورتبت العناية الإلهية فداء البشرية بصلب المسيح وإهراق دمه على الصليب .

ب - عقيدة الفداء صلب المسيح :

كيف رتب الله الفداء ؟. يقول نقولا يعقوب : " ولما حان ملء الزمان أرسل الله كلمته فاتخذ الجسد الإنسانى وصار إنسانًا مثلنا ، وشاركنا فى أمور كثيرة ، إلا أنه لم يرتكب ذنبًا ولم يكن فى فمه غش وهذا « الكلمة » المسيح قدم نفسه على الصليب ضحية وفداء عن أنفس البشر ، وفَّى العدل الإلهى حقه إذ قبل الله هذه الكفارة كأنها مساوية لأنفس البشر ، ووفق بين عدله ورحمته وتم قول داود النبى « الرحمة والحق التقيا البر والسلام تلاثما » (مزمور ٨٥:١) .

---

١ - نقولا يعقوب ، مرجع سابق ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

٢ - نعيم حنا : مرجع سابق ، ص ١٨ .

ويتساءل نقولا يعقوب ألا يصلح غير المسيح لهذا العمل ؟ ويجيب قائلاً :

" نعم لايصلح غير المسيح لهذه المهمة لأسباب : الأول لأن الذبيحة يجب أن تكون طاهرة لاعيب فيها . الثانى : يجب أن تكون الذبيحة ثمينة بهذا المقدار حتى تساوى الأنفس المطلوب افتداؤها . الثالث : أن تكون من نوع الإنسان . الرابع : أن تكون لها وجاهة عند الله لتصلح أن تكون حلقة الاتصال بين الله والإنسان " .

سؤال آخر يطرحه نقولا يعقوب . هل قبل المسيح الصلب اختياريًا ؟

ويجيب قائلا : " ... المسيح نفسه قال صريحًا إن القصد من مجيئه إتمام عمل الفداء ، أى لكى يقدم نفسه ضحية على الصليب . ولما قال له أحد الحواريين « حاشا لله يارب من الصليب » وبخه قائلاً : " أنت معثرة لى ، لأنك لاتهتم بما لله لكن بما للناس " (مت١٦:٢٣) ولما أراد أحد تلاميذه أن يدفع عنه عندما جاء اليهود ليمسكوه قال له : " رد سيفك إلى مكانه ... أتظن أنى لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشًا من الملائكة ؟ فكيف تكمل الكتب ؟ إنه هكذا ينبغى أن يكون (مت ٢٦ : ٥٢ - ٥٤) وقال المسيح لليهود عندما أمسكوه ليصلبوه : " كل يوم كنت أجلس معكم أعلم فى الهيكل ولم تمسكونى ، وأما هذا كله فقد كان لكى تكمل كتب الأنبياء " (مت ٢٦ : ٥٥ و ٥٦) والمسيح صلب ليس لأنه ارتكب خطيئة ، لأن اليهود لم يجدوا فيه علة واحدة من جهة آدابه وأعماله ، بل صلب ليقدم نفسه عنا ضحية ، وناب عنا فى القصاص وأقام ذاته مقامنا "(١).

بهذا نكون قد انتهينا من عرضنا لتاريخ الديانة المسيحية كما وردت لدى كتابها والمؤمنين بعقائدها . وعلى الرغم من أننا ننكر كل ما سطرته أيديهم خصوصًا فى مجال العقيدة إلا أننا لم نعلق ولم نعقب على شىء مما نقلناه عنهم توخيًا لموضوعية العرض .

بل الأكثر من ذلك كنا نستطيع أن نقدم ردود علماء المسلمين على ماكتبه رجال الدين المسيحى وهى ردود كثيرة مثل كتابات ابن حزم وابن تيمية والإمام القرافى وابن قيم الجوزية وعبد الرحمن زاده ... وغيرهم كثير ، إلا أننا فضلنا عدم الخوض فى ذلك .. كما أن هناك من علماء المسيحيين أنفسهم شككوا فى كثير من عقائدهم بل رفضوا بعضها ومع ذلك فالمنهج الموضوعى كان سبيلنا فى عرض الآراء .

---

١ - نقولا يعقوب : مرجع سابق ، ص ٥٥ - ٦٠ .

أهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

- الكتاب المقدس .

أولاً : مراجع عربية :

ابن عـــربى : - الفتوحات المكية . تحقيق وتقديم . د. عثمان يحيى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . سنوات متفرقة .

- فصوص الحكم ، دار الفكر العربى ، د.ت .

ابـن مـنـظـور : - لسان العرب . الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، سلسلة تراثنا ، القاهرة . د.ت .

ابن النديم : - الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت . د.ت .

أبو البقاء : - الكليات . تحقيق د. عنان درويش ود. محمد المصرى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، دمشق سنة ١٩٨١ .

د. أحمد بدوى : - مواكب الشمس ، القاهرة . د.ت .

د. أحمد شلبى : - أديان الهند الكبرى ، مكتبة النهضة سنة ١٩٩٣ .

- اليهودية ، مكتبة النهضة سنة ١٩٩٢ .

- المسيحية ، مكتبة النهضة سنة ١٩٩٣ .

أحمد الشنتناوى : - الحكماء الثلاثة . سلسلة اقرأ ١٢٣ ، دار المعارف .

أحمد فخرى : - مصر الفرعونية ، الأنجلو المصرية سنة ١٩٩١ .

أحمد محمد الشنواتى : - كتب غيرت الفكر الإنسانى ، سلسلة الألف كتاب الثانى رقم ٨٨. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٠ .

إمام عبد الفتاح إمام : - توماس هربز ، دار الثقافة سنة ١٩٨٥ .

البيرونى : - تحقيق ما للهند من مقولة ، عالم الكتب . بيروت سنة ١٩٨٣ .

التهانوى : - كشاف إصطلاحات الفنون ، القاهرة ، د.ت .

جابر بن حيان : - كتاب الحدود . تحقيق د. عبد الأمير الأعسم . ضمن كتاب المصطلح الفلسفى عند العرب ، هيئة الكتاب . القاهرة سنة ١٩٨٩ .

الجرجانى : - التعريفات ، دار الكتب العلمية . بيروت . سنة ١٩٨٣ .

جرجى زيدان : الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية . مراجعة وتعليق مراد كامل . دار الهلال ، سنة ١٩٦٩ .

د. جمال حمدان : - شخصية مصر ، عالم الكتب سنة ١٩٨١ .

د. جميل صليبا : - المعجم الفلسفى . دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٧١ .

د. جواد على : - تاريخ العرب قبل الإسلام . المجمع العلمى العراقى د.ت .

حبيب سعيد : - أديان العالم . الكنيسة الأسقفية . القاهرة د.ت .

الراغب الأصفهانى : - المفردات فى غريب القرآن . إعداد .د. محمد خلف الله الأنجلو المصرية ، سنة ١٩٧٠ .

د. رؤوف شلبى : - آلهة فى الأسواق . القاهرة ، سنة ١٩٨٤ .

د. زكريا إبراهيم : - هيجل أو المثالية المطلقة ، مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٧٩ .

سليمان مظهر : - قصة الديانات ، دار الوطن العربى . د.ت .

د. سليم حسن : - مصر القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . د.ت .

سيكل سيل : - المرشد إلى الكتاب المقدس. مكتبة المشعل الإنجيلية ، بيروت ، سنة ١٩٥٨.

د. عبد الصبور شاهين : - المعجم الفلسفى ، الدار الشرقية سنة ١٩٩٠ .

د. عبد المنعم النمر : - تاريخ الإسلام فى الهند. القاهرة سنة ١٩٥٩ .

د. على زيعور : - الفسلفات الهندية . دار الأندلس . بيروت سنة ١٩٨٣ .

د. على سامى النشار : - نشأة الدين . مكتبة الخانجى بمصر . د.ت .

د. على عبد الواحد وافى : الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ، دار نهضة مصر د.ت .

د. على فهمى خشيم : - أديان مصر العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٨.

غطاس عبد الملك : رحلة بنى إسرائيل إلى مصر والخروج . دار الهلال د.ت .

فخر الدين الرازى : - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين . مكتبة الكليات الأزهرية . د.ت.

فؤاد محمد شبل : حكمة الصين . دار المعارف بمصر ، د.ت .

الفيروزابادى : القاموس المحيط ، مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر ، القاهرة . د.ت .

فيليب حتى : - خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت سنة ١٩٨٢ .

د. محمد إسماعيل الندوى : - الهند القديمة حضارتها ودياناتها ، دار العشب ، سنة ١٩٧٠.

د. محمد الحينى : فى العقائد والأديان . الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧١ .

د. محمد خليفة حسن : - تاريخ الأديان . دراسة وصفية مقارنة ، القاهرة سنة ١٩٩٦ .

- مدخل نقدى إلى أسفار العهد القديم ، القاهرة سنة ١٩٩٦ .

د. محمد عبد الله دراز : - الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان . مطبعة السعادة ، القاهرة . سنة ١٩٦٩ .

د. محمد السيد طنطاوى : بنو إسرائيل فى القرآن والسنة ، دار الشروق سنة ١٩٩٧ .

محمد عزة دروزة : تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم . المكتبة العصرية ، بيروت ، سنة ١٩٦٩.

د. محمد غلاب : - الفلسفة الشرقية ، الأنجلو المصرية د.ت .

محمد فريد وجدى : - الإسلام دين الهداية والإصلاح . مكتبة الكليات الأزهرية د.ت .

د. محمود سيد أحمد : - مفهوم الغائية عند كانط . دار الثقافة . القاهرة سنة ١٩٩٠.

د. مصطفى الخشاب : - أوجست كونت . مطبعة لجنة البيان العربى طبعة أولى .

ندرة اليازجى : - رد على اليهودية . دمشق سنة ١٩٨٤ .

جب : - بنية الفكر الدينى . ترجمة عادل العوا ، مطبعة جامعة دمشق . د.ت .

جفرى بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب . ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام . عالم المعرفة عدد ١٧٣ . الكويت .

جون كولر : - الفكر الشرقى القديم . ترجمة د. كامل يوسف . عالم المعرفة . الكويت سنة ١٩٩٥ .

جوزيف كاير : - حكمة الأديان الحية . ترجمة حسين الكيلانى . مكتبة الحياة . بيروت ، سنة ١٩٦٤ .

ج . هـ . إيليف : - فارس والعالم القديم . ترجمة محمد صقر خفاجة . منشور ضمن كتاب تراث فارس . عيسى البابى الحلبى . سنة ١٩٥٩ .

حسن بيرنيا : - تاريخ إيران القديم . ترجمة . محمد نور الدين عبد المنعم ود. السباعى محمد السباعى . القاهرة سنة ١٩٩٥ .

دى بوارا اميه : - وصف مصر . ترجمة . زهير الشايب . مكتبة مدبولى .د.ت .

ديورانت : - قصة الحضارة ٤٨ جزء عدد من المترجمين . لجنة التأليف والترجمة والنشر . سنوات متفرقة .

ستينو موسكاتى : - الحضارات السامية القديمة . ترجمة د. السيد يعقوب بكر . دار الرقى . بيروت . سنة ١٩٨٦ .

يوسف كرم ، د. مراد وهبة : - المعجم الفلسفى . دار الثقافة الجديدة سنة ١٩٧٩ .

ثانيًا : مراجع معربة :

أريك فروم : - الدين والتحليل النفسى . ترجمة فؤاد كامل . مكتبة غريب سنة ١٩٧٧ .

أدولف أرمان : - ديانة مصر القديمة . ترجمة د. عبد المنعم أبو بكر ، د. محمد أنور شكرى . الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٧ .

أوفرستريت : - العقل الناضج ، ترجمة د. عبد العزيز القوصى . السيد محمد عثمان ، القاهرة سنة ١٩٥٧ .

أ. كاردينر . أبريب : - هؤلاء درسوا الإنسان ترجمة د. أمين الشريف . دار اليقظة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٦٤ .

أ.و.ف.توملين : - فلاسفة الشرق . ترجمة عبد الحميد سليم ، دار المعارف .

بيـار غـريمال : - الميتولوجيا اليونانية . ترجمة هنرى رغيب منشورات عويدات ، بيروت ، باريس سنة ١٩٨٢ .

بيرستيد : - فجر الضمير . ترجمة د. سليم حسن . مكتبة مصر . الألف كتاب الأولى ١٠٨.

- تاريخ مصر . ترجمة د. حسن كمال ، مكتبة مدبولى . سنة ١٩٩٠ .

بيير مونتيـيه : - الحياة اليومية فى مصر . ترجمة عزيز مرقص . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٧ .

نورمـــان براون : - أساطير الهند . منشور ضمن أساطير العالم القديم . نشر وتقديم د. صموئيل كريمر . ترجمة د. أحمد عبد الحميد يوسف . الهيئة المصرة العامة للكتاب سنة ١٩٧٤ .

نقولا جريمال : - تاريخ مصر القديمة . ترجمة . ماهر جويجانى . دار الفكر . القاهرة . سنة ١٩٩١ .

هيجل : - موسوعة العلوم الفسلفية . ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام . دار التنوير ، بيروت . سنة ١٩٨٣ .

- هيجل محاضرات فى فلسفة التاريخ جـ ٢ ، العالم الشرقى . ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ، دار الثقافة سنة ١٩٨٦ .

ولتر ستيس : ٧٥ - فسلفة هيجل . ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ، دار الثقافة سنة ١٩٨٠.

ويلز : - معالم تاريخ الإنسانية . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد . لجنة التأليف والترجمة والنشر . الطبعة الثالثة .

ثالثًا : المراجع الأجنبية :

- Aijan, L: Notes Ugaritques, Orient Publishing and Translation, Doha, Qatar, 1983 .

- ANET, Ancient Near Eastern Texta, Edited by James B. Pritchard, 2nd Edition, Princeeton, 1955 .

- A.A.Macdonell, Vedi Mythology, in Gundriss der Indo-Arischen philologic und Altertumakunde, III BansI Heft B, Strassburg 1897 .

- Christensen, les types du premier homme et du premier roi dans l'historie légondaire des Iraniens 1919 .

- Confucius: The Analacts. Tanslated by Artherwaley .

- G.W. Anderon, A Critical introduction to the old Testament, London 1959 .

N. Cantor , Medieval History, The Life and Death of Civilization, N.Y. 1968 .

هذا بالإضافة إلى العديد من المراجع التى اكتفينا بذكرها فى هوامش الكتاب .

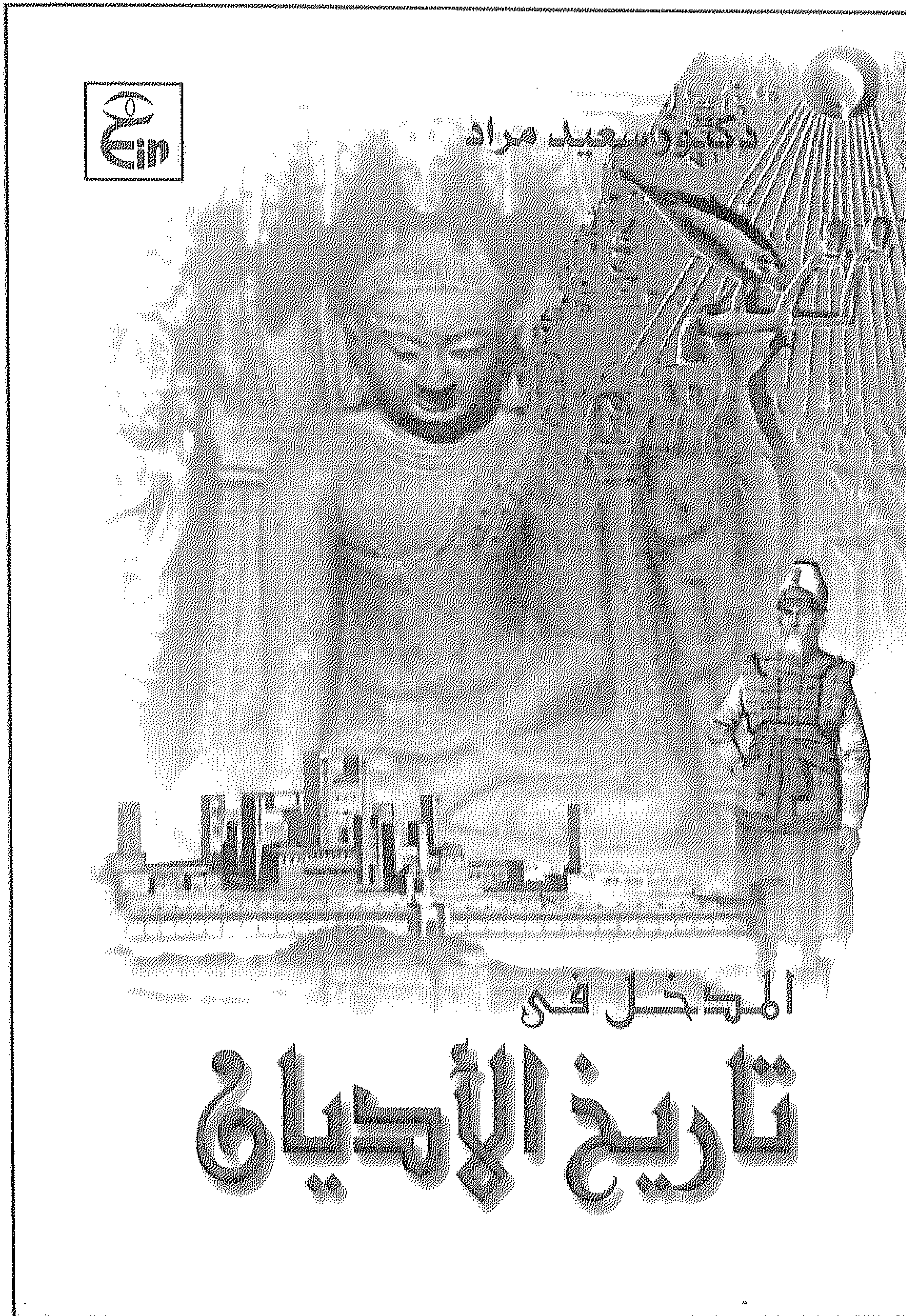
المحتويات

رقم الإيداع ١٨٢١٦ / ٩٩

الترقيم الدولى 977 - 322 - 026 - 5

دار روتابرينت للطباعة ت: ٧٩٥٢٣٦٢ – ٧٩٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار – باب اللوق





للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES